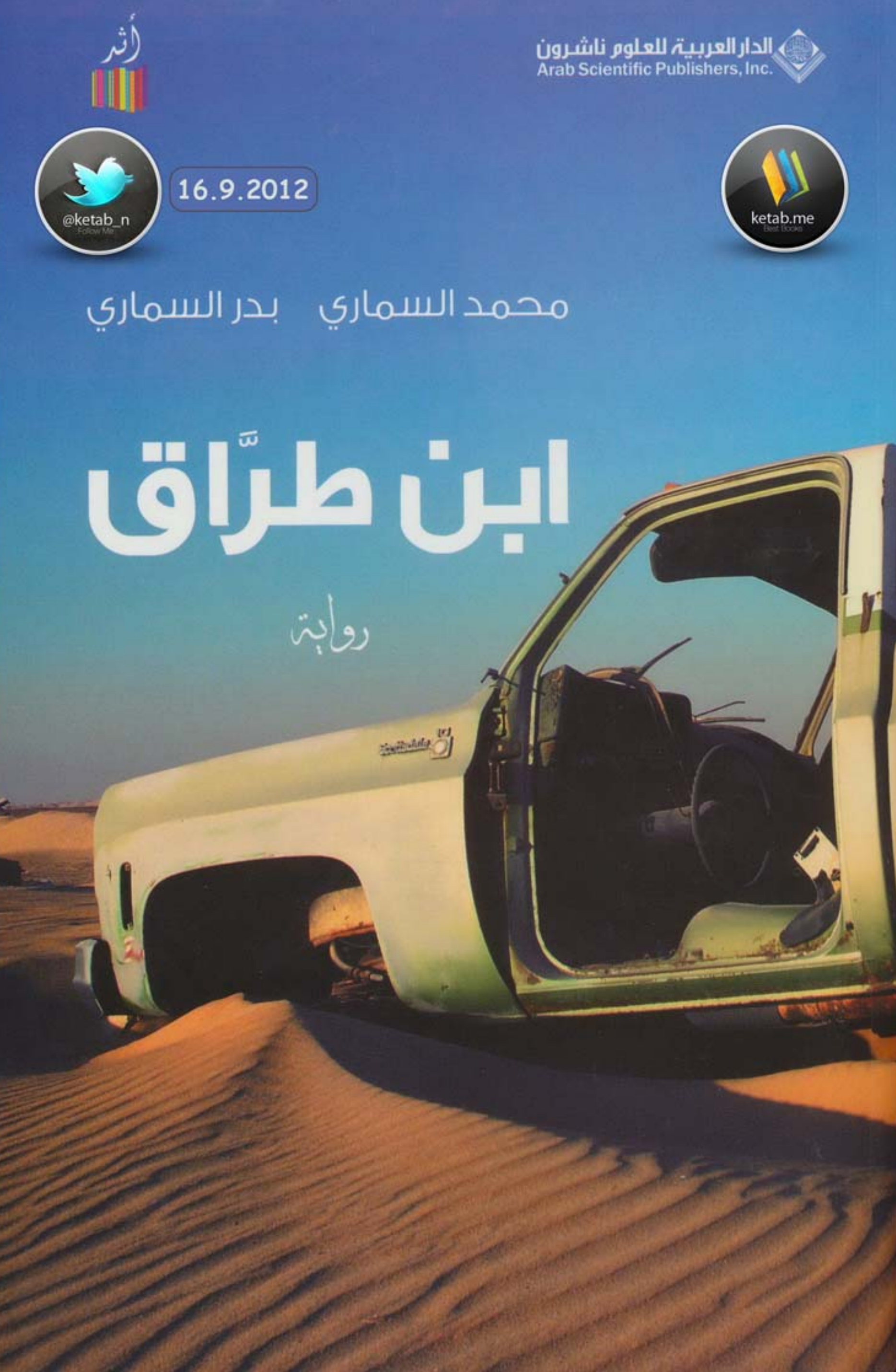
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أثر

محمد السماري   بدر السماري

ابن طرّاق

رواية



ابن طرَّاق

روايـة

محمد السماري بدر السماري

ketab.me
Best Books

أثر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0297-2

أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الدمام
تلفون: 00966505774560
Email: info@darathar.net
Website: www.darathar.net

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإِهْـدَاء

إلى الذين ما انفكّوا ينصبون الحواجز،

نشكركم كثيراً، إذ منحتمونا عزم عداء أولمبي...

الفَصْلُ الأول

(1)

كمثل كلب

- أسرع يا قوَّاد.
- حاضر يا عم.

كان جسد ابن طرَّاق الضخم ممددًا فوق المرتبة الخلفية للسيارة (الجيب) كحصان كُسِرَت ساقُه، شدَّ بيده اليسرى على جيب ثوبه الأيسر، حاول أن يرفع قدمه اليسرى فوق النافذة فسقطت؛ إذ إن سرعة السيارة العالية على الخط غير المُعبَّد لم تترك شيئًا داخل الجيب في مكانه إلا بجهد مبذول، كان الاهتزاز القوي للسيارة مُحبِطًا لكل محاولات الثبات. حاول ابن طرَّاق من جديد، رفع رجله اليمنى فوق كرسي السائق، صبحي بدوره أحنى رأسه للأمام، اصطدمت رجله اليمنى بكتف صبحي وسقطت مجددًا. صاح ابن طراق:

- انتبه.

حاول ابن طرَّاق القيام من وضع الاستلقاء على الظهر ولم يستطع، كان يبدو مبعثرًا مثل جندي جريح أنهى معركته الأخيرة ولم يقوَ على العودة. سال العرق من أعلى رأسه مشكِّلًا خيوطًا دقيقة فوق وجهه العريض، رفع طرف الشماغ بيده اليمنى ومسح وجهه من أعلاه فوق الحاجبين حتى الذقن، بيد أن يده اليسرى ظلَّت قابضة على الجيب الأيسر لثوبه. أعاد ابن طرَّاق يده اليمنى لجيب ثوبه الأيمن، تحسَّسها وأرخى رأسه.

وصلت السيارة للطريق المُعبَّد مُخَلِّفةً وراءها زوبعة ترابية تتلوى في الهواء. خف الاهتزاز كثيرًا، وصاح ابن طرَّاق مجددًا:

- أسرع يا قوَّاد.

سكت صبحي هذه المرة وزاد من سرعة السيارة، بيد أن السيارات التي يتميز نوع وقودها بالديزل لا تستجيب بالتسارع المطلوب. كرر ابن طرَّاق مرة أخرى:

- أسرع وجع.
- حاضر يا عم.

لم تكن الطريق طويلة للوصول إلى المستوصف الحكومي القريب من المزرعة، بضع دقائق مرت على ابن طرَّاق كدهر وهو ينازع الروح، أحس برأسه خفيفًا وصدره ثقيلًا كأن صخرة حطَّت فوق صدره. كان يكرر صراخه على صبحي كلما أحسَّ بقوة، يصرخ ليتأكد أنه لم يغب عن الوعي. إن لم يرد صبحي، يصرخ مجددًا حتى ينطق. كان يطمئن بعد أن يرد صبحي على صراخه، يتأكد حينئذ أن أنفاسه لا تخرج سُدًى.

وصلت الجيب إلى المستوصف القريب، الساعة لم تُجاوِز السادسة بعدُ، وبوابة سور المستوصف ما زالت مغلقة. نزل صبحي من السيارة، هرول إلى البوابة وبدأ يطرق الباب الحديدي الصدئ. كوَّر قبضته وطرق طرقات متتابعة على الصفيحة الحديدية من منتصف الباب الأسفل، أمسك بعد ذلك بيديه أسياخ الحديد، وشرع يهز الباب هزًّا عنيفًا. صرخ صبحي:

- يا هوووه، يا هوووه. أي حد؟

لم يجبه أحد في البدء، كرر صبحي الطرق والهز والصراخ. في السيارة، استجمع ابن طرَّاق قواه ونجحت محاولته، واستوى قاعدًا. أحس بأنفاسه تتسارع وصدره يزداد انقباضًا، والألم يشتد في صدره إلى كتفه الأيسر وذراعه. بيد أن صبحي لم ينتبه، واستمر في طرق الباب الحديدي الصدئ، حتى جاءه صوت رجل من داخل السور قائلًا:

- وجع !! وش ذا يالمصري؟
- افتح، العم تعبان أوي.

- مـا فيـه أحـد الحيـن، انقلع لأقرب مستشـفى أحسـن لك. (كان يتحدث وهو يمشي مقتربًا من الباب)

- الراجل حالته صعبة.

- انقلع بس، أزعجتنا عالصبح.

في السيارة، استعاد ابن طرَّاق جزءًا يسيرًا من قوته، نزل حافيًا من السيارة بصعوبة، انزلقت رجله اليسرى بسرعة بعد أن هوت اليمنى فكاد كاحله أن يلتوي، وهبط نصفه الأعلى على الأرض. تمسك بيديه، وساعده الرصيف الأسـمنتي المائل بحدة في مواقف المسـتوصف. تماسـك ابن طرَّاق وبدأ يرفع نصفه الأعلى، التقط بيده اليمنى حجرًا بحجم قبضة يد معتدلة، تمكَّن من الوقوف مجددًا، اختبر توازنه لبرهة، وتأكد من قدرته على المشي، بدأ يصعد الرصيف الأسمنتي المائل بصعوبة وصدره يعلو ويهبط. مشى بضع خطوات وصاح:

- ناد دختورك يا كلب. تبي تذبحني؟

- يا عم.

لم يترك ابن طرَّاق حارس المستوصف يكمل جملته، رمى بالحجر بكل ما استطاع من قوة، أصاب الصفيحة الحديدية في الجزء الأسفل من بوابة سور المستوصف، بيد أن توازن ابن طرَّاق اختل في هذه اللحظة، ارتفعت رجله اليمنى فجأة، مال إلى جهة اليسار، حاول استعادة توازنه، ترنَّح قليلًا، وسقط إلى الخلف بفعل الميل الحاد في الرصيف الأسمنتي فـي مـكان وقوفـه. سـقط علـى ظهـره، هبط على الرصيـف المائل متقلبًا باتجاه السيارة حتى ارتدَّ من إطار الجيب الأمامي.

انطلـق صبحـي كعـدَّاء، ومـن خلفه حارس المسـتوصف الذي فتح الباب. حملا ابن طرَّاق بصعوبة إلى داخل المستوصف. أفاق ابن طرَّاق في الطريق بالقرب من غرفة الطبيب وهو يردد:

- ناد الدختور.

وضعاه على السرير، تفقد ابن طرَّاق جيبه الأيمن والأيسر بيديه. ما زال يردد:

- وين الدختور؟ نايم؟؟ صحوه.
- أبشر يا عم الحين أروح أطق عليه.

رددها حارس المستوصف ومضى، وابن طرَّاق يصيح:

- بسرعة.

حضر الطبيب خلال دقائق قليلة، وضع كمامة الأكسجين مباشرةً على فم ابن طرَّاق الذي كان يتنفس بصعوبة. الطبيب كان يدرك أن ابن طرَّاق يعاني في الفترة الأخيرة من أزمات ربو حادة، وخفقان مفاجئ يأتيه بلا مناسبة أو حتى تغير عابر في الطقس.

- ماتخفش يا عم، بسيطة إن شاء الله.

حاول الطبيب أن يطمئن ابن طرَّاق، لكن ابن طرَّاق كان ينظر إلى صبحي نظرات لا يفهمها سوى صبحي. مضت دقائق قليلة، أخذ ابن طرَّاق يحدِّق بعينيه في الطبيب وفي صبحي وجبينه لا يتوقف عن التعرُّق. كانت يداه ترتجفان وهو يتحسس جيوبه، أصبحت يده اليسرى ثقيلة ولم تقوَ على القبض على جيبه الأيسر، وتركها مفرودة بجانبه كحبل. رفع ابن طرَّاق يده اليمنى، نزع كمامة الأكسجين من على فمه، منعه الطبيب قائلًا:

- ماينفعش كده يا عم، والنبي ماينفعش كده.

لم يكن ابن طرَّاق يتخيل أن يخذله جسده الذي يعوِّل عليه كثيرًا، "هذي آخرتها". رددها كثيرًا في نفسه، كأنه كان يعاتب جسده ويديه اللتين كلما حاول أن يرفع إحداهما هبطت كأنها خرقة قماش بالية. يداه التي لطالما فجرت كنوز الأرض له، يداه التي بنت مَجدَه. أخذ ابن طرَّاق ينظر إلى صبحي بعمق وكأنما يعد خطوط التجاعيد في وجهه، بينما كان صبحي يبكي ويردد:

- ماتخفش يا عم، بسيطة إن شاء الله.

أخـذت الغرفـة تضيـق فـي عينـي ابن طرَّاق. الطبيب ما زال يحاول جاهدًا التواصل مع أقرب مستشـفى حكومي دون جدوى، لا أحد يرد على الهاتف. بدا لابن طرَّاق شريط حياته يمر أمام عينيه بسرعة، توقف كثيـرًا عنـد كلام الفاجـر الـذي قيـل له ذات يوم: "سـتموت كمثل كلب أضاعه أهله في الصحراء". تلك الجملة التي تطرق أذنيه كجرسٍ صباحًا ومساءً.

استجمع ابن طرَّاق ما تبقى من قوته، نزع كمامة الأكسجين، وبدأ يتشهَّد، بيد أن صبحي شرع في أنين خافت يثقب القلب.

عبيد ابن طرَّاق:

لسـت متشـائمًا بطبعي، ولكن لا يجوز لرجل جاوز السـتين أن يكون متفائلًا في أمر عارض صحي، يجب أن يكون مستعدًا لـكل طـارئ. أنـا مؤمـن كثيـرًا أن الرجـل كلمـا كبـر كلمـا قلَّت حاجته للمراوغة، ولهذا لا أخفيكم أني كنت مشـغولًا كثيرًا بأن لا أموت "كـمثل كلب"، إذ لم تكن المزرعة ولا السيارة أماكن مناسبة. لو قبضت روحي في السيارة مثلًا لن ترتطم بأي سقف، ستتسـرب بخفَّـةِ جنِّـيٍّ مـن النافـذة. كنت أدرك منذ الفجر أن هذا هـو يومـي الأخيـر، بـدأت أحس بوخز خفيف في صدري، وازداد الألم من بعد صلاة الفجر. بعد أن ارتفعت الشمس، سرى خدر بسيط في ذراعي اليسرى. أنتم تعلمون ربما أن الألم حين يسري بالجسـد، ليس ثمة ضرورة لوصفه، إذ إن الألم هو الألم زاد أو نقص. كان لدي إحسـاس بشـيء لا أدرك كنهه يقودني للموت، وأنـا لـم أكـن أرغـب فـي المـوت وحيدًا. ناديـت صبحي وبذلت قصارى جهدي لركوب السـيارة. أمرته مباشـرة أن يمضي حيث المستوصف القريب. لم يكن هناك وقت كاف للعودة إلى المدينة، لذا لم أعوِّل عليهم كثيرًا، لكنِّي أدركت أنه ليس ثمة وقت كاف

للوصول أبعد من ذلك. في أضعف الأحوال لن أكون وحيدًا في المستوصف "كمثل كلب أضاعه أهله في الصحراء". سأكون مُحاطًا بالبعض: صبحي والدكتور، وربما شخص ثالث. حين تغادر روحي في المستوصف سوف ترتطم بالسقف، لن تتسرب إلى الفضاء بخفةٍ، سوف تسافر في ممرات المستوصف حتى تصل إلى الباب الخارجي. سوف يصلّون عليَّ حالًا، ويدفنونني، وسيبكيني البعض يومين أو ربما ثلاثة، هذا إذا كنت متفائلًا. بعد ذلك سيشمِّر الملاعين أكمامهم استعدادًا لمعركة الإرث، وربما تحصل مذبحة. لن يهمني كل ذلك، غالبًا سوف تكون روحي تطير فوق رؤوسهم، وربما أحاول أن أبصق عليهم من علٍ.

ما يهمني هو أن لا أموت كمثل كلب. هذا ما كان يشغل بالي كثيرًا.

(2)

متراجحة جبل الرياضية

كان جبل قد همَّ بالمسير، عدل عن رأيه عند باب السيارة. فكَّر قليلًا ثم صرخ في السائق:

- تجهز وجهّز السيارة. بنروح للمزرعة بعد شوي.

لم ينتظر الرد، وعاد مهرولًا إلى داخل البيت. كان الألم الذي داهمه بعد مكالمة صبحي قد خفَّ قليلًا. دخل المنزل وقرَّر أن يبدأ بأمه. كانت أم جبل قد سألته منذ لحظات والرعب ينهب قلبها عن سر يقظته المبكرة ولون وجهه الممتقع، وأجابها جبل إجابة مُمَوَّهة وخرج لا يلوي على شيء حتى همَّ بركوب السيارة. حينئذ، فكَّر أنه ليس بمقدرته قيادة السيارة مع هذا الألم الذي يشد على فخذيه كسكين مغروسة وينزل إلى الركبتين. تذكَّر جبل أيضا أن الأمر لا يحتمل التمويه أو المراوغة، خصوصًا مع زوجاته اللائي سيتوجَّب عليهن الدخول في الحداد، كان صبحي دقيقًا: "العم أبو جبل اداك عمره، عاوزينك يا جبل، مش عارفين نعمل ايه!".

لا بُدَّ إذًا من إخبار الجميع، وأولهم أمه. وقف جبل أمامها مباشرةً، حوقلت أم جبل، فيما جبل جلس مقرفصًا أمامها، وضع يديه على كتفيها وهو ينتفض، وردَّدَ بصوت متهدِّج:

- يمه ترى الوالد يطلبك الحل !

صمتا لبرهة، وأجهشت أم جبل بالبكاء مرددةً:

- الله يرحمكِ يا عبيد. الله يرحمك ويبيحك ويحللك. لا إله إلا الله. ما كان يشكي من شي، وش جاه؟ كان أقوي مني ومنك، حسبي الله على اللي كان السبب !!

قاطعها جبل:

- تعوذي من إبليس، هذا الكلام ما يجوز، هذا يومه، الموت ما يعرف قوي وضعيف، اللي عليك أن تدعين له بالثبات، هو محتاج للدعاء.

- .....

- بلغي الجميع يا يمه، بلغي أم طرقي، وأنا أبلغ أم طارق في طريقي. لازم أروح ما أبغى أتأخر.

خرج جبل من الصالة متجهًا إلى جناح أم طارق في الجهة الأخرى من البيت. وقف أمام الجناح، وحدَّق في الباب، رفع جبل قبضته اليمنى وطرق الباب ثلاث طرقات متتاليات، انتظر قليلًا، فتح الباب، ظهرت له فردوس من خلف الباب قائلة:

- هلا جبل.

- أنا ما ادري وش أقول لك، بس لازم تعرفين!

- وش فيه وش...

- الوالد.

- ايش...

قاطعها:

- الوالد يطلبك الحل.

صمتا وعيناهما شاخصتان من الذهول، سالت الدموع من عيني أم طارق وهي تردد: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، ذرفت حينئذ أول دمعة من عيني جبل مذ جاء خبر وفاة والده ذلك الصباح. هوت أم طارق على الأرض، أمسك بها جبل، قال: (تماسكي، أجل وش بتسوين قدام العيال والمعزين). تماسكت قليلًا، استعانت به للوقوف، رمت برأسها فوق صدره ودخلت في نوبة بكاء. ظل جبل يواسيها ويردد: (ادعي له بالرحمة والمغفرة هو محتاج للدعاء الآن).

أغلق جبل باب السيارة وأمر السائق:

- اطلع للمزرعة.

غالـب جبـل دموعـه طـول الطريق، حتى وإن بكا فهو بكاء صامت يهز جسـده. بدأ يحس فجأة بثقل المسـئولية، فكَّر وحدَّث نفسـه: ماذا سـيفعل؟ كانت المسـئولية الملقاة على عاتقه جسـيمة، والتركة العائلية متشـعِّبة. حدَّث نفسَـه: (لا بد من السـيطرة على الوضع من البداية). لم يكن يتخيل أن يموت أبوه فجأة ودون مقدمات، تذكَّر أباه قبل أقل من عام، الشيخ عبيد بن طرَّاق حين استوى في صدر مجلسه الخاص قبالة التلفزيون ذات يوم يتابع الأخبار. كان الخبر الأخير عن وفاة معمر ياباني عن عمر يناهز المائة وأربعة وعشرين سنة، علَّق ابن طرَّاق:

- أنا أبي ستين سنة (كان دائم التعليق على الأخبار بصوت مسموع من دون أن ينتظر ردًّا أو تعليقًا من أحد آخر).

سمعه جبل وبادر بالرد على تعليق أبيه بتلقائية:

- الستين راحت يا أبو جبل !

دهـش ابـن طـرَّاق مـن رد جبل الجـريء، جلس من متكئه والتفت إلى جبل وقال:

- ستين سنة ثانية يا جحش.

في ذلك اليوم احتدم النقاش كثيرًا.

للمـوت سـطوة تبـث رهبـة عجيبـة، وجبل في الطريـق إلى جثمان والده، بكى حلم أبيه بالستين الأخرى التي لن تتم، بكى ذلك اليوم الذي ظنه بعيدًا بصمت مهيب لا يخالطه سوى صوت القارئ علي الحذيفي الآتي من إذاعة القرآن الكريم في السيارة. في منتصف الطريق بدأ يفكِّر بـالأرث: (الـورث مـا هـو بسـيط، وأنـا الوحيد اللـي تعب معاه في جمع الثـروة. الحيـن نصيبي ونصيـب طويـرق (البزر) واحد ! أنا الوحيد اللي أعـرف كـم عنـده، وكـم يملـك، وماذا يملك)، هكذا حدَّث جبل نفسـه. قـرَّر أن ذلـك ليـس بمعضلـة، هـم فقط مجموعة نسـاء وأطفال. سـيعلم

كيف يروِّضهم جميعًا. خمَّن أن طرقي فقط هو المعضلة، ولا بُد من التعامل معه بحزم.

عاد لحساب ثروة والده، بدأ عقله بإجراء جميع المعادلات الرياضية، نفذها بصورة سريعة على طريقة المشاركين في مسابقات الرياضيات. بدأ بالجمع ثم التقييم، بعد ذلك الجمع ثم القسمة على ثمانية، ثم قسمة الناتج (الثمن) على ثلاثة. وصل إلى نتيجة حدد أنها هي نصيب والدته الشرعي. أمَّا ما تبقَّى، فقسَّمه على ثمانية عشر ثم ضربه في اثنين، تعرَّف بعد ذلك على نصيبه الشرعي. تمت كل تلك العمليات الحسابية من دون ورقة أو قلم، جرت في شاشة عقل جبل، وكوَّن متراجحةً رياضيةً دقيقةً جدًّا، جبل الذي رسب في مادة الرياضيات في الثانوية العامة مرتين.

وصلت السيارة إلى المستوصف، لاحظ جبل وجود سيارة إسعاف قرب الباب الرئيسي وسيارة شرطة وبضع سيارات خاصة أخرى. كان يقرأ المعوذات حين همَّ بالنزول، نزل ببطء غير معهود عن السيارة ومضى يجر قدميه رغم زوال ألم الفخذين. قابل صبحي جبل عند باب المستوصف، رآه وقبَّل رأسه وهو يبكي، مضوا بعد ذلك إلى داخل المستوصف، أشار صبحي إلى نهاية الممر وأكملا المضيَّ. كان هناك رجل عسكري يقف بصحبة رجل آخر خارج الغرفة، دخل جبل إلى داخل الغرفة، وقابل الدكتور وشخصًا آخر عرف فيما بعد أنه الطبيب الشرعي المنتدب من المديرية الصحية للبدء في الإجراءات اللازمة. ظهر جثمان ابن طرَّاق مسجًّى على السرير. ألقى جبل على وجه أبيه نظرات أخيرة، لم يشأ إطالة النظر، كان يعلم أن الوقت سيكون كافيًا لتأمل جسد أبيه كاملًا بصحبة المغسِّل في مغسلة الموتى، حبس عبراته خلف النظارة الشمسية، وناقش الطبيبين قليلًا قبل أن يشرع مع صبحي بخلع ثوب أبيه استعدادًا لنقل الجثمان للمغسلة.

كان جبل يعلم أن الإجراءات اللازمة ستمر بيسر وسهولة؛ إذ سوف يستخرج مدير الإدارة الصحية بنفسه ورقة إذن الدفن، وسيشرف مدير إدارة المرور على سيارة الإسعاف التي ستنقل الجثمان من المستوصف إلى الجامع الكبير مرورًا بالمغسلة مختتمًا رحلة الجثمان إلى المقبرة مثوى الشيخ عبيد، كما أن مدير مديرية الشرطة سيتكفل بتنظيم الزحام وتسهيل الحركة. فكَّر جبل أن الشيخ ابن مسمار هو من سيؤم المصلين، وسيتكفَّل بإبلاغ أعيان البلد، تأكد أن بضع مكالمات هاتفية سوف تُنهي الموضوع.

لف جبل ثوب أبيه لفَّات عدة كما يطوي سجادة جاعلًا الجيوب في وسط الثوب مطويةً إلى الداخل قبل أن يطوي الثوب من الأعلى إلى الأسفل، قبض على ثوب أبيه المطوي تحت إبطه الأيمن، ومضى.

دلف المصلون إلى الجامع الكبير قبل صلاة العصر. كان الجثمان جاهزًا لرحلته، وُضِعَ قرب الركن الأيمن في الصف الأول، وجلس بقربه جبل وعن يمينه وشماله بقية إخوته.

بعد صلاة العصر قام جبل باتجاه الجثمان، تبعه إخوته وبعض (الشقرديَّة). الشقرديَّة الذين يحفظون أسماء أعيان ومسئولي البلد وكبار التجار، يتتبعون أخبارهم، ويتطوعون بسخاء لتقديم الأعمال التطوعية لهم، ويجندون أوقات فراغهم لهم. بعد الصلاة وفي المقبرة، من المؤكد أن بقية الشقرديَّة الموجودين في البلد سينضمون لهذا الحفل، سينقل الجثمان الضخم للشيخ المرحوم عبيد ابن طرَّاق كما ريشة، سوف ينقل بخفَّة من يد لأخرى، سيفلت الجثمان من أيادي أبنائه. لا شك أن رحلة الشيخ عبيد ابن طرَّاق الأخيرة لا يمكن تفويتها.

نقلوا الجثمان أمام الإمام، اصطفَّ جبل وبقية إخوته على يمين الشيخ ابن مسمار مشكِّلين الصفَّ الأول. في الصف الثاني، وقف جمع من أعيان البلد. كان من السهل تمييز ذلك إذ إن جلَّهم كانوا يلبسون

المشالح، مشالح طويلة وقصيرة. في الصف الثالث كان منظر أصحاب الرتب العسكرية جليًّا ومميزًا؛ برقت النجوم والسيوف والتيجان في أكتافهم، تعددت الرتب واختلفت ألوان البدل العسكرية. في الصف الرابع وحتى الثاني عشر وقف بقية المصلين مشكِّلين خليطًا مميزًا من كبار السن والشباب والموظفين المقيمين الذين حضروا بزي إفرنجي، أما في الصفوف الأخيرة فقد ظهر منظر العمَّال والمقيمين من الجنسيات الآسيوية واليمنية والمصرية ظاهرًا للعيان.

رفع الشيخ ابن مسمار تكبيرة صلاة الميت الأولى بصوت جهوري أجش، ردد المصلون وراءه التكبير. دخل الجميع في همهمة خفيفة مهيبة بعد التكبيرة الثالثة.

جبل:

أنا بحاجة الآن أن أحكي لغريب، والحديث للغرباء يداوي النفوس كثيرًا شريطة أن لا نراهم أو يدخلوا حياتنا بعد حديثنا لهم، نرمي أسرارنا معهم ويرمون بأسرارهم معنا ونمضي ويمضون.

لا أخفيكم حاولت أن أتماسك، ولم تكن مهمة صعبة في البدء، فقد حزنت قليلًا وازداد حزني في مغسلة الموتى؛ إذ إن أبي لم يمت سوى مرة واحدة، لم أشهد مماته أكثر من مرة ولن أغسِّله مرة أخرى. في واقع الأمر كنت أمنِّي النفس بأنِّي سأحزن، وكنت سأغضب إن لم أبدُ حزينًا أمام الناس، وكنت راغبًا في أن يظهر حزني وتأثري على فقد والدي للجميع، إذ لا أريد أن أبدو كمن كان ينتظر ذلك منذ زمن، هكذا رسمت صورة وفاته في ذاكرتي أكثر من مرة.

كما لا أخفي عليكم، لقد أرعبني انتظاري لهذا اليوم الذي سكن عقلي مرات كثيرة، أرعبني أيضًا أنني لم أعدّ العدَّة جيدًا

لاستقبال يوم كهذا، على الرغم من رعب انتظاري لهذا اليوم مرات كثيرة. فوق هذه وتلك أرعبني حصار العيون في ذلك اليوم الذي لم أعد العدَّة لاستقباله جيدًا، على الرغم من رعب انتظاري لهذا اليوم مرات كثيرة.

أرعبني حزني بعد كل ذلك والله رعبًا لم يُجدِ معه تماسُكي. أردت أن أتماسك فقط مثل جبل.

(3)

البيَعَة

انضم طرقي إلى جبل في سيارة الإسعاف التي ستنقل جثمان أبيهم للمقبرة، جلسا متقابلين، وتوسطهما جثمان ابن طرَّاق، بينما مضى طارق ونادر مع السائق. قبل أن يغلق باب سيارة الطوارئ الخلفي انسَلَّ ابن مسبط إلى داخل السيارة بخفَّة ورشاقة راقص، ساعده جسده النحيل على ذلك. جلس سرحان ابن مسبط بجانب طرقي قبالة جبل، لم يستسغ جبل حركة ابن مسبط المفاجئة، رمقه بعينيه وكاد أن ينطق اعتراضًا على تصرف ابن مسبط وانتهاكه خصوصية عائلية ولحظة خاصة جدًّا، لكن جبل عدل عن ذلك احترامًا للراحل. أحنى ابن مسبط رأسه ولم يبادل جبل النظرات؛ احترامًا له وللموقف. بدأ سرحان ابن مسبط في واقع الأمر في تغيير سلوكه نحو جبل بعد سماعه خبر وفاة الراحل، (الحي أبقى من الميت) هذا ما حاك في نفسه منذ الصباح. كان ابن مسبط رجل المهمات الخاصة لدى ابن طرَّاق بالأمس، ولا بُد أن يدرك أن حاجته لجبل الآن ليست خيارًا يؤجَّل بل ضرورة تقتضيها الظروف المتغيرة، لا بُد من البدء من هذه اللحظة. لحظة جلية جدًّا، جبل هو رجل العائلة الأول، هو الآمر والناهي، وعنده تخضع الرؤوس.

فُتِح بابُ السيارة الخلفي، كان الحشد هائلًا خلف الباب. انضمَّ بقية الشقرديَّة في المقبرة لتأدية الواجب. كان من السهل تمييز الشقرديَّة عن أفراد الأسرة والأقارب والأصدقاء، الشقرديَّة يتركون أشمغتهم وغترهم مسدولة خلف أكتافهم لتبقى وجوههم ظاهرة، عكس المقربين الملثَّمين، الذين يربطون أشمغتهم حول وجوههم باستدارة كاملة. لم يترك الشقرديَّة خلف الباب أي مهلة لجبل وطرقي وسرحان للخروج من السيارة، بادروا

على الفور برفع الجثمان وحمله إلى القبر مباشرةً. هَمَّ جبل بالخروج أولًا واللحاق بالجمع، اصطدمت ساقه بساق ابن مسبط فكاد أن يتعثر. لم يُعِرِ الأمر أهميةً وخرج، شدَّ خطاه للحاق بالجثمان المحمول صوب القبر. اقترب جبل من القبر، أصبح وسط الجمع مثل مئذنة، كان من السهل رؤيته وتمييزه من بُعد. اتفق الجميع على أن يفسحوا المكان لجبل ليشق طريقه نحو القبر. كان كل من تواتيه الفرصة يضع يده على ظهر أو كتف جبل وهو يمضي صوب القبر. حين وصل جبل بجانب القبر رفع ثوبه وقبض بكفَّيه على طرفي الثوب من الجانبين، شدَّهما للمنتصف وعمل عقدة بدت كطرف حبل معقود. هَمَّ جبل بالنزول للقبر، خلع نعليه ومدَّ ساقه اليمنى حتى انحسر السروال الطويل إلى نصف ساقه. حين لامست رِجلُ جبل الأرض، سحب ذراعه من الأكف الممدودة إليه، وتمسَّك بجانبي القبر، ونزل بقدمه اليُسرى للداخل. تبع طرقي جبل للداخل بينما وقف طارق عند الجهة الشمالية من القبر، انضمَّ الشيخ ابن مسمار بجانب طارق ونادر. كان جثمان ابن طرَّاق مسجًّى بجانب القبر من الجهة الغربية.

كانت الحشود عظيمة حول القبر، واختفى جبل عن الأنظار بعد نزوله، بيد أن الكثيرين لاحظوا وجود ابن مسبط برفقة الجثمان في سيارة الطوارئ، وظل اسمه يتردد على ألسنة الكثير من الحاضرين أثناء الدفن. من المفارقة وجود ابن مسبط حاضرًا بصورة لصيقة في لحظة خاصة كتلك اللحظة؛ إذ يعرف الكثيرون أن ابن مسبط من جلساء الشيخ ابن طرَّاق، لكن البعض لم يكن يعلم أنه كان مرافقًا لصيقًا لا يفارق الشيخ في السنين الأخيرة خصوصًا حين ينتقل إلى المزرعة. جبل وصبحي كانا يدركان ذلك تمامًا، حتى طرقي الذي لزم أباه في المزرعة سنين عدة، لا يدرك أن ابن مسبط أصبح الجليس الأكثر حضورًا لأبيه، لكنه يتذكَّر منذ بضع سنين أن ابن مسبط كان يأتي بين الفينة والأخرى لمزرعة عبيد ابن

طـرَّاق. حيـن تغيـرت الأمـور ولـم يعد طرقي المقيم الدائم في المزرعة، أصبح يجهل كل ما يحيط بالدائرة المحيطة بوالده في المزرعة.

كان من السهل تمييز أن ابن مسبط هو المحور الرئيسي للحديث بين أي رجلين خلف الجمع المحيط بالقبر. الكثيرون، ممن لم ينشغلوا بالدفن واكتفوا بالمراقبة، تساءلوا عن سر وجوده المقرب جدًّا. لم يُـثنِهم وجودهم في المقبرة عن التساؤل، حتى إن البعض ذهب إلى تخمينات أبعد من ذلك، تناقلوا أن ابن مسـبط كان النسـيب الأخير للشـيخ عبيد، وأن أخت ابن مسـبط هي الزوجة الرابعة سـرًّا. فهيد المنهاجي وبحكم نسـبه مـع عبيـد ابـن طـرَّاق تلقى أكثر من استفسـار مـن الحاضرين على هامش الدفن، ضآلة جسـده لم تمكّنه من الدخول بين المحتشـدين، لم يحـظَ بثـواب إهالـة التـراب علـى القبـر إلا بعـد أن انفـضَّ الجمع. لهذا السـبب رجع للوراء بغية استنشـاق الهواء، أحسَّ بدوار خفيف، بيد أن أحـد الحاضريـن ناولـه القليـل من الماء، شـرب فهيد المنهاجي ودعا له بالجزاء الحسن. بادره صاحب الماء قائلًا:

- يـا عـم فهيـد، مـا شـفت ابـن مسـبط ينزل من السيارة مع جبل وطرقي؟

- صحيح.

- ابن مسبط ما هو بسيط، ما هقينا أن علاقته مع الشيخ عبيد قوية لهذا الحد.

- صحيح. (كان يجيب وهو ينظر صوب الحشد محاولًا تشتيت انتباه السائل)

لم يستسغ فهيد الحديث كثيرًا، خصوصًا في ظل الظرف الراهن. انضـم رجـل ثالـث لصاحـب المـاء وفهيـد، بـدا عليـه أنه سـمع أطراف الحديـث، وأضـاف كأنـه يضـرب إيقاعًـا جديدًا على أنغام تخت شـرقي بسيط:

- ما يصلي المصلي إلا ويطلب مغفرة.

ارتفع الإيقاع بعد ذلك، وبادله صاحب الماء الحماس قائلًا:

- يا رجال، ابن مسبط عقب ما علق بالشايب، يبي يعلق في جبل.

أكمل الرجل الثالث الجملة:

- خلهم يعرفون أن ابن طرَّاق ما خذا معه شيء لقبره !

رد صاحب الماء مثل كورال خلف العازفين:

- الله يا الدنيا، الله يا الدنيا، ما يتعلمون يا ابن الحلال، الواحد ما يتعلم إلا من كيسه.

قاطعهم فهيد مصوِّبًا نظره صوب الحشد:

- لا إله إلا الله... وحده لا شريك له.

التفت الرجل الثالث وبادر سائلًا فهيد المنهاجي قبل أن يغير مجرى الحديث مرة أخرى:

- إلا يا عم، كم تعتقد تجي ثروته؟

رد صاحب الماء مرة أخرى مثل كورال خلف العازفين:

- يا رجال حلاله مضيق الخد !

سكتوا لبرهة، حدَّق فيهم فهيد وقال:

- ادعوا له بالثبات... ادعوا له بالثبات.

أُنزِلَ جثمانُ الشيخ عبيد ابن طرَّاق إلى مثواه. انتظم جبل وإخوته بجانب الشيخ ابن مسمار وجمع غفير مشكِّلين حلقة حول القبر. شرع الجميع في إهالة التراب وإكمال مراسم الدفن وألسنتهم تلهج بالدعاء، واستمر الشيخ ابن مسمار يذكِّرهم بأن يدعوا له بالثبات.

تمت عملية الدفن، تحرك جبل وإخوته ليقفوا في صف واحد مستقبلين العزاء بالمقبرة، بدا صفًّا هرميًّا غريبًا، بدأ بجبل وطرقي وطارق ونادر بعد ذلك. تدافع الحاضرون نحو جبل أولًا، وكان الشيخ ابن مسمار هو أول من بدأ السلام، تلاه أبو ضاري. ظهر (الشقرديَّة) مجددًا هذه

المرة، اتفقوا مع المقربين في طريقة العزاء. حين يصل المعزي إلى جبل يرفع يده ويشدُّه من هامته، ينحني جبل ويطبع المعزي قبله على رأسه. كان من السهل تمييز ورؤية تفاصيل هذا المشهد من مسافة بعيدة، مشهد يشبه كثيرًا رؤية نادل حانة يملأ الكؤوس من (الدرافت)، املأ كأسك وامضِ. المعضلة كانت في بعض قصار القامة، هؤلاء الذين حتى برفع أيديهم لم يستطيعوا شد هامته، كان الخيار الوحيد هو تقبيل كتفه، وهذا ما فعله مثلًا فهيد المنهاجي بالرغم من كبر سنه. صملول وحده هو من قطع هذه العادة، اتجه صوب جبل، صافحه وعانقه من اليمين والشمال، لم يقبِّل رأسه أو كتفه. وقف لبرهة مصافحًا يده واضعًا يده اليُسرى فوق يد جبل وتمتم بدعوات سمعها مَن حولهم.

مر مشهد العزاء صارمًا، بدا أشبه بمبايعة وتسجيل حضور، جبل أولًا ومن ثَمَّ مصافحة الباقين من أفراد العائلة.

بدأ الجمع ينفض. أحضر صبحي السيارة بالقرب من جبل، ركب جبل في الكرسي الخلفي وطرقي في الأمامي. كان مشهدًا حزينًا وصامتًا. تذكَّر صبحي وهو يغالب دموعه أن العم (أبو جبل) كان ذلك الصباح ممددًا كحصان كُسِرَت ساقُه في الكرسي الخلفي، وها هو جبل قد آثر أن يكون في مكانه بعد الدفن. تحركت السيارة باتجاه البوابة للخروج من المقبرة عائدين إلى مجلس العزاء في منزل ابن طرَّاق. وضع جبل يده اليُمنى على رقبته من الخلف، بدأ بالضغط لتخفيف الآلام المفاجئة. في طريقه للخروج من المقبرة لمح عبارة مكتوبة بخط عريض على يمين بوابة المقبرة، قرأها: (الموت درب العاشقين)، وارتسمت ابتسامة على شفتيه. خرجت السيارة من البوابة، واستدارت جهة اليسار، التفت جبل صوب المقبرة، رفع يده اليمنى للتحية وقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون، ونحن إن شاء الله بكم لاحقون). طرقي كان ينتفض بكاءً في مكانه.

طرقي:

إنَّ أصعب لحظة ممكنة تمر على الإنسان هي اللحظة التي تلمس كل تفاصيلها.

لم يدُر في ذهني يومًا ما أنِّي سأحمل والدي إلى داخل القبر، كنت أظنه من الخالدين... والله. لم أعلم أني سأضمه قبل أن أمدِّد جثمانه بين اللحد. راودتني رغبة عارمة أن أقبِّل جبينه مرات كثيرة في مغسلة الموتى، وفعلت. راودتني ذات الرغبة حين حللت وثاق كفنه داخل القبر، ولم أفعل. سمعت أصواتًا كثيرة تدمدم فوقي طيَّرت من رأسي كل الرغبات. أتذكَّر رغبتي بتقبيل جبينه، ورغبتي بوداعه بعد تقبيل جبينه، ورغبة أخرى بالبكاء. بعد أن خرجت من المقبرة، عزمت على العودة لقبره بعد حين.

سوف أزوره في كل جمعة، سوف أجلس عند رأسه، وسأحكي له أخباري ورغباتي الكثيرة، وليتني أقدر على زرع عين سحرية بباب قبره، وسوف يستمع لي هذه المرة، ولن يكون لديه خيار آخر، سأكون فرحًا بذلك. لن يكون لديه خيار آخر، أؤكد لكم ذلك، وإن كان يحبني، فأرجو فعلًا أن يستمع إليَّ. أبي الذي لم يطلق أجنحتي قط، لو فعل ذلك... كنت سأعود له، وسيعلم كم كنت أحبه.

بعد خروجي من المقبرة داهمتني ذات الرغبة في البكاء، وفعلت. داهمتني رغبة أخرى في تدخين سيجار.

(4)

ملك الربطة

ما إن وصل جبل وبقية إخوته للمنزل حتى وجدوا (الشقرديَّة) في انتظارهم، وفُتِحَ باب منزل الشيخ عبيد بن طرَّاق على مصراعيه لاستقبال المعزين. توزَّع (الشقرديَّة) إلى مجموعات، بعضهم كان أمام باب المنزل، وآخرون وقفوا في الممر المؤدي إلى المجالس، ومجموعة ثالثة من الشقرديَّة كبار السن جلسوا في المجلس الرسمي، أما البقية فاكتفوا بالانزواء في المجلس الآخر بانتظار العشاء. كان الشيخ ابن مسمار هو من تكفَّل بعشاء الليلة الأولى.

دخل جبل إلى المجلس الرئيسي، وتبعه طرقي وطارق. تصدَّر جبل صدر المجلس، وبدأ في إعطاء التوجيهات لطرقي وطارق وصبحي وبقيَّة العاملين في المنزل. كان جبل قد انتظر هذه اللحظة لسنوات طويلة، لحظة البدء في إعطاء الأوامر بدلًا من تلقيها، تمامًا كما كان يفعل والده. كان المشهد صاخبًا في منزل ابن طرَّاق، توافد المعزون لتقديم المبايعة قبل التعزية لجبل، مبايعة متفق عليها لأمر متفق عليه من الجميع. كان جبل وحده محطَّ اهتمام المعزين وكأن ابن طرَّاق لم ينجب سواه، انحسرت الأضواء عن طرقي كما هي الحال دائمًا، أما طارق فقد كان تائهًا لا يُجيد التصرُّف، التزم الصمت حتى وهو يتلقى دعاء ومواساة المعزين.

في جوف المنزل، بدت الأمور شبيهة بالمجالس الرجالية فيما يتعلق بالاهتمام. أم جبل كانت صلبة كما عاش معها ابن طرَّاق، تحملت العبء الأكبر في حياة ابن طرَّاق ومماته، واستقبلت المعزيات، وتبادلت معهن الأحاديث والدعوات، شكرتهن ودعت لهن. أم طرقي بدت تائهة كحال ابنها، خجلها الشديد وحزنها ألجماها الصمت، ساعدها على ذلك اهتمام

المعزيـات بـأم جبـل. وحدهـا أم طـارق (فـردوس) بدت مختلفة في كل شـيء. كان مظهر الحزن الطاغي على فردوس يزيد من حُسـنها، تجلَّت وهي متشحة بالسواد قمرًا مضيئًا في ظلمة حالكة.

كان مشهدًا بديعًا، إذ إنَّ تجمُّعات العزاء تكون بمثابة اختبار جمال لا مثيـل لـه. فـي العـزاء لا تضـع النسـاء أصباغًـا، يتخليـن عن المكحلة وأصابع الروج، حتى الابتسامات كانت تغيب عن النساء في العزاء وتخفي الغمـازات التـي تمنـح المـرأة متواضعة الجمال درجةً أعلى في الملاحة، وحدها فردوس تجلى جمالها فأصبح طاغيًا بين النساء، حتى وهي تقترب من إكمال عقدها الرابع.

بعض النسوة تساءلن إن كان من الممكن أن تبقى فردوس أرملةً، أم أن جمالها سيكون شفيعًا لها بإعادتها إلى عش آخر، سوف تكون مطمعًا للرجال لا محالة، فهي تملك المال والجمال بعد وفاة ابن طرَّاق. كانت فردوس من نوع النساء التي تلوي أعناق النساء والرجال على حد سواء مهما تقدَّم العمر بها.

أذَّن المؤذِّن لصلاة العشاء، وانفضَّ المجلس للصلاة. كان عشاء ابن مسـمار قد وصل، تم تجهيز كل شـيء لكي يتشـارك الحاضرون العشـاء بعد الصلاة مباشرة.

بعـد العشـاء اختفـى جـل المعزِّيـن ولم يبقَ سـوى ثلة من الجيران وبعض أفراد العائلة، أشار جبل إلى عماد الحضرمي (أمين أرزاق المنزل) وهمس في أذنه أن يتأكد من جاهزية ونظافة الفراش في ملحقه الخاص حتى يبيت فيه، لم يكن بمزاج يسمح له بالاختلاط بأحد حتى زوجته، وأراد المبيت وحيدًا.

بعد أن انفضَّ بقيةِ الحضور انسلَّ جبل باتجاه الكراج، طلب مفاتيح سـيارة والده من صبحي وأمره بالانصراف. ركـب السـيارة وفتح الدرج الذي يتوسط الراكبين الأماميين بمفتاح صغير محفوظ في جيبه، أخرج

ثوب والده. توجه جبل للغرفة الخاصة به من الملاحق الخارجية، دخل وخلع شماغه وعقاله بحركة واحدة، طوَّحهما في الهواء وجلس متربعًا فوق فراشة. شرع جبل بفرد ثوب والده كما سجادة صلاة. وضع يده اليمنى في الجيب الأول وأخرج منه رزمة نقود واحدة (مائة ورقة) من فئة الخمسمائة ريال، أدخل يده في نفس الجيب من دون جدوى، لم يجد سوى هذه الرزمة فقط (نود أن نسمي رزمة النقود الواحدة بالربطة من الآن وصاعدًا). انتقل إلى الجيب الآخر، وضع يده بداخله وأخرج منه ربطتين. عرف من نظرة سريعة فاحصة أن الأولى ناقصة والأخرى كاملة العدد، مائة ورقة. عدَّ جبل المبلغ مرتين وكانت المحصلةُ مائة وواحدًا وثلاثين ألفًا وخمسمائة ريال سعودي.

جنَّ جنون جبل واستشاط غضبًا، فكَّر أنه من المستحيل أن يكون فقط هذا المبلغ في جيبي والده. كان جبل يعرف جيدًا أن والده يحمل دائمًا ربطات كاملة من فئة الخمسمائة ريال، كما أنه كان متأكدًا من حمله ثلاث ربطات في كل جيب كعادته، وحين تنقص واحدة من هذه الربطات، يقوم بتغذيتها في اليوم التالي من البنك. دأب ابن طرَّاق على هذه العادة منذ أن تمت طباعة فئة الخمسمائة ريال وتداولها الناس. بدأ الشك يسري في عقل جبل كما الدود يتغذى على طاقته، وتساءل كثيرًا ذلك المساء: أين بقية المبلغ؟ قرر أن يؤجل التفكير في الموضوع إلى وقت آخر، وضع المبلغ في جيوبه، وتمدد على الفراش بغية النوم.

تقلَّب جبل في فراشه وفِكرُه مشغول بالنقص المفاجئ. كان جبل عليمًا بالتفاصيل المالية لوالده، إذ إن ابن طرَّاق كان يتخذ من هذه الربطات سلاحًا دائمًا: ربما تعرض سلعة عقارية أو معدة ثقيلة للبيع في مكان ما، وجيب ابن طرَّاق كان يفي بالغرض. كان العربون جاهزًا على الدوام مهما بلغ سعر السلعة.

كان ابن طرَّاق حين يفاوض على شراء سلعة معروضة حازمًا في

اتخـاذ القـرارات، ولـم يكـن يتـرك فرصة لخصومه بمجابهته. كان يخرج الربطـة الأولـى مـن جيبـه ويضـرب بهـا الطاولة مصوبًا نظـره تجاه عينيّ صاحب السلعة، فإن لَمَحَ إرتجافة في إحدى عينيه وتردد صاحب السلعة فـي البيـع، كان ابـن طـرَّاق يخـرج ربطة أخرى، وربما ثالثة أو يزيد حتى يتمكن من تمرير العربون لصاحب السلعة، يعقد الاتفاق بعد ذلك مباشرة ويتكفل بعض الحضور بالشهادة على البيعة. كان جبل في فراشه يقلِّب كل الاحتمالات حول فكرة إن كان أبوه قد اشترى في يومه الأخير سلعة ما، لكنه تذكَّر أن أباه كان يهاتفه مباشـرة بعد شـراء أي سـلعة، يأمره أن يسجِّلها في سجلات المكتب، كما يأمره على وجه السرعة بالمبادرة في تخليص الإجراءات اللازمة لنقلها بحكم الوكالة التي لديه.

تذكر جبل تعليق الشـيخ ابن مسـمار على أبيه حين يمازحه قائلًا: "أنت ملك الربطة". الشيخ ابن مسمار الذي لا يترك فرصة تمر بوجود ابن طرَّاق إلا ويحاول تسويق عقار معروض، يحاول الفوز دائمًا بالسعي. كان يعلم أن السعي دائمًا جاهز في جيب ابن طرَّاق.

ثمة استخدامات أخرى للربطة كانت تأتي على نحو مفاجئ، إذ إن جبل لا يزال يتذكر ماذا فعل (ملك الربطة) في مطعم "اليخت الأول" أحد أفخـم مطاعـم المدينـة والمشـهورة باختصاصه في طهي الأكل البحري. دخل ابن طرَّاق بصحبة جبل للمطعم، كانا على موعد مسبق مع مجموعة من (الخواجات)، المدراء والمستشـارين لشـركة نفطية ومعهم سمسـار الصفقة والمترجم. كان ابن طرَّاق قد عاد للتو من ورشة المعدات الثقيلة بعد أن أصلح عطلًا في إحدى المعدات بنفسه، وكان باديًا اتساخ ثوبه بالزيـوت، وعنـد جلوسـه مـع جبل علـى إحدى طاولات المطعم بانتظار ضيوفهم، تقدَّم مدير المطعم والذي كان يدير مطعمًا وملهى ليليًّا فخمًا في جونيه بـلبنان قبل مجيئه للسعودية بشهور، وطلب منهم بنبرة حادة قائلًا:

- ما تواخزني حضرتك، بس هون مطعم فايف ستار.

قاطعه ابن طرَّاق:

- وشو.. وش تقول انت؟

- يعني ما تواخزني، هون الأسعار غالية كتير كتير !!

أخرج ابن طرَّاق الربطة الأولى وضرب بها على الطاولة، نظر إلى مدير المطعم نظرة سريعة وغاضبة، عاد وضرب بالربطة الثانية بجانب الأولى وهو يضحك ويردد:

- تكفيك هذي والا تبي زود؟ انقلع الحين وهات كل اللي عندك في المطعم من أحسن شي وأغلى شي على هذي الطاولة.

لم يستطع مدير المطعم التحرك من مكانه؛ فقد كان صوت ضرب ربطة النقود يرنُّ في أسفل قلبه كصوت أجراس الكنيسة يوم الأحد، واحتاج الأمر لصرخة أخرى من ابن طرَّاق (ابن طرَّاق لا يحمل في جيوبه بطاقة أحوال مدنية، كانت الربطة هي هُويته الرسمية). استعاد مدير المطعم وعيه وردَّ قائلًا:

- تتت تأمر شيخ... تأمر شيخ. (قال ذلك بصيغة إيقاعية رتيبة)

ساور جبل الشك في صبحي، خمَّن أن صبحي يعلم بأمر الربطة، تذكر أنه سأله صبيحة يوم الوفاة في المستشفى عن أحداث الوفاة، صبحي لم يذكر أن حدثًا مشبوهًا قد حصل. توصَّل جبل إلى نتيجة مفادها أن صبحي سارق، خمَّن مرة أخرى أن صبحي سرق على الأقل مائة وخمسين ألفًا. كان جبل متأكدًا أن صبحي (المرافق الدائم لأبيه) يعلم عن الربطة، لكنه لا يعلم عن كمية المبلغ، وقرر أن يفوز بجزء من المبلغ ويترك الباقي.

تأخر الوقت في ذلك المساء، وجبل مشغول بالتفكير. فوجئ أن الساعة تجاوزت منتصف الليل (الليلة الأولى لابن طرَّاق في القبر). أغلق جبل النور، وتمدَّد في فراشه وتلا: "بسمك اللهم وضعت جنبي

وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ عبادك الصالحين".

جبل:

صحوتُ من نومي في ذلك المساء فزعًا مرات عديدة، كنت أحس بصوت أنفاس مضطربة كلما صحوت، وأحسست بحرارتها تلفح وجهي. قبل النوم كان صبحي يستأثر بكل اهتماماتي، كما أثار أمر المبلغ المفقود حنقي كثيرًا. منذ قابلت صبحي هذا الصباح وهو لا يجرؤ على وضع عينيه في عيني وأظن أني عرفت السر قبل خلودي إلى النوم. حين كنت أصحو، كانت الظلمة الحالكة في الغرفة لكنها ما استطاعت حجب أشباح لم أدرك ماهيتها. خيِّل لي أني تلقيت ضربة على رأسي مرة أو مرتين، وأحيانًا أصحو من غفوتي فيكون وجهي مبللًا.

بصراحة، لا أدرك تمامًا ماهية مشاعري حين وضعت رأسي على الفراش، كان مزيجًا من الحنق على البعض، والحزن على الفقيد، بعض التعب من المسئولية القادمة، وقليل من الزهو. لا أخفيكم، كنت فخورًا قليلًا بموقعي الجديد، كنت أشعر بمزيج رهيب من الأحاسيس التي لا أدرك كنهها، مزيج عجيب من المشاعر بدت صورتها في رأسي مثل خربشة طفل يمسك القلم للمرة الأولى. لا أظن أنَّ عليَّ أن أشرحها لكم، ولا أعرف كيف أشرحها، سأتركها لكم. أنتم من تكتبون، ومهمتكم فيما أظن هي الكتابة، أنا هنا لكي أعيش يومي.

أريد أن أنام... فقط.

(5)

بقّ لي شوي

كان صبـاح أول أيـام العـزاء صاخبًـا، المقاعد في كل المجالس لـم تفِ بمتطلبات الجمع الغفير.

نفس الوجوه التي سبقت جبل إلى مجلس العزاء في اليوم الأول، رآهـا جبـل وإخوتـه فـي الصبـاح الثاني. انتشـر الشـقرديَّة فـي المجالس والممرات المؤدية لمدخل المنزل، منهم من وقف طيلة الصباح مؤمِّلًا نفسـه بأن يتلقَّى امرًا من جبل، ولأن اليوم الثاني بدأ منذ الصباح، كان لا بُدَّ له من أن يمر أثقلَ من سابقه.

دائمًا تحمل أيام العزاء الكثير من الذكريات السيئة لكل من عاش لحظاتهـا: مـن مصافحـات وعنـاق، وتحايا رتيبـة ودعوات مكررة، لكنها مختلفة هذه المرة لدى جبل. كان جبل قد عوَّد نفسه على أن لا يتعاطى مـع حـالات الحـزن لفتـرة طويلـة، وكان واعيًـا تمامًـا بذلـك، إذ إنَّ ابن طـرَّاق كان قـد درَّبـه كثيـرًا علـى أن يكـون أثقل زائـر محتمل في الحارة خلال أيام العزاء.

كان كلما جاء خبر وفاة شخص ما، قلَّبَ ابن طرَّاق أوراقه جيدًا، وبحث عن اسم المتوَفَّى في الدفاتر والشيكات المؤجلة، ليس ثمة من لم يقترض من ابن طرَّاق، وكل شـيء لا بد أن يكون مكتوبًا، وبعد أن يجد بُغيته، يدبِّر الخطة ويحدد الموعد حسب الخطة:

- في حالة وفاة أحد متوسطي الدخل أو الضعفاء: تكون الزيارة في اليوم الثالث بعد صلاة العصر.
- إن كان الميت تاجرًا: تكون الزيارة صبيحةَ اليوم الرابع من أيام العزاء.

- إن كان الميت شيخ قبيلة: تكون الزيارة في مساء اليوم الخامس بعد أن ينفضَّ الجمع ولا يتبقى سوى أبناء الشيخ.

كان ابن طرَّاق يعي جيدًا أن تجار البلد وأعيانه تمتد مجالس العزاء لديهم حتى اليوم الخامس أحيانًا. كان جبل هو المرافق الرسمي لأبيه في هذه المهمات، حتى أوكلت المهمة له وحده في السنوات الأخيرة. المعضلة أن ذلك كان يتكرر في كل عزاء، لم يبق رجل في المنطقة لم يوقِّع في دفتر ابن طرَّاق أو يحرر شيكا، وكل أولئك لَجَؤوا للشيخ عبيد ابن طرَّاق. في أيام العزاء رآهم جبل جميعًا برؤوس خفيضة مُطأطئة له، رآهم كما لم يرهم من قبل، وقرأ نظراتهم حين يُقبِلُون عليه للعزاء، وحده صملول بن ناشف كان مختلفًا، كما كان في المقبرة.

حين دخل صملول مجلس العزاء بهيئته الفارهة هبَّ الجميع من مجلسهم، وجهوا أبصارهم له، كاد البعض أن يهم بالمشي لاستقباله، لكنهم عدلوا عن ذلك حين رؤوا صملول يتوجه مباشرة صوب جبل، تبادلا السلام مثلما تم في المقبرة، أجلسه جبل عن يمينه، دارت القهوة من جديد، أطرقت الرؤوس سكينةً واستجابةً للصمت الذي حلَّ. التفت صملول نحو جبل هامسًا:

- ترا عشاكم الليلة بيجيكم.

- يا صملول ماله داعي؛ الأمور كلها مرتبة.

- لا يا جبل، المرحوم أبونا كلنا، وأنا واحد منكم.

- ما يخالف، المواعيد عند طرقي بس تأكد منه قبل...

قاطعه صملول:

- أنا مالي شغل عشاكم الليلة بيجيكم وبس.

- خلاص، خير إن شاء الله. بس بلغ طرقي علشان ما يواعد أحد.

كان صملول مُصِرًّا على ذلك، ولا شك أن جبل كان وما زال أحد

أعـز أصدقائـه، ومـن واجبـه أن يولـم في عـزاء أبيه، لكن الأمر كان أبعد من ذلك، كان صملول يرغب في أن تكون بصمته واضحة ومختلفة في عزاء ابن طرَّاق، فكَّر أن هذه بتلك، إذ إنَّ ابن طرَّاق كان هو الشخص الوحيد في الحي الذي لا بد أن يتكفَّل بعشاء أو غداء في كل مجالس العزاء التي مرت في حارة الطراقيَّة، لا أحد يستطيع أن يثني ابن طرَّاق عن واجبه تجاه حُسن الجوار، كما أن أحدًا لا يستطيع منعه عن تسريب معلومتـه وتذكيـر أقـارب الميـت بموعـد تحصيـل دين مـا. كان صملول يهدف من وليمته إلى رد جزء من الواجب تجاه الراحل، كما أحب أن يترك بصمته ويمضي كما فعل ابن طرَّاق في نفسه في عزاء عمه مضحي.

ما زالت الذكرى تقيم في رأس صملول كما تقيم العثَّة في الصوف، وتـأكل كل الذكريـات الأخـرى كلمـا دخـل مجلس عـزاء، كان ذلك في ثالث أيام عزاء مضحي، عم صملول بن ناشف. حضر ابن طرَّاق آنذاك بصحبة ابنه جبل، كان يدرك أن جلَّ المعزين سيرحلون، ولن يبقى في مجلس ابن ناشف سواه وابنه صملول مؤملين أنفسهم ببعض المعزين، حينئذ ستكون فرصة مناسبة لابن طرَّاق بتقديم العزاء وتذكير ابن ناشف بسلف أخيه مضحي.

دخل ابن طرَّاق واستوى في صدر المجلس، تنحَّى ابن ناشف عن مكانـه، وأقبـل صملـول ليجلـس قرب زميله جبل آنذاك مشـكِّلين نصف حلقة حول منقل الجمر المتقد في مجلس ابن ناشـف المتواضع. فيما كان ابن طرَّاق يتبادل أحاديث العزاء مع ابن ناشف، كان صملول يتبادل مع جبل بعض الأحاديث البسيطة عن الثانوية العامة وما يشغل ذهنهما آنذاك من تجاوز أسئلة الوزارة. مضت فترة صمت قليلة بين ابن طرَّاق وابن ناشف، وحدَّق ابن طرَّاق في جبل حين سمع تهامسه مع صملول. كانـت فرصـة ذهبيـة لابـن طرَّاق لتقريع صملول، ووضع حد لعلاقته مع جبل وتحريضه على الابتعاد، تلك العلاقة التي ما استساغها ابن طرَّاق

يومًا. كان ابن طرَّاق يملأ رأس ابنه كلما رآه في الحارة مع صملول قائلًا: "وش لك بها النتفة، ولد الحارس ! امش مع ناس في مقامك". حينئذ كان جبل يطرق رأسه ويمضي لا يلوي على ترك صملول، لكنه يحاول الحفاظ على سرية الصداقة ومحدوديتها.

حدَّق ابن طرَّاق مجددًا في جبل وصملول معًا، كانا ما زالا يتهامسان، ركَّز نظراته صوب صملول وكأنما يوجِّه بندقية، سحب نَفَسًا وأطلق رصاصته:

- قم يا صميِّل لا تدوش رؤوسنا.

أطرق ابن ناشف رأسه، وبهت صملول ساكنًا في مكانه. كرَّر ابن طرَّاق استعداده لإطلاق رصاصة أخرى، ومشيرًا بسبابته إلى طرف المجلس:

- قم هناك، تراك لجيتنا.

قام صملول من مكانه تعسًا ذليلًا، كان يمشي لطرف المجلس وفي رأسه رصاصتان من ابن طرَّاق.

لا يجدر بالمرء أن يُهان في عزاء، ماذا لو كان عزاء أحد أقاربه المحببين إلى قلبه! تركت هذه الحادثة جرحًا غائرًا في قلب صملول، كبرت معه الحادثة وكبر الجرح، وكانت من الحوادث الأشد إيلامًا في حياته. صملول (ولد الحارس)، (النتفة)، صملول (بق لي). كل هذه النعوت التي ارتبطت باسمه لم تكن سوى صفعات عابرة، إذ كانت حادثة عزاء عمه مضحي هي الحلقة الأكبر في سلسلة خيبات صملول، حتى حين تجرأ ابن طرَّاق ورفع يده ذات يوم على صملول، لم تكن أكبر من ذلك الجرح. ذلك الجرح الذي وقع على جرح آخر، إهانته أمام أبيه الكهل، ودفنت حزنه الشفيف على عمه الراحل.

(عشاء خمس نجوم) كان هذا الوصف هو الأبلغ للوليمة التي تكفَّل بها صملول تلك الليلة. كان أشبه باحتفال غير معلن لوفاة ابن طرَّاق،

وفـي ذات الوقـت، كان وقتًـا ملائمًـا لإعـلان صعود نجم صملول. نحر الشـيخ ابـن مسـمار بكـرم غيـر معهـود خمس ذبائح مـن الغنم في الليلة الأولـى، والتـي كانـت الأكثـر إقبالًا من المعزين، وضاعف صملول عدد الذبائح إلى عشرة، وأضاف عليها كثيرًا من صنوف الطعام الشهية.

قدمت الذبائح محمرةً على طريقة (الغوزي) الشعبية، إذ تم حشوها بالمكرونة والبيض والكاجو والسنوبر. توسطت الصحون المستديرة فوق الأرز البنجابي الذي قُسِّمَ إلى نصفين: نصف أحمر ونصف أبيض. حضر الأكل البحـري كأصنـاف مقدمـة حـول صحون الذبائح، الاسـتاكوزا من الحجـم الكبيـر بصلصـة الأفـوكادو قدمت على أطباق بيضاوية الشـكل، حمـل كل طبـق ثـلاث قطـع. كان الجمبري من الحجم (الجامبو) مقدمًا أيضًا، وتم تقديمه مشـويًا على طريقة الفراشـة الإيطالية، قسـمت قطعة الجمبري من المنتصف، وتم فتحها لتدهن بالزبدة والتوابل قبل الشوي في الفرن. أما الأسماك فلم يحضر سوى سمك الهامور، كان كل طبق يحمـل سـمكة واحـدة بطـول نصـف متـر تقريبًا. قدمـت بداخل صفائح القصديـر الرقيقـة تفـوح منهـا رائحة التوابـل الهندية المكثفة، بدت كأنها خرجت للتو من الفرن. حضرت أسياخ المشويات على المائدة بأنواعها، كفتة الدجاج جنبًا إلى جنب مع كفتة اللحم وريَّش لحم الضأن المشوية.

كانت المقبلات الأكثر تنوعًا، انتشرت بشكل مذهل حول الصحون. قدمت المقبلات في أطباق دائرية الشكل، طبق للمقبلات الباردة وآخر للمقبلات السـاخنة، شـملت المقبلات السـاخنة معظم أنواع المقبلات اللبنانية كالكبة ورقائق الجبنة والسمبوسة وغيرها، أما المقبلات الباردة فتنوعت بين الحمص والمتبل وورق العنب وتوسطهم التبولة. لم يكتفِ صملول بكل هذه الأنواع التي أمر بها بنفسه ورتب تفاصيل الأطباق طبقًا طبقًا، بل عمد إلى إحضار أصناف الحلويات والتي لا تحضر كثيرًا في ولائـم العـزاء. تلـك الليلـة تحديدًا أمر صملول بوجود كعكة الشـوكولا،

وكعكة الجبنة بالفراولة، وأصرَّ على وجود طبق (أم علي). أمر صملول معاونيه أن يعمدوا إلى إحضار (أم علي) في طبق معدني مجهز بشموع تمد سخونة حتى لا يبرد الطبق.

أكل الحاضرون كالملوك، وألهاهم تنوع الأطباق التي سحرت ألبابهم عن استنكار مأدبة حافلة كهذه لا تليق إلا بحفل زفاف. ربما بدا ذلك للوهلة الأولى، أو أنهم أجّلوا استنكارهم لما بعد العشاء. أحس جبل وحده بغصة وأكل مثل مغصوب، وزَّع نظراته على الحاضرين الذين بدا أنهم منهمكين ومتلذذين في الأكل، حتى إخوته، أحسَّ صديقه أبو ضاري بدناءة الأمر، وعدم صفاء نية صملول، بادل جبل بعض النظرات خلال العشاء وأحس بضيقه، حاك في نفسه لعن صملول: "لعن الله الأسهم اللي رفعتك يا بقّ لي"، هكذا همس أبو ضاري في نفسه وهو يبادل جبل النظرات.

"راح الذيب يا صميّل"، هكذا حدَّث نفسه جبل، حاك في نفسه بعض الضغينة على صملول، أحسَّ بنوايا غير سوية وأهداف غير شريفة، صملول (بق لي) عبث بقلب جبل تلك الليلة كما تعبث مراهقة جميلة بقلب خمسينيّ. استحضر جبل صورة صملول بقّ لي في ذهنه، برزت الصورة في ذهن جبل كأنها بالأمس، تذكر كلمته المشهورة حين يبدأ جبل في أكل وجبة الفسحة، ساندويتش زعتر وقارورة ميرندا، يقبل صملول على جبل حين تقترب الساندويتش من الربع الأخير قائلًا: "بقّ لي شوي". كان جبل يتعاطف كثيرًا مع طلب صملول، كان يُبقي الربع الأخير من الساندوتش شريطة أن يسمع من صملول الطلب يوميًّا. بعد مضي فترة على هذه العادة، أطلق جبل لقب "صملول بقّ لي" على صملول. سرعان ما انتشر اللقب بين الصبية والمراهقين آنذاك، تندروا كثيرًا على صملول الذي لم يحفل باللقب كثيرًا، بل على العكس رآه لقبًا أكرم بكثير من أن يُقال له: "ولد الحارس".

كان جبـل يـدرك فـي عشـاء ذلـك اليوم الحافل أنه مضى على هذا الزمـن أكثـر مـن عقديـن، لكنـه أصـرَّ على أنه زمن غابر ذلك الذي حوَّل صملول بقّ لي إلى (الشيخ أبو خالد) كما سمع هذا المساء من سائقه ومرافقيـه. صملـول وضـع بصمتـه، أشـهد كل الحاضرين على وقفته في عزاء ابن طرَّاق، رسـم صورة خالدة لنفسـه، نقشـها في المكان الصحيح والزمن الملائم، وضع كل شروط الخلود لتبقى هذه الصورة في أذهان سـكان حـارة الطرَّاقيـة وتمحـو كل الصـور القديمة، وهذا ما زرع الغصَّة في حلق جبل.

كبرت الغصة في حلق جبل فجأة مع حديث النسيب فهيد المنهاجي، حين قال وهو يهمُّ بالوقوف بعد فراغه من العشاء:

- أكرمكم الله، وأنعم الله عليكم.

بـدا جبـل مذهـولًا ممَّـا سـمعه، لـم يكن هذا هو الدعاء المناسـب من فهيد، غير أن بقية من تبعوا فهيد بالقيام من الوليمة أردفوا قائلين:

- أكرمكم الله.
- أنعم الله عليكم.
- كثر الله خيركم.

صملول:

لا أعلم إن كان شعوري يُصنَّف تحت تصنيف الغبطة! ومن الصعب أن أقول أنِّي فَرِحٌ لموت شخص ما، حقيقة لا أعلم !

كل ما أعلمه الآن أن زمن ابن طرَّاق ولَّى، ولا بد للجمهور أن يـدرك ذلـك، ويـدرك أيضًـا أنـه برحيل زمن رجل ما يبدأ زمن رجل آخر. من المؤكد أن ابن طرَّاق لم يؤمن كثيرًا بهذه الحقيقة، ولكـن مـن المهـم أن يؤمـن جبل به. جبل كان هو الشـاهد الأول على صملول (ولد الحارس)، ولا بد أن تتغير شهادته منذ اليوم، كنت موقنًا بالتغيُّر، سـوف أكون صريحًا معكم، وسأسـألكم قبل

ذلك: لماذا يقيم الناس الولائم؟ الولائم يا سادتي تُقام لكي يأكل الناس لحومنا، وأنا أرغب في أن يأكلوا لحمي الآن، يأكلوه بهيئتي الجديدة الفاخرة.

في ذلك اليوم تحديدًا شهد جبل هذا التغيُّر، وكانت الوليمة هي الحدث، رأيت التغيُّر في عيني جبل، في وجهه الذي ذوى حين جلس على المائدة، كما رآيته كذلك في كل أعين الموجودين. أنا بصدد مرحلة جديدة الآن، حتى وإن رحلت من حارة الطرَّاقية، سيكون حضوري فيها الآن مختلفًا.

رأيت صورتي الجديدة، رأيتها يا سادتي، وأؤكد لكم أني حين قام الجمع من العشاء، لم أرغب في رؤية المزيد، وكان ذلك كافيا، وأؤكد لكم أنيّ لم ارغب سوى في لثم يدي والدي بعد ذلك.

(6)

فردوس

اليوم الثالث للعزاء مرَّ ثقيلًا كسابقيه.

كان جبل يبدو منشغل الفكر، ساهمًا في خياله الخاص. أدار في رأسه الكثير من الحسابات الرياضية، وألَّف معادلات ومتراجحات جديدة في رأسه، وكتب بمهارة سيناريست فنان كيف ينسِّق عملية إنهاء أوراق حصر الورثة والتوكيل الرسمي. كان التوكيل الرسمي تحديدًا هدفًا مرسومًا بعناية في ذهنه، لم يكن مستعدًّا للتفاوض على هذا الأمر، أصرَّ أن تبقى لديه الوكالة الشرعية والولاية على القُصَّر.

بعد غداء اليوم الثالث، سرَّب الأمر لأمه مُعَلِّلًا استعجاله الأمر بأن كل أخواته متواجدات، وحين تنتهي أيام العزاء، ستذهب كل امرأة عائدة إلى مدينتها حيث زوجها وبيتها. كان يتوقع في ذهنه أن يكون الأمر أيسر للإقناع، وحجته لإنهاء الأوراق اللازمة في هذا الوقت أن خمسة من أخواته لديهن أزواج، وتأجيل الأمر ربما يفتح باب التدخُّل والوسوسة في النفوس من قِبَل الأزواج. قابلت أم جبل الفكرة باقتناع تامٍّ، وأيدت كلام ابنها بأن ثروة المرحوم لا تحتمل التأخير، وفي كل صباح يأتي أمر طارئ لا بُد من إنهائه. سربت أم جبل بدورها الفكرة لكل نساء وبنات ابن طرَّاق، باشرت إقناع الجميع بحماس منقطع النظير مذكرةً إياهم بصعوبة التجمُّع في مناسبات أخرى. جبل في تلك الأثناء أمر طرقي وطارق، قال لهم إن الأمر لا يحتمل التأخير، سيكون هو وكيلًا شرعيًّا ووصيًّا على القاصرين، ولم ينتظر إجابة من إخوته، حدَّد الموعد لهم: "سيكون ذلك في صبيحة الغد".

حُسِم الموضوع واقعيًّا، وكان جبل قبل ذلك قد حسم الموضوع

في ذهنه. فكَّر أن أمر أم جبل وشقيقته يسير ومحسوم، هو مرشحهم الأول، كذلك أم طارق، حَسَم أمرها في ذهنه وتنبأ بالأمر، قرر أنها لن تكون معضلة، كما تذكَّر أن سلطتها تهيمن على أربعة أشقاء ذكور أكبرهم طارق وشقيقة وحيدة. وصل جبل إلى قناعة أن الأغلبية معه بوجود أم جبل وأم طارق، الأغلبية بزوجتين مقابل زوجة واحدة. كذلك الأبناء: هو وشقيقته، طارق وأشقاؤه وشقيقته، مقابل طرقي وحيدًا، وأربعة أخوات غير شقيقات من أمهات مطلقات. أعاد الحسبة مرة أخرى، حوَّلها إلى متراجحة رياضية، ووصل إلى نتيجة مفادها: اثنا عشر سهمًا مقابل ستة أسهم بالنسبة للأبناء. تأكد جبل أن لا مجال للمقارنة هنا، حُسِم الأمر، وطرقي لن يشكِّل خطرًا، وحتى لو تجرأ طرقي، سيكون حاسمًا وقاطعًا، ولن يقبل بالدخول في مفاوضات معه. كانت فردوس هي القوة التي رجَّحت كفَّة جبل، وكان جبل واثقًا من ميلها لتنصيبه وكيلًا شرعيًّا ووصيًّا على القاصرين من أبنائها.

كانت فردوس من نظرية حسابية هي مركز القوة في منزل ابن طرَّاق (كانت النتيجة واضحة في متراجحة جبل الرياضية). عزمت فردوس منذ يومها الأول على ملء بيت ابن طرَّاق بالأبناء، صبَّت أمها خلاصة تجاربها في ذاكرتها قبل دخول ابن طرَّاق عليها، وقرأت المشهد جيدًا، وتنبأت لابنتها بأن تكون محور المنزل. مع كل هذا، لا أحد يستطيع الجزم بأن فردوس كانت هي محور المنزل في حياة ابن طرَّاق، إذ ليس هناك من ينافس عبيد في حياته، وفردوس لم تحرك كثيرًا من السواكن في حياة ابن طرَّاق، وما كان باستطاعتها حتى وإن كانت هي أم البنين. كان طارق وأشقاؤه مجرد شفعاء فقط لفردوس لتبقى حاضرةً، لا لتكون عماد البيت.

قرأت أم فردوس المشهد بعناية من أجل ابنتها، وأجادت تحليل سيرة الزيجات الثمانية لابن طرَّاق، وخرجت بخلاصة الأمر. ذكَّرت أم

فردوس ابنتها أن امرأتين لم تمضيا مع ابن طرَّاق أكثر من أربعة أشهر. كانت الشهور الأربعة كافية لاختبار خصوبتهنَّ، كما أنَّ الزوجات الأربع الأخريات واللائي أنجبن بنات لم يكملن المسيرة بعد ولادة البنت، عُدنَ إلـى بيـوت آبائهـن، وبقـي البنـات فـي منزل ابن طرَّاق. فقط أم جبل وأم طرقي بقين، وما كان ذلك لجمال ولا لأمر آخر، لكن البكر الذكر كان شفيعًا لا يُرَدُّ. وضعت أم فردوس الهدف وأوصت ابنتها بأن تحبل بصبي مباشرة، لا بُد أن يكون المولود الأول ذكرًا.

بعـد قـراءة المشـهد، جمعـت أم فـردوس خلاصـة التجـارب التي تختزنهـا ذاكـرة النسـوة، ولكـي تحبـل بصبـي مـن شـهرها الأول علَّمتها طريقة تعداد الأيام بدقة، ومعرفة أوقات الخصوبة المحتملة لدى المرأة، كما درَّبتها على كيفية التكوُّر في مكانها بعد أن يصب ابن طرَّاق ماءه، ومارست عليها تمارين تطبيقية، وجعلتها تضم ركبتيها ولا تتحرك لعدة دقائق. بعد كل ذلك أعطتها الخطوة الأهم والأكثر فعالية: علمتها كيف تغتسـل بـغسـول بيكربونات الصوديوم المخفف قبل اللحظة الحاسـمة بنصف ساعة تقريبًا.

تدربت فردوسة (كما يناديها ابن طرَّاق) على كل هذه الخطوات، وتمكَّنت من الحمل بعد الشهر الأول مع ابن طرَّاق بعد هذه التدريبات المكثَّفة. وُلِدَ (طارق)، وتبعه (نادر)، ثم جاءت الشقيقة (هديل). لخبطت ولادة هديل كل حسـابات فردوسـة، وأعادت البحث والتقصِّي. أوصتها جارتها السورية عديلة بطريقة الحساب الصينية، أما زينب المصرية جارة أم فردوس فأشـارت عليها أن تذبح أرنبًا ذكرًا كعشـاء لابن طرَّاق تلك الليلة، وتضع حرزًا تحت السرير، لكن فردوسة لم تصغ لها بتاتًا، كانت متأكـدة أن ابـن طـرَّاق لـن يـأكل أرنبًـا البتة، كما أنها لم تكن تؤمن كثيرًا بهذه المحاولات. أضافت فردوسـة طريقة الحسـاب الصينية لتوصيات الأم، حملت مجددًا وجاء (سامر) ثالثًا، وأخيرًا آخر العنقود (فهيد).

بعد وفاة ابن طرَّاق أصبح نصيب فردوس وأبنائها من الإرث شرعًا يقترب من النصف (كانت متراجحة جبل الرياضية دقيقة). كانت فردوس هي الثقل الذي عوَّل عليه جبل كثيرًا، وهكذا بدا الأمر محسومًا مسبقًا في ذهن جبل.

في المقابل لم يكن هناك أي مجال للبقية في التفكير، وافقوا على تنصيب جبل وكيلًا ينوب عنهم في شئون الإرث، الأخوات (غير الشقيقات) وقَّعن من دون أن يؤخذ أو يرد النقاش معهن، كذلك طرقي ووالدته وقَّعوا على ذلك مخافة شق صف ووحدة العائلة، وذبلت كل الخيارات الأخرى. كان جبل مصيبًا في توقيت التوقيع، وكان التوقيت هو المفتاح الأساسي لسرعة إنهاء التوكيل وحصر الورثة، كان مدخلًا مناسباً للتحكم في إمبراطورية ابن طرَّاق.

وقَّع الجميع ذلك اليوم، ومرَّ الأمر برمته كما شربة ماء على الجميع. شعر جبل بالإنجاز الذي خطط له جيدًا، وأوصى الشيخ ابن مسمار أن يشفع لهم في تسهيل الأمر وتسيير المعاملة في المحكمة. تم إنهاء المعاملات في وقت قياسي، بفضل الشيخ ابن مسمار. عند خروج جبل من المحكمة متأخرًا عن بقية العائلة، دار حديث سريع بينه وبين الشيخ ابن مسمار، وأجزل الشيخ في ختام حديثه الدعاء بأن يبارك لجبل ولبقية عائلته في مالهم.

فردوس:

لم يكن لدي خيار آخر إذ كانت مجزية لكل الأطراف، فهيد وعبيد وأنا. كنت أنا الحلقة الأضعف، أو ربما كرة الثلج التي تقاذفها أبي وابن طرَّاق وكَبُرت.. كَبُرَت كرة الثلج هذه في داخلي. كان جسدي مقابل معروف في بطن أبي، وثمني كان بخسًا، وحين يكون ثمنك بخسًا فلا تتوقع سوى حياة بخسة الثمن بائسة، وهكذا كان انتظاري طويلًا.

ذلك الانتظار لم يكن ممتعًا، ليس سرًّا أنِّي على مشارف الأربعين، وأدرك جيدًا أن العيون ما زالت ترقبني، لكني أستعد الآن للبدء في حلمي الذي تأخر موعده عن المجيء. في البدء، عوضتني الخرقة الخشنة والمبللة والتي كنت أدعكها بين فخذيَّ عن ابن طرَّاق. بعد سنة، عوضني طارق عن أبي، بعد ذلك عوضني بقية إخوته عن أهلي.

المكان الذي أتوق إليه هو حلمي، إذ لا يمكن للإنسان أن يعيش كما يريد سوى حين يصنع حلمه بنفسه. تحقيق الحلم ليس شجرة تنمو فجأة عند بابك بلا بذور، أو أمنية تخرج من فقاعات الصابون التي تملأ مغطسًا وتتحقق، هي رغبات وقدرات، ومنعطفات حادة، وربما كرات ثلج أرميها هنا وهناك.

(7)

صندوق الأسرار

ظهر اسم لوزية على هاتف جبل المحمول الثاني عدة مرات كمكالمات لم يُرد عليها.

لم يكن وقتًا مناسبًا لجبل للرد على اتصال لوزية، تساءل جبل إن كانت لوزية قد علمت بالخبر من أحد الأصدقاء، ولم يدرك سبب محاولتها الاتصال به، وظنَّ أنها ربما تكون متعاطفة معه وتريد تقديم واجب العزاء. لم يجهد جبل نفسه بالتفكير كثيرًا، قرَّر أنه سيرد على اتصالها في المساء بعد أن يرحل المعزون، ستكون ربما مكالمة عابرة، مجرد رد الاتصال وحسب، إذ ليس في ذهنه أمر آخر.

سمع صوتًا مبحوحًا يأتي مجيبًا من الطرف الآخر على الخط، بادر قائلًا:

- لوزية! سلامات.
- الله يسلمك.
- عسى ما شر، كلمتي خمس مرات، وصوتك متغير.

لم تجبه، كانت في نوبة بكاء متقطع. قطعها جبل قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلا با لله. وش السالفة؟
- أحسن الله عزاك يا جبل. (ما زال الصوت متقطع إثر البكاء)
- الله يجزاك خير، ويغفر له ويرحمه.

سكتا لبرهة، وتحدثت لوزية بصوت هادئ:

- المفروض إنتِ تعزيني بعد يا جبل، أبوك معزته كبيرة.
- رجعنا لطير ياللي. من اللي قال لك إنه توفى؟
- ابن مسبط بلغني صباح اليوم. من يوم دريت وأنا تعبانة يا جبل،

إنت يمكن ما تعرف ولا تبي تعرف، بس المرحوم معزته فوق ما تتصور.

- كفي هالسالفة يا لوزية. ترى ما أبي أسمع هالكلام.
- يجي يوم وتسمعه، لازم تسمعه.
- يا لوزية أنا مشغول الآن، تخبرين أيام عزاء، فيه شي ثاني؟ (لم يكن راغبًا في الحديث أكثر)
- معك الرحمن يا جبل، أبي أعزيك بس، ودعواتي وقلبي معكم.
- مع السلامة.

الميت لا يأخذ معه شيئًا إلى قبره، حتى أسراره التي تتكشَّف بعد ذلك للجميع، ما دام قد دفنها في صدر شخص ما، فإن هذا الشخص سوف يخرجها من صدره فور دخول صاحب السر للقبر.

لوزية كانت أحد آخر جلساء ابن طرَّاق في ليلته الأخيرة، جلست معه بعد صلاة العشاء حتى قبل منتصف الليل. بعد الحادية عشرة بقليل، استأذنت من ابن طرَّاق كعادتها ومضت برفقة سائقها، سبق خروج لوزية بساعة تقريبًا انسحاب ابن مسبط من السهرة، كما يطلب منه دائمًا.

كانت الليلة الأخيرة لابن طرَّاق، كما كانت ليلة لوزية الأخيرة بصحبته. وصلت بعد صلاة العشاء، متجلية ومشرقة كما عادتها حين تدلف مزرعة ابن طرَّاق. بدا كل شيء عاديًّا وغير مختلف على ابن طرَّاق، ليس ثمة ما يوحي بما سيحدث في صبيحة اليوم الذي يليه. جلس متكئًا على مركأ عتيق مصنوع من السدو فوق فراش محشو بالإسفنج، توسط مجلسه الخالي من الأثاث في الجهة المقابلة للباب. في الجدار الذي على يمين مقعد ابن طرَّاق يوجد رف خشبي متوسط الطول يحمل فوقه تلفزيون 42 بوصة، وإلى جانبه مُستَقبِل الإرسال. حول مقعد ابن طرَّاق تناثرت بقية المراكي والمساند مشكِّلةً حلقةً فيما لو امتلأت من الزوار. توسط هذه الحلقة الافتراضية طبق مليء بالتفاح والموز والبرتقال، وبرَّاد

شاي ضخم وأطباق صغيرة للتمر. أما دلة القهوة فكان صبحي يحضرها كل ساعة ويأتي بها ساخنة تماما مثلما يفعل ببرَّاد الشاي.

كل من رأى مجلس ابن طرَّاق الذي توسط تلك المزرعة الضخمة علم أن ابن طرَّاق متقشِّف كثيرًا ولا تعنيه المظاهر. كانت لوزية تقول له كثيرًا أن يحسِّن من مجلسه هذا، عرضت عليه أن تعيد فرشه من جديد، لكنه رفض بشدة. كان ابن طرَّاق يردد جملته: "الدعوة مخبر ما هي منظر". حاولت لوزية إقناعه كثيرًا، ظلَّت بضع سنوات تلوك هذا الاقتراح في فمها متى سنحت الفرصة. قالت له إن وضع المجلس بهذا الشكل لا يشجِّع زواره على المجيء، ضربت له أمثلة عن نساء رفضن العودة في ليلة أخرى، كررت المحاولة مرارًا حتى غضب ذات مرة وكاد أن يأمرها بالخروج نهائيًّا وعدم العودة لمجلسه. منذ ذلك التهديد لم تكرر المحاولة والتزمت الصمت، كانت مستعدة للتضحية بأمور كثيرة ما عدا صداقتها لابن طرَّاق. كان ابن طرَّاق هو الرجل الذي رأت على يديه خيرًا لا ينقطع، وسندًا لا تريد التفريط فيه.

في لقائها الأول معه قبل أكثر من ثماني سنوات أتته في المزرعة، وتبع سائقها الشخصي سيارة ابن مسبط طول الطريق. كان امتلاء جسد لوزية أقلَّ مما هو عليه الآن. قبل أن تدخل على مجلس ابن طرَّاق أحكمت شد العباءة حول بطنها وردفيها، وتركت (الشيلة) تتداعى على كتفها، دخلت على مجلسه ولم تجفل من المكان. تأملت لوزية مجلس ابن طرَّاق، وتسرب القلق قليلًا إلى نفسها، خافت أن يضيع جهدها في المساء فينقص الأجر المتفق عليه. لم تكن ضمانات ابن مسبط كافية لبعثرة القلق، في ذمتها أخريات وهي المسئولة عنهن. دارت القهوة بعد التحية والابتسامات الرتيبة، شربت لوزية فنجانًا وأردفت قائلة بصوت خفيض مخاطبة ابن طرَّاق:

- ما ادري، بس حبيت اسأل: ما قال لك سرحان عن بعض الأمور؟

ابتسم ابن طرَّاق وأدرك بفطنته ما ترمي لوزية له، وضع يده اليمنى في جيب الثوب وأخرج الربطة، ضرب بها الأرض أمام لوزية التي كانت جالسة عن يساره قائلًا:

- عندك أحد زود بيجي الليلة؟

ابتسمت لوزية وأطرقت رأسها خجلًا من سؤالها الذي لم يكن في مكانه. قطع صمتها ابن مسبط قائلًا:

- يا لوزية الله يهديك أنا قلت لك، لا تتكلمين في هذه الأمور مع الشيخ أبو طارق.

كان الاسم الحركي لابن طرَّاق في مساءاته الحميمية هو الشيخ أبو طارق، هكذا يناديه ابن مسبط ولوزية والزائرات وصبحي. فيما بعدُ عرفت لوزية أنه أبو جبل، تعرفت كذلك على اسمه كاملًا كعادتها مع كل الزبائن، إذ لا بُد من أن يكون العميل على قدر عال من السلطة والمال، وكان من السهل عليها معرفة ذلك عبر معلومة بسيطة يسربها أحد موظفي شركة الهاتف المحمول.

تعمَّقت العلاقة منذ ذلك الحين بين لوزية وابن طرَّاق، أصبح يحادثها من دون الوسيط، لكنه ظلَّ وفيًّا لوجود ابن مسبط رجل المهمات السرية. أصبح ابن طرَّاق يطلب من لوزية ما يريد، يتفنن في وضع مواصفاته وتتفنن هي بإعطائه خيارات كثيرة. كانت ذائقة ابن طرَّاق متنوعة، ينتقي نساءه كما ينتقي وجبته من لائحة الطعام. كان يطلب سمراء يومًا، وبيضاء في المرة التي تليها، وبعد فترة تتغير ذائقته الفحولية، يطلب طويلة كفرس، وفي المرة التي بعدها يطلب (وذفة) باستطاعتها التكوُّر مثل قطة في أحضانه. كانت مواصفات ابن طرَّاق المطلوبة في نساء لوزية تتغير، يأمر لوزية أن تأتي بشاميَّة، وبعد أسبوع يبحث عن مغربية، وفي الأسبوع الذي يليه يقول لها:

- ملينا من الطرقيات، نبي من بنات الحمايل.

فتجيبه لوزية:

- عندي كل اللي تبي، إن بغيت جِنيَّة جبت لك.

كان هذا الرد يروق كثيرا لابن طرَّاق، يضحك بعد رد لوزية هذا، ويرد عليها:

- فيه جنية غيرك؟!

طلب ابن طرَّاق في ثماني سنوات كل المواصفات التي خطرت على باله، لكنه رغم ذلك لم يطلب لوزية قط، وربما لم يفكر أصلاً. ربما لم تناسب لوزية مزاج ابن طرَّاق، لكنه أيضًا لم يبحث عن سواها. كانت لوزية هي المرأة التي تفي بكل الطلبات، حتى بعد الحادثة التي كادت تنهي علاقة لوزية مع ابن طرَّاق، حين رفضت إحدى الفتيات الشاميَّات المبيت معه، رفضت بلا تردد، وقالت ذلك اليوم للوزية أن لديها الاستعداد لاعتزال المهنة لو كان هذا الرجل الوسخ (بحسب تعبير الفتاة) هو خيارها الوحيد، حتى لو كان على سنة الله ورسوله. المفارقة ذلك اليوم أن ابن طرَّاق كان في أشد حماسته وهِمَّتِه. جاءت تلك الشامية بناء على طلبه الخاص، لكنه بات وحيدًا في تلك الليلة. تعللت لوزية عن الشامية لابن طرَّاق بأن الفتاة فوجئت بدورتها الشهرية قبل موعدها، نهرها ابن طرَّاق، غضب كثيرًا مما حدث، ولم تنفع تبريراتها، طرد لوزية والشامية معها. قرَّر ابن طرَّاق أن يقطع علاقته مع لوزية وأصرَّ أن لا يعاود الاتصال بها؛ إذ أدرك بفطنته أن الأمر لا يتعلق بدورة تأتي فجأة، وعرف أن الأمر كان رفضًا لفحولته من قِبَل الفتاة الشامية.

بعد شهرين من حادثة الشامية، عاد ابن طرَّاق وأجاب على اتصالات لوزية المتكررة، وأقسمت لوزية أن لا يتكرر الأمر، وأن الفتاة الشامية التي أتت معها لم تعرفها حق المعرفة قبل تلك الليلة، أقسمت أن تلك الليلة لم تسألها عن موعد دورتها، وأسكتها ابن طرَّاق ولم يتركها تكمل، لم يرغب في الخوض في الموضوع مجددًا. وعدت

لوزية بتعويض ابن طرَّاق في أقرب فرصة من أجمل بنت شاميَّة، ولكن ابن طرَّاق رفض، لعن الشاميات والشقراوات جميعًا، طلب ابن طرَّاق من لوزية فتاة سمراء تلك الليلة. وصفها قائلًا:

- أبي زرقاء، فرس يوقف الفنجان فوق ردفها ما يطيح.

أجابته مباشرة:

- تأمر أمر يا أبو طارق.

بكت لوزية كثيرًا على وفاة ابن طرَّاق، قبل وبعد مهاتفتها لابنه جبل، أمضت ساعات اليوم والذكريات تُتكتك على نوافذ الذاكرة، وتغرِّد في رأس لوزية. تأكدت لوزية أن الأمر حُسِم، توفي صديقها الوفِيُّ ابن طراق، الحبيب الذي لا يدري عن هذه المحبة، مضى في طريقه، وترك اللوعة والحنين عند لوزية، مضى لم يترك شيئًا خلفَه، مضى للأبد.

في آخر المساء، نوت لوزية أن تُطعِم ثلاثين مسكينًا عن ابن طرَّاق، ارتاحت نفسها لهذه النية، أحسَّت بخشوع كبير، وفتحت المصحف على سورة "يس"، وقرأت ما تيسَّر على رُوح ابن طرَّاق.

لوزية:

لا عزاء لي الآن، ترددت كثيرًا، والآن تأكدت أنِّي تأخرت كثيرًا، لو قلتها مرة واحدة، ربما لم أبكِ هذا البكاء المر.

كان من المحتمل أن يكون هو أيضًا يبادلني ذات المشاعر، وكان لدي إحساس ما يؤكد لي أنه كان يحبني. ليتني فعلت، لكانت أمور كثيرة قد تغيَّرت، لكني لم أفعل. المشكلة أني تعودت منذ أيام زوجي السابق صالح، أن لا أقولها سوى في الفراش، ولم يجمعني فراش مع ابن طرَّاق، ولهذا الأمر، لم أقلها له. غاب الفراش وغابت مشاعري، والآن غاب ابن طرَّاق للأبد، ولم أقل له ذلك.

نحن نكبر، وتصغر الأماني وربما تموت، ونكبر أكثر، ونخسر، نخسر كثيرًا، ونكبر حتى لا يظل لدينا أي شيء.

(8)

الطريق إلى ما وراء الشمس - 1

مرت أيام العزاء، وغادر معظم المعزين منزل ابن طرَّاق، وفي اليوم السادس تحديدًا أمر جبل بأن توصد الأبواب ولا تُفتَح لطارقٍ إلا بإذن منه. كان جبل يريد التفرغ لمعركته الجديدة، أراد أن يلملم أوراقه ويعيد ترتيبها كما يريد. كانت أشياء أبيه كثيرة ومتناثرة، وبحاجة لجهد ووقت، لم يكن مهمًّا بماذا يبدأ؟ لكن المهم أن لا ينسى شيئًا.

مضى جبل مع صبحي في اليوم السادس بعد وفاة ابن طرَّاق إلى المزرعة، لم ينبس ببنت شفة طوال الطريق السريع، ولم يسأل صبحي عن ليلة أبيه الأخيرة، وكتم رغبته في السؤال عن المال الناقص حتى وقت لاحق. بعد مضيٍّ ساعة ونصف وصل جبل إلى المزرعة، والتي لم يكن مسموحًا له أن يدخلها دونَ إذن شفهي من أبيه، لكنه أصبح سيد الجميع.

شرع جبل في جرد البناء الذي يتوسط المزرعة، وكان مهتمًّا بالأشياء الشخصية لوالده كثيرًا، قرَّر أن يترك الأثاث الموجود على حالته، وجمع الأشياء في ثلاث كراتين من الحجم المتوسط.

كانت محصلة الكراتين الثلاث بضعة أثواب رثة: عباءتان إحداهما مصنوعة من الوبر، ومعطف كشميري طويل (لنتَّفق على أن نسميه البالطو كما يسميه ابن طرَّاق)، ومجموعة مختلفة من الملابس الداخلية، والأشمغة، والأثواب المغربية والعمانية، ومسجِّل (أبو كف) (مسجِّل صغير أكبر بقليل من حجم الكف ويكنَّى عند العوام بمسجِّل أبو كف). حتى مجموعة الدفاتر من نوع (أبوسيم) التي وجدها في غرفة نومه لم يأخذها، قلَّبها ووجدها لم تُستَخدَم البتة، وجد إحداها في غرفة الجلوس

وقد نزع ثلاثة أرباع الدفتر وبقيت قصاصات صغيرة متناثرة عالقة في السلك المعدني اللولبي الماسك بالورق. تعجَّب جبل قليلًا من منظر الدفتر، لم يجد في الدفتر أي صفحة مكتوبة، كأن الصفحات كانت تنتزع بعد الكتابة عليها.

مضى جبل وجمع ما استطاع جمعه من أشياء ابن طرَّاق وأمر صبحي بإغلاق الكراتين بشريط لاصق عريض بعد أن تمتلئ. لم يجد جبل شيئًا مما بحث عنه، لم يكن ثمة أوراق نقدية ولا شيكات ولا إيصالات مكتوبة. كان جبل يعلم أن ابن طرَّاق لا يحتاج لمكان يبقي فيه أوراقه، ربطات المال في جيبيه الجانبيين، وشيكات المدينين في جيبه الأمامي.

جمع جبل ما استطاع بمساعدة صبحي، ولم يترك شيئًا ذا أهمية في المزرعة. قبل أن يعود للمنزل ألقى بوصاياه على العاملين في المزرعة، وقفل راجعًا بصحبة صبحي، لم يتحدث البتة طوال الطريق، تمامًا كما فعل في ذهابه للمزرعة. حين وصل جبل عائدًا إلى المنزل أمر صبحي أن يفرغ الكراتين في ملحقه الخاص وبأن ينتظر هناك حتى يأتيه.

بعد مضيٍّ دقائق دخل جبل في ملحقه الخاص، كان صبحي واقفًا حينما أغلق جبل الباب خلفه، التفت إلى صبحي قائلًا:

- وشلونك يا صبحي؟

- الحمد لله يا عم.

أوجس صبحي خيفةً في نفسه، كان مترقبًا للحظة كهذه، جبل منذ يوم العزاء لم يسأله عن أي شيء من تفاصيل الليلة الأخيرة، وفي ذات الوقت كان يرمقه بنظرات حادة أصابته برعشة غير مرئية بدت في رده على جبل. جلس جبل على مركأ قرب الباب وأردف:

- يا صبحي، فيه موضوع أبي أسألك عنه، إنت تدري أن الوالد رحمة الله عليه كان في جيوبه فلوس دايم.

- صحيح يا عم، وكل الناس بتعرف ده.

- أدري أن كل النـاس تعـرف، بـس أنـا مـا علـيّ من الناس، اللي أعرفه أنك تدري عن الموضوع، وفوق كذا المال ناقص يا صبحي. وين راح بعد ما توفى؟!

- والله ما أنا عارف يا عم.

- الله ! أمال مين اللي يعرف يا أسطى؟!! (رد جبل بلهجة مصرية)

- والله ما أنا عارف يا عم.

- يا صبحي إنت بتكرر كلامك كل شوي! المال اللي في جيب أبوي ناقص. وين وديت الفلوس يا صبحي؟ اعترف أحسن لك ونغطي الموضوع.

- يا عم جبل أنا إش عرفني؟

- يعني إنت تدري أن في جيبه مال، وتدري أنه ناقص، ولا تدري وين راح؟ وتبيني أصدقك؟

- أنا إش عرفني إنه ناقص؟ يا عم والله...

قام جبل من مكانه، ومشى خطوات صوب صبحي قائلًا:

- ورا ما تعترف يا كلب؟

قبـض جبـل علـى أعلـى قميـص صبحـي تحـت عنقه، شـده حتى ضغطت قبضته على فك صبحي من الأسفل. قال مجددًا:

- اعترف أحسن لك، ترا والله أرسلك ورا الشمس.

بـدأ صبحـي فـي البـكاء والأنين، ارتعـدت فرائصه واختفت ملامح وجهه المتغضن.

لم تُجدِ محاولات التوسل من صبحي ولا التهديد من جبل لإنهاء محاولة فك لغز المال المفقود، صرخ جبل كثيرًا، هدَّدَ وشَتَم، رفَع يده فـي وجـه صبحـي بـلا فائـدة. قـرَّر جبل أن يمهل صبحي ثلاثة أيام ليعيد المبلغ وإلا سيرسله وراء الشمس، وختم تهديده الأخير قائلًا:

- أبرجع أربيك يا صبحي، أو أرسلك ورا الشمس.

ألقى بكلماته ومضى خارج الملحق، وصبحي تأكَّدَ أنه سيكون وراء الشمس، وأن ذلك احتمال مؤكَّد.

في اليوم التالي كان على جبل أن يمضي لطلب كشوف حسابات كاملة لكل حسابات أبيه في جميع البنوك بموجب الوكالة التي لديه. حصل جبل على ضالته بعد يوم مضنٍ، وجمع الكشوف كاملة، وأخذ يطلع عليها بعين فاحصة خبيرة، وعليمة بقراءة الأرقام.

ذهل جبل من هول المفاجأة التي اكتشفها، إذ تبيَّن له أن أباه قد سحب في اليوم السابق لوفاته مبلغ خمسمائة ألف ريال نقدًا من كشف حساب المصروفات اليومية عن طريق الفرع الواقع في المدينة القريبة من المزرعة. كان هذا الاكتشاف بمثابة الصدمة على جبل، إذ تعوَّد أن كل مبلغ يتم سحبه من قِبل أبيه أو مندوبه، يُسجَّل في اليوم التالي لدى جبل.

أرسل جبل في طلب صبحي عاجلًا، ناداه في ملحقه الخاص مرة أخرى، وجاء صبحي. بادره جبل سائلًا:

- يا صبحي، قبل وفاة أبوي بيوم، هل مرّ على البنك؟

- صحيح يا عم.

- طيب وين راح بعد البنك؟ ومتى بالضبط؟

- أنا وصلته للبنك بعد صلاة العصر على طول، وبعدها رجع للمزرعة، ما راحش على أي مكان.

- طيب، هل جاء أحد لأبوي في الليل في المزرعة؟

- أيوه يا عم.

- مين؟

- كان فيه الأخ سرحان.

- من معه؟

- يا عم ما يصحش، الميت في تربته دلوقتي.

عقد جبل حاجبيه، بدت خطوط جبهته محفورة في جلده كما خطين

متوازيين بدقة، وصرخ مجددًا:

- مين بعد يا كلب؟

- الست لوزية يا عم، كانت بتيجي كل فترة.

- يعني الخسيس ابن مسبط، والكلبة لوزية... بس؟ أو معهم أحد يا صبيّح؟

- كان في بنت كمان.

- وش اسمها؟

- مش فاكر يا عم. بس تاني مرة أشوفها.

- و بعد يا صبيّح ؟

- مافيش حد، همَّا دول.

- متأكد يا صبحي؟ ترا والله أن تروح ورا الشمس لو اكتشفت أنك تكذب؟

- والله ما بكذب يا عم.

قام جبل من المركأ، وقف مباشرة أمام صبحي، ورفع سبابته قائلًا:

- لو طلع هالكلام لأحد، أبرسلك ورا الشمس. سمعت؟

لم ينتظر جبل إجابة من صبحي، خرج من ملحقه الخاص وصوت الأذان يرتفع، رفع ذراعه اليمنى وسحب باليد اليسرى طرف كمه حتى المرفق، فعل بذراعه اليسرى كاليمنى، مضى صوب حوض المغسلة الخارجية، وشرع في الوضوء.

الراوي:

لا يهم إن كنت الراوي الأول أم الثاني، وفي واقع الأمر، نحن لا ندري من هو الراوي الأول، ومن هو الثاني.

حين اتفقنا على كتابة الرواية، وشرعنا بعد ذلك في كتابتها، لم نتفق على الترتيب، لكنَّا اتفقنا على أن نُطِل عليكم في كل فصل مرة واحدة على الأقل، ربما لتوضيح بعض الأمور التي

سوف تُشكِلُ على بعض القراء، وربما ليس إلا شهوة الحديث لأحدنا وثرثرة تعتمل في الصدور، وربما لا تجدون في ذلك فائدة أو ضرورة للحكاية. كل ما نرجوه ونأمله منكم هو أن نجتمع بعد نهاية كل مشهد هنا، نكوِّن معًا حلقة حولي وحول صديقي (الراوي الآخر) وتستمعون لأحاديثنا وثرثرتنا، ولهذه الحكاية التي نسجناها من حارة لم توجد سوى في خيالاتنا، وشخصياتٍ لم يمشوا سوى على أرض الورق، كما نؤكد لكم أننا لسنا أول مؤلفين روائيين أوجدوا أحياء وبيوتًا ومزارع هم مالكوها الوحيدون، ولن نكون الأخيرين بالطبع.

كما أن بإمكانكم في أي لحظة تشاؤون أن تنفضُّوا من حولنا، ولكم أن تبحثوا عن حكايات أخرى، وأشخاص آخرين، ولكم أيضًا أن تعيدوا قراءة هذا الكتاب، وإن شئتم فاختاروا ما تشاؤون من أبطال الرواية أصدقاء لكم، أو ربما أعداء. اتفقنا؟ نعدكم أن نفسح هذا المقعد للآخرين، لأي كائن يرغب في التنزه على أرض الرواية من الشخصيات، وسوف نجلس بجانبكم لنتحلق حولهم فيقصُّوا علينا ما يريدون، كما فعلنا في ما سبق.

حسنًا، نحن (لاحظوا استخدام نحن هنا) نعلم أن الكثير منكم يفتش الآن عن مكان، أقصد عن مكان أحداث الرواية. نحن نقول لمن يبحث: لا تفتش كثيرًا. المكتبات ومعارض الكتاب تمتلئ بروايات عناوينها مليئة بأسماء المدن، كالرياض وجدة والظهران وبريدة وتبوك وعنيزة، ناهيك عن أسماء الأحياء والشوارع... إلخ. سنكون (نحن) صريحين معكم، وسنقول لكم مباشرة: نحن هنا مشغولون بحكاية ربما تتكرر في كل مدينة، ومن العبث ربطها بمكان ما، لا تبحثوا، تأملوا فقط في الناس... أيها الناس. كان أحدنا في المستوصف الذي توفِّيَ فيه ابن طرَّاق،

والآخـر كان فـي المسـجد يصلـي عليه، وكنـا جميعًا في المقبرة، وذهبنا للعزاء في منزله.

حسنًا، كنا أيضًا في مجلسه المسائيِّ في المزرعة، كما كنا فـي غرفـة نومـه نسـتمتع بصـوت نجاة من مسـجل (أبو كف) في غرفـة نـوم ابـن طـرَّاق. لا تذهبوا بعيدًا بخيالكم، كان النور مُطفَأً. فيما بعد، سـنحكي لكم حكاية نجاة الصغيرة. حسـنًا، نرى أنكم تركتم الأماكن الآن وبدأتم البحث عن الأشخاص !

الفَصْلُ الثَّاني

(9)

فرج (الشقرديّ)

مضى شهران على وفاة ابن طرَّاق، وبدأ المال النقدي يُوَزَّع بين ورثته، وأصبحت مظاهر الثراء جلية. ازداد عدد السيارات الفاخرة أمام منزل ابن طرَّاق، وظهر شيءٌ من التنافر بين مظهر البيت العتيق الكبير وعدد السيارات الفارهة الواقفة أمامه.

كان أمر المبلغ المفقود ما يزال شغلَ جبل الشاغل. لم يشأ جبل أن يبلغ عن شكوكه للجهات المختصة بفقدان المبلغ، وعن وساوسه في إمكانية حدوث جريمة مرتبة لأبيه. ظنَّ جبل أن شيئًا من هذا الأمر قد يعيد النظر في كامل المبلغ المفقود، ولكونه تورَّط في أمر اختفاء المبلغ بشكل ما، مائة وواحد وثلاثون ألف وخمسمائة ريال اختفت مع جبل، لكنه كان على يقين أنه سيحل اللغز، وسيجد المبلغ ويستعيده لبيت مال ابن طرَّاق.

كان جبل محتاجًا فقط للهدوء، ولهذا أوصد باب منزل ابن طرَّاق دون الغرباء، لكنه لم يستطع إسكات الأصوات الكثيرة في البيت. كانت فردوس لا تتركه، إذ إن هاتفه المحمول لا يصمت، وشكواها وطلباتها كثيرة، وجبل لا يتأخر عن الطلبات. كان المال كثيرًا، ولا بأس من توزيع المزيد عليهم من نصيبهم، لكن ما لم يكن بالحسبان هو الشكوى على طرقي وأم طرقي. "طرقي يسوي، وطرقي يفعل... متى يطلعون؟ المنزل ما عاد يكفي!"، هذا ما كانت فردوس تصبُّه في أذن جبل دائمًا.

خارج المنزل أوصى جبل كل الموظفين والصبيان أن لا يقدموا على أمر يخص إرث ابن طرَّاق إلا بأمره، أصر على موافاته بالأمر حتى في بعض الأمور الروتينية اليومية، كما بقي على اتصال محدود ببعض

الأقرباء والمقربين، أبو ضاري والشيخ ابن مسمار وصملول وفرج كانوا في مقدمة المقربين. لم يستغنِ جبل عن استشارة ابن مسمار في كل قضاياه المتعلقة بالورثة، كما بقيَ أبو ضاري في منزلة الصديق والنديم الملازم لجبل، وصملول كذلك أصبح نديمًا آخر، نديمًا ارتبط به منذ الصغر وعاد لمكانته بعد هذه السنين، وانضم فَرَج لشلة المقربين بصفته الرجل الجديد على رفقة جبل.

أصبح فرج في منزلة قريبة من جبل، صار يؤدي كل المهمات التي لا يستطيع تأديتها موظف أو صبي أو قريب كرجل تنفيذي، يُطلب منه ويفعل.

اختفى فرج عن الأنظار مدة طويلة عن عيني جبل، حتى حضر ذات يوم مرافقًا لأبي ضاري في جلسة خاصة بعد مضي سنين من تركه لكرة القدم والمدرسة الثانوية، وأثار فرج استغراب جبل وإعجابه في ذات الوقت في تلك الجلسة. كان أبوضاري يقف مودِّعًا ومستقبلًا بين حضور امرأة وغياب أخرى، ويقبل عليه فرج قبل جلوسه في مكانه ويقبِّل كتفه، ولم يكن هناك تبرير ما لجبل حين رآه آنذاك. حين حضر فرج مرافقًا لأبي ضاري في أيام العزاء، كانت فرصة سانحة لفرج أن يكون (الشقرديّ) المقرب من جبل، ولاقى ذلك استحسان جبل ذاته والذي اصطفاه من جُلِّ الشقرديّة، وتوسَّم جبل في فرج مواصفات الشقرديّ الأفضل. كان جبل يلتقط كل التفاصيل التي تتم بين أبي ضاري وفرج في تلك الجلسات، احتفظ بها في ذاكرته، وحَسَدَ أبا ضاري على إخلاص فرج الذي لا مثيل له، وتمنى أن يكون بجانبه شقرديّ مثل فرج.

ما زال جبل يتذكَّر نهايات المدرسة المتوسطة، حين كان فرج بمثابة عرَّاف الكوميديا الأكبر. كان فرج يستطيع إضحاك الجميع، بمن فيهم وكيل المدرسة الصارم في ذروة غضبه، وأشدُّ ما أنطبع حقًا في ذاكرة جبل هو كيفية اصطياده للصبية المشهورين بوسامتهم، حتى أولئك

الذين لا يسمحون لكائن من كان بالاقتراب منهم خشية التحرش. كان فرج قادرًا على أن يكون قريبًا من جميع الطلاب، منحه الله القبول من الجميع، ولم تمنع بشرته السوداء البقية من الثناء على ظُرفِهِ وسؤاله في إعادة بعض المواقف الكوميدية التي يفعلها، ولم يكن بدوره يمانع البتة، وفي واقع الأمر هذا ما كان يهدفُ إليه حين يُقدِم على مشهد كوميدي.

كان فرج يتفنن في طرق إضحاك كل الأهداف المرصودة (الصبية المشهورين بوسامتهم)، وكانت لديه طرق كثيرة. كانت الطريقة المضمونة والأشهر لفرج (تضمن له العديد من الطلبات في ما يلي الفصل في الفسحة) فريدة من نوعها، وليس ثمة من يفعلها سواه، قوامه الرياضي يجعل من هذه الطريقة مستحيلة على غيره. كانت الطريقة تبدأ بمجرد مغادرة المدرِّس للفصل، يشرع فرج في المشي على يديه من آخر الفصل، وحين يصل إلى طاولة المدرِّس الخالية، ينبطح فوق الطاولة ويضرط بقوة. كان الفصل يضج بالضحك آنذاك، ويضمن فرج مرافقين جدد يطلبون منه تكرار الحركة في الفسحة. كان فرج يعلم أن هذه الحركة تُفرقع ضحكات الطلاب، وتُدمع أعينهم وتفقدهم السيطرة على أجسادهم من شدة الضحك، ويستثمر فرج تلك الفرص ويشرع في ضمٍّ وتحسُّس جسد هدفه المرصود، يبادله فورة الضحك بشكل أكثر إفراطًا حتى يستلقي في بعض الأحيان. في المقابل، شَرَعَ بقية المنافسين في وصمه باللقب الأشهر والذي لازمه طيلة عمره: فرج (طقعان).

في تلك الأيام، كان لفرج حظوة كبرى عند جبل، إذ إن جبل كان يتبع فرج حيثما كان، يكون أول الضاحكين حين ينتهي فرج من تجلياته الكوميدية، ويدخل في وسط الصبية وتفرقع ضحكته بينهم، وتسقط كل الحواجز بين الصبية المتضاحكين. كان جبل يستمر حينئذ في قهقهاته، ويستلقي لو استدعى الأمر الاستلقاء، ويمارس إصبعه الأوسط كل أنواع التمرد في مؤخرات الصبية، وينتقل من مؤخرة لأخرى، حتى مؤخرة

فرج لم تسلم من أصبع جبل. حين يكون مزاج فرج متعكرًا، كان جبل يعرض عليه شراء ساندويتش في الفسحة شريطة أن يقوم بعرض كوميدي آخر، لكن فرج لم يكن يقبل بهذا الأمر، مزاجه فقط هو من كان يقرر، ويضاعف جبل من عروضه، وفرج لا يغير قراره، يشتد غيظ جبل حينئذ ويصرخ فيه:

- يا طقعان ! (كان يُسمِع الصبية في ندائه)

يقابله فرج بكل برود قائلًا:

- طقعان يركبك !

لـم يكـن هـذا اللقـب يثقل كاهـل فرج في ذلك الوقت، كان معتدًّا بنفسـه وقدرتـه علـى مـس كل القلـوب بخفة رُوحـه. حين كبر فرج، بدأ اللقـب يغـرس خنجـره فـي قلبـه، كلما غضب أبو ضاري صرخ في فرج مناديًـا إيـاه بـذات اللقـب: (يـا طقعـان). بعد مضي فترة دخل أبو ضاري وفـرج فـي هدنـة، كان فـرج يقبِّـل كتـف أبي ضـاري، ويكف أبو ضاري عن مناداته باللقب. لكن أبا ضاري لا يؤمَن جانبُه، كلما ازدادت سكرته صرخ فيه بلا مناسـبة (يا طقعان)، وفي آخر الليل يدسُّ أبو ضاري في جيب فرج ورقة نقدية من فئة الخمسمائة ريال وينتهي أمر تلك الليلة.

المعضلـة أنـه حتـى أولئـك الذيـن غاب عنهم فـرج لأكثر من عقد مـن الزمـان، مثـل صملـول، لـم ينسـوا اللقـب مطلقًا. حيـن أقترب فرج من صملول في يوم الوليمة المشـهود لعزاء ابن طرَّاق، قبَّل فرج رأس صملول وقال:

- عمي أبو خالد كيف حالك ؟ ما عرفتني؟

نظر إليه صملول نظرة متعالية صاحبها تقطيب حاجبيه وهو يعدل عقالـه بعـد أن تحـرك مـن قُبلـة فـرج المفاجئـة، نظر له وردَّ عليه بشـفته اليسرى فقط والشك يغالبه في معرفته بفرج:

- من أنت؟

- أنا فرج، فرج عيدي.

- إيييه، إنت فرج طقعان !

قال صملول جملته ضاحكًا بينما أخفض فرج رأسه قليلًا، كان بمقدرته الرد عليه بأنه ما زال صملول (بقّ لي)، وألقاب كثيرة أخرى لا يجهلها فرج البتة، لكن الموقف تغيَّر كثيرًا، أصبح صملول صاحب سطوة، وغابت سطوة فرج كما كانت أيام المدرسة. أردف صملول قائلًا:

- ما شاء الله ! صرت يا كبرك يا فرج. (خبط صملول بيديه على ذراعي فرج)

- كله من خيرك يا عم.

- إيه، والله مانت سهل يا فرج. (هذه المرة، قال فرج وتوقف، أحس بخجل فرج من كنيته الشهيرة وبدا له أن الموقف ليس مناسبًا لاستكمال حديث كهذا)

فرج طقعان منذ ركلت الكرة اسمه خارج الملاعب وهو يعيش على الهامش. رافق أبا ضاري لفترة طويلة، ووجد فيه الرفيق الذي يستند عليه لو جارت عليه صروف الدهر. أما أبو ضاري فقد وجد فيه الصبي المخلص، يأمره فيطيع، يوجهه وينفذ، يحضر حين يشاء منقادًا له، ويبصق عليه لو أراد.

كان دخول جبل في حياة فرج بعد هذا الزمن خيارًا رائعًا له، وفرصة لتعديل وموازنة أموره مع أبي ضاري، سيبدو موقفه التفاوضي أقوى، وسيزرع بينهما غيرة كما زوجتين، وسيهجر أحدهما لو اقتضى الأمر. لن تعود أمجاد سطوته بأي حال، لكنه على أقل تقدير سيظل محاطًا بالأمل.

كانت المبادرة من فرج، أشار على أبي ضاري أن يستغل مناسبة رأس السنة لترتيب سهرة لا تُنسى على شرف جبل، ووافق أبو ضاري بحماس منقطع النظير، كما تكفَّل بها كاملة. أمر فرج أن يحضر أكثر من نوع من الخمر، وأوصى فرج بأن يتَّصل بلوزية ويأمرها بجلب نساء بعدد

مضاعف للمدعوِّين، كما أمر فرج أن يأتي بمنسق (دي جي) في هذا الحفل، وأكَّد أبو ضاري في أثناء وصاياه لفرج:

- نبي جبل ينسى أهله في هذي الحفلة.
- إنت تأمر يا عم أبو ضاري.
- أهم شي لوزية، لوزية بنفسها لازم تحضر مع البنات وتسهر للصبح، قل لها عمي أبو ضاري موصي بنفسه عليك يا لوزية.
- طيب يا عم.

أثنى أبو ضاري على فكرة فرج بأن يكون جبل هو المحتَفَى به، وسيدعوه بنفسه، كذلك صملول، قرر أنه لا بد أن يحضر، سيكون هو أيضًا وفرج رابعًا. راقت فكرة فرج كثيرًا لأبي ضاري، ورصد لها ميزانية ضخمة تليق لمناسبة كهذه، حضور جبل بعد حظوته الجديدة وصملول النجم الجديد.

فرج طقعان:

لا فائدة من هذه المقدمة، إما أن تكتبوا تاريخي كاملًا أو لا تكتبوا. ابتسار حياتي من مرحلة الدراسة المتوسطة وبتر ما بينها وبين وضعي الحالي لن يساعد هؤلاء الذي يتحلَّقون حولي ليعرفوني جيدًا، أو أن يتلمَّسوا خطواتي التي تعلمون أنها مليئة بالعراقيل، وأني كنت ربما سأكون ممن خلَّدهم التاريخ.

أنا أحب أن أدير ظهري لما مضى، وتاريخي حزين يا سادة، وللمرة الأولى أجد نفسي مُجبرًا، أو لنقل بشكل أدق: أجد من يدعوني لكي أتحدث عن نفسي، أجد من يريدني أن أقف وقفة تأملية وأفكر في حياتي! وقفة تأملية تشبه كثيرًا الليلة التي تسبق مباراة حاسمة، تضطجع فيها على فراشك، وتتأمل كيف يلعب الفريق الخصم، تبدأ في تقليب ذاكرتك وفرز الصور الموجودة في الذاكرة عن ماهية الخطة المناسبة لهزيمة الفريق الخصم، وعن

ماهية الحركة الأكثر مفاجأة للمدافع الذي تَعلَمُ أنه سيكون لصيقًا بك، وربما يمزِّق قميصَك. وقفة تأملية !

ها أنذا الآن أقف وقفة تأملية، أفكر فيها في حياتي، وأحاول أن أمرق إلى ذاتي وأنبش الذكريات التي رسمتني، والعراقيل التي لوَّنت حياتي بالألوان الداكنة، ليس ثمة ألوان بهيجة في أعماقي، ليس هناك سوى آلامي التي لا تفارقني. صدِّقوني إن الشخص الذي يستطيع إيجاد إجابات لكل الأسئلة التي تسكن في داخله هو شخص لم يعد يستطيع العيش.

أنا يا سادة لم أعد أرى سوى الألم في وقفتي التأملية هذه. من أعطاكم الحق في نبش رُوحي؟ أرجو أن لا تطلبوا مني ذلك مرة أخرى. اسألوني عن أبي ضاري، وعن جبل، وعن لوزية، وعن صملول، وعن طرقٍي، وعن أطفالي، وعن صعودي للمنصة ذات يوم. كنت لاعبًا فذًا بالمناسبة، لِمَ لا تكتبون ذلك عني؟

(10)

الوشايات - 1

وافقت دعوة أبي ضاري هوى جبل. كان شغوفًا بالعودة لهذه اللحظات التي يتجلَّى ويتصرف بكامل أريحيته. تأكد جبل من وجود فرج في هذا الحفل، حيث أخبره أبو ضاري أنه المنسِّق الأول له، كما ورد إلى علمه أن صملول سيكون موجودًا أيضًا، ولم يحزن بالرغم من موقفه الغريب في العزاء، كان يدرك أن صملول (أبو خالد) مختلف عن صملول (بقّ لي)، كما أن علاقته مع صملول عادت لمجراها مع شيء من الرسمية، هي فرصة مناسبة الآن ليقترب كل منهما للآخر.

منذ توفي ابن طرَّاق، وجبل لم يحضر سهرة واحدة في الشهرين الماضيين، لكنه ما زال يقضي وطره من محظياته وبائعات الهوى مرتين على الأقل في الأسبوع سرًّا. لم يكن من المستساغ حتى عند ندمائه أن يبحث عن جلسات كهذه وتربة أبيه ما زالت رطبة. هو أيضًا معتاد على عمل كثير من الأمور سرًّا، صلابة أبيه وحزمه في تلك الأمور لم يتركا له خيارًا كبيرًا.

لم يبِت جبل خارج المنزل سوى ثلاث مرات، في المرة الأولى قال لأبيه أنه سيذهب إلى مكة، شك ابن طرَّاق في عذره الذي قدمه، وبحث أمره مع ضابط مقرَّب لديه في دائرة الجوازات، تأكد أن ابنه جبل في القاهرة. اتصل ابن طرَّاق حالًا بابنه، وصمه بكل الشتائم التي في قاموسه وأمره في الحال أن يسافر عائدًا في أقرب طائرة مغادرة، وأن لا يبيت تلك الليلة خارج المنزل. عاد جبل في الحال ذليلًا مكشوف الأوراق لأبيه.

في المرة الثانية غادر جبل سرًّا إلى دبي بعد ذهاب أبيه إلى المزرعة،

وأمر طرقي أن ينوب عنه في حاجيات المنزل. في اليوم الثاني، حدثت وشاية يجهل مصدرها لابن طرَّاق، وعاد الأب للمنزل على غير عادته، انتظر جبل حتى يعود ذلك المساء. كان ابن طرَّاق يعلم أين مكان جبل، هاتفه بعد صلاة المغرب، أمره أن يأتي برًّا إن لم يستطع جوًّا، والمهم أن لا تطلع شمس الغد إلا وهو في المنزل. لم يكن لجبل خيار آخر، جبل كان شديد الحرص على المحافظة على شعرة معاوية بينه وبين أبيه، ثمة مارد مسالم في داخله.

المرة الثالثة كانت في البحرين، شرب جبل تلك الليلة حتى سكِرَ المارد وغدا متمردًا، ولم يكن من المعقول أن يدعه أصحابه أن يرحل، طلبوا غرفة له ليبيت فيها، وفي الصباح سيكون بإمكانه أن يعود إلى داره. بعد بضعة أيام عاد ابن طرَّاق من المزرعة، طلبه في المجلس الخاص، حذره أن هذه هي المرة الثالثة، وأنه يعلم كل ما يجول في داره وخارج داره. قال له بحزم هذه المرة:

- اسمع يا أبا القحاب، إن نمت مرة ثانية خارج المنزل بدون إذن مني، أبرسلك ورا الشمس ! (لا بد من التأكيد هنا على أن هذا التهديد كان ماركة مسجلة في قاموس ابن طرَّاق، ولا أحد يتذكر رجلاً غيره يهدد بالإرسال خلف الشمس)

لم ينبس جبل ببنت شفة، أنصت فقط لقول أبيه، ولم يكن متأكدًا من ماهيَّة المكان الذي خلف الشمس! كان يدرك أن الوشايات لا نهاية لها، لكنه آنذاك بدأ يقبض على طرف وشاية عن أبيه. أقرَّ بخطئه أمام أبيه، ووعده أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يبيت فيها خارج المنزل من دون إذنه، وأجَّل موضوع الوشاية الكبرى حتى تحين ساعة مناسبة، ساعة يكون فيها المارد الذي بداخله متمردًا.

هذه المرة، قَبِلَ جبل دعوة أبي ضاري بكامل أريحيته، ولم يكن محتاجًا للمارد مرة أخرى، دفن المارد مع أبيه، ولن يحاسبه أحد على

عـدم المبيـت بالبيـت، حتـى زوجتـه. كانـت زوجة جبـل قد غضبت مرة واثنتيـن بـلا نتيجـة، فقـدت الأمـل وسـخَّرت نفسـها لتربيـة أطفاله. كان المال شفيعًا لا يُرَد، حين تتعقد الأمور مع زوجته، يتدخل الريال ليحل المـأزق. عقبتـه الوحيـدة رحلـت، ابـن طرَّاق بات تحت التراب، وأصبح جبل بلا رقيب يردعه بعد اليوم. لم يشـترط جبل على أبي ضاري متى تبدأ السهرة، حين قال له أبو ضاري إن السهرة على شرفه فمتى يريدها أن تبدأ، رد عليه جبل:

- علـى هواكـم. أهـم شـي جهِّـز غرفـة الضيـوف فـي الفيـلا. أنا بستخدمها ويمكن أنام فيها.

ضحك أبو ضاري وأجابه:

- غرفة الضيوف والضيوف كلهم تحت أمرك.

فـرج بـدوره نسَّـق مـع لوزيـة كمـا أوصـاه أبـو ضـاري، أمرها بأن يكـون بصحبتهـا أجمـل البنـات، وأن تكـون هـي بصحبـة الجميـع حتى طلـوع الصبـاح. أثـار اسـتغرابها هذا الطلـب، فحين يتأخر الوقت لا يعد لهـا مـكان فـي الجلسـة، ومـن المسـتحب الخروج قبل الفجر. تسـاءلت وبادرها فرج قائلًا:

- والله هذي أوامر العم أبو ضاري.

- من بيحضر السهرة؟

- السهرة على شرف العم جبل.

- أوكيه، بس لا يكون موصيني على أجمل البنات علشان جبل؟

- أجل علشان مين؟

- يـا فريـج، أنـا أعـرف جبل زين، جبل ما يحتاج لأجمل البنات، هو مثل المقبرة، ما ترد ميت.

قالتها وضحكت بصخب، وأجابها فرج:

- والله عاد. حتى أبو ضاري وضيوفه لهم خاطر وهذي أوامره.

- طيب يا فريج، ولا يهمك.

لوزية تعرف جبل تمام المعرفة، وتحفظ ملامحه حتى ما خفي منها تحت ثيابه. جبل لا يشترط الكثير، المهم أن تكون امرأة، ولا بأس لو كانت مؤخرتها كبيرة، ستلهب جمرتيه وتوقظ شيطانه، وتشدُّ جسده الفارع وتنفخ في ناره التي لا تنطفئ.

كانت تجزم أن مزاج ابن طرَّاق أروع كثيرًا من مزاج ابنه. قالت لإحدى البنات التي برفقتها ذات مرة والتي قاسمت سريرها ابن طرَّاق وجبل أن الفرق بينهما كبير، العنود أكدت كلامها، وقالت لها إن جبل في الفراش كالبعير الهائج، أما أبوه ابن طرَّاق فهو مثل حصان السباق. لوزية، وبالرغم من أن الفرصة لم تسنح لها لحكم مؤكد على كلام العنود، إلا أنها أكَّدت ذلك، وأثنت على كلامها، شبَّهت ابن طرَّاق بالأرض الخصبة، كل بذرة لا تأتي سوى في موسمها، ولا تشاركها أحد في مكان الغرس، وحين ينتهي موسمها تأتي بذرة أخرى في وقتها وزمانها. أما جبل فهي تصرُّ دائمًا وتردد على أنه مثل المقبرة التي لا ترد ميتًا.

حين تأتي العنود من مزرعة ابن طرَّاق في اليوم التالي لزيارتها له، لا بُد أن تُعرِّج على منزل لوزية. كانت لوزية تطلب منها أن تقصَّ عليها كل ما أحسَّت به، وكل ما حدث بينها وبين ابن طرَّاق بالتفاصيل الدقيقة. كانت تنتظرها في كامل زينتها، في حضرة شاي منعنع ومكسرات الكاجو بالجبنة، محضرة كما تحب العنود، وتغلق هاتفها الخلوي. حين تبدأ العنود بسرد التفاصيل كانت لوزية تصغي لحديثها بكامل حواسها مثل طفل يقصُّ عليه أبواه قصة ما قبل النوم، تستمع لكل همسات العنود، وتلاحظ كل حركاتها وسكناتها، تدنو من أريكة العنود وتخفض رأسها، تنظر في عينيها وتنقل نظراتها في جسد العنود وصدرها وذراعيها، تبدأ أنفاسها بالصعود والهبوط، تخلع كعبها وتبدأ قدماها في تحسس بعضهما، تضم يديها إلى صدرها وتسحب نفسًا عميقًا. حين تنهي العنود التفاصيل

الحميمية تكون لوزية قد حلَّقت في سماء لا حدود لها، هائمة في فضاء ابن طرَّاق ومجرَّته.

في تلك الليلة، قال لها فرج أن تنتقي أجمل البنات كما طلب أبو ضاري، إذ إن الحفل على شرف جبل، ولوزية تعلم جيدًا أن جبل لا تهمه أجمل البنات، كل ما يهمُّه هو أن تكون امرأة فقط، وذات مؤخرة ممتلئة، وما سوى ذلك لا يهم في نظر جبل، كما تحفظه لوزية.

أبو ضاري:

كنت أتوق للحديث منذ الفصل الأول، ولم يسمحَا لي، وقالا لي: "انتظر دورك". في واقع الأمر: إنِّي منذ وليمة صملول (بقّ لي) الشهيرة، والتي ما زلتم تذكرونها، وشهوة الحديث تعتمل في صدري، لم يكن كلامًا كثيرًا، كان أكثره شتائم. نعم يا سادتي، صملول كان حقيرًا، بالرغم من أن جبل لا يقلُّ عنه، لكن صملول في ذلك المساء كان حقيرًا محترفًا، ولا بُد أن أؤدبه. سوف يحضر هذا الحفل، هاتفته بنفسي، وتأكدت من حضوره بعد إلحاحي عليه. أنا يا سادة متأكد أنه لم يكن بحاجة لهذا الإلحاح، ولا أخفي عليكم أني عرفت أخيرًا أين تخطو قدماه كل مساء خميس، وعرفت كذلك في أي سلة نفايات يرمي الواقي الذكري، وعرفت كذلك كيف يسهر، ومع من.

حسنًا أنتم ربما لا تصدقون ما أقول لكم، لكني سأعطيكم لو أردتم نسخة من فواتير هواتفه المحمولة الأربعة. نعم، لم يكن هاتفًا أو اثنين، كانوا أربعة. غلبني ابن الكلب. أؤكد لكم الآن أني سوف أعلِّقه كذبيحة مع أي فتاة تأسره تلك الليلة، وبإمكاني أن أخمِّن من الآن مَن تكون تلك الفتاة. وسوف أتأكد أن لوزية ستأتي بها تلك الليلة. لا بُد أن أتأكد من لوزية بنفسي، طقعان لا يمكن الاعتماد عليه في كل شيء، لكن حضوره مهم، على

الأقل لتجهيز (شكشوكة) الفجر.

سـوف أثبـت لصملـول أن الوليمـة الأكبـر لم تقم بعد، وأن وليمته سهلة النسيان مثل الضغط على زر (DELETE) لها، وأن النساء هن الوليمة الوحيدة التي لا يمكن أن يشبع الرجال منها.

(11)

أيامك يا نجاة

هاتفت لوزيةُ العنودَ، طلبت منها أن تجهِّز نفسها لحفل ليلة رأس السنة، وأكَّدت لها أنها اختارتها لتكون بصحبة بنات آخريات بالحفل. ذكرت لها أن أبا ضاري وجبل سيكونان هما سيدي الحفل، والعنود بلا شك تعرفهما جيدًا. رفضت العنود للوهلة الأولى، وردَّت على طلب لوزية بأنها لا تريد أن ترى جبل في أي ظرف كان، وشرحت لها، مبررةً أن وجوده يذكِّرها بطيِّب الذِّكر، المرحوم ابن طرَّاق. استمعت لوزية لمبررات العنود، وأخبرتها أن ذلك ما دعاها لتوجيه الدعوة لها تحديدًا، وقالت لها أنها ستجلب نساء أخريات، وستوصي إحداهن بسلب عقل وقلب جبل الذي لا يحتاج للكثير، وأن وجودها تلك الليلة سيكون للتاريخ فقط، كما أنها ستكون خير مُعين للوزية لتحمُّل ثقل دم جبل. في المقابل ألمحت العنود للوزية أن مؤخرتيهما لن تسلما في كل الأحوال من أصبع جبل، وحتى لو سلمتا من المبيت معه. لم تكن كل المبررات التي أسهبت في سردها العنود للوزية مقنعةً، كان طلب لوزية يشبه الأمر: "ستحضرين يا العنود، مالك عذر تغيبين أبدًا". هكذا أنهت لوزية نقاشها مع العنود، بصيغة الأمر القطعي.

لم تكن العنود تحمل أي ضغينة كبرى لجبل مثل لوزية، لكنها في المقابل لا تحمل معه أي ذكريات تبعث الدفء في النفس. في المقابل، تحمل العنود العديد من الذكريات مع أبيه ابن طرَّاق، إذ حين قابلته في المرة الأولى قبل ما يقارب السنتين من وفاته أتت لمزرعته بصحبة لوزية، أجفلت حين دخلت عليه في مجلسه وأحسَّ ابن طرَّاق بذلك. حين خرج ابن مسبط وتبعته لوزية، أمر ابن طرَّاق بالشاي المغربي، أحس

بخجـل العنـود وخوفهـا منـه. كانـت العنود صامتة طيلة الوقت، وبعد أن جيء بالشاي المغربي أخرج ابن طرَّاق من خلف المركأ الذي يتكئ عليه مسـجِّل من نوع (أبو كف). ضغط ابن طرَّاق على زر المسـجِّل وبدأت موسـيقى شـرقية، كانت أغنية (عيون القلب) لنجاة الصغيرة، ابتسـم ابن طرَّاق ابتسـامة عريضة، وبانت أسـنانه كلها، كانت أسـنانًا بيضاء مرتَّبة لا يبدو عليها أثر تقدم السن كما بدا على بعض ملامحه. صَدَحَت الموسيقى وبدأت نجاة تردد:

"عيون القلب

سهرانة ما بتنامشي"

وحين وصلت نجاة إلى مقطع:

"تبات الليل

تبات سهران

على رمشي"

شـرع ابن طرَّاق يغني معها بصوته الجهوري، قذف بشـماغه عن يمينه، وكانت العنود عن يسـاره. ابتسـمت العنود ولاحظت أن الطرب بدأ يطرق جسـد ابن طرَّاق مع موسـيقى الموجي وصوت نجاة، واصلا شرب الشاي المغربي وسماع الأغنية من مسجِّل (أبو كف)، وحين كان ابن طرَّاق يغني مع نجاة، يختفي صوت نجاة عند العنود.

في لقاء العنود الثاني بعد مضيٍّ عدة شـهور، أسـرَّ ابن طرَّاق لها بعد سماع الأغنية بسر محبته لها. كان جالسًا واتكأ، طلب منها المزيد من الشاي المغربي وبدأ يسرد حكايته، أخبرها أنه في نهاية السبعينيات، وحين فتح الله عليه أبواب رزقه، وبدأ العمل يمنحه المزيد، قرَّرَ الذهاب لمصر لاستقدام سائقي معدات ثقيلة. ذكر لها ابن طرَّاق أنه كان بصحبة أحـد الأصدقـاء مـن مقاولـي المنطقـة، وأخبرها في أثنـاء ذلك أنه أعطاه سُلفة ذات يوم (لم يكن ذِكر أمر السُّلفة ملائمًا مع سرد حكايته). أكمل

ابن طرَّاق:

- وصلنا القاهرة، وسكنَّا في فندق كان اسمه حسب ما أذكر فندق شبرد القاهرة، المهم أنَّا في اليوم اللي بعده جانا رجل أعمال مصري وهو صديق مشترك، عزمنا على الغداء ومشَّانا في القاهرة، ولزّم علينا نحضر حفلة لنجاة الصغيرة، والمشكلة أن صديقي كان من عشَّاق نجاة، وقَبِل الدعوة ولا شاورني. مشيت معهم مالي خلق في البداية، لأني ما كنت أعرف نجاة !

رشف ابن طرَّاق من الشاي المغربي وواصل سرد الحكاية، أخبرها أن الحفل كان يُقام في ما يشبه ملعبًا لكرة القدم من ضخامة المكان، وأنهم دخلوا المكان بصحبة رفيقهم المصري، وكانت أماكن الحاضرين ملأى بالجماهير. أكمل ابن طرَّاق:

- مازحت صاحبنا وقلت له: جايبنا نتفرج على كورة ؟ ضحك صاحبنا وقال لي اصبر. مشينا يالعنود بين العالم والزحمة، وكلما مشينا شوي أوقفنا واحد، ثم وشوش صاحبنا في أذنه ودسّ في جيبه جنيهات. مشينا حتى وصلنا لمقدمة الحفلة، كان بينًا وبين المسرح مثل ما تقولين بين جلستنا الآن وبين التلفزيون. جلسنا على كنبات جلد فخمة وانتظرنا. التفت صاحبنا وقال: "والله المكان مش مقامكم، مقامكم على الأقل في مسرح التلفزيون أو فندق خمس نجوم، لكن الآن ليل القاهرة جميل. وكله يهون عشان نجاة".

جلس ابن طرَّاق من متكئه وتربَّع، رشف مرة أخرى من الشاي المغربي وواصل سرد الحكاية، كرَّر جملة صاحبه: "كله يهون عشان نجاة"، كان يظن أنه أتى لحفل نجاة لتمضية بعض الوقت مجاملة لرفيق رحلته، رفيقه الذي طالما حكى له كثيرًا عن نجاة، ووصفها كما الأسطورة. حين أطلَّت كانت مبهرة حد الجنون، تبتسم طيلة الوقت وهي تغني، وكأن صوتها يأتي من مكان عصيّ على الحناجر، لم يعد ابن

طرَّاق يستغرب عشق صديقه لها. شرح ابن طرَّاق للعنود كيف كانت ترفع يديها وهي تغني كدعاء مودع، وكيف تبتسم حتى تغوص عيناها من الابتسامة. واصل ابن طرَّاق وصفه للعنود عن نجاة وأجواء الحفل، وأخبرها أنه بعد مضيٍّ ربع ساعة من الحفل كان الجمهور كله يقف، يغني ويردد معها ما عدا الصفوف الأولى المليئة بكبار السن، كان أحد المسنين فقط هو الوحيد الذي وقف وغنى معها، وكان يفصله عن ابن طرَّاق ثلاثة كراسي، بدا وكأنه في حالة انتشاء وتجلٍّ، وكان يهتز مع كل كلمة تصدح بها نجاة. واصل ابن طرَّاق حديثه:

- غنّت نجاة أغنية (عيون القلب)، وبدأ جسمي يهتز وكتوفي تتحرك، ويديني تصفق مع الأغنية. غنت نجاة مقطع الأغنية الأول تقريبًا في ربع ساعة، وكمّلت بالمقطع الثاني في مثلها، وكان صديقي يتبسم طول الأغنية كأنه مقابل بنت جميلة مثلك (لم ينسَ ابن طرَّاق تسريب مغازلاته وهو يسرد القصة).

ابتسمت العنود بعد هذه الجملة، وواصل ابن طرَّاق وبدأ حماسه في سرد الحكاية يزداد، أخبر العنود أن نجاة حين وصلت في غنائها:

"اِنت تقول وتمشي
وَ انا اسهر ما انامشي
ياللي ما بتسهرشي
ليلة يا حبيبي
سهّرني حبيبي"

- هنا بالتمام قمت من مكاني وهي تقول: "سهرني حبيبي، حبك يا حبيبي، لأكتب على الليالي اسمك يا حبيبي". قمت من مكاني يالعنود، قمت وأنا مبتسم مثل ابتسامتها، بدأت أردد معها وكأني أحفظ الأغنية، ورفعت يديّ مثل ما ترفعهم نجاة، قرَّبت من المسرح يالعنود، ناظرتني عين بعين، وابتسمت نجاة أكثر وهي تناظرني، وحسيت إني أطير. أطير

وأطلع المسرح وأرقص معها يالعنود.

سكت ابن طرَّاق لبرهة، بدا للعنود وكأن دمعة تكاد تفر من عينه. عاد ابن طرَّاق وحلف لها أنه منذ ذلك اليوم وهو يستمع في كل ليلة قبل المنام لهذه الأغنية، أخبرها كذلك أنه اشترى خمسة أشرطة لهذه الأغنية بصوت نجاة، وكان الشريط الذي في مسجِّل (أبو كف) هو أحدهم.

تلك الليلة ضاجع ابن طرَّاق العنود على أنغام أغنية "عيون القلب". ما تلا تلك الليلة أن العنود اقتنت كل ما وجدته في الأسواق من اسطوانات (السي الدي) لنجاة، لكن أجمل تسجيل لهذه الأغنية وجدته العنود لاحقًا معروضًا على موقع (اليوتيوب) على الإنترنت.

كم تمنَّت العنود أن يترك لها ابن طرَّاق ذلك الشريط كهدية تذكِّرها به، لكن ابن طرَّاق أبى أن يفرِّط في ذلك الشريط الذي كان الأخير من الخمسة التي اشتراها من القاهرة. كان ابن طرَّاق قد أهدى ثلاثة أشرطة لنساء أخريات قبل العنود وفقد الرابع، وأراد الاحتفاظ به، ولم يكن ليفرط بحيلة من حِيَلِه لكي يُلين قلب امرأة قبل أن يمتطيها.

العنود لم تكن قادرة على رفض أمر لوزية بأن تحضر تلك السهرة، سهرت تلك الليلة على أغنية "عيون القلب"، أعادتها أكثر من مرة، بكت لوهلة وفاء للراحل، وتمنَّت أن لا يطلع النهار التالي لكي لا تصطدم بالجبل مجددًا. أذَّن الفجر، ونجاة ما زالت تغني، بيد أن العنود غطت في سبات عميق.

لوزية:

يجب أن أخبركم أنه كان من المفترض أن تتحدث العنود هنا، لكنها رفضت، لم تكن في مزاج جيد يسمح لها، ولا بُد أن أخبركم أنها ترفض بشدة أن تأتي لمكان ما لوحدها، وأظن أن جبل سبَّب لها فوبيا من الرجال، ربما لديها عقدة بسيطة من تحرُّش ما تعرضت له في صغرها، وبمشهد يشبه مشهد إصبع

جبل تحديدًا. ليتكم أيها الرواة طلبتم منها أن تأتي لتتحدث معكم بصحبتي، لربما قَبِلَت الأمر. أرجو أن لا تغضبوا من ذلك؛ إذ ربما لن تكون الشخصية الوحيدة في هذه الرواية التي ترفض التحدث معكم، حتى وإن كانت أول من فعل ذلك. ليس في مصلحتكم أيها الرواة أن تغضبوا من العنود، وصدقوني إن الغضب على شخصية روائية يشبه ما يسمى بتعارض المصالح؛ إذ إنه من مصلحتكم أن تحبوا العنود مثلما تحبون بقية الشخصيات الروائية لكي تكتبوا عنها بحُب، كما أرجو أن لا تهددوا بقتلها في إحدى الصفحات، وأظن أن رفضها لن يعكِّر صفو تسلسل الرواية أبدًا. أظن أن العنود تفكِّر بحيرة في دعوتي لها، إذ قالت لي: "جلستي على السوفا أمام سهرات رأس السنة أجمل كثيرًا من سهرة مع جبل و(نقوط) أبو ضاري". ومع كل هذه المبررات التي سردتها، لم ولن أسمح لها بالغياب، أنتم تعلمون أن كلمتي لا تُثَنَّى، قلت لها ستحضرين على كل حال.

سوف تحضر العنود يا أيها القرَّاء، أؤكد لكم ذلك، ولن أسمح لهذا الراوي أو الآخر بأن يقتلها، فلا تخافوا كثيرًا، سوف تحضر، ولن تندم، حتى لو أيقظ إصبعُ جبل سخطَها. أنا أدرك تمامًا أن باستطاعة كل الأجساد أن ترقص، وعليك فقط أن تجد الإيقاع المناسب لكل جسد في مزاج مناسب، حتى ولو دفعت ذلك الجسد دفعًا لحلبة الرقص.

(12)

أمسك حرامي

"لما يسلم عليه
و الا يقولي كلام
عايزاه ورا كل كلمة
أقوله يا سلام... يا سلام... يا سلام"

أفاقت العنود من نومها وهي تردد يا سلام، يا سلام. تمامًا مع نجاة التي ظلت تغني طوال نومها والسي دي يعيد نفسه كلما انتهت الأغنية.

جلست العنود على سريرها تستمع وتردد، كان شعوراً بأن يوماً عصيباً سيمرُّ عليها، سوف تستقبل سنة جديدة بصحبة الرجل الجبل. شعرت العنود أن الأنوار حين تُطفأ، سيغرس جبل إصبعه الأوسط في مؤخرتها، وستحس بالخزي، الخزي الذي لم تحس به مع ابن طرَّاق. قطعاً لن تكون الأولى، إذ أن جبل عوَّدها على أصابعه منذ بداية السهرة. كان جبل يجلب معه (سي دي) خاص من كل أغنيات (المعلاية)، و(سي دي) آخر للأغاني العراقية الشعبية، وحين تبدأ إيقاعات أغنية (دقني دقني) يصيبه المس، وحين تشرع البنات في الرقص، ينثنين للأمام وتبقى المؤخرات بارزات، يبدأ جبل في التجول بين المؤخرات، يغرس إصبعه أنَّى شاء. جل البنات تعودن على ذلك من جبل، وبعضهن يجدن فيه نوعاً من المداعبة الأولية، وبعد فترة من الزمن، بدأن في مفاوضات معه. بدأت هذه الحيلة (سوير الهبلا)، إذ حين يفاوضها جبل، تسأله: "مع الأصابع في السهرة والا بدون؟" وجبل كان يوافق في نهاية الأمر، كان ينفق بسخاء على إصبعه.

قامت العنود من السرير، أغلقت (السي دي)، أتت بالكمبيوتر

المحمـول، وضعتـه علـى طاولـة التسـريحة ووقفت أمـام المرآة، فتحت قائمـة الأغانـي المفضلـة، اختـارت أغنيـة نجاة من موقـع الـ (يوتيوب)، فتحت الشاشـة على اتسـاعها، خطَّت بقلم (روج) على شـفتيها، أخذت شالًا ولفَّته على رقبتها تمامًا كما تفعل نجاة، وبدأت تقلِّد نجاة. كانت تغني حين تغني نجاة، وتبتسم حين تبتسم أيضًا، وترفع يديها كما تفعل نجـاة. تخيلـت العنـود أن ابـن طـرَّاق يجلـس أمامها في الصف الأمامي، تجلَّـت وهـزَّت كتفيهـا هـزة سـريعة تمامًـا مثل نجاة. ظلـت هذه الأغنية تـردد فـي أسـماعها فتـرة طويلـة مـن الزمن. كان ابن طـرَّاق هو الوحيد الذي يضاجعها على أنغام أغنية، فيما بقية الرواد يمتطونها ولهاثهم يملأ الغرفة، وتضج الشياطين بأصواتهم. في حضرة جبل كانت الشياطين ذاتها يملؤها الرعب من لهاثه وإصبعه الأوسط. كان إذا انتهى من المضاجعة الأولى، يقوم للحمام، ويعود بعد أن يغتسل. بعد مضيٍّ عدة دقائق، يزأر مثل أسد مخنوق قائلًا:

- هاااااع، مرة ثانية؟

كان جبـل يسـأل ولا ينتظـر إجابـة، تبـدأ يـده بالعبـث، وإصبعه في ممارسة هوايته المعتادة.

رنَّ هاتـف العنـود الجـوال، كانـت لوزيـة علـى الطـرف الآخر من الاتصـال، تأكـدت مـن حضورهـا، وأوصتها على اكتمـال زينتها كعادتها مع كل البنات، وطلبت لوزية من العنود أن تكون جاهزة بدءًا من الساعة السـابعة مسـاء، وأن تفرغ نفسـها حتى اليوم التالي، أخبرتها أن السـهرة سـتبدأ مبكـرًا هـذه المـرة ولا بُـد أن تحضِـر معها ملابس لآخر السـهرة، وللسرير، وأخرى لصباح اليوم التالي.

اختارت العنود أن تلبس جلابيّة واسعة. كانت العنود تعلم أن جبل لا يحب الملابس الواسعة، كان يحب الفساتين القطنية الضيقة أو الجينز الضيق، والتي تُظهِر تفاصيل الجسـم الأنثوية، وتملأ عقله بالرغبة حين

يـرى الردفيـن مكوَّريـن مـن خلـف اللباس الضيـق. كانت تلك هي نقطة انطلاقه، وانتصاب إصبعه الأوسط، لكنها تعلم جيدًا أن ملابسها لن تشكِّل نقطة خلاف مع جبل فيما لو كانت هي المرأة الوحيدة في تلك السهرة، لن يفكر جبل كثيرًا في ماذا تلبس، وما لا تلبس، أما مع المرحوم الشيخ أبـو طـارق (الاسـم الحركـي لابـن طـرَّاق)، فلا بُد مـن الحرص في ماذا تلبس، وما لا تلبس، لا بُد أن تأتي في أول السـهرة إما بجلابيّة مغربية مطـرزة، أو أن تلبـس جلابيّـة قطنيـة مصريـة مفتوحـة مـن الجانبين حتى منتصف الفخذ، يؤتى بها من قطنيات منطقة كرداسة في مصر. في آخر السهرة، وبعد رحيل لوزية وقبلها ابن مسبط، لا بُد أن تغيِّر لباسها وتلبس فستان سهرة قصير إلى منتصف الفخذ، تأتي وتجلس إلى يسار أبي طارق فوق (جاعد) مخصص لا يخرج إلا في المساء. كانت العنود تجلس على الأرض فـوق (الجاعـد) المصنـوع مـن فراء الخـراف، تتكئ على المركأ بيدها اليسرى وتضم قدميها إلى يمينها فينحسر الفستان القصير إلى أعلى الفخـذ. كان ابـن طـرَّاق يتأمـل الفخذيـن والصدر النافر المطل من فتحة الفستان، وتبدأ إثارته تتصاعد ببطء مثل بخار ماء فوق نار هادئة، يُسلطن مع هذه البانوراما البصرية على أنغام نجاة وكيف الشاي المغربي. كان ابن طرَّاق في سنواته الأخيرة يبتلع حبة واحدة من (سنافي) أو (فياجرا) فيما فتاته تغيِّر ملابسها.

شـتان بيـن جبـل وأبيـه، ولا مجـال للمقارنـة بينهمـا، الكفة في كل الحالات تميل لصالح أبي طارق، كانت العنود دائمًا تقول ذلك، وتؤيدها لوزية.

جهَّـزت العنـود عدتهـا التـي سـتأخذها معها للفيـلا، كانت محبطة وتحس بشي يقبض قلبها، لم تكن راغبة البتة في المجيء لهذه السهرة، سـيكون التلفزيون وسـهرات رأس السـنة ممتعًا في مثل هذه الليلة كما أسرَّت للوزية، كانت ستشاهد المنجِّمين وقرَّاء وقارئات الأبراج، وربما

يبعثون لها ببارقة أمل في أن السنة القادمة سوف تأتي بحظ أكبر لبرجها، أو ربما يطرق بابها زوج (كان هذا الحلم يرهق روحها كثيراً). فتشت العنود في عقلها عن ذرائع أخرى تسوقها للوزية تمنعها من الخروج هذه الليلة، لكنها تخضع كثيرًا لأمر لوزية، وتكنُّ لها قدرًا كبيرًا من الاحترام مثلما تبادلها لوزية مودة مختلفة عن بقية البنات. المعضلة أن لوزية لا ترد طلبًا لزبون مميز، وأبو ضاري مميز لدى لوزية، ومفضَّل لدى البنات.

كان أبو ضاري رجلًا يغرق السهرات بالريالات على النقيض من جبل الذي يفاوض حتى العامل البنغلادشي الذي يغسل سيارته. تعرَّف جبل على أبي ضاري من أواخر سنين الدراسة الابتدائية، كان في نفس الدفعة التي خرج منها جبل وصملول وفرج، اختلفوا فقط في سنة التخرج من الثانوية العامة. كان أبو ضاري يُعَدُّ أشهر مطلقي الألقاب، وأكثرهم تسلُّط لسان، لذا تخرَّج في المدرسة من دون أن يلتصق به أي لقب. على الرغم من ذلك كان كل طلاب المدرسة آنذاك تحيك في نفوسهم ألقاب كثيرة، ولم يجرؤ أيٌّ منهم أن يطلقها كبالون في الهواء ودفنوها في صدورهم. كان فرج يحفظ أكثر من أربعة ألقاب لأبي ضاري: السروق، شخيطان، مرزوق أبو حزام، وأبو سعبولة.

حكاية ألقاب مرزوق هذه جديرة بالذكر، أما لقب (السروق) فارتبط كثيرا بأبي ضاري، ولم يكن أحد يجرؤ على النطق به سوى فرج في أيام سطوته الكبرى. كان أبو ضاري هو حرامي الدرَّاجات الهوائية الأول (السياكل) في المدرسة المتوسطة، تخصَّص في تغيير شكل السيكل في ظرف ساعة واحدة. كانت أبسط حركة يفعلها مرزوق هي تغيير جلدة كرسي السيكل. كان يأتي برقعة مقصوصة على حجم أكبر بقليل من الكرسي ويضعها على الجلدة الأصلية، ويرتقها بلاصق (بوتيكس) من النوع القوي. بعد ذلك، يجلب معه دبابيس كبس مسروقة ويمر على أطراف الجلدة الجديدة ويلف محيط الجلدة بالدبابيس. كانت المرحلة

الثانية من تغيير هُوية السيكل تكمن في إضافة أزياج السيكل أو اللاصقات الرفيعة التي تُستَخدَم للتزيين. أما المرحلة الثالثة فكانت في تشحيم جنزير السيكل بشحم بني ثقيل يقلل من سرعة السيكل، وتُستَخدَم في إثبات أن هذا السيكل ليس لمالكه، ولو جرب قيادته سيكتشف الفرق. فرج ومن بعد ذلك جبل كانوا يدركون كل هذه الحيل ولم يحركوا ساكنًا، كان الأمر لا يعنيهما في شيء سوى أن لا يسرق مرزوق (السروق) سيكلا لولد شفيعه جمال مظهره، لو حدث ذلك فإن فرج يتدخل بكل أريحية متسلِّحا بسطوته على الجميع لاسترجاع السيكل مع المحافظة على سرية عمل مرزوق. (شخيطان) أيضا كان لقبه الآخر الذي لا يجهله فرج، إذ إن فرج هو من أطلق عليه هذا اللقب لنحالة مرزوق الشديدة، بينما فرج كان معتدًّا ببنيته الرياضية. أما لقب (مرزوق أبو حزام) فارتبط في المدرسة المتوسطة، حين تخصَّص أبو ضاري في سرقة أحزمة لف الكتب البلاستيكية والقماش. كان مرزوق يجمع في الأسبوع الواحد ما يقارب العشرين حزامًا ومن ثَمَّ يبيعها في الحراج عصر الخميس.

كان لقبه الأخير والذي يثير غيظه هو لقب (أبو سعبولة) لكثرة بصاق أبي ضاري في سنين المدرسة المتوسطة، وليس ثمة من كان لديه الشجاعة لوصمه بذلك. في بدايات المرحلة الثانوية، وحين أصبح مرزوق يبصق حتى في الفصل في قمع مصنوع من ورقة دفتر، أدرك فرج أن مرزوق بدأ ممارسة شرب (التنباك). كان مرزوق يحمل كيس نايلون صغير في جيبه على الدوام، وحين تأتيه الرغبة يأخذ حفنة صغيرة في أصابعه الثلاثة، الإبهام والسبابة والوسطى، ويضعها في فمه بين أسنانه السفلى وشفته الأمامية. بعد ذلك، يضغط مرزوق بأصبعه الإبهام على المزيج المطحون، تسري النشوة في جسده ويبدأ بالبصق في القمع الورقي المخروطي الشكل. كان فرج الشخص الوحيد الذي يجرؤ على نطق لقب مرزوق (أبو سعبولة)، ويرمقه أبو ضاري بعينه الحادة ويقول:

- سعبولة في وجهك !

هذه الأيام لا أحد يناديه سوى بأبي ضاري، وكان يفتخر بذلك، ولو أراد أحد أن يتبسَّط معه في الحديث، يقول مرزوق (شنب)، إشارة لشاربه الكثيف، والذي تَعبَ عليه كثيرًا، حلقه بالموس بعد الثانوية مرات عديدة، ودهنه بزيت الحشيش ليالٍ طويلة، حتى أصبح شاربًا كثًّا يستحق التعب. كان أبو ضاري يقول: لا أحد يستحق شاربًا مثله سواه وصدام حسين وريفيلينو. كان الشارب الكثيف بالنسبة لمرزوق رمزًا للرجولة، ومظهرًا من مظاهر الفتوة والقوة. كان معتدًّا بنفسه وشاربه، ويكرر أن صدام يستحق شاربًا كشاربه لشجاعته، وقدم ريفيلينو اليسرى تستحق شاربًا يباهي به أمام كل اللاعبين الذين وطئت أقدامهم ملاعب الكرة.

كان مرزوق (شنب) يستمتع حين يروي لجبل عن عمل جبار، مثلًا كبيعه خردة بمبلغ عالٍ، أو استظهاره لتأشيرات العمالة وبيعها بمبالغ مضاعفة، ويرد عليه جبل قائلًا: "عز الله إنك شنب". في إحدى المرات ذكر مرزوق لجبل أنه استخرج أكثر من مائتي تأشيرة عمل لأبيه، وكلفته ما يقارب الستمائة ريال للتأشيرة الواحدة، وطلب من أبيه ألفي ريال على التأشيرة، مقسمًا أنها كلفته هذا المبلغ. أخذت الحماسة جبل قائلًا:

- يلعن إبليسك يا شنب، كيف لهطت الشايب ومشاها لك؟!

ضحك أبو ضاري قائلًا:

- كان محتاج للتأشيرات وغصب يدفع.

في واقع الأمر وضع مرزوق أكثر من ربع مليون ريال في جيبه من أبيه دون وجه حق، وفي رؤية أبسط سرق أبو ضاري أباه، وأبو ضاري لو قدر على سرقة ربِّه لفعل.

في ذلك اليوم قررت العنود أن أبا ضاري هو الخيار المفضَّل؛ لجهلها بالضيوف الآخرين، وكان الخيار الأجمل في مقابل جبل. فكرت أن أبا ضاري على الأقل لا يستخدم إصبعه خلال السهرة، وحدست

كذلك أنه حين يغلق باب الغرفة ستكون (العنود) قد استعانت بصديقين على الأقل: زجاجة ويسكي، وخيال ابن طرَّاق، وربما صوت نجاة.

أبو ضاري:

لم يكن من المقرر أن أبوح هنا، كان من المفترض أن تتحدث العنود التي ترفض البوح رفضًا قاطعًا لا أدرك كُنهَه.

المهم أن السهرة سوف تقام، وأود التعليق على ما كُتِبَ أعلاه: أنا لم أكن سارقًا، وما يقوله هؤلاء كذب وافتراء. كنت أتمنى أن يواجهوني بهذا الافتراء قبل أن يكتبوه ويحاولوا تضليل بعض القراء. إن الكتابة أمانة يا سادة، أنا لا أتقمَّص دور الخطيب من مكاني هذا، وأعلم أنكم ستقولون إن هذه رواية وليست كتاب تاريخ. وهنا تحديدًا أسجِّل اعتراضي بشدة. دعوني أشرح لكم: إن ما أسمعه دومًا من الكثير أن الرواية أصدق من التاريخ، وأن التاريخ لا يكتبه سوى المنتصرون، فيكتبون ما يروق لهم، لكن الرواية هي تاريخ من لا تاريخ له، ولهذا يلزم الصدق في سرد الحكايات.

بإمكاني أن أقول إنَّ كلَّ هذا لا يهمُّ، أنا أعلم أنهم يكتبون عني، ولا أهتم بروايتهم ولا بتاريخي، ما أهتم به أن لا يسيئوا لسُمعتي. أنا في النهاية رجل أعمال بارز ومعروف، وحديثهم بهذا الإسفاف عني يؤثر على عملي وعلاقاتي، بل وحتى على سهراتي. ماذا لو سمعت لوزية هذا الكلام؟ سوف تسنُّ لسانها السليط عليَّ كما تفعل مع جبل، ولا أريد أن أكون في مكان جبل أبدًا. بصدق، أنا أتأسف كثيرًا على حاله منذ كان بجانبي في الصف الثاني متوسط، كان أقصى مداه إصبع، بينما هو جبل. هل تخيَّلتُم حجم مأساته؟ فكيف يقولون: كلٌ له من اسمه نصيب؟ لا تقسوا كثيرًا عليه حتى لو كان حقيرًا، هو بالمناسبة حقير بالفعل. هاهاها.

(13)

سنة سعيدة

كان جبل أول المدعوين وصولاً إلى الفيلا. وصل جبل قبل صاحب الفيلا أبي ضاري، وجد فرج أمامه وقد تم تجهيز المكان للسهرة المنتظرة.

فتح فرج الباب لجبل، رآه وردد:

- هلا والله بعمي، هلا بالشيخ ابن الشيخ.

قبَّل فرج رأس جبل مباشرة وهو يقول:

- تفضل يا عم.

دخل جبل للفيلا الموجودة بداخل مجمع سكني مخصص للأجانب ذوي الوظائف العالية، أو أشباه أبي ضاري، دخل وعيناه تجولان في كل اتجاه. بدت صالة الفيلا الواسعة بعد تجديد ديكورها وأثاثها أشبه بصالة (ديسكو) نخبوية: الإضاءة الخافتة، والروائح الزكية التي تبعثها الفوَّاحات في كل اتجاه، والشموع المُعَطَّرَة وأرضيات (الباركيه)، وشاشة (البلازما) العريضة، والسماعات الضخمة المعلقة في كل الزوايا، والبار الموجود في طرف الصالة. بدا البار مليئًا ومُجهَّزًا بالكثير من أنواع الخمر والعصير والمشروبات الغازية ومشروبات الطاقة والماء والثلج. ذُهِل جبل لوهلة وهو ينظر، تحدث لفرج قائلًا:

- لعنة الله عليك يا فرج، ما تركت شيء ما جبته هنا، خبيث !

ضحك فرج وقال:

- ما شفت شيء يا عمي.
- وين أبو ضاري ؟
- أبو ضاري ما يجي مبكر، هذي سهرة ما هي عشاء !
- وش تقصد يا طقعان؟

- إنت جيت بدري يا عم، كان المفروض إنك ما تجي إلا متأخر، لأن الحفلة على شرفك.

- ليه يا ؟

- برستيج، هذا هو البرستيج في السهرات ومع البنات.

- إخس يا طقعان، صرت تعرف عن البررريستييج يا خبل، أنا جيت مبكِّر عشان أختار اللي أبيها قبل الباقين، لو جيت متأخر، ما راح ألقى غير المتردية والنطيحة، فهمت يا راعي البررريستييج؟

دخل فرج في نوبة ضحك هستيرية، فرقعت ضحكته عاليًا وقال لجبل:

- الله يقطع إبليسك يا جبل، إلى الآن وانت بنفس التفكير من أيام الصبيان، ما تبي يفوتك شيء.

كان فرج متعمدًا أن يكسر حِدَّة الرسمية في حديثه وتذكير جبل بلمحة من أيام سطوة فرج، إذ إن جبل ردد كلمة طقعان عدة مرات منذ دخوله للفيلا، لكن جبل لطمه مقاطعًا:

- كول تبن يا طقعان ولا تنسى نفسك. رح وهات المزة والمكسرات، وكلِّم عمك أبو ضاري، ليه تأخر؟ يللا يا طقعان.

ذهب فرج إلى المطبخ، كانت محاولة فاشلة بالرغم من جرأتها. جهَّز طلبات جبل وهو يهجس (الدنيا دوَّارة).

جلس جبل على الصوفا الحمراء الكبيرة أمام شاشة البلازما، كانت قناة (غنوة) على الشاشة، ورفع الصوت وهو يردد: "هلا والله". كانت أغنية المطربة العراقية ساجدة عبيد تصدح، "شقول لامي من أروح انكسرت الشيشة". لم يكن حماس جبل وتصفيقه للمطربة، بل كان للراقصات على الأغنية. رنَّ جرس الفيلا، أخفض جبل صوت التلفاز، ونادى فرج:

- يا فرج، رد على الباب.

فتح فرج الباب، جبل كان ينتظر القادم بحماسة شديدة. دخل شاب ضخم البنية، يرتدي (جينز) و(تي شيرت)، ويحمل معه أجهزة، صرخ جبل في فرج:

- من هذا يا فرج؟

رد فرج:

- هذا غسان، الدي جى.
- من هو ؟
- دي جي يا عم، هذا اللي يرتب الأغاني.

أشار جبل لفرج بأن يقترب، وهمس في أذنه:

- وش جنسيته؟
- هذا من أبو شكيب.
- تعرفه زين؟
- أكيد، دايم يجي هنا في السهرات الكبيرة.

التفت جبل لـ (الدي جى) قائلًا:

- شو يا حبوب، عندك أغاني معلاية؟

ضحك الدي جى وأجاب:

- كل شي عندي كرمالك وكرمال أبو ضاري.

شرع (الدي جى) في ضبط الصوت والأجهزة، ودخل أبو ضاري بعد بضع دقائق مرددًا:

- هلا والله ومرحبا، هلا بالغالي جبل.

تعانق أبو ضاري مع جبل، طلب فرج وقال له:

- وين الويسكي يا فرج؟ حضر لنا كأسين (سنجل)، واتصل على لوزية والبنات؛ تأخروا !

حضر فرج ومعه كأسان من الويسكي ماركة (بلاك ليبل)، وضع فرج قطعتي ثلج فقط كما تعود مع أبي ضاري. رفع أبو ضاري الكأس

لجبل مرددًا:

- في صحتك يا جبل.

استوقفه جبل وهو يقول:

- حطّ عليه أي شيء يغير طعمه.

ضحك أبو ضاري وصرخ في فرج:

- هات (دايت كولا) يا فرج واخلط لعمك جبل، وحضر كأس لغسان، نبيه يدخل جو معنا بالأغاني.

بدأ غسان يرتب الأغاني، كان يرتشف كأس الويسكي ويضع السماعات على أذنه ويشعل سيجارة المارلبورو الأحمر. بدأ بأغنية راشد الماجد "هلي لا تحرموني منه". شرع أبو ضاري في التصفيق قبل أن يهم بشرب الكأس الثانية، وجبل ما يزال يزيد على كأسه الأولى من (الدايت كولا)، كان يرتشف منها قليلًا ومن ثَم يزيد. بعد أغنية راشد دخل رابح صقر بأغنية "في منتهى الرقة في منتهى الذوق"، ومع صوت رابح خرج فرج من المطبخ ليفتح الباب بعد أن هاتفته لوزية على هاتفه المحمول. أطلت لوزية من خلف الباب وتبعتها البنات، دخلت لوزية أولًا وهي تهم بخلع النقاب، مشت خلفها مجموعة من البنات وفرج يعدُّهن ليطمئن، حتى وصل العدد لستٍّ بنات، كان من بينهن العنود وسوير الهبلا وهنادي، ولم يتعرف على البقية منهن.

توجهت لوزية لجبل وأبي ضاري مباشرة قبل أن تخلع العباءة، بيد أن الأخريات قادهن فرج إلى غرفة النوم الرئيسية في الدور العلوي، وذلك لخلع العباءات والتأكد من الماكياج، ولا مانع من رشٍّ جرعات إضافية من العطور المثيرة قبل النزول للصالة. عانقت لوزية أبا ضاري وجبل عناقًا حارًّا. جبل كان يردد:

- انتبهي، لا يطبع ماكياجك فينا يا...

ضحك أبو ضاري وهو يقول:

- إلى الآن تخاف يا جبل !

قاطعه جبل:

- اللي كنت أخاف منه مات، وغيره ما يهم.

قاطعته لوزية قائلة:

- قول الله يرحمه بس!

لم يرد عليها جبل. جلسوا قليلًا حتى بادر جبل قائلًا وهو ينظر باتجاه الدرج ونزول البنات تتقدمهن العنود:

- هلا بالحلوين.

تقدم جبل باتجاه البنات، بدأ بتقبيلهن واحدة تلو الأخرى، وبادره أبو ضاري قائلًا:

- أركد يا جبل، وش فيك ما شفت خير؟!

في تلك اللحظات صرخ أبو ضاري في فرج طالبًا منه أن يفتح الباب لصملول بعد أن اتصل به على هاتفه المحمول. دخل صملول للفيلا وهو في قمة أناقته، سلَّم على جبل وأبي ضاري عناقًا وصافح لوزية والبنات. اختار صملول الجلوس على إحدى الكنبات المفردة ذات الطراز الكلاسيكي. أشار صملول لفرج، وطلب منه تجهيز كأس ويسكي مع قليل من (الدايت كولا)، ونقدَ فرج مائة ريال في يده وطلب منه إحضار رأس معسل عنب.

افتتح أبو ضاري (التنقيط)، بدأ برشَّة بسيطة، نادى فرج ومنحه ألف ريال من فئة مائة أمام جبل وصملول قائلًا:

- رشّ على البنات والدي جى يا طقعان.

وضع فرج في أعلى صدر كل بنت مائة ريال، ودعا لوزية التي قامت ورقصت بدورها ووضع في أعلى صدرها ثلاثمائة ريال، اتجه للدي جى ووضع مائة ريال على الطاولة. بعد أن أشعل أبو ضاري السهرة بهذه الحركة، انطلق صملول للتعبير عن وجوده أولًا وإظهار إعجابه

بالعنود ثانيًا، طلب من غسان أغنية "ادلع يا كايدهم" لعبد المجيد عبد الله واتجه للعنود طالبًا الرقص معها، رقص قليلًا ثم فرط فوق رأسها ألفي ريال بأوراق من فئة مائة ريال. أما جبل فتوجَّه بعد ذلك للحمام، أخرج ستمائة ريال بأوراق من فئة مائة ريال، وضعها في جيبه العلوي، خرج واتجه للبنات وهن يرقصن وبدأ بتحسس صدورهن بحجة وضع المائة ريال، وما إن يضع المائة وتدير الفتاة ظهرها، يطعنها جبل طعنة متوسطة القوة بإصبعه. ظلَّ جبل متجليًا بكامل أريحيته في كل الحركات التي تظهر منه، لم تزعجه اتصالات فردوس المتكررة، ورسائلها النصية، واضطر في نهاية الأمر إلى إغلاق هاتفه المحمول الثاني، وترك الهاتف الثالث فقط والذي لا تعلم رقمه فردوس، كان مخصصًا لأغراض أخرى. كان هاتفه الأول مغلقًا قبل أن يدخل السهرة ومتروكًا في درج السيارة.

كان المقربون فقط من جبل يعلمون أن لديه ثلاثة هواتف محمولة، الأول للعائلة وهو هاتفة الرسمي، الثاني كان محدود الاستخدام لأبي ضاري وطرقي وفردوس، والآن تحول إلى شبه رسمي للطوارئ، أما الثالث فهو مخصص للصديقات فقط ولوزية.

بعد مضيٍّ ساعة دقت أغنية "دقني دقني"، كل البنات قمن للرقص على الأغنية، وبدأت كل الأجساد ترتعش، حتى جسد جبل. قام جبل من مكانه مثلما تعوَّد دائمًا في اللحظة التي ثنت هنادي جذعها إلى الأمام قبل الأخريات، توجَّه لها مباشرةً وبدأ يتحسس المؤخرات تمامًا كما يفعل حين يشتري خروفًا من سوق الغنم، بدأ بهنادي، تحسس وغرس إصبعه الأوسط، وتجول بين البنات، مرَّ عليهن جميعًا، حتى العنود التي ارتفعت وعادت لنصب جذعها مع ملامسة جبل، التفتت إلى لوزية ورأتها في ذات اللحظة تضحك. جبل لم يكن يكترث بكل ما يحدث، كانت كل قواه مُركَّزةً على المؤخرات، بعد أن تحسسها كلها، عاد لهنادي، وقف مباشرة خلفها وهي تدفع بمؤخرتها في حضنه، ازدادت إثارة جبل، وبدأ

قضيبه يحتك بمؤخرة هنادي، ولم يكملا الأغنية، ضمها من الخلف وهمس في أذنها. بعد ثوان قليلة، كان الجميع ينظر باتجاه الدرج، حيث يصعد جبل بمعية هنادي، لم يغيّر توجه الكاميرا لديهم سوى حين سمع صوت تهشم قارورة في أطراف الصالة، سقطت من يد فرج بالخطأ.

هنادي:

لم أكن بحاجة ماسة لكل وصايا لوزية. كان من السهل عليَّ إغواء هذا الجبل الذي طابق اسمه وصفه. صعدت معه لغرفة النوم، ومارس كل هواياته كما وصفتها لوزية لي، وكان وصفها قاصرًا بالمناسبة. قلت له إنه كان متجليًا، وخبيرًا، ورائعًا، وبارعًا في فنون السرير، وأظنه صدقني. طلب جبل رقمي، وقال لي: لا بُد أن نلتقي مرة أخرى، إن لم تكن ليلة الغد، ففي ليلة قادمة. أخبرته كذلك أني قد ارتحت له، ولتعامله الراقي والمهذب، وطوله الفارع، وجسده المهيب، وكنت أكذب ولكنه صدقني مرة أخرى. طلب رقمي مجددًا، وأمليته عليه مرة أخرى. كان متلهفًا لكل شيء مثل طفل شارف البلوغ وبدأ باكتشاف أدواته الجنسية.

(14)

الوشايات – 2

بعد انتصاف الليل وإغلاق الأنوار وضجيج موسيقى غسان، قام الجميع من أماكنهم ودخلوا في موجة عناق طويلة احتفالًا بالسنة الجديدة. كانت اللحظة مناسبة جدًّا لجبل بالذات بعد أن فرغ من وصلته السريعة مع هنادي، عانق كل البنات بأريحية بعد أن لبس الثوب المغربي منذ أن نزل مع هنادي. لم يكترث جبل كثيرًا بأن يطبع الماكياج في الثوب، كما لم يكترث لقصر الثوب على مقاسه (كان الثوب يصل إلى منتصف ساقه)، تحسس مؤخرات كل البنات في لحظة العناق بمن فيهن لوزية التي صرخت فيه:

- يا جبل يا وسخ !

لم يرد عليها جبل وواصل عناق البقية. فُتِحَت الأنوار مجددًا بعد مضيٍّ دقيقة، وتبادل الجميع التهاني ورفعوا الكؤوس في صحة الجميع بالسنة الجديدة. سكت الجميع لوهلة، وبادرت لوزية موجهةً حديثها لجبل:

- ما فيك حيلة يا جبل، ما تتوب من حركاتك !

ابتسم جبل وتجاهل الموضوع. التفتت لوزية للعنود وغمزت لها، عادت وبادرت موجهةً كلامها لجبل مرة أخرى وبصوت أعلى هذه المرة، وكأنها تريد أن تسمع الجميع:

- تدري يا جبل، اسمك فيه خطئين. تبي تعرفها؟

- وش هي؟ (كان فرِحًا بالسؤال لأن الحديث يدور حوله في حضرة البنات كلهن)

- الأولى أن اسمك جبل، وكان المفروض أن يكون اسمك جبلين.

قاطعها جبل، بينما الجميع يضج بالضحك قائلًا:

- اذكري الله.
- طيب يا جبل بس، خل أقول لك الخطأ الثاني !
- هاااع ؟
- اسـمك الثانـي ابـن طـرَّاق وكان مـن المفـروض أن يكون، ابن رطَّاق.

قاطعها جبل في ذروة ضحك كل الحاضرين والحاضرات قائلًا:

- تعقبين، لعن الله هالوجه.

لم تكترث لوزية من شـتيمة جبل العابرة، والتي لم يتوقف عندها معظـم الحضـور، كمـا أن لوزيـة تعـودت على ردود فعل جبل المفاجئة. كانت لوزية منذ معرفتها بجبل تجيد رفع درجة توتره، وإثارة غيظه وتهوى ذلك، إذ لا شيء أكثر غبطة عند امرأة من أن تعرِّي رجل تكرهه. جبل لـم يكـن زبونًـا ذا مـزاج ورسـمية، كان زبونًـا ذا احتيـاج فقط. لذا، حتى لو مارسـت تعسُّـفها ضد جبل، كانت تدرك أنه لن يغيب. كانت لوزية تعـرف كل مـا يغيـظ جبـل، وتعلـم أن العاقبـة فقط هي أن يغرس إصبعه فـي مؤخرتهـا. جبـل لـم يكـن كأبيـه، ابن طرَّاق كان رجـلًا يدرك كل ما يجوز وما لا يجوز، ترتب كلامها قبل السهرة جملةً جملةً. كانت لوزية تحسب كل ما يصدر من لسانها في حضور عبيد ابن طرَّاق، وتعرف كل ما يغضبه وما يفرحه، وفي ذات الوقت لم تكن ذات يوم تتخيل خسارة الأب كزبون وصديق على الرغم من أن ابن طرَّاق لم يعاملها كصديقة البتَّة، أما جبل فلا يضره سلخه بعد ذبحه، سيبقى زبونًا ما دام ذا حاجة، وليس من أهداف لوزية أن تكون صديقة لجبل. لهذا السبب ما مرَّ يوم في حضوره إلا وشاغبته بكلمة أو جملة أو وشاية.

كانت الحادثة الأشهر حين أتي ذِكر ابن طرَّاق الأب ذات مرة من أبي ضاري الذي سـأل جبل عن أحوال أبيه، وأجابه جبل بأن أباه أفنى حياته في العمل، كان يقول إن أباه إذا وضع هدفًا تجاريًّا في رأسه فإنه

ينجزه، وهدفه الأخير هو إنتاجية المزرعة، ودافع عن أبيه دفاعًا مستميتًا ووصفه بأنه يشقى طول الموسم الزراعي، ويتابع الأعمال بنفسه منذ الفجر حتى صلاة العشاء، يسقي ويرعى كل المزروعات ولا يرتاح باله حتى يرى حصاده غنيًّا. أكد جبل أن حياة أبيه في المزرعة لا تليق برجل أعمال مثله، وأنه يشفق كثيرًا على حاله. لم تُطِق لوزية سماع كل هذا الكذب، فقاطعت جبل قائلة:

- أبوك يعيش مثل الملك في مزرعته، وحاله أفضل من حالك وِإنت ما تعرف شيء !

ذهل جبل ونظر للوزية نظرة استغراب. أكملت لوزية:

- اطلب الرحمة لنفسك، اِنت ما تعرف شيء !

قاطعها جبل قائلًا:

- من اللي أذن لك تتكلمين من الأصل عن أبوي؟

- أعرف أبوك أكثر منك يا جبل، لا تفتح باب على نفسك. أبوك يأكل مثل ملك، ويسهر مثل ملك، ويؤمر وينهي مثل ملك، ويركب النساء مثل ملك.

- انتي كذَّابة !

ضحكت لوزية بصخب وقالت:

- يا بابا تبي أقول لك من يجلس مع أبوك الآن؟ تبيني أكلمه وتسمع؟ أو تبيني أوصف أحوال أبوك ومجلسه؟ و(الجاعد) اللي ما يطلع إلا بعد الساعة عشرة؟ إنت وين وأبوك وين !!

ذهل جبل من سماعه حديث لوزية، زم شفتيه وقلَّب كفَّيه فيما سبابتاه تشيران إلى نقطة واحدة في الهواء، وتابعت لوزية النقطة التي تشير لها سبَّابتا جبل في الهواء، ونظر أبو ضاري بدهشة طفل إلى لوزية. من حسن حظ جبل، الذي سكت ليقطع الموضوع مباشرة أنه لم يكن سواه ولوزية وأبي ضاري موجودين في المكان، وكانت هذه هي الوشاية

الأكبر التي قبض عليها جبل عن أبيه. تأكد جبل بعد ذلك من الأمر بعد أن تبرَّع أبو ضاري بالبحث، واكتشف أن ابن مسبط هو القوَّاد الأكبر لابن طرَّاق. في ليلة الوشاية لم تسلم لوزية من طعنة عظيمة من إصبع جبل الأوسط، سددها لها حين استأذنت للخروج بعد أن قبضت المبلغ المتفق عليه.

في الليالي التالية انفرجت أسارير أبي ضاري كثيرًا بعد الوشاية واكتشافه المهم عن ابن طرَّاق وابن مسبط ولوزية، اكتشف أمر الناسك الذي يقولون، كان لديه شك يقترب من اليقين عن حياة ابن طرَّاق غير المعلنة، وهذا الشك الذي لم يأتِ من فراغ، حاك في نفسه منذ تلك الصبيحة التي شدَّ فيها الرِّحال متوجِّهًا صوب مزرعة ابن طرَّاق. زار أبو ضاري مزرعة ابن طرَّاق بلا موعد، وبلا تنسيق مسبق معه أو مع جبل، وصل إلى المزرعة حسب التوقيت المخطط له، بعد ارتفاع الشمس بساعتين. كان أبو ضاري يظن أن ابن طرَّاق في ذلك الوقت تحديدًا قد انتهى من جولته الصباحية على المزارعين، وربما هذا وقت توقه لفنجان من القهوة. خطط أبو ضاري لأن يكون بصحبته لتناول هذا الفنجان، كما تأكد من أن ذلك الوقت من السنة هو وقت الحصاد الأول في السنة الزراعية، وسيكون ابن طرَّاق منفرج الأسارير ومتقبلًا لما سيطلبه أبو ضاري، ستشفع له معرفة أبيه لابن طرَّاق وصحبته لابنه جبل والتي باركها يومًا ما. حين أصبح أبو ضاري قريبًا من المزرعة، سأل عن مزرعة ابن طرَّاق في مدخل الهجرة، وتبرَّع كل من سأله بأن يوصله بنفسه، كان الجميع يعرف مكان مزرعة ابن طرَّاق، ولم يكن بحاجة لأخذ وصف الطريق من جبل مثلما توقع مسبقًا. وصل أبو ضاري للمزرعة، وأذن له العمَّال بالدخول، كان شكله مهيبًا ومُهَندَمًا، شفع له شاربه الكثيف بهيبة لدى العاملين، وأخبروه أن الشيخ ابن طرَّاق ما زال في المنزل. خمَّن أبو ضاري أنه انتهى من جولته الصباحية وعاد

لشرب قهوته، وصل المنزل الذي كان باهتًا، الشقوق التي في الجدران أكثر من عدد شـعرات رأسـه، تصدُّعاتها بدت عميقة، بدت كأنها لوحة مليئة بخطوط طفل يمسك بالقلم للمرة الأولى.

أوقف أبو ضارِي سيارته وترجَّل، وصل للباب الخارجي، لم يكن هناك جرس، أخرج مفتاح سيارته وطرق طرقات خفيضة، أتبعها بطرقات متتابعـة وأقـوى، لـم يـأتِ جـواب من الداخل، رفع حجرًا صغيرًا بجانب قدمه وشـرع يطرق بقوة، وبعد عدة طرقات، أتاه صوت ابن طرَّاق من خلف الباب وصوت نعليه يسحبان في البلاط قائلًا:

- وجع. من اللي عند الباب؟

- صباح الخير يا طويل العمر.

صمـت ابـن طـرَّاق بعـد إجابة أبي ضاري، واقترب من الباب، كان أبـو ضـاري يتتبـع صـوت قـرع نعلي ابن طـرَّاق فوق البلاط ويقيس قربه من الباب. فتح ابن طرَّاق الباب، ذُهِلَ حين رأى أبا ضاري، كان يلبس سـروالًا طويلًا وفانلة نصف كم، شـعره كان واقفًا وعيناه لم يغادرهما أثر النوم. بادر ابن طرَّاق قائلًا:

- عسى ما شر يا مرزوق؟

قبَّل أبو ضاري رأس ابن طرَّاق وهو يقول:

- ما فيه إلا الخير، كنت قريب فقلت أسلم عليك.

- حيَّاك الله، تفضل.

دخل مرزوق خلف ابن طرَّاق، تأمل كثيرًا في السـروال المتَّسِـخ والفانلة المقطوعة من تحت الإبط بدائرة قطرها أطول من كف، واصل خلفَ ابن طرَّاق حتى وصلا المجلس، أشار عليه ابن طرَّاق أن يجلس بعد أن نادى صبحي لتجهيز القهوة.

رفـع ابـن طـرَّاق (الجاعـد)، وأغلق جهاز التلفزيون الذي كان على إحدى محطات الأغاني، وترك إبريق الشـاي المغربي، دخل إلى داخل

الغرفة لتبديل ملابسه، فيما أبو ضاري يتأمل المكان، ويرتِّب ذاكرته لحفظ التفاصيل. لفتَ انتباهَ أبي ضاري رَفعُ ابنِ طرَّاق للجاعد، كما سجَّل صورة إبريق الشاي المغربي في ذاكرته؛ إذ إن ابن طرَّاق لا تفارق دلةُ القهوة مجلسَه. جال أبو ضاري بكاميرته الخاصة، رأى علبة فازلين من الحجم الصغير على يمين متكأ ابن طرَّاق في صدر المجلس، في المنتصف وجد صحن فاكهة من النوع المستدير فيه برتقال وتفاح وموز، في أسفل متكأ ابن طرَّاق رأى بقايا تفاحتين مقضومتين وقشرة موز متعفِّنة. أثارت هذه التفاصيل مخيلة أبي ضاري، وكانت علبة الفازلين تحديدًا هي عنصر المفاجأة، من يرى ابن طرَّاق يدرك تمامًا أنه ليس من الناس الذي يعتنون ببشرتهم حتى في أشد الليالي بردًا. قضى بضع دقائق قليلة حتى عاد ابن طرَّاق، لم تبد عليه مظاهر الارتياح من زيارة مرزوق المفاجئة، دخل على المجلس وتبادل بعض الأسئلة الرتيبة عن حاله وحال أبيه، شربا القهوة، عَدَلَ أبو ضاري عن مفاتحته في الموضوع الذي أتى من أجله، خمَّن أن الوقت غير مناسب لطلب سلفة مادية من الشيخ ابن طرَّاق، قرَّر أن لا يفاتحه في الأمر وأن هذه الزيارة ستكون فقط مجرد زيارة لقربه من المكان وحرصه على رؤيته وسيؤجل الموضوع حتى يعود ابن طرَّاق لداره. قبل أن يكمل أبو ضاري نصف الساعة الأولى استأذن من ابن طرَّاق مغادرًا، ولم يكن ابن طرَّاق مُلِحًّا في عزيمته على الغداء، ولم يوافق مرزوق متعذرًا بأشغال أخرى. خرج ومضى في طريقه وعلبة الفازلين تطرق عقله بالتساؤلات.

مارست لوزية مجددًا اضطهادها لجبل في ليلة رأس السنة، وجبل سيعاقبها بذات الطعنة التي تعوَّدت عليها، لكنها ستحس بالسعادة الذاتية والغبطة، رغم أن جبلٍ لم يعُد يعنيه شيء. ابن طرَّاق دُفِنَ وجبلُ هو الخليفةُ، ولا حساب للخليفة من أي كائن كان.

جبل في تلك السهرة كان يمارس دور الخليفة الجديد على طريقته.

كانت السهرة في ذروتها بعد دخول السنة الجديدة، واستمر أبو ضاري بالرش بواسطة فرج على كل البنات مع لوزية وغسان، كل رشة (نقوط) تكون بـألف ريال بالورق من فئة مائة ريال، بينما صملول كان موجهًا كل اهتمامه على العنود، وفي كل رقصة ينثر ألف ريال فوق رأسها. جبل كان كعادته يذهب للحمام ويعدُّ ستمائة ريال بالورق من فئة مائة ريال في جيبه العلوي ويعود. بعد الواحدة ظنَّ جبل أن الجميع أضحوا سكارى وبدَّل الورقة من فئة مائة ريال إلى خمسين ريال. حين عاد وضع الورقة في صدر البنات، ابتدأ بالعنود التي كانت واقفة في طريق عودته من الحمام مصادفة، تنبَّهت إلى الورقة من فئة خمسون ريال، رفعتها قائلة:

- صحيح ما تستحي.

هكذا قالت العنود، كانت تحاول تقليد لوزية في إكمال تعرية جبل (كانت العنود تتمنى دائمًا أن تمتلك شخصية لوزية، وتخاف في ذات الوقت أن تصبح مثلها، شعور متناقض يرمي في هُوَّةِ التردد). تنبَّهت لوزية بسرعة لحركة العنود ولاحظت ورقة الخمسون ريال وأردفت:

- النار ما تورث إلا الرماد. يعني في آخر السهرة بتحول على عشرة ريال يا أبو عشرة !

تحرك أبو ضاري على وجه السرعة وأخرج من جيبه ربطة من فئة الخمسمائة ريال وسحب رزمة وأمر فرج بالرش على الجميع لإنهاء الموضوع. عاد جبل إلى مكانه وكأن شيئًا لم يحدث، بيد أن صملول نهض بعد بضع دقائق، خرج إلى السيارة وفتح الدرج وسحب ربطة دولارات من فئة المائة دولار مُجَهَّزة للطوارئ، عاد للفيلا، وشرع في الرش على العنود وعلى جميع البنات بالدولار. بدأ صملول بالتجلِّي، وقف في المنتصف ورقص بصحبة صاحبته العنود، تبادلا كثيرًا من النظرات والابتسامات طوال السهرة. حين انتهى من رقصته، قبَّل يد العنود وعاد لمكانه، لمح أبا ضاري يسكب الكأس الأخيرة من قارورة

البلاك الثانية، صرخ فيه بسرعة:

- بقّ لي شوي.

لم يستطع مرزوق أن يكمل ملء كأسه، جلس على الأرض ممسكًا بطنه من الضحك، استغرب صملول من ضحك مرزوق، التفت فإذا جبل منبطح على الصوفا ويضحك، فرج أيضًا والذي كان قريبًا ضحك بصوت صاخب أدهش لوزية والبنات. دُهِشَ صملول، لم يدرِ ما سر الضحك الصاخب ! حكَّ كفَّ يده اليسرى بيده اليمنى وهو عائد لكرسيِّه منتظرًا انتهاء الصخب، حتى قام مرزوق من مكانه قائلًا:

- إلى الآن بقّ لي، والله أن تعيش بقّ لي، وتموت بقّ لي.

بدت على وجه صملول علامات الاستياء، جلس على الكرسي وهو مستمر في حكّ كفّ يده اليسرى. كان حريصًا على إنهاء الموضوع مباشرةً وعدم الخوض فيه، صرخ مرزوق في فرج طالبًا منه قارورة جديدة، سكب لصملول كأسًا، شرب قليلًا ثم قام من مقعده بهدوء بصحبة العنود لإحدى غرف الدور الثاني.

جبل صحب هنادي أيضًا، وأبو ضاري أشار لسويِّر أن تأتي معه، كما طلب من لوزية أن لا تذهب حتى لو ذهب بقية البنات، قال لها إنها ستفطر الصباح معهم ثم تمضي. بقيت لوزية وفرج بعد تفرُّق الجميع، جلست لوزية في الصوفا العريضة، اقترب فرج منها بعد بضع دقائق، بعد أن دخَّن صاروخه الثالث في هذه الليلة، دسَّ رأسه في حضنها ونام. ابتسمت لوزية، لم تمانع ووضعت يدها فوق وجه فرج قائلة:

- هاه يا فرج، الدنيا دوَّارة !

ضحكت لوزية وغاب فرج في دمع يستجدي العطف.

الراوي الآخر:

لن أدخل هذه المرة في مسألة من هو الراوي الآخر، أظن أن هذه المعضلة تم شرحها من قبل. قلنا لكم إننا لم نتفق على

ذلك، من هو الأول؟ ومن هو الآخر؟ كما نؤكد لكم اتفاقنا على أن لا نقتل شخصًا في هذه الرواية إلا باتفاق مسبق، ونحن على عهدنا حتى الآن، وأرجو أن لا يصدق أحدكم الإشاعات عن محاولاتنا قتل العنود لأنها رفضت الحديث معنا، أو أننا تعمَّدنا قتل ابن طرَّاق في الرواية لغاية في نفوسنا، وأتمنى بعد كل هذا أن لا يضطر أحدنا لقتل الراوي الآخر قبل أن تنتهي الرواية، أُصلِّي من أجل ذلك، وأرجو أن تصلُّوا لنا.

نحن نَتَفَهَّم شعوركم الآن، كما نَتَفَهَّم مشاعركم لو قلتم لنا: "أنتم لا تنقلون لنا سوى حكايات الملاعين والقوَّادين والساقطات والحشاشين". حسنًا، دعونا نقصُّ عليكم حكاية لطيفة، كان هناك رجل طيب، مُحِبٌّ لعائلته، ومواظب على عمله، ويؤدي صلواته الخمس في المسجد، ولم يشتكِ منه أحد قط في الحارة. كلما جاء ذِكر صاحبنا هذا، وكلما تردد اسم هذا الرجل بين كبار السن في الحارة، أجمعوا بعد ذِكر اسمه على قول: (ما شاء الله، تبارك الله). انتهت القصة، هل أعجبتكم؟

نحن يا سادة لسنا متأكدين من صحَّة كل الحكايات التي تنقل شفويًّا، ولهذا بدأنا نلجأ للكتابة والتدوين، إذ إن التدوين يرتِّب الحكايات، ويُسَهِّلُ عملية فرز تسلسل الأحداث، كما لا نخفي عليكم أننا نُصَدِّقُ كثيرًا جملة قرأناها ذات مرة في كتاب ما، هي: "ليس ثمة ما يدهش بقدر الحياة، عدا الكتابة". والكتابة في حقيقة الأمر أصبحت تمنحنا دهشة مضاعفة. نحن يا سادة مستمتعون بما نكتب، نمرِّن عقولنا على الفرز والتمييز، نتأمل ونتقصَّى العِبَر، ونكتب فتتضاعف دهشتنا.

طيب، نحن ندرك أنكم تتهموننا بشهوة الحديث الآن لغرض الحديث فقط، ربما أصبتم، لكن دعونا نسألكم، كم تكلفكم شهوة

الحديث من ساعة في اليوم؟ نحن نعرف وندرك أنها تكلفنا صفحة واحدة في كل فصل، احسبوها جيدًا، ثمن بخس ! لكن أنتم كم تكلفكم شهوة الحديث؟!

بالمناسبة، شارفت السهرة على النهاية، لنَرجع لمتابعتها، يجدر بنا أن نخبركم أن أبواب غرف النوم كانت موصدة، سنحاول فيما بعد أن نستجوب إحداهن.

(15)

مثل ملكة . .

- دنيا دوَّراة !

مضى خمس دقائق أو تزيد ولوزية تكرر هذه الجملة على فرج وهو يرتجف بكاءً، تقولها ويزداد فرج رجفة لا تدرك لوزية كنهَهَا، وكلما هدأ أعادت لوزية الجملة على مسمعه، وقبل أن يتحول بكاء فرج إلى حدث جنائزي سحبت لوزية نَفَسًا هائلًا حرَّك فرج من مكانه، بادر فرج بصوت متهدِّج قائلًا:

- عسى ما ثقّلت عليك يا عمة ؟
- عمة مرة وحدة يا فرج ؟ ما باقي إلا تقول أمي!
- .... (لم يرد فرج)
- تدري عاد يا فرج، لو قسم الله لي طفل من زوجي كان بيكونَ أكبر منك حجم الحين، ويمكن نايم في حضني الآن. لو جا بس!

سكت فرج، لم ينطق، هدأ نشيجُه وكأنه يتجهَّز لسماع حكاية، أرهف السمع استعدادًا لسماعها. حدسه أومأ له بذلك. مسح بيده على فخذ لوزية وكأنه يحثها على مواصلة البوح، وواصلت لوزية:

- إنت يمكن ما تدري يا فرج إني كنت متزوجة من خمسة وعشرين سنة تقريبًا.

واصل فرج صمتَه، وواصلت لوزية حديثها، حَكَتْ له أنها عاشت مثل ملكة (أستخدمت لوزية أستعارتها الأشهر)، وسافرت بصحبة زوجها صالح لأماكن لنا توجد على الخارطة بحسب وصفها، تناولت فطورها في جبال محاطة بالثلوج، وتغدَّت أطباق سمك مشوي وإستاكوزا على البحر، وتعشَّت مَزَّة ورقصة يونانية. كانت لوزية تتحدث له بصوت هادئ

خفيض شجي مثل عزف مقطوعة "روميو وجوليت" بآلة كمان واحدة، شرحت لفرج كيف كانت تتمشَّى في الهايد بارك في صباح آخر، وفي مساء ذات اليوم تسهر في ملهى باريسي، كانت تجوب بصحبة زوجها الشواطئ الاستوائية، وتقضي اليوم التالي في الاحتفال برأس السنة في الشانزليزيه. كانت تتفنن في لبس ملابسها كاملة بتوقيع مصمم واحد، ومصمم آخر حين تخرج للغداء، وثالث حين تمضي في ساعة تسوق من متاجر (هارودز) و(قاليري لافاييت)، ومصمم رابع لملابس السهرة، وأخيرًا تبدِّل كل ملابسها وتلبس آخر صيحات ملابس السرير، أرواب دانتيل وبيبي دول وكريمات لم تصل السعودية آنذاك بطعم الفواكه والشوكولا، تمررها فوق جسدها.

- أربع سنوات يا فرج وأنا أعيش مثل ملكة، حتى عزمت أحمل !

صمتت لوزية وكأنها عدلت عن إكمال الحكاية، مسح فرج مجددًا على فخذها مستحثًّا إياها على المواصلة. أكملت بعد دقيقة صمت:

- أمي يا فرج كانت توصيني أن الرجل ما يبقِّيه غير الولد، وأنا انتظرت كثير (بدأت تذرف دموعًا هنا)، كنت زوجة ثانية وكان هذا الشيء مقبول، ما كان عندي مشكلة، زوجي صالح كان شيخ ولد شيخ وأنا يا فرج من شيوخ بني خضير (كانت تبتسم حين قالت ذلك). أكيد تعرفهم!

واصلت لوزية سرد حكايتها، قالت لفرج أن جمالها لم يكن شفيعًا لكي تكون أمًّا، حتى لو شفع لها لكي تكون زوجة أخرى: "إنت فاهم قصدي يا فرج؟". وجَّهت لوزية سؤالها لفرج ولم تنتظر الإجابة، قالت له إنه كان هناك شفعاء آخرون غير جمالها، كانت تشارك زوجها الشرب، وتدخِّن معه، وتخرج للسهرة وهي تلبس (الميني جب)، وكانت كذلك تمارس الجنس الفموي.

- فيه أمور ثانية ما له داعي أذكرها، أخاف منك يا فرج لو ذكرتها

تخليني عشيقة بدل عمة.

ضحك فرج، واهتز كتفاه مع رواية لوزية ولم يعلِّق، خاف إن علَّق على حديثها أن لا تكمل سرد حكايتها المتقطع، كان يتوق لإكمال بوحها. واصلت لوزية:

- تضحك يا فرج ؟ طيب، اسمع الحكاية وبعدين اضحك على كيفك.

أخذت نَفَسًا هائلًا آخر كما لو كانت تستعد للغطس، رشفت قليلًا من كأس الويسكي، وواصلت سرد الحكاية، ذَكَرَت أنها قرَّرَت أن تكون أمًّا لابنٍ مَن زوجها صالح (الشيخ ابن الشيخ كما تصفه دائمًا)، بعد إلحاح من أمها (توفيت أم لوزية بعد طلاق ابنتها بسنتين)، كان هذا القرار بعد أربع سنوات من الزواج، فكَّرت أن الولد سيكون شفيعًا لأمه لوزية هانم مثلما أوصت أمها. لم تحدِّث لوزية زوجها عن القرار، وامتنعت عن الموانع والعوازل مُجبِرَةً زوجها على أوضاع معينة لكي يسكب ماءَه داخلَ رحمِها. كانت كل حِيَل لوزية مكشوفة، وبعد بضعة أسابيع قرَّر صالح هجرها بلا مبررات، دون نتيجة حمل إيجابية. لم تستطع لوزية التواصل معه كثيرًا، جُنَّ جنونُها، وكادت أن تفقد عقلها حتى عاد بعد ثلاثة شهور، وحين تأكد أنها لم تحمل، حَجَزَ لها تذكرة ذهاب وعودة لمدينة (كان) الفرنسية، قال لها أنهما سيقضيان أسبوعًا من الصلح، وأنساها ذلك مناقشتَه في أسباب الهجر.

- لاحظ يا فرج أني أروي لك الحكاية بعد ما تأملتها وحللت كل تفاصيلها.

هكذا قالت لوزية وسطَ سردها للحكاية، وأكملت:

- طبعًا لما رجع، ما سألته ليش هجرني، كنت فرحانة جدًّا يا فرج وبس.

كانت فرحة لوزية بعودة صالح كبيرة بحجم الأحلام مجتمعةً،

ذَهَبَت معه، وعاشت أسبوعًا آخر من الحلم، أكلا وشربا ورقصا وسكِرا وسبحا في البحر المتوسط معًا، ومارسا الجنس حتى كَلَّت أطرافهما. كان ثمة شيء غريب وحيد أثار استغراب لوزية وهو إصرار صالح على ممارسة الجنس بالواقي الذكري. بعد أسبوع الحلم عادا للمنزل الذي اشتراه صالح للوزية، وبعد أن عانقت لوزية أمها، رجعت له في المجلس، بدا صالح حزينًا، تحدَّث بكلام قليل، وودَّع لوزية.

- لمني في حضنه يا فرج تقريبًا خمس دقايق وحنا واقفين، وحسيت بحرارة من صدره، ما كانت حرارة جنس يا فرج، كانت حرارة غريبة عمري ما حسيت فيها، سحب يديه مني بعد الحضن واللمة واتجه صوب الباب، وقال لي: "انتي طالق"، وعلمني أن صك طلاقي بيوصل بكرة الصباح.

بكت لوزية مجددًا بعد أن تذكَّرت جملة صالح التي ترنُّ في أذنها. تجمَّدت في مكانها حين قَبَّلَ صالح رأسها وخرج من الباب، ظلَّت صامتة ولم تعِ معنى كلامه جيدًا، ولا تدري لِمَ كان ذلك! في اليوم التالي، والذي لم تنم طيلة المساء الذي سبقه، جاء صك طلاقها، أمسكته بيدها، تحسسته وشرعت في البكاء. واصلت بعد أن ناولها فرج منديلًا:

- "الدنيا دوَّارة" يا فرج، من ذاك اليوم وأنا ما عرفت طعم الراحة النفسية إلا في بعض جلسات المرحوم ابن طرَّاق، وما أخفيك لو قلت لك يا فرج، في نومتك هذه في حضني...

بدأت الهزة تسري من جسد فرج وانتقلت إلى جسد لوزية، عدَّل من جلسته، أصبح بجانب لوزية، قرَّب رأسها من صدره وهي تبكي، ضمَّها وازداد نشيجُها، ودخلا في صلاة جنائزية تامة.

الصالة في الطابق السفلي بدت خالية من الجميع سواهما، مضى غسان وهدأت الأصوات، حتى الشموع انطفأ بعضها لأنها أُشعِلَتْ طوالَ الليل، ولا صوت يأتي من الدور العلوي، وكأن رواده دخلوا في

نوبة هدنة تامة مع فجر السنة الجديدة. بدأت السنة بهدوء وسكينة في الأعلى وبكاء في الأسفل، وربما تنتهي السنة والسكينة ما تزال تسيطر على الأعلى بينما الخيبة تثقب صمت ليالي الأسفل. قطعت لوزية حبل الأفكار السوداء المشترك، والممتد من عقل فرج إلى عقلها:

- هذه سنة كبيسة يا فريج اللي بدت ببكاء.

تحركت قليلًا لتعدل يدها التي سرى فيها الخدر الناتج عن ضغط يدي فرج الذي واصل صمته، وضمَّها بشكل أقوى، ربت على كتفها، ومسح بيده على ظهرها حتى بادرت:

- يا فرج ضغطت عليّ، خلاص، شكلك تقمّصت الدور.

أرخى فرج يديه، ورجعت لوزية برأسها للصوفا، ابتسمت ابتسامة حب لفرج الذي بدوره بادلها الابتسامة، فكَّر فرج لوهلة أن يلثم شفتيها، وأحس برغبة شديدة في ضمِّها بلا ملابس، تخيَّل أن دفء جسديهما سيضيء السنة الجديدة، ولربما كان احتفالًا رائعًا. فاجأته لوزية وهو ينظر لها:

- وين وصلت يا فرج؟

طيَّر سؤال لوزية الموجَّه لفرج كل العصافير الشهوانية من رأسه، انتبه من شروده حين أردفت لوزية:

- تصدق أني جايعة شوي !

- اسمعي يا عمة.

- يا الله ! ذبحتني بعمة، فكني عاد وش هذا؟

- طيب يا لوزية، اسمعي، أنا بعد جعت شوي، وبروح أسوي شكشوكة بالسمن بعمرك ما أكلتي زيّها.

- والله فنان يا فريج.

- أنا قطّعت البصل والطماطم والفلفل الأخضر، (حبحر) يحبه قلبك، بقوم (أكشّنه) وأجهزه للجميع قبل ما تطلع الشمس، كل اللي

فوق بينزلون يزحفون هنا يدورون لقمة، اسأليني عنهم يا لوزية، هذا هو برنامجهم.

- والله يا فرج اِنت تعرفني، من زمان ما كملت سهرة للفجر.

قام فرج للمطبخ، كان كل شيء مُقَطَّعًا وجاهزًا للطبخ، جهَّز الأدوات وشرع في تسخين السمن (السمن أحد أسرار فرج الكبرى في تجهيز الشكشوكة). بعد تسخين السمن قليلًا وضع فرج قطعة حشيش صغيرة بحجم حبة الفستق، سَخُنَت وبدأت بالذوبان وقبل أن تنتشر رائحتها، رمى البصل فوق السمن الساخن. بدأت رائحة البصل المحمر تنتشر في الصالة، كان فرج يجهز الطماطم لإضافتها إلى البصل حين لاحظ احمرار البصل، كذلك خفق البيض لإضافته لاحقًا، قبل البيض، وضع فرج ملعقة كبيرة من معجون الطماطم، وملعقة صغيرة من الماء، وأنتظر حتى أختلط المزيج. أضاف فرج بعد ذلك البيض المخفوق وبقية أسرار شكشوكة فرج. كان ينثر ملعقة كبيرة من الفلفل الأسود وهو مستمر في التقليب، وقبل أن ينهي تقليبه يضيف ملعقتين كبيرتين من جبن (كرافت) السائلة على الشكشوكة، ويستمر في التقليب بسرعة أكبر، يتقطع المخفوق لقطع صغيرة مع حماس فرج في التقليب، وقبل أن ينهي وجبته الساخنة، يطرق أذنه صوت أبي ضاري كمطرقة فوق رأسه آتيًا من الأعلى:

- يا طقعان جهّز الشكشوكة !

غسان:

صخب تلك الليلة كان مختلفًا. لن أتحدث كثيرًا هنا، وربما تكون المرة الأولى والأخيرة في هذه الرواية، ولولا إصرار أحد الرواة على هذا البوح ما كنت أتحدث مطلقًا مع كائن من كان عن هذه السهرة. لا بُد أنكم تعلمون أن حفظ الأسرار جزء مهم من استمرار مهنتنا، كذلك عدم الخوض مع الحضور، حتى لو

غازلتني إحداهن، أو تحرش بي أحدهم بعد أن يسكَر، ويحدث هذا أحيانًا، لا تستغربوا.

لاحظوا أنني كنت أشـرب طول السـهرة، وفي آخر السـهرة كنت ثملًا، وكان عدد النساء أكثر من الشباب، لكن من المهم أن أبقى حسنَ السيرة والسلوك لكي تدوم مهنتي الثانية عامرة. نسيت أن أقول لكم أن هذه ليست مهنتي، هي فقط مجرد هواية أمارسها بمقابل مادي لا بأس به، وربما هو أعلى من راتبي الذي أتقاضاه مقابل عملي الأصلي، كذلك هو مكان يضمن لي أن أشرب في الأسـبوع مرة على الأقل. صحيح أنِّي نادرًا ما أشـرب عرقًا بلديًّا كمـا أتمنـى، لكـن لا بـأس، هـؤلاء نـاس كرمـاء ولا يقبلون بغير مشروبات مستوردة محترمة.

هـذا مـا لـدي الآن، قلـت لكـم أنـي لا أحـب فضح أسـرار الآخريـن، ولـن أتحـدث عـن شـيء آخـر، فقط سـأهمس لكم أن الرجـل المكنَّـى بجبـل أذهلني، وطـول أصابعه أذهلني أكثر، كما كانت متمرسة جدًا، كما يجدر بي القول لكم أن إحداهن غازلتني، ولم تكن تعجبني كثيرًا، ولن أضيِّفها على مخيلتي حين آوي إلى فراشـي بعـد خروجـي، بالرغـم من كونهـا خرجت مبكرًا بلا أحد تبيت معه هذا المساء. لو كنت سأستضيف أحدًا هذا المساء في رأسـي لكان هنادي، أظن أن الكل كان ينظر لها، وسـأقف هذه الليلة على بابها، سيستحضرها خيالي، وسأعزف لها عزفًا خاصًّا من آلتي، الناي الذي لا أخرجه سوى في المساء.

من المؤسف أنها لن تعلم عن زيارتها لي.

(16)

دندنة

مضى أسبوع على سهرة رأس السنة، وجبل لم يهاتف فرج خلال هذا الأسبوع قطّ. خمَّن فرج أنه كان مشغولًا بهنادي، وتأكد من ذلك فيما بعد.

كان جبل بالفعل مشغولًا بخليلته الجديدة في معظم الأمسيات، كما كان مشغولًا بمتابعة أعمال الفقيد في النهار، وطلبات وشكاوى فردوس التي لا تنتهي، إذ كانت تهاتفه أكثر من زوجته وأمه في اليوم خلافًا للرسائل النصية، كما أن هناك مصائب تنزل على رأسه لا يعلم من أين.

حاول فرج في المقابل الاتصال بجبل، ولا رد يأتيه. كان فرج يحفظ أبا ضاري تمامًا ويعرف مواقيته، لكنه الآن يجرِّب جبل ويحاول التعرف على عاداته: متى يحتاجه، ومتى لا يحتاجه. بقي فرج يهيم في الشوارع بلا هدف، يردد مع كل إشارة "دنيا دوَّارة".

"دنيا دوَّارة"، هكذا كان فرج يقنع نفسه، ويجد ألف مبرر لفشله وتحوله من الأقوى إلى الأضعف. "دنيا دوَّارة"، كان لديه الاستعداد لنطقها سبعين مرة في اليوم، يتدرب باستمرار على نطقها، ويدرب أذنه على سماعها، ويدندن الجملة على أي لحن يأتي في باله، تارة يغنيها (سامري)، وأحيانًا يجعل من الجملة مجرورًا، حين يغلق باب سيارته (الكامري) لا يكون مضطرًا لفتح الإذاعة ولا حتى أشرطة (مزعل فرحان)، يبدأ في الإنشاد:

"الدنيا دوَّارة...
دوَّارة يا دنيا"

كان فـرج يكـرر المقطـع حتـى ينقطـع صوته المجـروح، ويصمت بعد ذلك قليلًا، ويُخرِج أي شـريط يقع في يده لمطربه المفضَّل، يفتح المسجِّل، ويهطل صوت مزعل فرحان على فرج:

"حزين أنا مثلك ولا تظلميني".

حين يغني مزعل كان الطرب والشجن يطرقان رأس فرج وهو يقود سـيارته، يتكتـك بأصابعـه علـى مقود الكامـري، ويحرك رقبته ببطء على دندنة عود مزعل، ويجرُّ مع مزعل جملته حتى يختنق صوته، يضم فرج حواجبه لبعضها. كانت بحة صوت مزعل توافق هوى فرج كثيرًا، حتى إن فرج يرفع صوته ويزيد من بحَّتِه واختناقه، حين يصل لمقطع:

"غديت أنا ما بين قسوة سنيني

و ما بين قلب جاير الوقت ضده "

يبـدأ حينئـذ فـرج بتحسـس جيبـه، يخـرج (الباكيـت) المنـزوع منه البلاسـتك (كان فـرج لديـه علبتـا دخان دائمًـا، إحداهما ماركة مارلبورو أحمر، والأخرى باكيت مارلبورو أبيض بلا بلاسـتيك، تكون فيها على الأقل سـيجارتا حشـيش ملفوفتان ومجهزتان للمفاجآت). تحسَّـسَ فرج جيبه وأخرج الباكيت المنزوع منه البلاسـتيك الشـفاف، أخرج سـيجارة حشـيش وبحـث عـن أقـرب مواقـف عموميـة وأوقـف سـيارته، أشـعل السيجارة المنتفخة وبدأ ينفث الدخان مع أغنية مزعل:

"في كل يوم أشوف موتي يجيني

أحسب الزمن غطى عيوني بيده"

كان فرج يعيد المقطع، وينفث دخان سيجارته الكثيف، يدخل في جو صوفيّ حتى تنتصف السيجارة، يكون حينها ثقيل الحركة، لا يعلم إلى أين يذهب، بعد أن يفرغ من سيجارته يقرِّر أن ينزل من سيارته ببطء، ويبحث عن أي مكان يبيع شايًا. كان فرج يتجوَّل في مواقف السيارات، ويبحث عن طريق يسلكه، ويتذكر أن احمرار عينيه قد يفضحه، فيُخرِج

القطرة الطبية من جيبه الأيسر، وينثر قطرتين فوق كل عين وهو واقف، ثم يواصل طريقه في البحث عن الشـاي. قد تمضي سـاعة وأكثر وهو يبحث حتى يجد مكانًا لبيع الشاي. كان يطلب من العامل وضع ثلاث ملاعق سكر كبيرة في كوب الشاي، ويأخذ الكوب ويمضي.

تأتيـه ذكـرى طرقـي، صديقـه الـذي أصبح حميمًا. تعرَّف عليه أكثر مع تردده المتكرر أخيرًا على بيت أبناء ابن طرَّاق. كان في البدء يبحث عن جبل، أصبح يعرف متى يخرج جبل من المنزل ولا يكون محتاجًا له في تلك الليلة، ومع ذلك كان يذهب لبيت أبناء ابن طرَّاق، ويسأل عن جبل، وحين تأتيه الإجابة بأنه غير موجود يسأل عن طرقي، كان طرقي يستقبله بابتسامته المعهودة، ويناديه إلى ملحقه الخاص، الغرفة الثالثة من الغرف الخارجية في بيت ابن طرَّاق، الغرفة التي أصبحت مأوى طرقي وحده بعد التاسعة ليلًا من قبل وفاة أبيه بثماني سنين.

كان ابن طرَّاق بنفسه هو من أمر طرقي أن لا يبرح هذه الغرفة في المسـاء بعد أن أعيته كل الحيل لمنعه من عزف العود والشـرب، وقبل ذلك التدخين. اكتشف ابن طرَّاق مسألة تدخين ابنه، حبسه بعد ذلك لمدة أسبوعين في الملحق. أمره بعد عقابه الأول بالعمل في مكتبه طيلة النهار مثل صبي القهوة، ولم تمنع طرقي من الدخان، شدَّد ابن طرَّاق المراقبة على ابنه، واكتشـف امتلاكه للعود واسـتمراره بالعزف عليه، كسَّـره فوق رأسه، بكى ذلك اليوم ليس أَلَـمًا بل كمدًا على فقدان العود.

عاد طرقي واشـترى عودًا جديدًا، وتكسَّـر بعد بضعة أيام، اشـترى ثالثًا وتكسَّر، اشترى رابعًا، وعلم أبوه وأتى به للمزرعة مثل عقوبة نفي، اكتشف بعد عدة أسابيع تسلل ابنه بعد مبيته وخروجه لهجرة مجاورة، كان يجتمع مع بعض الشباب فوق كثيب رملي غير بعيد، يدندنون مع طرقي ويكرعون من الشـراب الوطني حتى قُبيل الفجر بنصف سـاعة، يعودون بعدهـا لبيوتهـم قبـل أن يصـدح المؤذن بأذان الفجر، ولأن الوشـايات لا

تنتهي علم ابن طرَّاق عن أمر ابنه، أخبره ابن مسبط تحديدًا بذلك، خاف من فضيحة تنتهي بمجلسه.

بعد أن أعيت ابنَ طرَّاق الحِيَلُ، قبض على طرقي في صبيحة يوم أربعاء مبكرًا، أيقظه من النوم قبل الثامنة، جره من فانلته جرَّ الشاه، وأركبه في المقعد الخلفي للسيارة، وعاد به للمنزل. حين وصلوا جرَّه مجددًا للغرفة الثالثة من الملاحق الخارجية، وأدخله الغرفة وقال له آمرًا:

- اسمع يا كلب، عودك ودخَّانك والسم اللي تسفّه ما أشوفهم يطلعون من الغرفة. تدخل الغرفة بعد ما أسمح لك، وتقفل بابك ولا يدخل عليك أي كلب ثاني، وما تطلع منها إلا بعد طلوع الشمس. هي كلمة واحدة، واعتبرها دستور لكلب مثلك.

كانت هدنة مناسبة لطرقي الذي لا يريد أكثر من ذلك، مشى على شروط أبيه بحذافيرها طيلة ثماني سنين. بعد وفاته أصبح بإمكان طرقي أن يستقبل نديمًا أو اثنين في هذه الغرفة.

كان فرج أول الداخلين إلى الملحق، وتجلَّى في حضرة طرقي، بادله الأحاديث بأريحية وضحكا معًا على كل طرفة تُروَى. بعد أن توطدت العلاقة، وفي الشهر الأخير تحديدًا، أصبح فرج يأتي في كل يوم لا يكون مطلوبًا فيه عند أبي ضاري أو جبل. كان يأتي لطرقي ومعه سيجارتان، ويُخرِج طرقي قارورة ويسكي. كان طرقي يشرب وفرج لا يشاركه سوى في بعض الأيام القليلة بكأس أو اثنتين، بينما فرج يدخِّن سيجارتي حشيش وطرقي لا يدخن سوى سجائر (دافيدوف). بعد سيجارة فرج الأولى يجلس فرج في الركن يرشف شايًا ويستمع لطرقي يغني، يأخذه غناء طرقي ودندنة عوده لزمان سطوته، وحين يئن وتر طرقي في قلب فرج يطلب منه فرج أغنية "كل يقول أن البكا فيه راحة"، يبتسم طرقي ويرد قائلًا:

- يا فرج، وش لك بمزعل وهالخرابيط؟ تترك محمد وعبادي

وتروح لمزعل!

- يا طرقي بلييز، والله ما أبي أزعل منك. تدري أن مزعل مطرب الشعب، الوتر الحزين. اِنت تدري إنه كان يبيع أشرطة في عزّه أكثر من محمد عبده وطلال مجتمعين؟

- والله يا فرج هذا يدل على سفالة الذوق في ذاك الوقت !

- حـرام عليـك يـا لبيـه بـس يا أبـو فرحان، تكفى يا طرقي، تكفى يا أبو عبيد، لا تزعلني، إذا ما تبي تغني لا تغني، بس لا تغلط على أبو فرحان.

- طيب، طيب.

يبدأ طرقي في الدندنة، كان قد تعلَّم عزف الأغنية إرضاءً لصديقه بعد سماعه لشريط أحضره فرج ذات مساء. يبدأ طرقي في المقطع الأول:

" كل يقول أن البكا فيه راحة
و أنا بكيت اليوم لعلي أرتاح"

في المقطع الثاني يصدح صوت فرج المبحوح المتعب قائلًا:

"في ليلي اللي ما ظهر لي صباحه
و همومي اللي عيت اليوم تـنزاح
كني غريق ما يجيد السباحـة
يصرخ ولا حوله من الناس سباح"

كان طرقي يعيد المقطع ذاته مرتين وثلاث مرات حتى تبلل دموعُ فـرج وجهَـه، يصمـت وينتحـي جانبًا، وينسـى أحيانًا حتـى احمرار عينيه ويغيب في صمته، يضع طرقي عوده جانبًا، يشعل سيجارة ويملأ كأسه.

بعد أن انتصف الليل، طُرِقَ باب الملحق طرقًا قويًا، قام طرقي من مكانه فزعًا وتحركِ فرج من جلسته واعتدل. اقترب طرقي من الباب قائلًا:

- من؟

جاءه الصوت من خلف الباب (كأنه صوت جبل):

- هاااع... افتح.

تردد طرقي قليلًا ثم فتح الباب، دخل جبل مقطب الحاجبين، لم يلقِ السلام، تنحى طرقي جانبًا سامحًا له بالدخول. وقف جبل قليلًا في وسط الملحق ثم خاطب فرج:

- وش عندك يا طقعان؟ توكَّل، رح على بيتكم.

لم ينبس فرج ببنت شفة، أخذ شماغه ورماه على كتفه ومضى خارجًا.

جلس جبل على المركأ، صَمَتَ للحظة ثم رفع رأسه مخاطبًا طرقي الذي ما زال واقفًا:

- اجلس.

- ...

- أنت ما تستحي؟

- ...

- ما قالك أبوي أنك ما تدخّل أحد في الملحق؟

- ...

- سربتة في الليل، وقلة حركة في النهار. أمك تشتكي منك، وأمي تشتكي منك، وطارق يشتكي منك، وحتى فردوس تشتكي منك، إلى متى وأنت صايع ضايع؟

- ...

- وفوق هذا، يدخل هذا الطقعان الحشاش في بيتنا، ويسهر حتى الفجر في بيت عائلة محترمة!

- ...

- يا أخي قل شيء، دافع عن نفسك!

لم يرد طرقي، جلس بعد بدء جبل حديثه وأطرق رأسه. لم يكن طرقي راغبًا في المضيِّ قدمًا في جدال عقيم.

- اسمع يا طرقي، أنت أخوي وتهمني مصلحتك. حياتك أعفن حياة، غيرها، ولازم تتقيد بشروط المرحوم، وأنا غير راضي عن أفعالك، أنا مسئول عن هذا المنزل. سمعت؟ المصائب والمشاكل تصبّ على رأسي كل يوم، وأنا مسئول لحالي قدامها، وترى ما جيت أطلب مساعدتك هنا، لكن أبغاك تكفّ عن المشاكل. سمعت؟

قال جبل كلمته الأخيرة وخرج، صَفَقَ الباب بقوة.

طرقي:

لم أكن بحاجة لمثل هذا الحديث. كنت أدرك تمامًا أني لا أسهر إلى الفجر، أدخل دائمًا في هذا الملحق بعد التاسعة، أدندن قليلًا على آلة العود، وأشرب كأسين فقط. أقسم أني لم أكن أسكَر!

أرجو أن لا تصدقوا ما يقولُ جبل. لقد عرضت عليه المساعدة، وما زلت جادًّا في ذلك، إذ يجب أن تعلموا أني أصحو كل يوم في الثامنة صباحًا، ولا أجد ما أعمله، قلت لجبل أكثر من عشرين مرة منذ توفي والدي رحمه الله: دعني أساعدك في أعباء العمل، وأكَّد لي في كل مرة أن العمل يمشي على أحسن صورة، وحين يحتاجني سوف يطلبني. تصوروا أني في كل يوم أزوره في المكتب بعد أن أتجول في بعض المقاهي الحديثة في المجمعات التجارية، وأقرأ كل الجرائد التي تصدر، وعند العاشرة والنصف أكون في مكتبه. أتحدث معه قليلًا، وأعرض المساعدة، وبعد رفض عروضي أذهب عائدًا إلى المنزل. كان أبي يا سادة يكلِّفني ببعض الأعمال، حتى جبل كان يطلب مني أحيانًا أن أنوب عنه في أعمال أخرى، أنتم تعلمون ذلك، لكن لا أعلم كيف أصبحت بلا عمل!

بالمناسبة، أرجو أن لا تصدقوا أن أمي اشتكت مني كما

يقول، أنا في كل يوم أسلِّم عليها وأقبِّل يدها في الصباح، وأتناول معها التمر والقهوة، وتناولني بعض النعناع والهيل، وتطلب مني أن أمضغه جيدًا. أعلم جيدًا لِمَ تطلب مني ذلك، بالرغم من أنِّي حريص على تناول حبوب (السينمون) كل صباح، والتي أشتريها من الصيدليات لطرد وكتم رائحة (الويسكي)، أمي تبالغ في الكثير من الأحيان، لكنها لم تشتكِ لأحد مني، ولن تشتكي، ولو أرادت قول شيء في نفسها سوف تقوله مباشرةً لي، وقطعًا لن تبوح به لجبل، أعرف حِيَلَ جبل جيدًا. يجب أن يتغاضى عن بعض تصرفاتي، فأنا أغضُّ الطرف عن كثير من أفعاله، إذ إنَّ فرج حين يبوح يقول كل شيء، كما أني أعرف كل شيء قبل أن أعرف فرج.

أما عن أمه وفردوس وطارق، فلا أستطيع أن أنفي أقواله، ولكني لن أصدقها كثيرًا. بالمناسبة، طارق يميل لمحادثتي والتبسط معي كثيرًا وأكثر من جبل، حتى لو بدا عليه بعض التغير أخيرًا. نسيت أن أخبركم: جبل بدا مشوشًا كثيرًا هذا المساء، لا أعلم ماذا حلَّ به، أو بِمَ كان يهجس؟ بدا أنه كبر في هذا النهار خمس سنوات.

(17)

جبل:

لـدي الكثيـر لكـي أقولـه لكم، وأرجـو أن تنصتوا، واعتبروا ذلك مجرد فضفضة.

في مسـاء الأمس الذي دخلت فيه على أخي طرقي، كنت لا أعلم ماذا أفعل، لكنِّي كنت غضباناً وقليل الحيلة حدَّ اليأس، دخلـت عليـه وقلـت كل مـا أريـد قولـه. أحيانًـا يمنحنـا الغضب جـرأة لقـول كل مـا يحيـك في نفوسـنا، الغضـب عِتق لما يعتمل في النفوس، يمنحنا شجاعة نادرة لدلق ما علق في دواخلنا.

دعونـي أتحـدث معكـم وأبـوح لكـم بأريحيـة، كان مزاجي مُعَكَّرًا كثيرًا طيلة الأسـابيع الماضية. فردوس (زوجة أبي الثالثة) تضغـط كثيـرًا علـيَّ، تضغـط بطلباتهـا وكثـرة شـكاواها، كما أني بدأت ألاحظ الإسـراف المادي كثيرًا مع المصاريف التي أقرؤها في كشـوف الحسـابات الخاصة بورثة ابن طرَّاق. تخيلوا فقط أن سـيارة فـردوس الأخيـرة كلفـت مبلغًـا يفـوق المائتـي ألف ريال، وتخيلوا أيضًا أنها اشترت في إحدى رحلاتها للتسوق شبه اليومية مجوهراتٍ بمبلغ يفوق مبلغ السـيارة، كما اشـترت حقيبة جلدية بمبلغ اثني عشر ألف ريال. رأيت ذلك في كشف حساب بطاقات الائتمان، وذهبت بنفسي لهذا المحل الكائن في أحد المجمعات التجاريـة الكبيـرة ووقفـت مـع مديـر المحل الذي أكد لي أن هذه فاتورة حقيبة جلدية من ماركة عالمية. هذا كله لا يهم، فالمال في النهاية جزء من مالها وأنا متأكد أنها لم تصرف من مال أبناء ابن طرَّاق الذين على ذمتها من هذا المال. ما أزعجني كثيرًا هو كونها تحرضني على طرقي وأمه، كذلك كثرة اتصالها واستشـارتها لي

في كل صغيرة وكبيرة، وأنا لا أرغب في مزيد من الانشغالات، أصبحت أقفل جوالي الأول والثاني كثيرًا.

ولأن المصائب تأتي بالجملة كما يقولون، بالأمس اتصلت بي امرأة بُعَيدَ المغرب بقليل على رقم جوالي الثالث، وهذا ما أتعب عقلي بالتفكير قليلًا؛ لأني لا أعلم حتى هذه اللحظة كيف حصلت على الرقم. بادرت بالسلام عليَّ، وظننتها في البدء من البنات اللائي أعرفهن، حييتها بحرارة وقلت لها إني متعجب لأن رقم هاتفها ليس محفوظًا في ذاكرة هاتفي، وقالت لي أني لم ألتق بها بعد، ولم يحصل لها الشرف، لكنها تتوق إلى ذلك.

تبسطت بالحديث مع المرأة بعد أن اعترفت برغبتها في لقائي، وطلبت منها موعدًا في الحال، وطلبت منِّي أن أحدد أنا بعد أن أستمع لها، وأجبتها بأنِّي كلي آذان صاغية.

مضى سكون بيننا للحظات وفاجأتني بعد ذلك حين قالت: "أنا زوجة أبوك المرحوم الرابعة!" صمتت بعد ذلك قليلًا، ثم أردفت: "متى نلتقي ونتفاهم؟"، فجَّرت غضبي فيها بكلام بذئ لا أرغب في ذكره الآن، ربما تفهمون ما قلت لها قبل أن تغلق الهاتف.

سرحت قليلًا بعد مكالمتها، ولم آخذ كلامها على محمل الجد، كنت أنتظر موعدي مع هنادي تلك الليلة، والذي اتفقنا أن يكون بعد صلاة العشاء. بعد مضيٍّ دقائق قليلة فوجئت برسالة نصية من ذات الرقم كتب فيها:

"يا أخ جبل، أقدر أني ما أخبرك وأبدأ أحل الموضوع على طريقتي، كان من المفروض أنك تسمع القصة كاملة، أحسن من كلامك الوسخ اللي ينطبق على النساء اللي تعرفهم، ولا ينطبق على نساء المرحوم الشيخ عبيد ابن طرَّاق. على فكرة، عندي

شهود. ليلى - زوجة أبوك"

ذهلت بعد قراءة الرسالة، خرجت بالسيارة وتجولت قليلًا، بعد نصف ساعة تقريبًا، جاء اتصال آخر من ذات الرقم، فتحت الخط وأجبت، جاء صوتها ساخرًا هذه المرة قائلة: "عندك كلام بايخ تقوله أو مستعد نتفاهم؟" في واقع الأمر كلمة التفاهم هذه لخبطت تفكيري؛ التفاهم لا يأتي سوى في الأمور المشتركة، وخصوصًا المادية. قدَّرت أن هذه المرأة التي تسمي نفسها ليلى وتدعي أنها زوجة أبي ترغب في التفاهم حول أمور مادية. سألتها: "من هم الشهود؟" وأجابت: "سرحان ابن مسبط، وواحد ثاني اسمه صبحي محمد عبد الفتاح، والمهر كان عشرة آلاف ومن باب العلم فقط تزوجني أبوك قبل كذا وطلقني طلقة واحدة، ورجعني قبل وفاته". بعد أن ذكرت صبحي، امتلأ رأسي غضبًا؛ كيف لم يقل لي ذلك؟ بدأت آخذ كلامها على محمل الجد، وتذكرت أننا استخرجنا حصر الورثة، ولم يعترض أحد يومها على ذلك. خمَّنت أن العقد (مسيار) ربما، وسألتها مجددًا: "العقد وينه؟" وأجابتني: "العقد كان مع المرحوم رحمة الله عليه، ولازم تساعدني ندوّر عليه، بعد ما كتبنا العقد ووقَّعناه مع الشهود، أخذه وطوى الورقة وحطَّها في جيبه، تذكَّر أن عندي شهود".

مضى وقت طويل بعد إغلاقها الهاتف، مضيت إلى فيلا أبي ضاري، نسيت أن أخبركم أن لدي نسخة من المفتاح، لم يمانع مرزوق في أن يعطيني النسخة، كما سمح لي أن آتي متى شئت، هو بالطبع لا يأتي سوى في عطل نهاية الأسبوع والأعياد والمناسبات الخاصة أحيانًا. طبعًا لكم أن تتخيلوا أن مرزوق لم يعطني نسخة المفتاح إلا في الأسبوع الأخير، ولأنه لم يطلب مقابلًا بإمكاني التخمين أن مرزوق سيطلب مني مقابلًا في وقت

لاحق، إذ إني أدرك أنه رجل استغلالي، وحين يطلب سأتمكن من التفكير في طلبه، لكن عليَّ أن أستغلَّ الفيلا خير استغلال. جاءت هنادي للفيلا بعد موعدنا المتفق عليه بقليل، شربنا كأسين، وأكلنا فروجين مشويين أتيت بهما من مطعم (الطازج) في طريقي للفيلا. رقصت هنادي قليلًا ولم أمهلها بالرقص كثيرًا، صعدنا للغرفة، وضاجعتها مرة واحدة. كان في نيتي أن أسألها عن الكمثرى التي فوق وركها الأيمن إن كانت تاتو أو وحمة، إذ إن هذه الكمثرى حيرتني منذ ليلتي الأولى معها وهي تصرُّ كثيرًا على الضوء الخافت، وبالرغم من نواياي نسيت سؤالها. في كل مرة أقابلها أنوي سؤالها عن الكمثرى وأنسى. بعد ذلك قلت لها إن عليَّ الذهاب اليوم مبكرًا لأنَّ لديَّ عملًا يجب أن أنجزه في الصباح الباكر. سكتت قليلًا ثم قالت: "على هواك"، وأردفت بعد ذلك: "متى أشوفك المرة الجاية؟" قلت: "حسب الظروف، ربما بكرة أو بعد بكرة". لفَّت وجهها عني متظاهرة بالانشغال في حقيبتها وقالت: "لو جيت بكرة، اطلب لنا سمك وجمبري معك، ملينا من الفروج". ابتسمت بدوري، وخمَّنت أنها أوجست مني ضعفًا هذه الليلة، وصلت رسالتها، هي لا تعلم أن ذهني كان مشغولًا بليلى. أستغفر الله، لا أقصد أني فكَّرت في مضاجعة ليلى، إذ ربما كانت امرأة أبي فعلًا، لكني أقصد محاولة دخولها المفاجئ على ورثة ابن طرَّاق. بدأت ألبس ملابسي دون أن أغتسل، وكانت المرة الأولى ربما التي أخرج فيها بعد المضاجعة من دون اغتسال. حسنًا، فعلتها مرة واحدة قبل ذلك حين انتهيت من مضاجعة امرأة روسية في أحد فنادق دبي، هاتفني أبي في تلك اللحظة وطلب مني العودة حالًا، ولم أغتسل سوى في محطة قرب الإحساء بعد تجاوزنا الحدود السعودية. البارحة قررت أن أغتسل في المنزل

بعد عودتي، واغتسلت قبل النوم.

خرجت مساءً لا ألوي على شيء، هِمتُ قليلًا في الشوارع، فتحت كل هواتفي المحمولة، ووجدت رسائل كثيرة من فردوس، عدت للمنزل ورأيت سيارة فرج عند باب المنزل. قررت أن أعرج على ملحق طرقي، أعرف أنه في هذا الوقت يكون في غرفته وفرج معه، علمت بأمر صحبتهم منذ بدايتها، مشيت نحو الملحق ورفست الباب بقدمي مرتين، ساد الصمت بداخل الغرفة، وبعد قليل فتحوا لي الباب، دخلت وطردت فرج، وقلت كلامًا كثيرًا لطرقي. سَكَتَ طرقي ولم يرد بأي كلمة، وكنت راغبًا في أن يرد، كان لديَّ غضب وددت لو تفجَّر. بعد فترة من صمته خرجت وفجَّرت غضبي بالباب.

توجَّهت لملحقي الخاص، دخلت وخلعت البالطو وبدأت أخلع الملابس، كنت أنظر للبالطو وفي ذات اللحظة، خطر في ذهني بالطو أبي، تذكرت أن ليلى قالت لي أن أبي وضع العقد في جيبه، وكنت قد فتشت جيوب ثوبه ولم أعثر على شيء، والآن تذكرت أني لم أفتش جيب البالطو إذ لم يخطر ببالي أن أبي سيلبس البالطو قبل بدء موسم (المربعانية)، نسيت أمر نوبات الربو التي أصبحت تأتيه في سنواته الأخيرة من برد ليالي المزرعة. التفتُّ إلى الخزانة التي وضعنا فيها الصناديق، فتحتها وبحثت عن الكرتون الذي خبأت فيه بالطو أبي، أخرجته. فتشت جيوبه جيدًا، ووجدت ورقة بداخلها شيك وورقة أخرى، فتحت الأولى وشرعت بالقراءة:

بسم الله الرحمن الرحيم

نعم أنا سرحان ابن مسبط، اقترضت من الشيخ عبيد ابن طرَّاق مبلغًا وقدره خمسمائة ألف ريال سعودي فقط لا غير نقدًا وعدًا، قرضًا حسنًا لوجه الله، وأتعهَّد بسداده كدين في

رقبتي بعد ستة أشهر من الآن، ومقابل ذلك كتبت شيكا رقمه: 233291210103 صادر من بنك الرياض ومُؤرَّخ بعد ستة أشهر من تاريخ القرض، والله على ما أقول شهيد وعلى ذلك أوقِّع.

سرحان ابن مسبط

ذُهِلتُ حين قرأتُ الورقة وكيف أني لم أنتبه لها من قبل. فكَّرت مباشرة بالمبلغ الذي سحبه أبي من البنك قبل وفاته بليلة، وضعت الورقة في جيبي مع الشيك وحدثت نفسي بأني سوف أتفاهم جيدًا مع ابن مسبط.

فتحت الورقة الثانية وشرعت بالقراءة:

بسم الله الرحمن الرحيم

بحضور كل من الشهود: المدعو/ سرحان ابن مسبط، والمدعو/ صبحي محمد عبد الفتاح، تقدمت أنا الشيخ/ عبيد ابن طرَّاق بالزواجِ من الفتاة/ ليلى سمسماني وقَبِلَتْ بي زوجًا، وقَبِلْتُ بها زوجةً على سُنَّة الله ورسوله، بمهر قدره عشرة آلاف ريالٍ سعودي.

التوقيع:

شاهد أول/ سرحان ابن مسبط

شاهد ثاني/ صبحي محمد عبد الفتاح

الزوج / الشيخ عبيد ابن طرَّاق

الزوجة / ليلى سمسماني

قرأت العقد، ضحكتُ قليلًا، وضعت يدي على رأسي بعد أن وضعت ورقة العقد في جيبي، قلبت يدي اليمنى في الهواء، تمددت على الأرض فاردًا يدي أفقيًّا، كنت أضحك مثل ثمل، قمت بعد ذلك، خلعت ملابسي، ودخلت لأغتسل غُسلَ الجنابة.

الفَصْلُ الثّالِث

(18)

الذكريات الرُّكَبِيَّة

تركت ذكرى طرد جبل لفرج جرحًا في نفسه، لو فعلها مثلًا في إحدى السهرات لربما ما كان ذلك الحزن الذي انغرس في قلب فرج، لكن جبل طَرَدَهُ أمام طرقي، والذي أصبح فرج يعدُّه صديقًا حميمًا، أو ربما مشروع صديق صدوق، يحزن لحزنه ويألف لسجيَّته، ويبادله الجدية في تناول الأمور التي تهم فرج. أصبح فرج يظن أن خضوعه لجبل سقطة أخرى في مسيرته، سقطة من عشرات السقطات والعثرات التي أعدها الزمن له بعداء غير مبرر.

بدأت مسيرة الحظ العاثر منذ المرحلة الثانوية التي لم يكملها، مرورًا بإضاعة ضربة الجزاء في النهائي الذي لن يتكرر بعد مسيرته البطولية، عدم اختياره في القائمة النهائية لمنتخب الناشئين والتي ذهبت لأسكتلندا وفازت بكأس العالم، إصابة الركبة المؤلمة، التشخيص الخاطئ لإصابة الركبة، استحالة عودته لممارسة الكرة بعد ذلك، نسيان إدارة النادي لمسيرته المؤثرة وإن كانت قصيرة، زواجه بفوزية وإنجابه منها، وتعلُّقه بفتاة الكمثرى، وخضوعه لأبي ضاري ومن ثم لجبل. الشيء الوحيد الذي لا يعده فرج خطيئة هو تدخين الحشيش، كان يعده عزاءً له، حين ينفث دخانه الأزرق، لا يرى سوى الأنطلاقة التي قطعها من منتصف الملعب ذات يوم كحصان عربي وتجاوزه لمدافعين على طريقة تخطي الحواجز، ووقوف جماهير مدرج الدرجة الثانية وصراخهم، وتسديدته بقدمه اليسرى في سقف المرمى. كان فرج يرى ذلك دائمًا وهو يسحب نفسًا آخر في سيارته المتوقفة في مواقف سيارات عامة، بعد أن يترجَّل في رحلة البحث عن الشاي، لا يعرفه أحد من الموجودين في المواقف،

نَسِيَه الجميع، ولم يعد يذكره أحد، حتى طلاب المدرسة الثانوية نسوا فرج، والتي كانت المرة الأولى التي يتوجون فيها بالمركز الأول على بطولة المدارس، كما نسيه جمهور الدرجة الثانية، نسوا ساقيه الطويلتين، وصدره العريض، وقوامه المثالي كلاعب كرة مهاجم، ولم يعودوا يرفعون شعار (البازوكا جاكم، يا ويل مرماكم).

تذكَّر كيف كان جبل قبل ما يقارب العقد ونصف العقد ينتظر عند أبي ضاري متسائلًا: "وين فرج؟ نبي نصور معه"، تذكَّر مجده الذي لم يَطُل، لعن ركبته ورباطه الصليبِي، لو لم ينقطع لكان جبل الآن يبحث عنه، ويطارده بالاتصالات. جبل يعلم جيدًا أن اللاعب المشهور له معجبات كثر، الضوء يجذب الفراش بأنواعه، وجبل يتبع المكان المليء بالنساء مثل كلب.

لو لم ينقطع الرباط لما اضطر للعمل رجلَ أمن طيلة النهار في بنك، ولا اضطرَّ إلى رفع قدمه المصابة فوق كرسي ليريح ركبته وهو واقف في الكثير من الساعات كأنه عازف عود فوق مسرح، ولا كان حينئذ مجبرًا على الزواج من فوزية، ولبقي عند أبي ضاري مثل كلب. الآن هو كلب لدى أبي ضاري وجبل معًا، وربما تجبره الظروف على أن يكون كلبًا آخر لدى صملول، الأيام ستفاجئه بسيد جديد، ودور كلبيّ آخر مع شخص ما.

حين تعده السماء ببارقة أمل لا تلبث طويلًا، هكذا يظن فرج. بدأت ركبة فرج رحلته بالصدفة، وختمتها بصدفة أخرى. قاده هدف الركبة والذي سجله في نهائي بطولة المدارس الثانوية العامة بالركبة لمنتخب الناشئين، وذات الركبة نفته للنسيان. كانت الركلة ركنية متوسطة الارتفاع، ارتدت من المدافع وعادت لصاحب ركلة الركنية الذي أعادها بركلة منحنية ومقوَّسة باتجاه المرمى وبارتفاع بسيط، ارتبك المدافعون في تشتيت الركلة، حدثت (دربكة) كما كان يقول المعلِّق محمد رمضان،

وبزغـت الكـرة فجـأة أمـام فـرج بارتفـاع مـا يقارب المسـطرة. همَّ فرج بالتسديد، وفي ذات اللحظة غمز المدافع الكرة من أمام فرج، لم تكن محاولة ناجحة، إذ اصطدمت بركبة فرج وتهادت في الاتجاه المعاكس للمرمى. توَّج ذلك الهدف فرج كبير هدافي البطولة، أتاه أحد الكشافين المقربين آنذاك من مدرب منتخب الناشئين محمد الخراشي، اقترح عليه التسجيل في ناد ممتاز وأنه سيكون بعد ذلك في القائمة الأولية لمنتخب الناشئين. قال له بالحرف الواحد: لديك رشاقة ماجد عبد الله، وعنفوان شـايع النفيسـة، وقدم يوسـف جازع اليسـرى، لو تدربت يا فرج في نادٍ ممتاز تحت يد مدرب مُحَنَّك ستكون لاعبًا فذًّا.

بعد بضع سنوات من الركض والصعود للمنصة لمقابلة الملك ذاتُ الركبة قُطِعَ رباطُها الصليبيُّ. كان فرج يهمُّ بتسـديد كرة نصف مرتفعة، عَدَلَ عن ذلك في اللحظة الأخيرة، وغمز الكرة بقدمه اليسرى من فوق المدافع، صادف رفع قدمه أن غمز المدافع بسن الحذاء باطن ساق فرج، ارتدت قدمه في الهواء (القدم في الهواء ضعيفة)، وسقط فرج في مكانه، وبالرغم من خروجه في تلك المباراة على النقالة الطبية، إلَّا أن الفريق فـاز، ومـن المحـزن أن تكـون فـوق النقالة فيمـا فريقك يحتفل في غرفة الملابس. مارَسَت ركبة فرج صنع الفرح والحزن معًا، وكان ذلك كثيرًا عليه، إكرامًا لها أصبح رجل الأمن يضع ركبته فوق كرسي في ارتفاع أعلى دائمًا من ركبته الأخرى، وكأنه يحس بالحنين لهذه الذكريات الرُّكبية.

ظـنَّ فـرج أن فتـاة الكمثـرى قـد هامـت به، وما لبث أن ثَبُتَ له أن تعلُّقها به كان بسبب سجائر علبة المارلبورو البيضاء المحشوّة بالحشيش، أهدته السماء طرقي، أهدته صديقًا وهو الذي لم يجرب المعنى الحقيقي لصديق طيلة حياته، وجبل أقصاه بلا رحمة. لاشيء أشد إهانة من تلقِّي إهانة أو شتيمة أمام القريب من القلب، لكن فرج بلعها ومضى. فرج الذي فكَّـر قبـل بضعـة أيـام بالمعنى الحقيقي للصداقة، وأعاد تعريف الصديق،

وصل إلى قناعة أن الصديق الجيد هو من يبادلك المشاعر بأريحية، يصغي لك ويفرح لفرحك مثلما يألم لألمك. الصديق الجيد بالنسبة لفرج لم يعد هو القادر على مساعدتك حين تحتاجه، القدرة وحدها لا تكفي، إذ إن من لديه القدرة ربما لا يبادر لمساعدتك، ما الحاجة لقدرته فقط إذًا؟ لكن من يريد مساعدتك صدقًا وإن لم يمتلك القدرة فهو الصديق الجيد. حين خرج تلك الليلة من الملحق لم يستطع أن يرفع عينيه لرؤية طرقي وهو يهمُّ بالخروج، كان جازمًا أن طرقي حزين وغير راضٍ عن فعلة جبل، وكان سيقرأ ذلك في عيني طرقي.

تعلَّم فرج من حياته أن القدرة والرغبة في المساعدة أشياء ترتبط بقيمتك اللحظية، إذ لو كان اسمه مسجَّلًا في سجلات المنتخب الذي ذهب لأسكتلندا وفاز بكأس العالم، لربما عالجته الرئاسة العامة لرعاية الشباب حين تخلى النادي عنه، كان اسمه في القائمة الأولى فقط والتي شملت أكثر من أربعين لاعبًا، وخرج من اللائحة قبل المعسكر الأخير لكأس العالم. تخلّى عنه النادي الذي أحبَّه ولم يقدر على علاجه في مكان يليق بإصابته. كان من الممكن أن يأمر الأمير بعلاجه على نفقته الخاصة، وسوف يعيِّن من يتكفَّل بمتابعة حالته، ولن يخطئ الطبيب في تشخيص حالة تأتي على نفقة الأمير، ولن يترك الطبيب قدمه في الجبس من منتصف الفخذ حتى أسفل الساق لثلاثة أيام ليكتشف بعدها أن الدم تَحَجَّرَ في الركبة وأن الورم ازداد حجمه، ولولا أن أحد الزملاء المعتزلين في النادي والذي سبق أن أصيب بذات الإصابة أشار عليه أن لا يصغي لهذا الطبيب، لربما لم يعد فرج قادرًا على المشي سليمًا بعد هذه الإصابة، ناهيك عن العودة لركل الكرة مرة أخرى، وهكذا أصبح فرج مجبرًا على الاعتزال المبكِّر. أصبح فرج بعد هذه السنين ينظر لكرة القدم حين يركلها الأطفال في الشارع مثلما ينظر كهل مريض بالسكري لطبق من تمر الخلاص الفاخر.

ذلك المساء طَرَدَ جبل فرج مثلما يطرد كلبًا، جبل الذي قال له أبوه يوم النهائي الشهير حين صافح فرج عيدي يد الملك، صرخ جبل أمام أبيه مفاخرًا:

- هذا فرج يا يبه اللي كان معنا في المدرسة.

أجابه ابن طرَّاق قائلًا:

- هذا (الكور) أحسن منك، هو يسلِّم على الملك وأنت تسلِّم على كلاب الحارة وعيال الفراشين.

كان تعليق أبي جبل على فرج في ذلك الموقف هي الحادثة التي حسمت علاقة جبل مع صديقه صملول، ومِمَّا زاد الأمر سوءًا هو أن جبل رَسَبَ بعد ثلاثة أسابيع في اجتياز الثانوية العامة، ونجح صملول. اقتنع جبل أن بوصلة أبيه لا تخطئ، أعاد الثانوية مرة أولى وثانية حتى أفلح أخيرًا. في تلك السنوات وبعد أبتعاده عن صملول، بدأ بمطاردة فرج كما كان يتبعه في سنوات المتوسطة. أصبح جبل حين يرى فرج، يصافحه ويبادر جبل قائلًا:

- هلا بريحة الملك !

اختلفت الموازين بعد أكثر من عقد ونصف، وأصبح فرج في حالة انتظار لأمر من أبي ضاري أو من جبل. كان فرج لا يجهل مواعيد أبي ضاري، أما جبل فمن المؤكد أن هنادي تشغل باله، وسوف يطلبه حين يحتاج إليه فقط. جبل في المقابل كان لديه ما هو أهم من هنادي بعد تلك الليلة، كان لديه سرحان ابن مسبط، وليلى سمسماني، وصبحي، ولوزية، وفهيد المنهاجي. رَتَّبَ جبل مواعيدهم جميعًا في الأيام التالية، تردَّد قليلًا في طلب لوزية، ولكنه أيقن أنه بحاجة لشهادتها حتى لو تأجل موضوعها.

في صبيحة الليلة التي تلت اتصال ليلى طلب جبل صبحي مرة أخرى، طلبه هذه المرة في مكتبه. جاء صبحي بعد الواحدة ظهرًا، وكان

كل مَن في المكتب قد غادر لانتهاء الدوام مصحوبًا بإذن من جبل، دخل عليه في مكتبه وأمره جبل بالجلوس. بعد مضيٍّ دقائق من الصمت وجبل يعبث في أحد هواتفه المحمولة، بادر جبل قائلًا:

- يا صبحي، إنت كنت تشهد على زواج المرحوم؟

تردَّد صبحي في الإجابة حتى صرخ فيه جبل:

- تكلم يا كلب. قلت لك كم مرة لا تكذب؟

- والله ما بكذب يا عم، بس...

- جاوب على سؤالي بلا بسبسة.

- آه كنت بشهد.

- كم مرة يا صبحي شهدت؟

- كثير يا عم، مش فاكر كم مرة، بس كثير.

- ليلة وفاته شهدت على زواج له؟

- آه.

- آه توجع بطنك، وليش ما قلت لي؟ أنا ما قلت لك لا تكذب عليّ، أنا أعرف كل شي، ولا يخفي عليّ شي.

- أنا متأسف يا عم.

- وين أصرفه؟ كنت أبي أختبرك وفشلت، عطيتك أكثر من شهرين مهلة علشان تعترف، وما زلت تحسب أنك ذكي، كيف تبيني الحين أصدقك في الفلوس المسروقة؟

- والله يا عم...

- لا تحلف، لا تحلف. تعرف المثل اللي عندكم: قالوا للحرامي احلف؟ اسمع يا أهبل، أبعطيك مهلة زيادة علشان تعترف لي بالفلوس، مائة وخمسين ألف لازم تطلع، سمعت؟ أنا الآن ريحتك وقلت لك كم المبلغ، أبيك تعرف أني أعرف كل شي. قم الحين، وكلِّم لي ابن مسبط الأهبل الثاني، وقلّه يجيني اليوم بعد المغرب في المجلس. سمعت؟

- حاضر يا عم.

- ترا قسمًا بالله أرسلك ورا الشمس.

خرج صبحي يجر خيبته، مضى وصلَّى العصر، دعا كثيرًا للراحل ابن طرَّاق مثلما يسمع في دعاء القنوت: أن يغسل بالماء والثلج والبَرَد، وأن يجعل الله قبره روضةً من رياض الجنة.

بعد صلاة العصر عاد لغرفته، تمدَّد قليلًا بغية نومٍ لم يأتِ، مضت الدقائق، قام من فراشه، فتح المسجِّل، كانت نجاة تغني: "عيون القلب... سهراااانة".

صبحي:

لو لم يبقَ لي شيئًا من تركة العم أبو جبل سوى شريط نجاة لكفاني.

جبل يضغط عليَّ كثيرًا، يظنني سارقًا، وأنا والله لم أسرق سوى شريط نجاة، وأرجوكم أن تصدقوني، وأقسم بالله على ذلك.

ليتني سرقت مالًا كما يقول، على الأقل لن أخرج من عنده بأعصاب تالفة. لو سرقت لكنت سأتدبر أمري جيدًا، وسيكون بمقدوري أن أحيك قصصًا كثيرة لكي أحوِّل مسار تفكيره عني، سأقول له إن زوجة عمي الأخيرة هي من سرقته، أو ربما سرحان ابن مسبط. كنت سأدَّعي أن الأزمة التي أصابت العم الراحل كانت بسبب اكتشافه المتأخر للسرقة، سوف أقسم له أنه قال في السيارة: "والله لأجيب خبره هالقواد اللي سرقني". سأكون محتاطًا لاستجواب جبل.

(19)

معروف لوجه الله

لـم يغلـق جبـل ملـف صبحـي بعد، كما أنه لم يخرج بشـيء جديد مـن اسـتجوابه الأخيـر. كان جبـل يعتقـد أن صبحي مخاتل كبير، ورجل صعب المراس، ومراوغ جيد يُجيد حِرفة الصمت، والصمت يقتل الصبر. تذكر جبل أن عليه أن لا يستعجل الحكم هذه المرة، ثمة ملفات كثيرة خرجت بالصدفة المحضة، أو المدبرة ربما، لا يهم كثيرًا. المهم بالنسبة له إيجاد كل ريال نقص من بيت مال ابن طرَّاق، ولا بأس لو أصبح هذا الريال ريالين.

حين زار سرحان بن مسبط مجلس جبل بُعَيدَ صلاة المغرب وجده في صدر المجلس. لم يجزل جبل في الترحيب كثيرًا بسرحان، صافحه وأشـار له بالجلوس، ودارت فناجين القهوة بين جبل أولًا وابن مسـبط صديق المرحوم، حتى قطع جبل حبلَ الصمت قائلًا:

- ودي أستفسر منك يا سرحان !

لم يسـتغرب ابن مسـبط مناداة جبل له بسـرحان فقط، كان متوقعًا هـذا الأمـر بالرغـم مـن أن جبـل كان يناديـه بـ (أبو ذيب) كنيته المعروفة قبل وفاة المرحوم. عاد سـرحان لانتباهه من رحلة التأمل السـريعة ورد على جبل:

- تفضل يا أبو عبيد.

- تذكر المبلغ اللي اسـتلفته من المرحوم؟ ترا وقت سـداده بعد ثلاث شهور، حبيت أذكرك وأتأكد أن المبلغ مضمون في وقته.

- إن شاء الله يا أبو عبيد، ما يصير إلا الخير.

- اِنـت خابـر، المرحـوم مـا يسـلّف أحـد إلا وقد كتبـه عندي. أنا

عندي خبر من هذيك الليلة، لكن ما بغيت أستعجل، فقلت إذا قرّب الموعد، ذكرنا أبو ذيب (قالها وأضاف ابتسامة مصطنعة).

- الله يسلمك، مال المرحوم مال حلال، وهو عندي مضمون إن شاء الله.

أدرك سرحان أن تغيُّر اللهجة ومناداته بأبي ذيب ذلك يعني أن هناك أمرًا آخر لدى جبل خلاف موضوع السلف، خمَّن ذلك. شارك جبل الصمت وشرب القهوة، ومسَّد لحيته التي بدت مثل لحية تيس، تبادلا الصمت لبضع دقائق حتى قطعه جبل وقال:

- إلا أبنشدك يا أبو ذيب؟

- تفضل.

- تذكر المره اللي جت للوالد في ليلته الأخيرة؟

- إيييه. وش فيها؟

- من هي؟ ووش سالفتها؟

- والله يا ولدي يا جبل هذي طرقية من البنات، جاءت وراحت في ليلتها (قالها وهو يقلِّب يده اليمنى وكأنما يهش ذبابة من أمامه).

- كيف؟

- من هالبنات اللي اِنت خابر.

- أنا ما نب أخبرهم.

- إيه ما يخالف، بالمثل يعني.

- تقول وتدّعي شي واجد، ومستشهدة فيك يا أبو ذيب، وتبي وتبي...

- يا رجال، اتركها عنك. هي ورقة كانت مع المرحوم، وخابره يطلِّق ويقطع الورقة.

- إيه، طيب. عاد لا يطلع كلام من هنا أو من هناك. إنت خابر!

- لا يجي عندك شك، أنتم أغلى من غاليني وأنا رفيق المرحوم

القريب، ومصلحتكم من مصلحتي.

عاد الصمت يُهيمن من جديد على المجلس، الشاي المنعنع خلف القهوة في المجلس، قبل أن يخمِّن ابن مسبط أن أذان العشاء قد اقترب، نطق قائلًا:

- إلا يا أبو عبيد، عندي طلب بسيط. والأولين يقولون: كلمة تستحي منها بدها.

- هات نشوف. (بدأ مع رده على ابن مسبط يقلِّب القنوات الفضائية وهو ينظر باتجاه التلفزيون)

- الله يرضى عليك، السلف اللي بيحل سداده بعد ثلاثة شهور. ودي بس لو تؤجله شوي أو تقسّطه.

- يا سرحان هذا حلال أيتام ولا هو على كيفي.

- أنا خابر يا أبو عبيد، ولكن اِنت الخير والبركة، وكلمة منك تحل كل الأمور.

- ما يصير يا ابن مسبط.

سكت ابن مسبط قليلًا، شرب الشاي وتبعه بفنجان قهوة. وحين بدأ المؤذن أذان العشاء، قام من مكانه قائلًا:

- استأذن يا أبو عبيد، أكرمك الله.

- هلا هلا (لم يقم جبل من مكانه).

تقدم سرحان خطوتين من مكانه باتجاه الباب، ثم توقف والتفت إلى جبل وتحدث بصوت هادئ مثل أبٍ يوجِّه ابنًا صعب المزاج قائلًا:

- حاول الله يرضى عليك تشوف لي الموضوع في تقسيط السداد، أو لا بأس في التأجيل. وتراك تقدر يا ولدي، واعتبر موضوع ليلى سمسماني منتهي. (ابتسم وهو ينطق اسم ليلى سمسماني ابتسامة واسعة بانت معها أسنانه الأمامية فيما يده تمسِّد لحيته التيسيَّة المُحَنَّاة)

- ما يخالف، يصير خير.

- أكرمك الله.

خرج ابن مسبط متيقِّنًا أنه نجح في مفاوضاته، مفاوضات لم يحضِّر لها كثيرًا، لكن الفرص تأتي ولا بُد من استغلالها.

بعد أن فرغَ من صلاته قام جبل وخطى خطوتين عن يمينه ليصلِّي النافلة والوتر، لَمَحَ فهيد المنهاجي في أقصى الصف، ولم يُعِره اهتمامًا وكبَّر للصلاة. كان جبل يعلم أن موعده مع فهيد بعد صلاة العشاء في مجلسه، صلى صلاة النافلة، وأتبعها بركعتين ثم ركعة وتر أطال فيها. حين فرغ من صلاته لم يكن في المسجد سوى المؤذن وفرَّاش المسجد وفهيد المنهاجي. تبادل التحية مع فهيد عند باب المسجد، ومضوا في طريقهم لمجلس منزل ابن طرَّاق.

مضى وقت غير قصير في المجلس وجبل يقلِّب القنوات التلفزيونية. دارت القهوة وفرغوا منها، تلا ذلك بيالات الشاي. رشف جبل من شايه الساخن مثل كهل سقطت أسنانه، رشف ثلاث رشفات صوتية كأنه يُهيِّء فهيد للاستماع، وقال:

- وشلون الأهل والعيال يا فهيد؟ (كانت المرة الرابعة التي يسأل فيها جبل هذا السؤال)

- الحمد لله، في أتم نعمة.

صمت قليلًا للمرة الأخيرة قبل أن يضيف على سؤاله الدائم:

- بغيت يا فهيد أكلمك في موضوع؟

- أمر يا أبو عبيد.

- ما يأمر عليك عدو، اِنت خابر واِنت واحد منَّا وفينا، بس الموضوع يخص بنتك فردوس.

- إيه؟ وش فيها؟

- المرحوم الله يغفر له ويرحمه ويسكنه جنَّات النعيم ما قصَّر في شي على الجميع، وخصوصًا بنتك فردوس.

- بنتي فردوس أم طارق، ومثلها مثل أم جبل وأم طرقي.

- لكن فردوس الله يهديها كثر صرفها للمال، وكثرت شكاواها على طرقي وأم طرقي، والأهم من كذا صارت تطلع بضرورة وغير ضرورة وهي في حداد، وهذا ما يجوز ولا يرضاه الله.

استعار جبل في حديثه هذا الكثير من كلام والده ابن طرَّاق، قال لفهيد كما كان يقول أبوه حين يخاطب فهيد في بعض المواضيع "اِنت خابر واِنت واحد منَّا وفينا". كذلك استعار جبل جملة ابن طرَّاق الأشهر حين يجمع أبناءه ونساءه قائلًا لهم: "أنا ما قصَّرت بشي على الجميع".

ابن طرَّاق الذي دأب في حياته على جمع كل أفراد العائلة في الثلث الأخير من رمضان. كان طلب ابن طرَّاق للاجتماع كالأمر؛ إذ لا يجوز أن يتخلَّف أحد من العائلة عن منزله في تلك الأيام، يبدأ من الليلة الأولى للعشر الأواخر بوضع كرسي عند باب منزله، ويأتي كل فقراء المدينة والمدن المجاورة بدءًا من الليلة تلك، يكون موعدهم مع توزيع صدقة ابن طرَّاق، كان معاونوه يبدؤون في تسجيل الأسماء من الليلة الأولى لرمضان بقيادة عماد الحضرمي، ويعطون كل شخص تاريخًا في إحدى الليالي التسع، كانوا يدققون فيها على هوية كل شخص وجميع أفراد العائلة المسجلين لدى رب العائلة. كان ابن طرَّاق يجلس كل يوم من بعد صلاة العصر حتى قبيل المغرب بدقائق بسيطة يوزِّع فيها صدقته، يعطي الرجل الفرد ألف ريال والمرأة خمسمائة ريال، ومن لديه عائلة يعطيه عن كل ولد ستمائة وعن كل بنت ثلاثمائة ريال. في الليلة التاسعة والعشرين يكون قد بقي يوم واحد على عادته السنوية، لكنه يجتمع مع نسائه وأولاده جميعًا في الصالة الداخلية لمنزله. كان ابن طرَّاق يجلس متصدِّرًا المجلس، وعن يمينه أم جبل وجبل فيما كانت أم طرقي وفردوس يجلسن عن يساره، فيما بقية أفراد العائلة من بنات

وأولاد يتوزعون على جنبات الصالة، يستمع الجميع ذلك اليوم الذي يغلق فيه ابن طرَّاق مجلسه إلى صلاة التراويح والتي تكون فيها ختمة القرآن الكريم (غالبًا بصوت الشيخ السديس إمام المسجد الحرام). كان الصوت يرتفع لأعلى مستوى صوتي بيد ابن طرَّاق، وبعد مضي دقيقتين تقريبًا كان الجميع يلمح ابن طرَّاق وقد شرع في البكاء، في الدقيقة الخامسة أو السادسة تقريبًا يكون ابن طرَّاق يشهق في بكائه. وحين يبدأ السديس في البكاء، يتحول بكاء أبيهم إلى نحيب يتلوه بكاء كل من في الصالة مع الدعاء. كان الشكل العام للصالة يبدو كأنه مشهد جنائزي مليء بالبكاء والشهيق والنحيب، وربما يكون المشهد الوحيد في السنة الذي يبدو فيه الجميع في أريحية تامة مع فعل البكاء.

بعد أن ينتهي دعاء الختمة كان الجميع يصمت لبضع دقائق يتخللها شرب الماء. يقطع صمت الحاضرين ابن طرَّاق بعد ذلك طالبًا من الجميع أن يتحلَّقوا أمامه، والجميع كان يعلم أن الخطبة السنوية لابن طرَّاق قد حان موعدها. كان الشيخ عبيد يستعد لإلقائها على مسامع الجميع، يتنحنح، ومن ثَـمَّ يبدأ بصوت تظهر فيه الرحمة:

"الحمد لله رب العالمين الذي جمعنا في كل رمضان أسرة واحدة مرتبطة محبة لبعضها، والحمد لله رب العالمين على النعمة الكبيرة اللي أنعم الله بها علينا، وصمنا رمضان وإن شاء الله يجي العيد علينا.

أنتم يا عائلة ابن طرَّاق جميعًا في نعمة، نعمة ما لها حد، ولازم تعرفون أن كل ذي نعمة محسود، فالله الله في النعمة، حافظوا عليها، وانتبهوا لها، واشكروا الله واحمدوه واعبدوه واستغفروا، واعرفوا بارك الله فيكم أن حسادكم كثير، فعليكم بالمواظبة على شكر النعمة وترديد أذكار الصباح والمساء، وحافظوا على الصلاة في وقتها، وعدم إسراف المال، وعدم كفر النعمة. كل شي ولا كفر النعمة".

كان يعتدل في جلسته من الاتكاء ويرتفع صوته قليلًا مع جملته

الأخيرة ويواصل قائلًا وقد مدَّ سبابته:

"حنّا الآن في زمن الفقير يحسد الغني، ولو مدّ له الغني يده وساعده. وأنتم جميعا الآن تحت نظر الناس، الريال اللي في يدكم محسودين عليه، والرغيف اللي تأكلونه محسودين عليه، واليوم يوصلني كلام عن بعض أبنائي وبناتي وزوجاتي أنني بخيل عليهم !"

حين وصل لجملته هذه التفت بشكل نصف دائري على الجميع ووضع عينه بعيون الجميع، ثم واصل بصوت أعلى، رافعًا كفيه كأنه يدعو قائلًا:

"بعد ما ربّينا لحم الكتوف وشبع الجميع وصلنا لكفر النعمة. قولوا لي وش قصرت عليكم فيه؟ هل قصرت عليكم بأي شي من أكل وشرب ودفاتر ولبس وغيرها الكثير؟ وش ينقصكم؟"

لم يكن ابن طرَّاق يترك المجال لأحد ليجيب على تساؤله، كان يواصل خطبته ملتفتًا إلى أم جبل:

"هل قصرت عليك يا أم جبل انتي بالنيابة عن الجميع؟"

تهز رأسها نافيةً. ثم يواصل موجِّهًا الكلام للجميع:

"كلام أم جبل خير إثبات أني ما قصرت. هل تريدون أن ترثوني وأنا حي أرزق وتكفرون بعد هذا بالنعمة؟ والله ما توقعت مثل هالكلام من البعض، وما هو من الكل. أنا أعرف أن الأغلبية عاقلين وعاقلات، ولا يقولون هذا الكلام، وأعتبر نفسي أني ما سمعت شيء، والله يعفو عن الجميع ويتقبل مني ومنكم صالح الأعمال ويبلغكم العيد وأنتم بخير ونعمة".

كان ابن طرَّاق يقوم من مكانه بعد خطبته السنوية ويتجه صوب مجلس الرجال، يمر من أمام الجميع ويأمر أن ينتهوا من تحضير وجبة السحور قبل الساعة الثانية عشرة.

استعار جبل جملًا كثيرة من خطبة والده مع فهيد، وفهيد كان

مستمعًا فقط. حين أسهب جبل في وصفه لتجاوزات فردوس، تجرأ فهيد وقال له:

- يا أبو عبيد، عاد لا تدقق في كل صغيرة وكبيرة.

عدل جبل من جلسته، واستعار جملة أبيه التي سمعها ذات مرة موجِّهًا كلامه لفهيد الذي كان يشتكي لابن طرَّاق نيابة عن ابنته. قال جبل:

- يا فهيد معروف أبوي في بطنك، المفروض تعلّم بنتك هذا الكلام.

سكت فهيد، أذهله أن حكاية المعروف لم تمت بموت صاحبها، وغاب في لجة الصمت، واستأذن بعد مضيٍّ لحظات من جبل للخروج. أخرج جبل هواتفه المحمولة جميعها وشرع بقراءة الرسائل النصية والمكالمات التي لم يرد عليها أحد. توقف جبل عند رسالة صملول، والذي أرسل دعوة له ولأبي ضاري لقضاء الخميس الأول من فبراير في البر. سوف يتكفَّل صملول بكل الترتيبات، وليس عليهم سوى الموافقة.

فهيد المنهاجي:

لعن الله ذلك المعروف... ذل. تعبت من هذه الحكاية.

أ هو معروف إذًا؟ أستغفر الله، ولا تلوموني والله إن هذه الشتائم واللعنات ليست في قاموسي، لكنه الكيلِ الذي فاض بي. يا سادتي: المعروف لكي يظل معروفًا لا يُذكَر في كل صغيرة وكبيرة، المعروف يبقى سره مدفونًا في الصدر. أدرك جيدًا أن ابن طرَّاق ردده في كل شاردة وواردة على مسمعي ومسمع ابنتي، وأعذره أحيانًا لأنه هو صاحب المعروف، أما أن يأتي هذا الجبل ويكرره أمامي مجددًا، فهذا لا يُحتَمَل. أود أن أعيش بقية حياتي في سلام، بدأت أشك أني حين أموت سيأتي جبل في يوم الدفن وسيخبر العالم بحكاية المعروف، ولا أستغرب لو قابلت ابن طرَّاق بعد الممات في الآخرة وقال لي حكاية المعروف، سيخبر

الموتى كلهم أن معروفه في بطني. لا بارك الله فيه من معروف.
معروف إيه اللي انت جاي تقول عليه!

ماذا يا سادتي لو كانت القسمة غير عادلة! دين مقابل نفس، هـذا كثيـر واللـه، حتـى لـو تعذر الدين من الســداد، وحتى لو كان الدين كبيرًا، وحتى لو ضمنت هذه النفس لأهلها مسكنًا يأوي بقية إخوتها، هي نفس مقابل مادة. أفتوني أيها الملأ!

يا قلبي، سـتطاردك حكاية المعروف يا فهيد إلى قبرك، لـم تمت بموت صاحبها، بقيت كالنباتات الســامة على لســان جبل، وستكتب كشاهد قبر بعد دفنك، وسيستقبلك ابن طرَّاق في صالة الاستقبال في الآخرة بلوحة مكتوب عليها: "معروفي في بطنك" ! لعن الله ذلك المعروف.

(20)

سواق الهانم -1

في الأيام التالية ناور جبل كثيرًا مع ليلى وابن مسبط ولوزية وفردوس: يهجم تارة، ويعود للخلف تارة أخرى. الشيء الوحيد الذي لجمَ قواه وكَتَمَ أنفاسه كان تكرار حلمه بأبيه ابن طرَّاق، كان هو ذات الحلم الذي رآه في ليلته الأولى في ملحقه الخاص، وتكرر بعد ذلك في الليلة الرابعة، ولم يتأكد من ماهيته سوى بعد تكراره كثيرًا. منذ ذلك الحين والحلم يأتيه بصفة شبه أسبوعية، لا يعلم له ميقاتًا. مع تكرار الحلم مرات كثيرة أصبح مشهد الحلم جليًّا لجبل.

دعونا نفترض أن الحلم أشبه بمشهد مسرحي: كان صدر الصالة الكائنة بمنزل ابن طرَّاق فوق المسرح، يبدأ المشهد بجلوس جبل في صدر الصالة وحيدًا متكئًا تمامًا كما كان يجلس والده ابن طرَّاق. يمضي المشهد رتيبًا وصامتًا حتى يبدأ جبل في السرحان في جنبات الصالة (كان جبل يقرِّر أنه عندما يأتيه الحلم في المرة القادمة لن يسرح، لكي يعلم من أي الأبواب خرج والده، ومن التي كانت تقف أمام الباب. لكنه لا يستطيع ذلك في المرة التي تليها). بعد مرور لحظات من السرحان كان جبل يَفزَع حين يقترب منه والده، لا يهب من جلسته إلا حين يتلقَّى رفسة ابن طرَّاق بكعب قدمه اليمنى في أعلى جبهته، ويترنح قليلا في مكانه. كان جبل ينتبه بعد الرفسة ويقفز من مقعده جالسًا، عوضًا عن الاتكاء، ويرى والده لابسًا سروالًا قصيرًا إلى حد الركبة وفانلة متسخة ومقطوعة من تحت الإبط بدائرة قطرها أطول من كف. كان جبل ينظر لوالده فزعًا. يبصق ابن طرَّاق على جبل وهو في وضع الوقوف إلى الأسفل حيث يجلس جبل. يرتجف جبل من أثر البصقة، ويتبعها ابن

طرَّاق قائلًا: "يا قوَّاد!". كانت هذه هي الكلمة الوحيدة في هذا المشهد، يعود بعدها ابن طرَّاق نحو الباب الذي على يسار المسرح الأفتراضي وعلى يمين جبل، حيث تقف امرأة لم يتعرف عليها جبل تنتظر ابن طرَّاق، ليختفيا بعد ذلك.

كان الحلم ينتهي مع حالة فزع جبل من منامه ويبدأ بمسح وجهه من الرطوبة التي بللته عرقًا، يستعيذ من الشيطان وينقلب على جنبه الأيمن. فكَّر جبل غير مرة أن يسرد رؤيته لأحد مفسري الأحلام، وكان الشيخ ابن مسمار خيارًا جيدًا لهذه المهمة. لكنه في كل مرة يعدل عن ذلك مخافة أن تكون الرؤية رؤية شر لا خير.

في أحد الصباحات التي تبعت الحلم قرَّر جبل أن يفاتح أمه في الموضوع لعلها تخفف من وطأته النفسية عليه. قام من نومه في الملحق الكائن له، اغتسل ولبس ثيابه ومضى للصالة. كانت الساعة تشير إلى ما قبل الثامنة بقليل ولا بُد أن موعد قهوة والدته قد حان، دخل عليها متهللًا ومبتسمًا ككل مرة، مُقَبِّلًا بِوَلَهِ عاشقٍ، وهي تبادله ذات الشعور. وقف جبل أمامها مباشرة، جلس مقرفصًا، وضع يديه على رأسها من الجانبين وقبَّل رأسها، ثم لثم يدها اليمنى قبل أن يقوم من مكانه ويجلس عن يمينها. قدمت أم جبل القهوة لجبل وهي تقول له:

- وشلون أصبحت وأنا أمك؟
- الحمد لله، بخير ما دمت أشوفك بخير.
- الله يرضى عليك يا ولدي.

سكتا لبرهة، تناول فيها جبل بضع تمرات، وقَطَعَ من خبز القرص المدهون بالعسل والسمن، وشرب فنجانًا وأتبعه بآخر، وهمَّ بسؤال والدته عن أبيه:

- أبسألك يا يمه: من توفى الوالد رحمة الله عليه شفتيه في الحلم؟
- شفته يا ولدي، شفته كم مرة.

- و كيف كان؟

- كان طيب، وهيئته زينة ومبتسم ولابس بشت.

- عـاد أبـوي يـا يمـه مـا يلبس بشـت إلا فـي الأعراس أو إذا راح للأمير؟

- والله يا ولدي ما تأكدت هو بشت ولا بالطو، بس لابس شي زين.

- الحمد لله، وعساه هيئته زينة.

- لا زينـة الحمـد للـه، بـس شـفته مـرة أو مرتين يشـتكي كأنه من جنبه الأيسر، وأنا أعرف وشو منه وأنا أمك؟

- إيييه، الحمد لله، ما يخالف. (أحسَّ أن والدته ستفتح موضوع شكواها من فردوس مجددًا وحاول أن لا يسهب)

- و إنت شفته يا جبل؟

- أنا والله كأني شفته، بس من بعيد ما ظهرت صورته زين، يجيني مثل الحلم. لكن تخبريني أنا أقوم من نومي ناسي الحلم على طول.

- الله يدبر الزين يا ولدي، بس أنا أعرف وش اللي يشتكي منه في جنبه الأيسر؟ من فعايل فردوس!

- يا يمه، أنا داري إنك بتقولين كذا، ترا تكلمت مع فهيدان، وقلت يوصل له الرسالة ولعلها تفيد.

- الكلب العود ما يتعلم يا ولدي، وأنا والله ما عاد أطيق الصبر.

- الله الهادي يا يمه.

- لازم تسوي شي، فهيد ما ينفع نفسه حتى ينفعك.

- يصير خير.

لم يروِ جبل الحلم لوالدته ذلك اليوم، ذلك الحلم الذي ظل يقلقه أسابيع متوالية، مثلما أصبحت التحديات الأخرى تبث الرعب في جوانبه، تمرُّد فردوس ومحاولة فرض سلطتها، وأمور أخرى.

فردوس لم تتجاوب مع وساطة أبيها في الأمر؛ إذ إن فهيد أتاها في اليوم الذي تلا رسالة جبل، نقل لها بعض ما جرى بينه وبين جبل وقال:

- اسمعي يا بنتي يا فردوس، كلمني جبل بخصوص إسرافك في صرف المال، وكثرة خروجك من المنزل وانتي تدرين إنك في حداد.

- لا تكمل يا يبه، أنا أعرف كل اللي قاله لك، وياليتك تفهمني مرة واحدة بس يا يبه.

- وشلون يا بنتي، وقت الحداد ما فيه فهمتني وما فهمتني؟ هذا أمر شرعي.

- يبه اسمعني بس لا تقاطعني. أولًا: أنا حاليًا أصرف من حلالي وما لأي واحد منَّة عليّ. ثانيًا: أنا إنسانة عشت محرومة كثير، ومثل ما تحمَّلت الكثير من أبو جبل وصبرت عليه، كنت دائمًا أتذكَّر كلامك وكلام أمي بالصبر، وأن هذا الخير لي ولعيالي في النهاية، وكنت أنتظر هذا اليوم. مرت عليّ أيام كنت أتمنى الخلاص من كثر ما أهانني وأذلني في كونه صاحب فضل عليّ وعليك يا يبه. وأنا في النهاية كنت صفقة جيدة بينك وبينه، أنا مقابل دين عليك.

- لا لا يا بنتي.

- الله يخليك، خلّني أقول كل اللي في خاطري لك: ابن طرَّاق اللي تتكلم عنه هو اللي يده تعرف جسمي بالضرب، يبي يحكمني ميت بعد ما حكمني حي، حطّ جبل حارس في حياته إذا غاب في المزرعة بدون عذر مقنع، وجبل يبي يستمر حارس بعد موت أبوه. قل لجبل يا يبه ماني بحاجة لوسيط بيني وبينه، وهو يعرف زين. قل له بعد إن ابن طرَّاق مات، فلا يظن إنه عبيد ثاني، هذا اللي عندي يا يبه.

قامت فردوس من مكانها وفهيد صامت، فتحت باب المجلس ونادت على طارق وبقية إخوته قائلة:

"تعالوا سلموا على جدكم يا عيالي".

قفلت فردوس كل السبل على أبيها هذه المرة، وإن كانت قد سمحت له بهذا الدور في حياة ابن طرَّاق، فهي لن تسمح مرة أخرى في عهدها هي، لا عهد جبل. أيقنت فردوس أن جبل أصبح خصمًا، أو منافسًا مشاكسًا ربما. وأدركت أن القوة المالية لديها أكثر من جبل، وهي غير مضطرة أن تكون في موقف ضعيف، وليس لجبل سلطان عليها. فيما بعد ربما تفكِّر في تحويل طارق إلى منافس لجبل، أما هي فليس من المُنصِف لها بعد هذا الصبر أن تجد منافسًا فضلًا عن حاكم جديد.

لم ينقل فهيد ردَّ فردوس، وربما لأن جبل لم يعُد يسأله عن إجابة فردوس عن الرسالة. لو سأله جبل سيقول له فهيد ما قالت فردوس، بأنها ليست بحاجة لوسيط بينها وبين جبل. قلَّب فهيد الموضوع في رأسه، ووجد أن أفضل إجابة هي "تفاهموا مع بعض"، شعور يشبه المثل الدارج "كل واحد يصلح سيارته". كما أن جبل أيضًا ماضٍ في طريقه، ولن يحكمه أحد بعد هذا اليوم، ومن الأفضل أن ينصت له الجميع، هذا ما كان يحيك في نفسه.

لم تكن أم جبل خير معين لابنها في توجيه الأمور لنصابها، قالت له في ذلك الصباح المليء بالرؤى، وبعد ذكر جنب ابن طرَّاق الذي كان يؤلمه في الحلم: "والله ما عاد أطيق الصبر"، ومن المؤكد أنها كانت تعني فردوس، تؤلبه عليها لخروجها المتكرر في وقت الحداد، والذي كان بمثابة خرق لكل التعاليم الدينية. في إحدى الجلسات الصباحية مع جبل أكدت له أنها سمعت الشيخ في أحد برامج الإفتاء يقول إن المرأة التي تخرج في أيام حدادها بغير ضرورة ملعونة. فكيف الحال مع فردوس التي استبدلت عباءتها بعباءة كتف ونقاب ومكحلة عين! قالت لجبل أشياء كثيرة، وأتبعتها بأنها لم تعد تطيق الصبر، وجبل يردد: "الله يهديها".

كان على جبل حلُّ الأمور بنفسه مع فردوس لا أن ينتظر فزعة والدته أو وساطة فهيد، لكنه بحاجة لمن يستشيره. فكر جبل بالشيخ

ابن مسمار مجددًا، لكنه لم يقوَ على هز شكل العائلة أمامه، ولجأ إلى صديقه أبي ضاري، شرح له بعض التفاصيل البسيطة بشكل ضبابي، قال له إن المال يُصرَف بإسراف، وإنه لم يعد قادرًا على السيطرة على ذهاب ومجيء فردوس وهي في عدتها فكيف ستكون الحال بعد العدة!

مرزوق ذكَّره أن المال مالها، وما تم صرفه لن يهز الإرث، والمهم أن لا تتصرف بمال الأبناء، وأكَّد جبل له ذلك وقال إنه ما زال هو الوكيل الشرعي للأبناء، ولا مال يُصرَف سوى بإمضائه. "جيد جدًّا، بل ممتاز" هكذا كانت ردة فعل مرزوق على شرح جبل. واصل حديثه وأشار عليه أن يوظِّف سائقًا يعرفه وينقل له كل الأخبار، وخط سير فردوس في مشاويرها بدلًا من السائق الفلبيني الجديد، والذي لا شك في أن ولاءَه سيكون لفردوس. راقت الفكرة لجبل، وسأل مرزوق:

- من برأيك يصلح للمهمة؟
- يبي لها تفكير، أو نشوف لك سواق جديد.
- لا أبو ضاري، أنا ودي بواحد ثقة، ويعرف العائلة ويحرص عليها.
- عندك صبحي، وش رأيك فيه؟
- يعقب، ما يصلح، هذا كذوب.

بعد يومين التقى أبو ضاري بجبل، وسأله:

- ما لقيت سواق يا جبل؟
- لا والله، ما لقيت أحد ولا في رأسي واحد ثاني.

تردد مرزوق قليلًا ثم قال:

- وش رأيك في طقعان؟
- تقصد فرج؟
- إيه فرج. هذا أنا أضمنه لك، كل الموجز عندك، وكل شي بحقه.

- إيه، بس تعتقد يرضى؟

- يا أخي يحصل له. هو الآن رجل أمن، ومعاشه 1800 ريال، وعايش على شرهاتنا التي تجيه من هنا ومن هنا.

- أيوه.

- لو تقول له داوم عندي يا فرج، من وقت ما تطلع من دوامك العصر لآخر الليل، صدقني ما راح يرفض، وكل شي بحقه.

- طيب وأم طارق. تتوقع توافق؟

- يا أخي أنا أعرف النسوان يحبون الفخفخة. قل لها انتي يا أم طارق أرملة الشيخ ابن طرَّاق، والسيارة اللي معك مثل سيارات الشيوخ، ويبي لها عبد يسوقها ما هو سواق فلبيني.

- إيه، والله منت سهل يا شنب.

راقت الفكرة لجبل، وتكفَّل أبو ضاري بإقناع فرج. هاتفه في ذلك المساء، وقال له إن جبل يبحث عن مدير للسائقين في منزله، وإنه لا يرى أحدًا أنسب منه لهذه المهمة، وإنه يرى أن الأقربين أولى بالمعروف. فإن وافق سيتكفَّل أبو ضاري بإقناع جبل. ألحَّ أبو ضاري على فرج، وأقنعه أن ذلك سيكون مصدر دخل إضافي له. تردَّد فرج قليلًا، وأثار استغرابه إلحاح أبي ضاري غير المبرر. طلب منه مهلة للتفكير، ورد عليه أبو ضاري قائلًا:

- خذ يوم يا فرج، فكّر فيه ورد لي خبر، وأنا أحاول أقنع جبل، وتراها فرصة عمرك تعدل من وضعك المالي.

لم يعد فرج بحاجة للتفكير، أخذ مرزوق القرار منه، وسيتكفَّل هو بإقناع جبل، ولن تكون مهمة صعبة على أبي ضاري. في تلك الليلة هاتف فرج هنادي. طلبها على هاتفها الخلوي مرتين ولم تأت إجابة منها، كان يود عرض سيجارتي حشيش. نزل عليه كرم حاتمي بعد أن استمع لمزعل فرحان كثيرًا تلك الليلة، ونفث دخانًا أزرق، وردد معه غير مرة:

"حزين أنا مثلك ولا تظلميني"

الراوي:

مجدداً لا يهم إن كنت الراوي الأول أم الثاني. ونعلم أننا تحدثنا كثيراً في هذا الأمر، ولهذا دعوني (أنا فقط) أروي لكم ما حدث معي في بداية شهر ديسمبر عام 2010: كنا قد قررنا قبل هذا الوقت بعشرة شهور أن نكتب الرواية، وفي بداية هذا الشهر (ديسمبر 2010) أنهينا المسودة الأولى، وجمعنا الكثير من الوثائق والصور الشخصية والشهادات والإفادات، وكتبنا الكثير من الحكايات، والتقينا كثيراً (أنا والراوي الآخر) لمناقشة الرواية، وتبادلنا ما يقارب الأكثر من أربعمائة بريد إلكتروني. ولا يهم كل هذا الآن، فما يهم هو أني تحديداً كنت في بداية شهر ديسمبر كما أسلفت جالساً بعد صلاة المغرب في مقهى (هيديارد) في أبو ظبي. كنت قد بدأت تناول ساندويتش (كروك مسيو) وشارفت على إنهائه، وأشرت للنادلة الآسيوية أن تأتيني بفنجان قهوة (أسبرسو). مسحت فمي بالمنديل، ورفعت رأسي وأرخيته على الكرسي، وبمحض المصادفة (تشبه المصادفات التي قد تجمعك وجهاً لوجه مع صديق دراسي قديم عند بائع عطور رخيصة أو في غرفة التدخين في مطار دوليّ) وقعت عيني على امرأة جالسة على مسافة ثلاث طاولات أمام طاولتي، وحدَّقت لبرهة، هززت رأسي بغية طرد الكسل، عركت عينيّ وحدقت بتركيز أكثر. عدلت من وضعية جلوسي، وأخرجت سيجارة وأشعلتها، ومارست التحديق بوقاحة عجيبة لم أعهدها فيَّ، لكني تعرفت على وجهها تماماً. انتبَهَت المرأة التي كنت أحدِّق في وجهها، التفتت باتجاهي، وبعد نظرتين منها أخرجت هاتفها الخلوي من حقيبتها وبدأت تعبث به. كانت إشارة واضحة منها لكي أبادلها الرقم بتقنية (البلوتوث).

تسمَّرت عيناي في وجهها ولم أبادلها العبث بهاتفي الخلوي. بعد مرور دقائق بدت على هذه المرأة علامات الانزعاج بسبب إطالة تحديقي، ونَفَخَت في الهواء وطوَّحت شعر غرتها فوق الجبين كما لو أنها تنفخ ريشة حطت على أرنبة أنفها، وحركت وجهها للاتجاه الآخر. لحسن الحظ كان الوقت مبكرًا ولم يمتلئ المقهى بعد، إضافة لكون ذلك اليوم كان في وسط الأسبوع، ولم يمتلئ المكان بالزوَّار. بكل صدق لم أكن مهتمًّا كثيرًا بحسن الحظ أو سوئه. وكنت قد عقدت العزم على فعل تصرف أحمق، قمت من مكاني مباشرة واتجهت صوبَ طاولتها. كان تصرفي أشبه بمغامرة غير محمودة العواقب، كمن يجرِّب القفز من الدور الثالث مثلًا لمعرفة شعور المنتحر. من المهم أن تعرفوا أني لم أكن أنوي مغازلتها، ولم يسهم الخوف في ثني عزمي عن ما نويته. اقتربت من طاولتها، ولمعت عيناها بخوف وتسمَّرت في مكانها رعبًا من هجمتي المفاجئة. سَحَبْتُ كرسيًّا وجلست قبالها. كانت المرأة مذهولة حين جلستُ، فقلتُ موجِّهًا سهام نظراتي لها:

- السلام عليكم.
- وجع في شكلك. إنت مجنون !
- أرجو أن تكوني هادئة، ولا تثيري الشبهات حولنا، لدي بعض الأسئلة وأحتاج لإفادتك لتسجيلها في الرواية، لأنني أعرفك، ومتأكد من أني أعرفك.
- إنت شنو تبي، تروم الحركة تشي !
- لا لا، ما اتفقنا يا هنادي. ليش تغيرين لهجتك؟ انتي سعودية حتى لو نقشت الحناء على يدك مثل الإماراتيات، وحتى لو تكلمتي لهجة أهل أبو ظبي.
- إنت شنو تقول!

- يا هنادي، هدّي بالك وخلينا نتفاهم باللهجة السعودية أحسن.

أطلَّت النادلة الآسيوية عند طاولتنا، ووجَّهَت حديثها للمرأة: "أر يو أوكي ميس؟" وتكفَّلتُ بالرد عليها: "يس بليز". لم تحفل النادلة لإجابتي وانتظرت رد المرأة (كنت متأكدًا أنها هنادي). قلت للمرأة: "قولي لها يا هنادي أوكي". وردت هنادي: "إتز أوكي". واصلت حديثي لهنادي قائلًا:

- طيب جدًّا، من متى وانتي هنا يا هنادي؟ متى تركت السعودية؟

- خلصني، شنو عندك وإلا والله ألمّ عليك رجال الأمن.

- يا هنادي أنا أعرفك وانتي ربما ما تعرفيني، قولي لي، من متى وانتي هنا؟ (كدت أخبرها بعدم توصلنا لوضع نهاية جيدة لها في الرواية)

- .... (لم ترد)

- يا هنادي هي كم سؤال وأرجو إجابة منك، وأوعدك إني أقوم من مكاني، أنا أعرفك تمامًا، وعندي صورة لك تحصلت عليها من جوال شخص ما، ولو عُدت للفندق مستعد أرسلها في إيميل لك، الصورة مخزّنة في جهازي ونسخة تمامًا منك.

- يا ريال، شنو تريد؟ خلاص ما بتسير؟

- حلوة اللهجة عليك يا هنادي، بس ما راح تمر عليّ، أنا متأكد أنك هنادي، وين اختفيتي عن جبل؟ ولا هو اللي اختفى عنك؟

لمعت عيناها من مفاجأة السؤال وبدأ ذهولها يزداد، رفعت كأس الماء من أمامها بيد مرتجفة وشربت منه. واصلتُ حديثي:

- طيب سؤال ثاني يا هنادي: تدرين وش صار على

فـرج؟

- يا ريال ترا بصيح وتم أسوي عليك فضيحة، قوم من هني.

- مـا فـي فايـدة يـا هنـادي، بس في ذمتك ما تقطّع قلبك على اللي صار لفرج؟ مو حرام اللي صار؟

- خلاص عاد.

- طيب يا هنادي.

- خلاص روح.

- عمومًـا فكّـري فـي الموضوع، وهذا رقمي، وكل اللي أحتاجه من جلسـتنا هي بعض التفاصيل الدقيقة عن جبل وفرج وأبو ضاري ولوزية، ما أبي شيء ثاني.

مضيـت لطاولتـي، لملمـت أشـيائي وتركت مائة درهم فوق الطاولـة. كنـت متأكـدًا أن هنـادي لـن تهاتفني، ربما لأنها تريد أن تقطع كل علاقاتها الماضية بعد أن هربت من السعودية. ربما بعد فراقها مع جبل، وربما بسـبب مشـكلاتها الكثيرة، وربما بسـبب المخاطـر الكثيـرة التـي تحيـط بطبيعـة عملهـا. حيـن خرجت من المقهـى التفـتُّ ناظـرًا للخلـف، بدت هنادي محنية الرأس، ويدها اليُمنـى تغطـي عينيهـا، وأظنهـا كانـت تبكي، بيد أني كنت منتشـيًا بعد خروجي؛ إذ جربت شعور الرجل الذي قفز من الدور الثالث لكي يجرِّب شعور المنتحر.

(21)

سواق الهانم-2

أصبح فرج الشخص المناسب في المكان المناسب، أجمع الكل على ذلك، فردوس وجبل وأبو ضاري.

فردوس وجدت فيه السائق الثقة ذا الهيبة، مقارنة بسائقها الفلبيني، وجبل رآه الخادم المطيع والعين الثقة والشخص الذي لا يرد أمرًا له. أمَّا أبو ضاري فقد وجد فيه الجاسوس المناسب للتطفُّل على منزل ابن طرَّاق، وخصوصًا جبل وفردوس.

باشر فرج مهامَّ عمله الجديد منذ اليوم التالي لطلب أبي ضاري. أصبح جدوله على النحو التالي:

- من السابعة حتى الثالثة: يمارس مهامَّه في وظيفة حارس أمن.
- من الثالثة حتى الرابعة: يتناول الغداء في المنزل، ويجلس قليلًا مع فوزية وطفليه.
- من الرابعة حتى منتصف الليل: في منزل ابن طرَّاق مديرًا فنيًّا للسائقين ومسئول شخصي عن مشاوير فردوس.

اعتقد فرج أن دخول هذه الوظيفة إلى حياته سيجلب له التعب والمشقة. بعد بضعة أيام اكتشف فرج أنها منحته طاقة جديدة وتنظيمًا دقيقًا لحياته. لم يعد فرج يحنّ لتدخين (الصاروخ) سوى بعد خروجه من منزل ابن طرَّاق عائدًا لبيته، ينفث دخان سيجارة واحدة فقط، ويدخل حاملًا فوق مشقَّته كسل السيجارة. أجبره جدوله المثقل بالأعباء على انتظام وجباته، كما أوكل لزوجته فوزية جميع مهام المنزل بما في ذلك ميزانيته الشهرية. يدسُّ مبلغًا من المال في بداية كل شهر، وتُحسِنُ فوزية إدارته.

حتى هندام فرج تغيَّر. طلب من الخياط تفصيل ثياب جديدة وأصرَّ أن تكون من نوعية قماش (الامتياز) ذي الخامة الناعمة ذات اللون الأصفر. وطلب منه أن يفصِّل (الغالوقة) على شكل حرف V مقلوب مقاس 10 سنتيمتر، كما اشترى طاقيات جديدة موديل (أم جنيه) تعب كثيرًا حتى وجدها في السوق. وشماغ (مايفير) مقاس 62، وساعة و(كبكات) ذهبية اللون، وكذلك لم ينس فرج الحذاء الأسود اللامع. كل هذه التغييرات لم تكن بمبادرة شخصية منه، لكن فردوس في مشوارها الأول، منحته 3000 ريال وطلبت منه أن يصرفها كاملة في ملابس وإكسسوارات جديدة.

في كل مرة كان أبو ضاري يراه بعد ذلك يقول له: "والله شكلك رزة باللوك الجديد، سبحان مغيّر الأحوال". كل هذه التغيرات منحته ابتسامة متواصلة في شهره الأول، وسلامًا داخليًّا ورِضًى عن النفس لم ينعم به منذ فترة. كان فرج حين يرتب شماغه قبل الرابعة، موعد الذهاب لمنزل ابن طرَّاق، ينظر في المرآة وينفخ صدره قليلًا، ويرفع شماغه من الطرفين فوق العقال. تخلَّى عن نسفة (الشريمبو) التي ترافقه دائمًا بعد العصر.

أهدى هذا العمل فرج دخلًا فوق ما كان متفقًا عليه، تدسُّ فردوس ورقة من فئة الخمسمائة ريال كل أسبوع تقريبًا وتوصيه جيدًا على عدم إطلاع كائن من كان على أي مكان تذهب إليه؛ إذ إن فردوس علمت بطريقتها أن فرج كان وما يزال من (الشقرديّة) الذين يتلقون أوامر من جبل، لكنها فرصة لا بأس بها للاطلاع على حياة جبل. تسأله بين الفينة والأخرى عن جبل، وكيف يتصرف معه، فيجيبها فرج بإجابات مقتضبة.

في المقابل كان جبل يمنحه مرتبه الشهري وفوقه مائة ريال قائلًا له: "هذي عشانك يا فرج". جبل كان يريد من هذه المائة ريال أن تجعل من فرج عينًا جيدة على فردوس، كما يأمل أن يعطيه المعلومة المطلوبة

متى شاء. أما أبو ضاري فكان أشد كرمًا من جبل، كلما أتاه فرج منحه مائتي ريال، وبدأ في سؤاله عن فردوس: أين تذهب؟ بماذا تهتم؟ وماذا تحب أن تسمع من أغان في السيارة؟ أصبح فرج يُكثِر من الذهاب لأبي ضاري؛ إذ إن كل زيارة ولو كانت قصيرة تساوي مائتي ريال. يعطيه فرج طرفًا بسيطًا من حكاية لفردوس، أو ربما يختلقها فيثير مخيلة أبي ضاري ويمنحه المائتي ريال. كان فرج يوحي لأبي ضاري أن فردوس بحاجة إلى رجل يخلف المرحوم، وأن مواصفات هذا الرجل لن تقل عن مواصفات المرحوم على الأقل من الناحية المادية.

مضى الشهر الأول على فرج، حسب دخله الشهري الجديد، ووجده قد تقاضى ما يزيد عن الخمسة آلاف، غمرته السعادة مثل طفل في يوم عيد. بعد حسبته السريعة كان بمقدوره لو استمر الحال على أن يدخر مبلغًا جيدًا، ويسدد إيجار المسكن بأريحية، كما أنه يعلم أن بمقدوره زيادة الدخل لو عرف كيف يدير حواراته جيدًا مع الجميع، ويعطي كل ذي حق حقه. لكن فرج ما زال غير مقتنع بإكرامية جبل، كانت المائة ريال بالشهر لا تفي بحق "أين ذهبتم؟ وماذا اشتريتم؟". فكَّر أن جبل لا بُد أن يمنح أكثر، وحينئذ يحق له أن يسأل أكثر وتأتيه إجابات أكثر، وينشغل في البحث أكثر.

استمر حال فرج على ذلك، وهذا ما كان يدور بخلده ويتمنى المحافظة عليه، سيزداد دخله، وسيتمكن من امتلاك سيارة جديدة، بالرغم من اقتناعه أن لا حاجة له بالسيارة الجديدة، وهو لا يحتاجها سوى في الذهاب لعمله والعودة منه. كانت كل مشاويره الباقية يقضيها بسيارة أم طارق (الأسكليد) السوداء.

أصبح فرج لا ينسى ربط حزام الأمان مع (الأسكليد) السوداء. كان يعتدل في جلسته مستقيمًا كأنه ملتصق بكرسي السائق، كما اضطرَّ لاستبدال شرائط مزعل بـ (سي دي) أحلام وعبد المجيد عبد الله وحسين

الجسمي. لم يكن الاستبدال اختياريًّا، كانت تلك الأسماء هي الأسماء المحببة لفردوس، فردوس التي لا تبالي بطلب الأغاني وهي في شهر حدادها الأخير. كان فرج يحس برغبتها في الحياة، في طلبها لأغانٍ بعينها، تطلب منه في بعض الأحيان أن يُعيد الأغنية ثلاث مرات. خصوصًا مع أغاني حسين الجسمي الشعبية، حين يصدح الجسمي قائلا:

"مالي عزا من دونه

اللي تيمني هواه

كل الحسن بعيونه

في وجهه ومحياه"

كانت الموسيقى تدغدغ فرج والإيقاع يسري بجسده. حين تنتهي الأغنية تطلب منه فردوس أن يعيد، ويعيد فرج. كان يحس بآلة العود حين تبدأ الأغنية تدندن على وتر مربوط في قلبه، ويسمع ضارب الدفّ يضرب عند رأسه، خلف أذنه اليسرى تمامًا. كانت ركبته اليسرى المصابة تبدأ بالحركة صعودًا وهبوطًا من مفصل الكاحل، يسدل شماغه على جانبيه حتى لا تنتبه له فردوس ويشرع في تحريك رقبته، ويصدح الجسمي مجددًا. تبزغ لوهلة صورة هنادي تتثنى على إيقاع الأغنية، يراها ترقص حافية القدمين فوق مقدمة السيارة، يلمح خلاخيلها في كاحلها المبروم، ويبطئ فرج سرعة السيارة خصوصًا عند المنعطفات. يفكر أنه لو أبطأ السرعة لن تسقط هنادي، فتأخذ (الأسكليد) شكلًا مهيبًا وهادئًا عند المنعطفات. تشرع أصابعه في ضرب المقود على الإيقاع، يدخل ثمالة الطرب فلا يتمنى سوى سيجارة (صاروخ).

باغته صوت فردوس وهي تأمره:

- انتبه للطريق يا فرج.

- حاضر يا عمة.

ارتجف فرج قليلًا، خُيِّل له أن فردوس تابعت المسرحية كاملة:

شاهدت هنادي ترقص، ورأت رغبته في الرقص معها، وتابعت تناغم الإيقاع مع قوام هنادي، واطَّلعَت على سره الباتع بعد شهر واحد فقط من العمل سائقًا لها.

"لو تعلمين يا عمة هذه الأغنية تعبث بأعصابي كثيرًا، ولها ذكرى عزيزة على قلبي. أنا يا عمة لم أكن أسمع لأي مطرب سوى مطرب الشعب مزعل فرحان. امرأة واحدة فقط علمتني كيف أحب أولًا، ومن بعد ذلك علمتني كيف أستمتع بالموسيقى، أصبحت الموسيقى بكل أشكالها جميلة. لكن هذا الفنان الساحر المثير للبهجة كان يوقظ حواسي جميعها، حين تبدأ هذه الأغنية يبدأ جسد هنادي بالتمرُّد. كنت يا عمة أرى خصرها يخرج من انتظام عمودها الفقري، وكنت أشك في سيجارتي. ذات يوم صممت أن تبدأ الأغنية وتشرع هنادي بالرقص قبل أن ننفث دخاننا الأزرق، ورأيت ذات التمرد من الخصر والنهدين المُطِلَّين من البلوزة مثل قطتين شقيتين. كانت هنادي يا عمة تلبس تنورة بيج فوق الركبة بقليل، وذات الخلاخيل التي شاهدتِها يا عمة وهي ترقص فوق مقدمة الأسكليد، وبلوزة ضيقة بيضاء بنصف كم، وفتحة رائعة في الصدر تُظهِر تمرُّدَ نهديها. كان فوق نهدها الأيسر شعار أكاديمية، وعرفت فيما بعد أن البلوزة من نوع (بولو)، وهذا الشعار هو شعار المصمم على شكل أكاديمي، ولهذا أسميتها ذلك اليوم (بنت الجامعة). ولا أخفيك أنها مجتهدة بحق يا عمة. كنت مأخوذًا بها يا عمة ذلك المساء، وفي كل مرة ألتقيها أكون مأخوذًا بها وأطلق عليها لقبًا جديدًا، فخلاف لقب بنت الجامعة أسميتُها ذات مرة (الأبلة)، ومرة أخرى (شمس الصبح)، ومرة غيرها لقب (الترفة)، وفي يوم أعطيتها لقبي الغالي لدي وأسميتها (البازوكا).

في ذلك المساء، نفثنا دخاننا قبل وبعد الأغنية، رقصت منفردة تارة، وراقصتُها تارة أخرى، وتمكنت من طرد جني شرير من جسدي،

والجسمي يعيد ويزيد، وسهرنا كثيرًا ورقصنا حتى كلَّت أطرافُنا، كانت يا عمة... ".

- يا فرج، الإشارة فتحت وإنت واقف؟ تحرك وانتبه، بطّل سرحان لو سمحت.

- ....

كان الضجيج صاخبًا في الخارج، وأبواق السيارات في نشاز متصاعد لا يُحتَمَل.

فردوس:

أرجو أن لا تحقدوا عليَّ، أنا قُمت بواجبي على أكمل وجه في فترة العزاء، ولا أعلم ما هي مشكلة الشهور الأربعة وعشرًا. هل من المطلوب مني أن أدفن نفسي في غرفتي ولا أخرج؟ هذا كثير، نعم هذا كثير، كما أن لديَّ رصيدًا جيدًا طوال حياتي الزوجية من الحداد. صدقوني ولا تضحكوا، كما أني لا أهزأ بتعاليم الدين، حاشا لله. لكن ماذا لو قلت لكم إنني كنت فعلًا أعيش في حداد طوال هذه السنوات الكثيرة؟ لم أكن أستطيع الخروج كثيرًا من المنزل، وليس من حقي أن أضع المساحيق والزينة سوى في غرفة نومي، والزيارات ممنوعة ما عدا التي تكون في واجب اجتماعي كزفاف أو عزاء أو وضع. حتى التسوُّق، كان يحدث فقط ثلاث أو أربع مرات في السنة: كسوة شتاء، وكسوة صيف، مرة أو مرتين في كل موسم. غير ذلك يسمى إسرافًا وفراغًا. أظنكم تعرفون ابن طرَّاق جيدًا، رغم أن الرواة لم يتكلموا كثيرًا عنه، وأظنهم خجلوا من الحديث عن أفعاله، بالطبع أقصد أفعاله داخل المنزل. كما يساورني الشك بأنهم تعمدوا قتله من المشهد الأول لأن أفعاله مشينة، وليس كل ما يُعلَم يُقَال. وأظن أن النزاهة خانتهم قليلًا. أنا أختلف كثيرًا معهم في طريقة

سردهم لابن طرَّاق، وإصرارهم في الكثير من المرات على مناداته بالشيخ ابن طرَّاق؛ الشيخ يجب أن يكون شيخًا بأفعاله، وخيركم خيركم لأهله، أين ابن طرَّاق من ذلك؟

أنتم تطالبونني الآن أن أعيش حدادًا كما يفعل العوام! يا سادتي الفترة الذهبية التي كنتُ أعيشها هي حين أكون حُبلَى فقط. هل تصدقون؟ كنت أخرج فيها للطبيب في كل شهر مرة أو مرتين، وفي الشهور الأخيرة تزيد مواعيد الأطباء وأخرج كل أسبوع تقريبًا. والأجمل من ذلك ما بعد أيام الوضع، حيث أبيت في المستشفى ثلاثة أيام وما يربو على الشهر تقريبًا عند أمي. قوانين صارمة كانت أشد من الحداد، والجميع يطلب مني الآن، بمن فيهم الكثير منكم، أن أعيش حدادًا! والله إن هذه الفترة لا تستحق أن تهدر، عشتها في حدود طاقتي، وأقسم لكم أني لم أحضر زفافًا أو حفلًا أو سهرة (دي جى) في هذه الفترة، ولن أفعل؛ إذ إني أعرف حدودي. ألا يكفي هذا؟ أو ليس هذا جيدًا؟ لا تطلبوا الكثير مني، ولا تُحَمِّلُوني فوقَ طاقتي. ضعوا أنفسكم مكاني، أنا في النهاية نفسٌ كما قال فهيد، الذي يُفترَضُ أن يكون أبي، والنفس لها رغبات، ونفسي لو منعتها لن أقدر عليها. كفى أرجوكم، لا تُثقلوا عليَّ ولا تظنوا بي سوءًا، ولا تحصدوني بألسنتكم. لو فعلتم أيها الناس سوف تُكَبُّون في النار على وجوهكم. ارحموني... ارحموني. (لعن الله ذلك المعروف).

(22)

1- العبارات

كانت عطلة نهاية الأسبوع الأخير من شهر فبراير هي الإجازة الأولى التي يأخذها فرج. وأصر جبل على أن يكون موجودًا بصُحبته في رحلته إلى الصحراء، تلبية لعزيمة صملول. قال له جبل:

- اتصل في عمك أبو خالد واسأله لو طلب أي خدمة خاصة للمخيم، ونسّقها.

عاد له فرج في ذلك المساء قائلًا إن أبا خالد لا يريد سوى قوارير من النبيذ المعتق الأحمر للسهرة. وأجابه جبل:

- والبنات؟
- ما طلب مني شي.
- سألته؟
- سألته يا عم وجاوبني إنه ما فيه داعي.
- غريبة !
- يمكن يكون نسّق الأمر بمعرفته.
- ما فيه مشكلة، صملول مهو بسيط. وبعدين وشو هذا النبيذ الأحمر؟
- هذا مشروب فاخر يا عم.
- يعني خمر؟
- تقدر تقول يا عم، نوع من الأنواع.
- إخس يا صملول، منت بسيط والله.

في ذلك اليوم كان جبل أول الحاضرين كعادته بصحبة فرج الذي قاد السيارة، وكأنه لم يتخلَّص من أعباء الوظيفة الجديدة.

وصل جبل منذ العصر إلى مخيم صملول، ذهل لحجم المخيم. كانت هناك أكثر من عشر خيام مجهزة، وسيارتان (كرافان) مجهزة للرحلات. تجوَّل جبل بصحبة صملول في المخيم قُبيل المغرب، وشرح له أن المخيم مجهز لرحلات العائلة كافة، وأن إحدى سيارتي (الكرافان) مجهزة له شخصيًّا والأخرى لضيوفه، وفي إحدى الخيمتين اللتين تتصدران المخيم سوف تكون الجلسة الرئيسية، فيما ستكون الأخرى التي تليها لغرض وضع مائدة العشاء.

بعد أن غطست الشمس خلف الرمال وصل أبو ضاري للمخيم، تزامن وصوله للمخيم مع توافُد بعض الضيوف على صملول. فوجئ جبل بالمدعوِّين، وهمس في أذن صملول بعد صلاة المغرب قائلًا:

- أنت تبي تشهد خلق الله على عزيمتك لنا؟

ابتسم صملول قائلًا:

- ما عليك، هذولا من جماعتنا ومغادرين بعد العشاء مباشرة. ترا عشانا بيكون مبكر وحاول أنت وأبو ضاري أنكم ما تكثرون من العشاء، بيكون لنا عشاء ثاني. خبِّر أبو ضاري.

صمت جبل ولم يعلق، كان يتوق للحميمية التي رافقت لقاءَهم المشهود في حفل رأس السنة، وأكمل الجلسة على مضض مبادلًا الضيوف الأحاديث المقتضبة عن تقلُّب الطقس وتقلُّب أسواق المال.

بعد العشاء مضى الضيوف، وأشار لهم صملول أنهم سينتقلون للخيمة (الصباحية) والتي تقع في الجهة الجنوبية من المخيم، وأكَّد لهم أنها أكثر دفئًا، وبعيدة عن العيون وعن مفاجأة أي ضيف طارئ للمخيم. انتقل صملول بصحبة جبل وأبي ضاري، كما أشار لفرج أن يجلب قوارير النبيذ الأحمر هناك، وأخبرهم أن القهوجي ميزر سيكون بصحبتهم لخدمة الجلسة وتجهيز الشواء قبيل الفجر.

دخل الجميع للخيمة المستطيلة الشكل، تشكَّلت على صدر

الخيمة المقابل لمدخلها جلسة على شكل حرف U اللاتيني، عليها مقاعد إسفنجية منجدة بالسدو، تفصل بينهم على الزوايا مساند هرمية الشكل، ويتوسط الجلسة منقل مليء بالحطب المشتعل. جلس جبل في المنتصف وعن يمينه صملول وعن يساره أبو ضاري.

تساءل جبل مجددًا عن سر غياب البنات للسهرة، وأكد له صملول أن وجود البنات هنا صعب، كما أنه بحاجة لجلسة سوالف خاصة تجمع الثلاثة فقط.

قال لهم:

- حنّا بحاجة نقلل من هذي الأمور، لا يجتمع زنا وغنى.

كـرّر صملول الجملة مرارًا على صاحبيه، كررها كمؤمن بها منذ زمن طويل، حتى وإن ظل بين الفينة والأخرى مخالفًا لها في جيئته وذهابه للبحرين حين بدأ المال يملأ جيوبه، لكنها في ذات الوقت وضعت الحد الفاصل بين عزوبيته الطويلة وبدء الحياة الزوجية. صملول يشبه كثيرًا بقية البشر، تملأ بعض المقولات رأسه فلا يلبث أن يؤمن بها، وهذه المقولة تحديدًا لم تأتِ من شخص عابر، لكنها أتت من الرجل الذي آمن به على الأرض، والده ابن ناشف.

في ليالي الصيف كان صملول يأتي متأخرًا من البحرين فلا يصل لمنزل والده سوى قرب صلاة الفجر، وهو يعلم أن والده كان أول الذاهبين للمسجد بعد نداء الفجر مباشرة، ولو وصل قبل الفجر بقليل سيجد أباه في حوش البيت يتوضأ ويتهيأ لصلاة الفجر. في تلك الليلة (لنسميها ليلة العبارة)، خمّن صملول أن أباه قد غادر إلى المسجد، إذ كان الإمام قد رفع تكبيرة الإحرام، وشرع في صلاة الفجر. أوقف صملول سيارته ودلف للمنزل بهدوء متوقعًا أن أباه قد غادر للصلاة، حين خطا خطوتين في داخل حوش المنزل، قطع ابن ناشف صوت قرع نعال ابنه صملول قائلًا:

- بدري يا ولدي.

دقَّ قلب صملول بسرعة أعلى، توقَّف في مكانه واستعد لسماع كلمتين خفيفتين من والده كما يحدث كل مرة. قرَّر صملول في تلك الليلة بعد مباغتة أبيه أن لا يصمت ويبتلع الكلمتين ويمضي، فكَّر أنه لا بُد أن يدافع عن نفسه، ردَّ على والده قائلًا:

- هلا، صباح الخير يبه.

- صباح النور، والله يا ولدي مساريك في هذا الوقت مساري قحاب!

- الله يهديك يبه. وش هالكلام؟

- عاد أنا قلت لك وربك اللي بيحاسبك.

- بس الله غفور رحيم يا يبه.

- والله كذلك شديد العقاب. يا ولدي خذها مني وأنت الآن فتح الله عليك من رزقه: "لا يجتمع زنا وغنى". (قالها ابن ناشف وهو يجفف ذراعيه من ماء الوضوء)

صمت صملول قليلًا، كانت محاولاته للرد فاشلة، وتفسح المجال للمزيد من سيل الكلمات الوعظية الطازجة. سحب نَفَسًا ثم قال:

- بروح أتوضأ في غرفتي وأرجع للصلاة.

مضى صملول إلى غرفته ولم يتوضأ أو يصلي، لكن هذه العبارة الأخيرة ظلَّت ترنُّ في مسمعه بقية حياته. وهكذا ظل يرددها في كثير من المواقف مؤمنًا بها حتى ما تلبث أن تغير مجرى حياته. بعد بضعة أسابيع جاء صملول إلى أبيه طالبًا منه أن يخطب له زوجة، وتزوج صملول، وفتح الله عليه من الرزق أكثر، لكنه كبقية البشر ما يلبث أن يكفر بمقولات يؤمن بها، عاد بعد مضيٍّ عسل الزواج إلى بعض عاداته السابقة. في المخيم أعاد صملول العبارة على مسمع جبل وأبي ضاري، ذات المقولة القديمة: "لا يجتمع زنا وغنى". كان ينطقها مؤمنًا

بها، كاشفًا عن عقيدته الدنيوية، خائفًا من فقد صفة الغني، وربما يخبئ نية أخرى حين قال جملته الأخيرة، أو ربما توبة أخرى. لم تَرُق هذه العبارة لأصحابه، جبل تحديدًا، لكنه كتم امتعاضه، أمَّا أبو ضاري فلم تكن الأمور تختلف كثيرًا لديه، ما دامت الكأس حاضرةً فلا شيء يهم بعد ذلك.

دارت كؤوس النبيذ الأحمر وأطباق الـمَزَّة في المجلس من فرج بمساعدة ميزر، وسأل جبل:

- وش هذا النوع يا أبو خالد؟

- هذا الله يسلمك نبيذ أحمر معتق مستورد من إيطاليا. كنت أدور عن نبيذ فرنسي ولكن ما لقينا غير الإيطالي.

- يختلفون يا أبو خالد؟ أظن كلهم خمر!

- لا يا جبل، فيه فرق كبير، النبيذ فيه الأبيض والأحمر والوردي، وفيه الجديد والمعتق، والفرنسي والإيطالي والجنوب أمريكي وغيرهم، وفيه الغالي والرخيص. وبعدين هذا مع الأكل أفضل من الويسكي، هذا يهضّم ويحرك الدورة الدموية.

- و يخفض الكلسترول، خصوصًا الأحمر. (أضاف أبو ضاري وهو يرشف قليلًا من النبيذ ويمط شفتيه)

- عجيب! (أضاف جبل وهو يتأمل الكأس)

- أنا يا أبو عبيد ولا يهون أبو ضاري أفضل نبيذ أحمر شربته كان في فرنسا، في مدينة صغيرة اسمها (كليرمونت فيراند) تقريبًا في وسط فرنسا. كنا مع أعضاء إدارة مصنع صغير مختص في المعدات البلاستيكية البحرية على عشاء في مطعم تاريخي قديم، وطلبت قارورة (واين).

- وش الواين؟ (قاطعه جبل)

- هو نفسه النبيذ الأحمر اسمه واين. المهم أكمل لك: طلبت

قارورة (واين) أحمر معتق من عام 1996 وشـريتها بـ 600 يورو، يعني تقريبًا ثلاثة الآف ريال.

- إخـس يـا صملـول (قالهـا أبو ضاري وهو يبتســم بنصف شـفته العلوية)

- بثلاثـة الآف ريـال يـا مـرزوق ومالـك علـى يميـن، طلبت منها قارورتين وشربناها على العشاء، وبعد العشاء وقعنا الاتفاقية.

- إخس، وما قلت لهم "بقوا لي شوي". (قالها أبو ضاري وضحك بصوت عال)

- الشرهة ما هي عليك، الشرهة على اللي يقول لك سوالف ثاني مرة.

رفع جبل كأسه ورشف قليلًا بعد الصمت ثم قال:

- يا فرج تعال اخلط لنا هذا بكولا أو أي شي تراه تعبني.

- يا جبل هذا ما يخلطونه مع شي. (صملول معارضًا ومقلبًا يده اليمنى في الهواء)

- لا لا ما يخالف (علّق أبو ضاري)، هات له تونيك يا فرج. النبيذ إذا كان مـر يخلطـون معـه تونـك. فـي دبي عندي صديقة فرنسـية (حدّق في عيني صملول وهو يذكر الصديقة الفرنسـية التي اختلقها حالًا)، إذا طلبنا نبيذ أحمر كانت تخلط معه تونيك.

جاء فرج بالتونيك، وصبَّ في كأس جبل، خيَّم الصمت مع قليل من التوتر بين صملول وأبي ضاري، ولأن صملول كان صاحب الدعوة قـرب يديـه مـن منقـل الجمـر المشـتعل وبـدأ يدفئهما. أخـذ يردد بعض الهجينيـات القديمـة بصـوت مرتفـع لتبديـد الصمت. انفرجت الأسـارير قليلًا بعد الكأس الأولى، وتحول الحديث إلى درجة حميمية أعلى.

قال جبل مقاطعًا هجينية صملول:

- هيضت مشاعرنا يا صملول بأغنياتك.

- أنت يا جبل اللي قلبك أخضر.

- يا صملول وين أخضر معه! تصدق أنا لي فترة طويلة أنام في ملحقي الخاص، ولا أدخل غرفة نومي إلا لتغيير الملابس، وإذا دخلت أطلب من المعزبة تطلع، لو شفتها قدامي يضيق صدري وأحس بكتمة في صدري.

- أفهم من كلامك يا جبل أنك من فترة ما علَّقت التيس!

- أي تيس الله يهديك، أقول لك إذا شفتها قدامي يرتفع ضغطي وأدور عن أدنى سبب للهواش وأنت تقول علَّقت التيس! أصلًا التيس يوم يشوفها ما يتحرك حتى أعلقه!

- أخاف أنك كبرت يا جبل وصار عزمك ضعيف؟ وتدور لك عن عذر، طيب خذ حبة فياجرا أو سنافي علشان تتحسن الأمور.

- تعقب يا صملول، أنا ما فيني شيء، وإذا تبي تتأكد اسأل صاحبتك العنود، خلها تسأل هنادي كم مرة أجيها في الليلة، ما يكفيني معها ثلاث أو أربع مرات. وأنت تقول خذ فياجرا! لو أخذت فياجرا كان تحمل اِنت يا صملول.

ضحك أبو ضاري بعد جملة جبل الأخيرة بعد أن كان مكتفيًا بالصمت، وقاطعهم صملول قائلًا:

- يا جبل، كلامك خطير. (قال صملول جملته وهو يفرك خاتمه الضخم)

- أي كلام؟

- كلامك هذا يخليني أشك أنك مربوط يا جبل!

- مربوط! وش تقصد بمربوط؟

- طيب سؤال: أنت تنام مع أحد في الفترة الأخيرة غير هنادي؟ يعني فيه بنات غيرها؟ أنا أعرفك تحب تجدد عهودك، من واحدة إلى واحدة.

- لا، لا، أنا مرتاح مع هنادي وهي الوحيدة اللي تفهمني وتريحني، تعطيني جوي في الفراش، فرس يا صملول وأنا خيَّالها.

- كلامك هذا يا جبل يخليني أشك أكثر، ويظهر لي أن هنادي رابطتك!

- وش تقول يا صملول؟

- يعني ساحرتك يا خبل!

صمت جبل وحدَّق في وجه صملول للحظات، دخل بعدها في نوبة ضحك قائلًا:

- تستهبل أنت، تستهبل يا صميّل!

قاطعهم أبو ضاري وهو يرشف كأسه:

- هذا أنتم، متى لقى الرجل راحته مع بنت قلتم مسحور. اسمع يا صملول ويا جبل: "الرجل في حياته يمر على نساء كثير، وقليل منهن من تترك بصمة في ذاكرته، ولو كان الرجل محظوظ، ممكن يعرف في حياته ثلاث نساء". وجبل هذه هي المرة الأولى التي تمر في تجربته بنت فرس، لا تلومه يا صملول، حتى أنا كنت أبيها.

كان فرج يسمع النقاش ويبتسم. التفت إلى ميزر وناداه قائلًا:

- يا ميزر، دوِّر لنا فاكهة، تفاح وكمثرى وقطعها لنا مع المزة، وكثر من الكمثرى.

التفت إليه جبل حين نطق كلمة الكمثرى وبقي صامتًا في مكانه، أما أبو ضاري، والذي لفتت انتباهه كلمة فرج، ناظره بابتسامة ثم قال:

- يا طقعان كم سيجارة حشيش دخنت يا ملعون؟

- دنيا دوارة يا عم أبو ضاري.

سكت الجميع، بيد أن صملول قام من مكانه ودس في يد ميزر خمسين ريالًا، وسأله:

- تعشيت يا ميزر؟

ميزر:

عمي أبو خالد أحسن (نفر) في العالم. هذا نفر (شنب كبير) ما في كويس وقرقر كتير. هذا نفر يجلس في الوسط طويل واجد.

- طيب يا ميزر، تحدث فقط ونحن سنكتب؟

- أوكي !

عمي أبو خالد رجل، له قلب أب، ونفس شاب، كريم إذا أعطى، مُهَاب إذا أمر. أحزنني كثيرًا كلام أبي ضاري عنه في هذه الليلة. مشاكساته كانت كثيرة، بدت جلية في كلماته وجمله العارضة، والتي يرميها كالرصاص بين الفينة والأخرى. لا أعلم ماذا يريد! كما أنه ضيف هنا وغريب في مكان يزوره لأول مرة، والمثل عندكم يقول: (يا غريب كن أديب).

أما جبل فلم يلفت انتباهي سوى ضخامته، لم يدخل الخيمة رجل ذات يوم بهذه الضخامة، وجهه طويل، وأصابعه طويلة جدًّا. له عادة سيئة يكررها كثيرًا في المجلس: أصابعه لا تتوقف عن العبث بأي شيء. تارة تجد يده تحك قضيبه وخصيتيه، وبعد قليل يدخل إصبعه في أذنه ويرج أذنه رجًّا عنيفًا، وحين ينتهي يمسك الملقط ويبدأ العبث بالجمر. بعد كل هذا يرفع صحن المكسرات، وينتقي منها ما يعجبه ويترك الباقي، ثم يطلب مني صحنًا آخر، في المرة الثالثة تأكدت أن الكاجو والجوز هما ما يبحث عنهما، فقدمت له صحنا ليس به سوى الكاجو والجوز، لم يأكل منه كثيرًا؛ إذ إن الشواء بدأ يملأ الصحن. أصبح يمسك السيخ بيده اليسرى، وتشرع أصابع يده اليمنى بسحب اللحم حبة إثر حبة، وبعد أن ينتهي، يمسح يده بمنديل ويرشف من كأسه، يتكئ ويدخل يده مجددًا في عباءته الوبرية، ويشرع مجددًا في تحريك قضيبه وخصيتيه.

لا يهم كل ذلك. أنا حزين فقط على ما حدث لعمي، كان حليمًا جدًّا. واتق شر الحليم إذا غضب. نسيت أن أقول شيئًا: هذا الـ فرج كان إنسانًا جميلًا جدًّا ورائعًا، دمه خفيف، وروحه نبيلة، خصوصًا بعد أن دخن سيجارته المتفخة، لكنه أصبح كسولًا بعد ذلك.

(23)

العبارات – 2

بعد انتصاف الليل أشار صملول على ميزر أن يبدأ بالشواء، وأمره أن ينقل منقل الجمر إلى طرف الخيمة، ويأتي بطاولة مستديرة قصيرة الارتفاع لوضعها في المنتصف. تحلَّقوا جميعًا: جبل وصملول وأبو ضاري حول الطاولة. أشار صملول على ميزر أن يجلب أسياخ اللحم المشوية مباشرة لهم، وضع فوق الطاولة صحنًا مستديرًا من (الستانلس ستيل). فرش فرج فوقه خبز الصاج والبصل والثوم والفلفل الأخضر والليمون. بعد مضيٍّ فترة قصيرة، بدأ ميزر يملأ الصحن المستدير بأسياخ اللحم، وشرعوا يأكلون ويشربون. كان البوح قد زاد رهافة وشفافية مع الكؤوس التي تدور، قطع أبو ضاري الصمت قائلًا:

– والله يا صملول أن هذا الصحن أعظم من المفاطيح اللي فرشتها أول الليل.

أردف جبل:

– ما فيه مثل البساطة.

– الغريب يا جبل أن صملول ما هي من عادته البساطة في الولايم الأخيرة. (أبو ضاري مخاطبًا جبل)

قال أبو ضاري جملته الأخيرة ونظر إلى صملول نظرة خاطفة، والذي رد عليه:

– لكل مقام مقال، وما فيه أفضل من البساطة في هذه الجلسات.

وصل أبو ضاري بعد هذا الرد إلى غايته، وبادره قائلًا:

– طيب وين المقام والمقال يوم أولمت وليمة تحدث عنها القاصي والداني في عزاء المرحوم أبو جبل؟ تقول كلام وتفعل غيره،

هل كانت ذيك الوليمة تليق بعزاء؟ أو زفاف؟

- يا أبو ضاري الله يرضى عليك، المرحوم غالي علينا ولا يليق بأهلـه إلا عشـاء مثـل ذاك. وهـم غاليـن جـدًّا عليّ وأنا حزنت كثير على وفاة المرحوم.

نظر إليه جبل بين مُصدِّق ومُكذِّب، بيد أن أبا ضاري قطع صمته ونظراته قائلًا:

- وش رأيك بهذا الكلام يا جبل؟ قل لي وأنت صاحب الشأن.

- يـا ابـن الحـلال، أبـو خالد رجل أجـودي وكريم، واللي حصل حصل!

- يعني هل فعلًا صملول تجاوز الحد؟

لـم ينتظـر صملـول أن يجيـب جبـل على تسـاؤل أبي ضاري، بادر بالإجابة قائلًا:

- يـا أبـو ضـاري، أنـت وش حصيلـك مـن هذا الـكلام، جبل ما اشـتكى وأنـت تبيـه يزعـل بالغصـب، خلاص يا رجـل، وش فيك اليوم! (كان رد صملول أشـبه بغضبة أولى في تلك الليلة من مشاكسـات أبي ضاري)

- طيب طيب. (قال أبو ضاري وعاد لأسياخ اللحم)

أردف جبل قائلًا:

- لو أنك يا أبو خالد خليت البنات يجون الليلة ما ذكرنا هالسوالف الخايسة!

صمت الجميع وواصلوا أكل اللحم المشـوي وفرج يباشـر بملء الكؤوس. قطع أبوخالد صمت الجميع مخاطبًا جبل:

- تدري عاد يا أبو عبيد ولا يهون أبو ضاري، طريقة الأكل البسيطة هذي تعلمتها من المرحوم، جيته في أحد الأيام في المزرعة بعد العصر، وأصرَّ أني أتعشى معه ذاك اليوم.

- هذا يا صملول يوم يعطيك كف؟

- الله يهديك يا جبل، وش جاب السالفة الحين! لا، جيته لغرض ثاني. بس شهادة حق يا جبل ويا مرزوق: المرحوم رحمة الله عليه كان من أشد الداعمين لأي شاب يبي الشغل الحر، استقبلني استقبال فوق ما توقعت، واستضافني وأصرّ نتعشى سوا.

- طيب ليه جيته يا أبو خالد؟ (أبو ضاري موجهًا حديثه لصملول)

- كان عندي معدتين ثقيلتين، وكنت قد أجّرتهم لإحدى الشركات وبعد ما انتهت مدة الإيجار كانت المعدتين محتاجة للصيانة، وما لقيت غير كراج المرحوم القريب من المزرعة للصيانة.

- إيه يا صملول، هذي سالفة الكف ! (جبل مقاطعًا صملول)

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يا ابن الحلال وش جاب السالفة الآن؟

انتهز أبو ضاري الفرصة مثل محقق وسأل:

- طيب علمونا وش سالفة الكف؟

انطلق جبل مجيبًا عن سؤال أبي ضاري، بدأ في سرد القصة وأخبره أن صملول أدخل المعدات في كراج المرحوم بعد أخذ الإذن منه. في اليوم التالي بدأت الصيانة ونقصت كمية زيت المعدات، وقال صملول للعاملين أن المرحوم سمح له باستخدام الزيوت الموجودة في المخزن لو نقص شيء، وشرعوا في تعبئة المعدات بالزيوت، وأثناء ذلك دخل ابن طرَّاق وسألهم عمَّن أشار لهم بفتح مخزن الزيوت. أجابه العمَّال أنهم سمعوا من صملول أن ابن طرَّاق قد أذن له بذلك. رشف جبل من كأسه وواصل:

- أبوي قال لهم أنه سمح للمعدات تدخل الكراج ولكن صملول يجيب زيوته بنفسه، وما سمح له يستخدم الزيوت الخاصة بمعداته. أثناء صراخ أبوي على العمال جاء الأخ اللطيف صملول يبي يهدي الوضع

ويقول له أنه بيدفع قيمة الزيوت. التفت له الشايب وقال له: "أنت تدفع لـي يـا صملـول بـق لـي؟" وصكّه كف سـمعوه كل اللـي في المزرعة... ههههه.

ضحك أبو ضاري ضحكًا صاخبًا بعد سماعه القصة، استلقى على ظهـره ورفـع رجليـه حتـى إن ميـزر اسـتنكر هذا الضحك وقام من مكانه ووقف حتى أشار له صملول أن يجلس بحركة من يده. سكت صملول قليلًا ثم أضاف:

- ارتحت الآن يا جبل؟ قلت السالفة اللي ودك تقولها؟ وأنت ليه كل هالضحك؟

حاول فرج لملمة الأوضاع وبادر بملء الكؤوس للجميع. بعد أن ملأ كأس أبي ضاري رشف منها وقال:

- طيـب يـا صملـول، كنـت تقـول أن طريقة الأكل البسـيطة هذي تعلمتها من أبو جبل. كانت في المزرعة؟

- إيـه يـا أبـو ضـاري. (اسـتأنس صملول سـؤال أبي ضاري وعاد للحماس راغبًا في نسيان قصة الكف). هذيك الليلة طلب من الصبيان يشـوون لحـم طلـي، جابـوا صحن يشـبه هـذا، وفرشـوه بالخبز والبصل والفلفل، وكلما انتهوا من سيخ أو سيخين جابوها لنا. بعد العشاء حبسنا بشاي مغربي ما شربت مثله حتى في طنجه.

- واللـه يـا صملـول، حتـى لـو كان المرحـوم يـأكل أفضـل أكل، ويشـرب أحسـن مشـروب، وعنده اللي يشـرح صدره لكن... كانت تليق فيه حياة كريمة أفضل، شـخص مثل الشـيخ عبيد ابن طرّاق المفروض يعيش في قصر على البحر، ما هو في خرابة في وسـط البر، المسـكن أهم شيء بعده يجي كل شي.

صمـت جبـل غيـر معلـق علـى الموضوع، مضغ اللحم في صمت، حتى قاطعه أبو ضاري مجددًا:

- لـو كنـت ألـوم أحـد كنـت ألوم جبل؛ هو أكبر عياله ومن واجبه أنه ينبهه يعيش حياة تليق به!

- أقسم بالله العظيم أني قلت له يا أبو ضاري كثير ومالك عليّ يمين (جبل يتحدث بأسى وبلسان بدا ثقيلًا) حذرته أكثر من مرة، حتى وصلنا لطريق مسـدود، وغضب عليّ كثير من كلامي له. في مرة قلت له بكل صراحة ووقاحة بعد.

- وش قلت له؟ (سأل مرزوق)

انطلق جبل ساردًا لهم قصة خصامه الأخير مع أبيه. كان هذا بعد عودته من المزرعة في شـهوره الأخيرة، إذ كان ابن طرَّاق يتابع التلفاز وظهر خبر عن مُعَمَّرٍ ياباني تُوفِّـيَ عن عمر يناهز المائة وأربع وعشرين سـنة، وعلَّـق ابـن طـرَّاق كعادتـه بصـوت عالٍ قائلًا: "أنا أبي سـتين سـنة بس"، رد جبل بحماسة شديدة من غير وعي وكأن الجملة انزلقت من لسـانه: "راحت السـتين يا أبو جبل". ذكر لهم جبل أن أباه فوجئ بردِّه غير المؤدب، التفت له وصرخ: "ستين ثانية يا جحش، تبي تورثني وأنا حـي؟" سـكت ابـن طـرَّاق بعـد ذلـك والغضب يجتاحه. ترك سـكوته فرصة سانحة لجبل لمواصلة دلق ما علق في داخله وبادر بشجاعة نادرة ومنقطعة النظير مع والده: "وش تبي في ستين سنة زيادة؟ أنت ما تعيش حياة كريمة مثل من هم في جاهك ومالك، تعيش في خرابة في وسط الصحـراء، وتنـام علـى فـراش معفّن، مالك ومال سـتين ثانية؟". ضحك جبل بعد أن وصل لهذه الجملة في حديثه لأبي ضاري وصملول، رشف من كأسـه وزمَّ شـفتيه ممتعضًا مثل طفل يتناول دواء. انتظر أبو ضاري وصملـول حديـث جبـل الـذي انقطـع بين ضَحِكِهِ وزمِّ شـفتيه، وعاد أبو ضاري يستحثه متسائلًا:

- ليه تضحك؟ وش رد عليك؟

- قال لي؛ "كول خرا". كان معصّب والشرار يطلع من عيونه، أنا

سكتّ شوي ثم قلت له: "بتموت مثل كلب ضيعوه أهله في الصحراء". قلت الجملة وأنا أستعد أوقف من جلستي، اعتدل هو في جلسته وناظرني وقال: "أنت فاجر. قم اطلع برا يا فاجر". وخرجت من المجلس بعد ما قلت اللي في خاطري.

حل الصمت مجددًا، وميزر يأتي بأسياخ اللحم وفرج يملأ الكؤوس.

طرقي:

أرجو أن لا تعتقدوا أني سقطت سهوًا من هذا الفصل، كل ما في الأمر أني آثرت العمل بلا ضجيج. أنا في النهاية مثل كل البشر، تغيِّر بعض العبارات مجرى حياتي، وتحدث انقلابًا هائلًا، وهذا ما حدث بالفعل.

من المؤكد أنكم تتذكرون تلك الليلة، ولنسمِّها (ليلة رفسة الباب)، في تلك الليلة قال لي أخي جبل: "حياتك أعفن حياة، غيّرها". وصدقًا كان هذا أصدق ما قال لي، كل كلامه الآخر مرَّ مرور الكرام، ولم يعنِني في شيء. جملته هذه كانت صادقة، كما أنه قالها جازمًا وحازمًا بلا مواربة: "حياتك أعفن حياة، غيّرها". تخيلوا أن هذه الجملة كانت الجملة الوحيدة التي ظلت ترنّ في أذني فترة من الزمن؛ إذ إن الحياة جديرة بأن نعيشها لا أن نحياها فقط. قال جبل هذه الجملة بصدق، وكأنه يحدِّث نفسه قبل أن يحدِّثني. كان صادقًا؛ لذا أتت جملته مثل الرصاصة، وكل الجُمَل التي تُحدِثُ فارقًا في نفس المرء المُستَمِع تأتي مثل رصاصة قاتلة، يقولها الشخص مؤمنًا بها، حازمًا وجادًّا في ذات الوقت. يقولها الرجل وعيناه في عيني محدِّثه، لا يكذب ولا يُحدِث تأتأة في كلامه. أما بقية ما قاله فهو كالجعجعة التي تسمعها ولا ترى بعدها طحينًا. قال كلامه الآخر ولم يكن ينظر في عيني، قاله وهو

يتأتئ أحيانًا ويبدِّل حرفًا مكان حرف، وهذا ما جعلني متيقنًا أنه اختلقه. المهم أن جملته "حياتك أعفن حياة، غيّرها" كانت صادقة وظلَّت ترن كما قلت لكم فترة طويلة في عقلي أيضًا.

بعد عدة أيام وصلت إلى قناعة أني يجب أن لا أنتظر منه شيئًا، سأنتقل بصحبة والدتي إلى مسكن آخر، وسأطلب منه تعويضًا عن نصيبي من منزل المرحوم كما فعل مع أخواتي اللائي مع أزواجهن. قررت أن أنتقي المسكن الذي يريحني ووالدتي، كما سأغادر الملحق للأبد. وسوف أستأجر شقة في مجمع سكني، وستكون بمثابة استراحة خاصة لي، سأنقل العود، وأسطوانات الموسيقى، ودفاتر أشعاري، وكمبيوتري المحمول، وزجاجات (البلاك)، كما سوف أبدأ العمل، لدي أفكار كثيرة ولا أحب أن أشغل بالكم بها، لكني سوف أحاول، ولديَّ من رأس المال ما يعينني على المحاولة مرات كثيرة، يومًا ما سوف أنجح، فقط ضعوا ثقتكم فِيَّ، ولا تستعجلوا أرجوكم.

(24)

لحظةٌ مُشتَهاةٌ

شارفت الساعة على الثانية والنصف، والجميع بدا عليه الانتشاء مع رحلة اللحم المشوي والنبيذ، حتى أبو ضاري، والذي بدا عليه الانزعاج في أول الليل، أصبح مزاجه أكثر راحة، لكن لسانه لم يكف تمامًا عن مشاكساته.

قليل من القريبين عند أبي ضاري مَن كان يعرف أنه يمر بأزمة مالية خانقة، بدأت منذ ما يربو على العام والنصف تقريبًا، إذ تكاثر مَقاولو المعدات الثقيلة، وشرعوا في مضاربةٍ حاميةٍ للأسعار، وبعد أن تقلص حجم المشاريع إثر ركود اقتصادي طفيف بقيت قروض ائتمانية كثيرة غير قابلة للسداد. لو كان ابن طرَّاق حيًّا لربما أقرضه كما في المرة الأولى، وكان أبو ضاري سيسدد قرضه (حين ميسرة) كما فعل، إذ إن أبا ضاري لديه مشكلة أزلية مع سوء توزيع تدفقاته النقدية التي تأتيه. أصبحت خيارات أبي ضاري مختلفة عن السابق، فهو لم يعد يعوِّل كثيرًا على جبل لمعرفته به حق المعرفة، ولأنه لا يترك الريال يخرج من جيبه.

بدأ أبو ضاري رحلة إعادة جدولة الديون بضمانات أخرى لم يرهنها من قبل، وتحصَّل في بداية تلك السنة على قرض جديد مع إعادة جدولة بعض ديونه، وكان مؤملًا بحصوله على مناقصة تأجير معدات ثقيلة لدى شركة نفطية، لكن آماله اختفت مع السراب بعد أن تحصَّل منافسه الذي لم يتوقع منه ذلك على المناقصة. كان ذلك المنافس هو صملول بن ناشف، جليسه وشريك عيشه وملحه تلك الليلة.

كان أبو ضاري قد فعل كل شيء ليضمن الحصول على تلك المناقصة، فعل ما سمح به القانون وما لم يسمح به، عَقَدَ آمالًا كثيرة

على حصوله عليها. تلاشت كل آماله بعد أن جاءه الخبر بأن صملول هو من كسب المناقصة كاملة، وأنه كان المرشح الثاني فيما لو اعتذر صملول، لكن صملول والذي قدَّم العرض الأقل لم يعتذر. حاول بعض مسؤولي الشركة معه في أن يقبل تجزئة المناقصة إلى مناقصتين أصغر مخافة أن يتعثر، لكنه قدم لهم كل الضمانات المالية والبشرية ليبرهن لهم أنه قادر على القيام بكل هذه المناقصة. كان في نية صملول أن يعطي جزءًا من المناقصة لأبي ضاري بعقد من الباطن، لأن مؤسسته لن تكون قادرة على الوفاء بكل مستلزمات العقد من دون استئجار معدات ثقيلة أخرى. كذلك كان صملول يعلم أن أبا ضاري في أمسّ الحاجة إلى هذا العقد، وفكَّر في أنَّ الأقربين أولى بالمعروف. كان من المهم لدى صملول خلق تحالفات بدلًا من استئجار معدات من السوق. صملول في تلك السهرة عدل عن رأيه وأجَّل الموضوع ليوم آخر، كان في أجندته أن يفاتح أبا ضاري في الموضوع ويرتب معه كل التنسيقات المطلوبة، لكن لسان أبي ضاري لم يترك مجالًا للحديث عن الموضوع، لم يكف عن مماحكاته التافهة، وكانت إساءاته لصملول في تلك الليلة كثيرة مثل نوبات سعال مزمنة لكهلٍ في طقس متقلِّب. آثر صملول تأجيل الموضوع وإعادة دراسته بعد أن ساءه ما سمع تلك الليلة من تقصُّد أبي ضاري له، ونيته غير السوية، تجاهل مزاحاته الفجَّة في ليلة رأس السنة كثيرًا، لكنه أعاد تقليب الملفات في رأسه هذه الليلة.

مضى ثلثا الليل، وبدأ مزاج أبي ضاري أكثر راحة في آخر السهرة، لكن لسانه ما زال مسلولًا. بعد أن قام صملول لقضاء حاجته عاد للخيمة، كان ضحك أبي ضاري يملأ الخيمة، دخل صملول وبادره أبو ضاري قائلًا:

- تعال يا صملول، بقّيت لك نصف سيخ هنا.

نَظَرَ صملول لأبي ضاري وهو يهم بالجلوس:

- أنا يا أبو سعبولة اللي ابخليك تقول بقّ لي. اليوم حشمتك من حشيمة جبل، ولا أنت قليل حيا.

- أنت تهدد.

- صلوا على النبي يا جماعة. (قال جبل)

- أنت ما تستحي، وراح أدوس عليك بالجزمة. (قالها صملول وهو واقف قبل أن يهم بالجلوس)

الألسن كانت ثقيلة جدًّا لدى الجميع، حاول جبل التدخُّل، وطلب من الاثنين الهدوء، رفع أبو ضاري يده في الهواء وأشار لصملول بسبابته:

- أنت تهددني؟ تعقب يا...

- احترم نفسك، تراك ضيف ولا والله أتصرف معك تصرف ثاني.

- أقول تعقب يا ولد الحارس، أنا ما لي جلسة بمجلسك يا صمل.....

- تعقب أنت، أنت ما تستحي.

كَثُرَ اللغَط، وكادت الأيدي أن تشتبك. قام أبو ضاري من مكانه بعد أن جلس صملول في مكانه وأتكأ. رفس أبو ضاري الصحن غاضباً بقدمه مثل لاعب كرة في طريق خروجه من الخيمة، تبعه جبل قائلًا:

- يا أبو ضاري، صلّ على النبي. وين؟

- أنا مالي جلسة مع الزبّال هذا. (كان قد خرج من الخيمة بصعوبة)

- تعقب يا قليل الأدب. (رد صملول وهو جالس في مكانه داخل الخيمة)

- يا أبو ضاري، كيف تسوق السيارة وأنت كذا؟ (جبل متسائلًا)

- والله ما أنام هنا، ماشي يعني ماشي.

- يا فرج، تعال يا فرج، أنت شربان؟

- لا وضعي تمام يا عم جبل؟

- عطني مفتاح سيارتي ورح سوق سيارة عمك أبو ضاري وصله.

مضى فرج، ساند أبا ضاري ليصل إلى السيارة، ساعده على الركوب في المرتبة الخلفية وركب هو في المقدمة لقيادة السيارة. كانت الساعة قد قاربت الثالثة فجرًا، والطريق ربما يحتاج إلى ساعة ونصف. جلس أبو ضاري على منتصف المرتبة الخلفية، أسند رأسه ورفع صوته:

- يا فرج، يعني من أحسن من يركب معك أنا ولا فردوس؟

- والله كلكم والنعم يا عم.

- كذاب، كذاب يا فرج، فردوس أحسن يا ثور، أنت معي الآن ولابس ثوب صوف مخيس، ومع فردوس تلبس ثوب كشخة وشماغ مكوي. وبعدين ناظر نسفتك للشماغ الحين، يا كلب مع فردوس ريحتك زينة، ومعي ريحتك حشيش ودخان.

- الله يرج سوالفك يا عمي. (ضحك فرج بصخب)

- أها شفت كيف؟ لا تكذذب. عطني صاروخ يا فرج، ودي بصاروخ، هات.

ناوله فرج سيجارة حشيش، وأشعلها أبو ضاري، أخذ نَفَسًا ونفثه متتبِّعًا الدوائر الملتوية التي تشكَّلت، أدخل إصبعه وسط دائرة الدخان ثم سأل فرج:

- اوصف لي فردوس يا فرج.

- يا عم ما يجوز!

- كذاب. (اعتدل أبو ضاري في جلسته وضرب بكفه كتف فرج) كذاب يا فرج، ليه ما يجوز؟ رزّتك وأنت تسوق سيارة فردوس يؤكد لي أنك كذاب، كذاب. لا تكذذب.

سحب نَفَسًا من سيجارته مرة أخرى، قام أبو ضاري من كرسيِّه الخلفي، وقف نصف وقفة محنيًا للأمام وقبَّل فرج من خده الأيمن، ناوله السيجارة وقال له بعد أن عاد ليجلس في مكانه:

- اسحب نفس يا كابتن، يا أحسن لاعب مع وقف التنفيذ.

- يا روحي يا أبو ضاري (بدأ فرج يسحب نفسًا من السيجارة).

- اوصف لي يا فرج، علمني، أطربني عن فردوس، تكفى يا فرج!

بـدأت الفكـرة تـروق لفـرج، تحولت مع دوائر الدخان الملتوية في الهواء إلى خيالات أنثوية، في كل حلقة دخان تبرز صورةٌ مستديرة من ذاكرة فرج، وبعد نفخة الدخان الرابعة وأبو ضاري يستحثّه على الوصف انطلق فرج:

- والله يا عم، وش أقول لك؟ جمال وقوام وبياض، شيء عالي المستوى يا عم، فوق يا أبو ضاري.

- أيوه هات هات.

- كنت يا عم أقزّها من تطلع من باب البيت وتمشـي للسـيارة، تتمشـى بهـدوء. تـك تـك تك تك تك. يـرج قلبي صوت الكعب يا أبو ضاري، ترا الكعب العالي هو اللي يضبط جسم المره، يشد العضل كله، ويصفي نيّة الردوف.

- أيوه يا ابن الكلب.

- عبايتها، أووووه والله أنها ما تخفي عطفات الردفين، تقل مسوية عندها محطة استراحة، يا ويليبي! شغل ملكي يا أبو ضاري. صدر تقل ودّه يطلع من العباية، أصلا العباية ما تأخذ رزّتها على الجسـم إلا من وقفـة الصـدر عنـد البنـت، خذهـا منـي يا أبو ضاري لو تشـوف لك أنثى كاملة الدسم، ويعجبك طولها وتناسق جسمها بالعباية، تأكد أن السر في الصدر.

- الله يأخذك.

- لما تقرّب من السيارة أفتح أنا الباب الخلفي لها، وتتمسك بيدها اليميـن البيضـاء الغضـة علـى الباب وتسـتند عليه أشـوف صفاوة الجلد. طازج لا إله إلا الله. وترفع قدمها اليسار على أرضية السيارة، وأنا دخيلك أسجل كل شي.

- كفو.

- إذا كانت لابسة فستان أو تنورة ينحسر الفستان لنص الساق ويبين طرف ساقها المبروم، مرتوي ومشدود العضلات كنّه ساق رقّاصة محترفة، ما ودك إلا تقابله تتأمله وتقول الله يسامحك يا أمي!

- يا سلام يا فرج، أطربني.

- أما إذا لبست بنطلون "الجنز"، يصير الجنز كنه مشدود على قوس. طبعًا يا أبو ضاري العباية من تحت مفتوحة من نصف الساق (أخذ نفسًا من سيجارته). أجمل ما يمكن تشوف، يوم تلبس فستان قصير أو تنورة قصيرة إذا ركبت السيارة ورفعت رجلها اليسار تبين ساقها كاملة... ملساء، ناعمة، مشدودة، كنها نَحت نحّات ملعون والدين.

قام أبو ضاري من مكانه وتسند على كرسي السائق، أطل بوجهه على فرج قائلًا:

- خشمك.

بادره فرج بسلام (الخشوم)، عاد أبو ضاري لمكانه وهو يقول:

- أكمل يا كابتن، يا أطلق لاعب في العالم مع وقف التنفيذ، أطربني.

- أحيانًا يا أبو ضاري تجلس في الكرسي الخلفي وتحط ساق فوق ساق، تطلّع مراية صغيرة من شنطتها، وشنطة الماكياج، وتبدأ تحومر وتبودر، عاد وش أوصف لك! وجه قمر مستدير، حواجب مرسومة، خشم مثل سلّة سيف، شفتين مليانة تقول ماكلة حبحر.

- الله ! أطربني، وكل هذا تشوفه بالمراية!

- لي طريقتي طبعًا، والله ومالك عليّ يمين، ما لقيت لها شبيه في ممثلات بمصر ولبنان. سبحان من أبدعها! أما صوتها يا عم، موسيقى. أسمعها إذا تكلمت مع صديقاتها في الجوال، وتبسطت معهم في الضحك، يا لبيه بس. أوووه! تصدق يا أبو ضاري، في ذمتي أني

في آخر أيام الحداد، الأيام اللي ما تتعطر فيها، أقسم لك أني ما أشم غير رائحة الورد. طيب اسمع، أبقولك الحين أجمل لحظة تشتهيها في حياتك، يوم يكون عندها مشوار حفلة أو زواج، وهذا يا أبو ضاري حصل في الأسبوع الماضي بعد ما انتهت من الحداد، طلعت للسيارة، تك تك تك تك، كانت لابسة فستان قصير فوق الركبة بشوي، وعباية مفتوحة من النصف تتدلَّى من أطرافها جواهر، وكانت تحط غطاء خفيف فوق الرأس والوجه بدل النقاب طبعًا علشان ما تتحرك التسريحة. المهم، بعد ما دخلت السيارة، رفعت غطاء الوجه، وشفت قمر ما لك إلا تذكر الله. أقسم لك يا أبو ضاري أنني كنت أرتعد وأنا أسوق السيارة. يوم مشينا شوي، حطت ساق فوق ساق وانحسرت العباية للجانبين، وبان لي شي من أسفل الفخذ مع الساقين، أووووه! ألذ منظر بحياتك تشوفه، عشاء ملكي والله، بغيت أنجن يا أبو ضاري.

- أخخخخ
- يا عم، أنت نايم !
- .....

التفت فرج إلى المرتبة الخلفية، وجد أبا ضاري نائمًا على المرتبة بالعرض، يده اليسرى تحت رأسه، وقدماه منفرجتان، ويده اليمنى تمسك بقضيبه.

فرج:

"اللي ما فيه شر، ما فيه خير". خذوها مني يا سادتي، ولا تحكموا بالسوء على ما قرأتم. هؤلاء في النهاية آدميّون فلا تبحثوا عن ملائكة، ولا تحملوهم ما لا يُطيقون. أنا أعلم أن الحكم على ذلك صعب، أنا أحيانًا -و أنا القريب منهم جميعًا- تحاصرني رغبة البصق عليهم جميعًا، وأقمع هذه الرغبة، وتأتيني في بعض الأوقات رغبة في تقبيل رؤوسهم، وصدقوني أني أقبِّل رؤوسهم

عن رغبة في كثير من الأحيان. لذا رثيت لحال العم أبي ضاري تلك الليلة، بدا مثل طفل في السيارة ونحن في طريق العودة، كان يمسك بقضيبه وهو نائم، ولأني أعرفه منذ زمن أظنُّه يعاني من بعض الأزمات، ربما مالية وربما عائلية، ما كان يهمني أن وضعه كان صعبًا. بعد أن تأكدت من نومه أوقفت السيارة في أول محطة وقود صادفتني، نزلت وفتحت الباب الخلفي وفردت عباءته الوبرية ولحفته بها. خرجت بعد ذلك لصاحب كشك المشروبات الموجود في المحطة، طلبت شايًا وشربته. كان البرد يزداد في ساعات الفجر الأولى، قبل أن تنبت الشمس مجددًا في الأفق، وكان الشاي ساخنًا، وكنتُ سعيدًا جدًّا بأبخرة الشاي المتصاعدة. شكرت عامل الكشك، دفعت له خمسة ريالات، وقلت له: "الباقي علشانك. ترى الدنيا دوارة".

شكرني صاحب الكشك وهو ينظر في عينيَّ، وخمَّنت أنه رأى احمرار عينيَّ. أخرجت قطرة العين، وضعت قطرتين في كل عين، والتفت لعامل الكشك، قلت له: " اللي ما فيه شر ما فيه خير".

الفَصْلُ الرَّابع

(25)

أكرِمهُم يا شيخ - 1

"أشك أنك مربوط يا جبل". لم تمر هذه العبارة مرور الكرام على جبل، ولم يقل صملول هذه العبارة من دون أن يعنيها، إذ إن الربط يختلف عن العمل عند من يعلم بهذه الأمور. الربط: هو أن يربط الرجل مع امرأة فلا يضاجع غيرها. لو كان عملًا لما حاك أي شك في نفس جبل ولنفاه جملةً وتفصيلًا، ولمرت هذه الجملة مرور الكرام.

شكَّ جبل كثيرًا في كلام صملول واستنتاجه بعد ذلك المساء. خرج قرابة الفجر، لم تعنِه كثيرًا مشكلة صملول ومرزوق، كان كل ما يدور في مخيلته أن يُدير تحليل صملول في ذهنه. بعد مضيٍّ أيام قليلة بحث جبل عن صملول ودعاه لشرب فنجان قهوة في بهو أحد فنادق الخمس نجوم. قَبِلَ صملول الدعوة وجاء يحمل نية جادة لمخاطبة جبل في موضوع الربط. صادف ذلك أن جبل نوى أن يسأل صملول المزيد عن هذا الأمر. كانت النوايا متزامنة بين جبل وصملول، صملول يود الحديث مطولًا لإقناع جبل الذي جاء بخشوع وبنيَّة مستمع، تعانقا وطلبا فنجاني قهوة تركية، وشَرَعَا في الحديث عن المطر الغزير الذي زار البلد في بدايات شهر مارس، وتبادلا أطراف الحديث عن الرحلة البرية، لولا ما صادفها من تعكُّر المزاج في آخر السهرة. أقسم صملول أن لا يعود لأبي ضاري إلا إذا اعتذر، وجبل لم يتعمَّق في مسألة إصلاح ما بينهما.

حين فرغ جبل من شرب فنجانه الأول، بادره صملول قائلًا:

- ما ودّك نقرأ فنجانك يا جبل؟ (تحدث بهدوء وبابتسامة وَجِلَةٍ، وكانت السؤال مدخلاً مناسباً)

- يا أخي هذي خرابيط.

- يا ابن الحلال، بعض الخرابيط تصدق.

- امممم. إلا بغيت أسألك: وش تقصد بكلامك ذلك اليوم أني مربوط؟

- أقصد بالضبط أن هنادي ربطتك، و...

- كيف وش يصير؟ (قاطعه جبل)

- اصبر وأجيك في الكلام، يعني إنك ما راح تقدر تنام مع غيرها متى ما كان الربط ساري المفعول، وما راح تقدر تدخل على امرأة سواها، وتصير مثل الخاتم في إصبعها، وتوفي بكل طلباتها. هذا هو الربط.

- طيب أنت تقول ما دام الربط ساري المفعول. كيف نبطل المفعول؟ أروح لشيخ يقرأ عليّ؟!

- تقريبًا يا جبل، الأهم من كذا هو التأكد من وجود الربط، لكن بصراحة كل المواصفات تنطبق عليك.

- و من اللي يتأكد منها؟

- فيه شيخ أعرفه معالج جيد، وممكن يتأكد من ربطك.

- شيخ؟

- تقريبًا.

- كيف تقريبًا؟ لا تقول لي ساحر وعرَّاف، أنت تدري يا صملول الروحة لهم تخرج من الملة.

- يا رجل، أصلًا بعض الشيوخ أجازوا ذلك لدفع البلاء.

- يعني فعلًا ناوي توديني لساحر؟ (قالها بنبرة عصبية)

- استرح يا ابن الحلال، الرجل اللي قلت لك عنه شيخ ومعالج، لكن الفرق بينه وبين أي شيخ ثاني أنه يعرف إن كنت مربوط أو لا.

- بس....

- يا أخي بلا بس بلا كلام فاضي. أنت تبي حل؟

- إيه أبي.

- خلاص. نروح ونسأله؟

- متى نروح؟ والله ودي من الليلة أعرف يا صملول.

- ههههـ. يـا جبـل تـو كنـت تقول مـا يجوزا ما دريت أنك بتوافق بهذي السرعة.

صملـول لا يعلـم أن جبـل قـد وصـل إلى سـقفه الأعلى من الريبة فـي أمـره، إذ بعـد مضـيٍّ رحلـة البـر وعودته طلب مـن لوزية فتاة أخرى تأتيه للمرة الأولى، وأوصاها أن تكون جميلة وأن لا يعلم أحد بذلك، وأوفدت له لوزية صبية من البنات حديثات العهد بالمهنة. خرجت الفتاة الجديدة مع جبل، واستأجر غرفة في أحد الفنادق، وهمَّ بها لكن أمله خـاب، ولـم يسـتطع جبـل أن يمتطـي تلـك الفتاة الفاتنـة. تحدثت الفتاة عن ما جرى للوزية، ووصل الأمر لهنادي التي اتصلت في اليوم التالي ووبخت جبل توبيخًا شديدًا، سكت جبل ولم ينطق.

كانت المرة الثانية التي يحس جبل بضعف جنسي أمام امرأة عندما واعد هنادي بعد ذلك بليلتين، وخرج معها مجددًا في فيلا أبي ضاري، وأتى بعشاء بحري فاخر، وزجاجة ويسكي، وسهرا معًا للصباح، ضاجع فيهـا هنـادي أربـع مـرات، وحيـن افترقا فـي صبيحة اليوم التالي قالت له هنـادي: "يـا جبـل، أنـت تحبنـي لأني الوحيدة التي أفهمك في الفراش". سكت جبل وأجاب بابتسامة مصطنعة. تذكَّر صملول حين قال له: "أشك أنـك مربـوط يـا جبـل". جبـل في لقائه مع صملول بدا مثل طفل بحاجة إلـى حضـن دافـئ، وربـتٍ يُعيـد لـه توازنه، اتَّفق مـع صملول على زيارة الشيخ المعالِج في اليوم التالي، واقتنع بأن ذلك مبرر لمن هو في حالته.

أوقف صملول سيارته أمام منزل الشيخ بصحبة جبل، وبعد بضع دقائق دخلا للمنزل. دلف صملول أولًا يليه جبل للغرفة الأولى بالمنزل، بدت غرفة مسـتطيلة الشـكل متواضعة الأثاث، رأوا الشـيخ جالسًـا قبالة البـاب علـى جلسـة عربيـة قماشـها مهترئ، نصف مرتفعـة ومُفَصَّلَة على

شكل حرف (L) اللاتيني، شَكَّلَ الجدار الأيمن من الباب كاملًا الجزء الأكبر من المساند، وقبالة الباب بقي الجزء اليسير من الجلسة، وعلى هذا الجزء اليسير جلس الشيخ سالم وبقي عن يمينه مقعد واحد خالٍ، وعن يمين المقعد باب يؤدي إلى بقية البيت.

كان منقل الجمر مشتعلًا وموضوعًا أمام الشيخ، وفوق المنقل في منتصف الغرفة تقريبًا تدلَّت من السقف مروحة دائرية ذات ثلاث ريشات، تعمل على سرعة (3). اقترب صملول وقبَّل رأس الشيخ وهو جالس في مكانه، وبادره بالتحية قائلًا:

- وشلونك يا شيخ؟

- بخير.

جلس صملول عن يمين الشيخ واقترب جبل ومدَّ يده للشيخ مصافحًا، مدَّ الشيخ يده وهو قابع في مكانه في صدر الغرفة، ثم أشار لجبل أن يجلس عن يساره. التفت الشيخ لصملول وقال:

- وش عندكم؟

- يا شيخ هذا صديقي جبل، وهو رجّال طيب وابن حلال ولا يؤذي أحدًا. لكن فيه امرأة آذته وتصرّ على أذيته، وطلباتها من المال كثيرة، وأخاف تفسد ما بينه وبين زوجته، وهذا الرجل (جبل) في عمره ما آذى أحدًا. وحنّا حاضرين باللي تأمر عليه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله على بنات الحرام.

أضاف صملول وهو يشير إلى منقل الجمر المتقد أمامه:

- يا شيخ سالم، أكرم الجماعة ولا تقصّر معهم، وشف لنا حل وحنّا في خدمتك باللي تأمرون عليه.

استغرب جبل صيغة الجمع في خطاب صملول للشيخ، إذ ليس ثمة أحد آخر خلاف الشيخ في هذه الغرفة. التفت الشيخ إلى جبل وسأله:

- ما هو اسم أمك؟

- مشعاء.

التفت الشيخ لصملول قائلًا:

- تعرفون اسم المرأة التي تشكّون بفعلتها؟
- اسمها هنادي.
- لا، اسمها الحقيقي هدى. (قاطع جبل كلام صملول مصححًا)
- هل تعرف اسم أمها ؟
- لا والله ما أعرف اسمها، لكني أعرف اسم أبوها وكنية عائلتها.
- اسم أبوها يكفي، وش الاسم؟
- هدى بنت عبد الرحمن.

أخرج الشيخ من جيب ثوبه الأيمن قدرًا يسيرًا من لبان ذَكَر، حَفَنَ بأصابعه: الإبهام والسبابة والوسطى، ورماه في الجمر المشتعل. تصاعدت الأدخنة من المنقل، وبدأ الشيخ يتمتم ويحرك يديه فوق المنقل وكأنه يجمع الأدخنة نحوه، وشرع ينادي بصوت خفيض. بعد مضيٍّ دقيقتين أحسَّ جبل بقشعريرة تسري في أطرافه مرة أخرى، وشعر بجسده يقف، وكأن سرب نمل كثيفًا ينزل من فخذيه إلى قدميه. شرع جبل يحك قدميه، وداهمه إحساس مفاجئ بأن الغرفة مأهولة بوجود آخرين. استمر الشيخ يحرك يديه وهو يخاطب بصوت خفيض وكلام غير واضح، هدأت يده قليلًا، والتفت لصملول ومن ثَم جبل، وقال:

- فعلًا، بنت الحرام اللي تشكّون فيها هي من ربطت جبل. أنت مربوط يا جبل، وهذي المرأة أخذت من أثرك، ويمكن من سائلك المنوي، وأنت يا جبل نجمك خفيف، لكن المرأة ومن ساعدها في هذا العمل ما أحسنوا صنعته، ولا تقلق، ترا علاجه بسيط.
- أكرمهم، أكرمهم يا شيخ، واللي تبونه أنت وهم ترانا حاضرين. (كان صملول يتحدث فيما كفّه الأيمن يضرب صدره)

حَفَنَ الشيخ من جيبه الأيمن بقبضة يده لبان ذكر ورماه في الجمر

المتقد وازداد الدخان، كانت كمية اللبان أكثر هذه المرة، والدخان بدا كثيفًا. بدأ الشيخ بتحريك عكسي بيديه للدخان وكأنه يدفعه للأعلى، التفت لجبل وطلب منه يده، أمره أن يقترب قليلًا منه وأن يخلع نعل قدمه اليمنى. وضع الشيخ قدمه اليسرى فوق قدم جبل اليمنى وقبض بيده اليسرى على يد جبل اليمنى. شَرَعَ الشيخ في القراءة بهمهمة خفيضة، ولم يكن من اليسير تمييز ما ينطق به. ضغط بقدمه ضغطًا شديدًا على جبل، وجبل خاضع في مكانه لا يتحرك ولا يُبدي معارضةً. بعد بضع دقائق من القراءة صمت الشيخ وسحب يده وقدمه من جبل. أخذ نَفَسًا ثم قال:

- ما عليك شر.

لم ينبس جبل ببنت شفة ردًّا على كلام الشيخ. كان صامتًا مثل جدار. قام الشيخ من مكانه ودخل الغرفة الداخلية من الباب الذي يلي صملول. رفع جبل رأسه، والتفت إلى صملول، شاهد صملول ينظر له مبديًا ابتسامة رضا، ومشيرًا بإبهامه اليمين للأعلى. فُزِعَ جبل حين بدت عينا صملول كعيني قِط.

الشيخ سالم:

الولد سر أبيه، ومن شابه أباه ما ظلم. لم يخطئ القدماء في كل مقولاتهم، وهذا الجبل يشبه عبيد ابن طرَّاق كثيرًا، لولا إن طفرته الجينية زادت عن طفرة أبيه. التاريخ يعيد نفسه، والمرأة هي المرأة دائمًا. الرجل الذي يشع بالضوء تصبح المرأة مثل الفراشة أمامه، وتسخِّر كل قواها للإيقاع به. ما حدث للأب منذ بضعة أعوام حدث للابن، وربما يكون الفارق الوحيد هو أن أباه كان بلاؤه في البطن، وهذا الجبل بلاؤه ليس في بطنه، هو في مكان ما، وسوف أعلم أين يكون. حين أعلم سيكون بمقدرتنا إيجاده، وحين نجده سوف نُتلِف هذا السِّحر في الحال. مع عبيد كان الوضع مُعَقَّدًا قليلًا احتاج لبضع جلسات، ولطريقة إخراجه من

البطن. ثمة فارق آخر هنا، مع جبل حضروا بسـرعة، واسـتجاب قرين جبل بسرعة، أما مع عبيد فاستغرقوا وقتًا طويلًا ليحضروا، وكان قرينـه صلبًـا. عبيـد نجمُـه ثقيل وعتيد، أما جبل فكان نجمه خفيفًا. في واقع الأمر لم يكن له من اسمه نصيب.

لا تسألوني عن صملول، صملول رجل كريم ويفي بوعده وعهده، والأهم من ذلك يثق في كلامي كثيرًا إن لم يكن يؤمن.

ليس ثمة رجل نحيل هنا، لا أعلم عم تتساءلون، قلت لكم الكثير فاتركوني وامضوا رجاءً.

(26)

أكرِمهُم يا شيخ - 2

كان جبل مذهولًا مِـمَّا يرى ويسـمع من حوله، ترك سـرب النمل الكثيـف ألَمًـا داهمـه فـي فخذيـه حتى الركبتيـن، وصاحبه ثقل وبطء في التنفُّس، وصعوبة في نطق الكلمات، ورَجفَة واضحة في الأطراف. كانت هذه الحالة تأتيه لأي سـبب يدعو للخوف، وتسـتدعي مِـمَّن حوله بعد أن يلاحـظ صعوبـة نطـق الكلمـات أن يناولـه كأس مـاء، وينكشـف أمـر ارتباكـه للجميـع حيـن يحمـل كأس المـاء فيلاحـظ كل من بقربه أن يده ترتعـد وترتعـد الـكأس بيده، وينسـكب منـه القليل. حاول جبل كثيرًا أن يثبت في مكانه ولا يتحرك، لم يكن يود أن يلاحظ صملول هذه الرجفة التـي تسـكنه، صَمَـتَ وشـبك أصابعـه. خُيِّـلَ لجبل أنه لو التفت سـيرى شـيئًا ما، حَذَرُهُ كان مسـيطرًا حتى على طريقة تنفُّسـه البطيئة منذ رؤيته لعيني صملول اللتين تشبهان كثيرًا عيني القط الذي رآه حين دخل بيت الشيخ سالم.

مضـت دقيقـة أو أقـل حتى عاد الشـيخ سـالم مجـددًا من الداخل، دخـل عليهـم وأشـار لجبـل أن يقـوم مـن مكانـه ويتحـرك قليلًا ويجلس على الأرض، التفت إلى صملول قائلًا:

- بقي نعرف مكان البلا !

- أكرمهم يا شـيخ أكرمهم، وحنَا حاضرين باللي تأمرون به لك ولهم.

حفـن الشـيخ مـن جيبـه الأيمـن حفنـة لبان ذكـر ورماها في الجمر المشـتعل، عادت سـحب الدخان تملأ الغرفة، وتعبق فيها رائحة اللبان النفَّـاذة. جلـس الشـيخ عنـد رأس جبـل على المسـاند، ووضع يده اليمنى

علـى جبهـة جبـل، اقتـرب مـن أذن جبل وشـرع في القراءة. كان الشـيخ يقرأ بصوت خفيض وسـرعة عالية، فلم يسـتطع جبل تمييز كلامه الذي قال، ازدادت حُـمَّى القراءة وسرعتها، تحرك الشيخ والتصق بجبل، رفع يده اليمنى من جبهة جبل واستبدلها باليسرى بسرعة فائقة مثل حاوي، واصل القراءة وبدأ يضرب فخذ جبل وركبته. كانت رجل جبل تتحرك، وترتفـع مـن علـى الأرض قليـلًا، وتهبـط بعد أن يضربها الشـيخ. واصل الشـيخ القراءة والضرب بحماسـة شـديدة، بدأ العرق يتفصد من جبينه، بينمـا جبـل لا يُبـدي حركـة أو التفاتًـا، كان خاضعًـا بشـكل كبير للشـيخ رغـم الضـرب الـذي تلقَّـاه. هدأ الشـيخ فجأة وشـارف على التوقف عن القراءة، ضرب الشيخ سالم ركبة جبل ومن ثَـم جبهته بيده اليُمنى قبل أن يصمت. وبعد أن صمت رفع الشيخ يديه وقام من مكانه واقفًا، التفت إلى صملول وقال:

- ما عليه شر، وصلنا.
- أكرمهم يا شيخ أكرمهم.

دخـل الشـيخ مجـددًا مـن الباب الذي يلـي صملول لداخل البيت، وظل جبل جالسًا في مكانه، لم يشأ هذه المرة أن يلتفت إلى صملول، لم يُطِق رؤية صملول يبتسم له ولَـم يبغِ رؤية عيني القط.

سَخُنَ جسدُ جبل بعد قراءة الشيخ، ولو علم بما سيجري لربما فكَّر مرتين قبل المجيء. كان كل ما يجري مثيرًا للرهبة، بدا متيقنًا أن الغرفة ممتلئـة بآخريـن، ولهـذا كان فزعًـا وخائفًـا، لكنه في ذات الوقت لم يكن لديه خيار آخر، سيظل تحت رحمة الشيخ وصملول حتى ينتهي الأمر.

مرت صورة أمه بين عينيه، والدته التي لم يعلم لِـمَ سأل الشيخ عن اسمها، وما دخل اسم أمه في العلاج. تذكر أباه الشيخ عُبيد الذي كان هنا في مصادفة سريَّة عجيبة لم يعلم عنها جبل. كان ابن طرَّاق ذات يوم يبحث مع الشيخ سالم عن علاج له من العنّة التي أصابته بلا سابق إنذار.

أنفاس عُبيد ابن طرَّاق ترددت في ذات الغرفة التي يجلس فيها ابنه الآن وجبل لا يعلم بذلك. ابن طرَّاق الذي أتى الشيخ سالم مستجيبًا لنصيحة ابن مسبط شكا من أعراض العنة التي أصابته بلا مقدمات مع زوجته الثالثة فردوس، وعالجه الشيخ سالم آنذاك بعد عدة جلسات طويلة، وقال له إن علته في بطنه وسببت له صرفًا عن زوجته. نفث عليه وأعطاه زيتًا شبيهًا بـ (الخروع) لتنظيف البطن، ومسحوقًا يخلطه مع شامبو ويتدهن به مع لون الصُّفرة في مغرب كل يوم. شُفِيَ ابنُ طرَّاق من عِلَّتِه، وعاد لمضاجعة فردوس، وأخريات. في ذلك اليوم أعاد التاريخ نفسه مع جبل، وجلس تحت رحمة الشيخ سالم وتشخيصه.

عاد الشيخ سالم مرة أخرى من داخل الغرفة، أمر جبل أن يقف ويخلع نعليه ويتبعه، وأومأ لصملول أن يصحبهم بعد أن يخلع نعليه أيضًا، دخلوا جميعًا خلف الشيخ من الباب الذي يلي صملول لداخل البيت. كانت غرفة موزع بلا أثاث، تُفتَح على أبواب متعددة، أخذ الشيخ يمينًا ومشى جبل وصملول خلفَه، فتح باب الغرفة الخشبي على غرفة مظلمة، وتسربت حزمة ضوء رمادية مع فتح الباب إلى داخل الغرفة مكَّنت صملول وجبل من الرؤية. كانت غرفة مربعة الشكل وغير مطلية الجدران، بدا شكل الجدران الإسمنتية بلونها الرمادي موحشًا. كانت أرضية الغرفة مبلَّطة ببلاط خشن، حين تطؤها قدم الشخص يُحِسُّ بخشونتها وتلتصق بها حُبيبات الرمل. وفي وسط الغرفة رؤوا قبل أن يغلق الباب ما يشبه المربع الصغير غير المبلط بمساحة متر مربع، تتوسطه كومة رمل. أشار الشيخ لهم ليدخلوا وأغلق الباب، أظلمت الغرفة ما عدا النور الآتي من تحت فتحة الباب، ليضيء الظلمة الموحشة. طلب الشيخ سالم أن يتحلقوا حول الحفرة الرملية، جلسوا وشرع الشيخ في قراءةٍ خفيضةٍ وتمتمةٍ طويلةٍ، مدَّ يده إلى الحفرة وبدأت يده تغوص في الرمل. استمرت الحال على ذلك بين تمتمة سريعة والشيخ يدنو أكثر

فأكثر على الحفرة، وكأن ثمة مَن يشد الشيخ لباطن الرمل. تسارعت أنفاس الشيخ وأحس الجميع بحرارة تخرج من الأرض وتدفئ المكان والبلاط البارد. كان جبل جامدًا في مكانه لا يُبدي حراكًا، وبعد مضيٍّ ما يقارب الدقائق العشر توقَّف الشيخ عن القراءة، وبدأ يزحر كمن يقضي حاجته وهامته ترتفع للوراء، وأطلق زفرة طويلة. ران صمتٌ حول المكان قبل أن ينطق الشيخ قائلًا:

- لقيناه، مشينا.

قام الشيخ من مكانه وتبعه صملول وجبل، عادوا جميعًا للغرفة الأولى ذاتها وجلسوا في ذات الأماكن. كان في يدي الشيخ كيس بلاستيكي شفاف ومبلل، شرع الشيخ يحاول فك عقدة ربطة الكيس، فتحها ومن ثَم فتح الكيس الذي بداخله، كرر العملية حتى وصل للكيس الثالث والأخير، أخرج الشيخ من الكيس الثالث مناديل جافة ومتكسرة، حاول فردها وهو يقول:

- هذا هو الأثر اللي خذته منك بنت الحرام.

حاول الشيخ فرد المناديل، حفن حفنة من جيبه ورمى في الجمر المتَّقد وشرع يضع المناديل فوق الدخان المتصاعد، قلب المناديل في الهواء أكثر من مرة والتفت إلى جبل قائلًا:

- خذها الآن، أتلفها أو احتفظ بها. المهم أن الليلة تبيت في فراش زوجتك والشر راح.

- ما قصرت يا شيخ. (قاطعه صملول)

- أنا الآن أبي حقي.

- أبشر باللي تأمر عليه يا شيخ، يا جبل رح للسيارة وانتظرني. (رد صملول)

خرج جبل، وأنتظر في السيارة. حين عاد صملول لجبل بدا وجهُه شاحبًا، التفت صملول إليه قائلًا:

- الحمد لله على السلامة، غدا الشر.

أخرج جبل لسانه لترطيب شفتيه ثم نطق بصعوبة:

- الله يسلمك.

- ترا أعطيت للشيخ خمسة الآف وقلت له أعطيك الخمسة الثانية بكرة بعد ما نتأكد من الشفاء.

- طيب.

- أهم شيء يا جبل الآن أنك تتعشى زين وتبيت الليلة عند زوجتك، وتعلّق التيس.

- طيب.

- لازم تعلّق التيس وتتأكد يا جبل.

- و هذا وش أسوي فيه؟ (كان جبل يقلب المنديل في يده)

- ممكن تحتفظ فيه حتى تتأكد أو خلّه عندي في درج السيارة.

- لا لا، أحتفظ به.

- على راحتك.

- و ملعونة الوالدين هنادي أبعلمها أن الله حق.

- لا تستعجل بأي شيء يا جبل، على العكس خل الأمور تمشي مثل ما كانت ولا تخليها تحس بأي شيء أبدًا.

- ليه؟

- ممكن يكون معها شيء ثاني من أثرك!

سكت جبل بعد ذلك، حين أوقف صملول سيارته أمام منزل جبل، بادره قائلًا قبل أن ينزل:

- تعش زين وعلّق التيس الليلة، وخبّرني لا تخليني قلقان، وبكرة تراك معزوم على الغداء علشان نحتفل إن شاء الله في مطعم (اليخت الأول). وش تقول؟

- خير إن شاء الله.

بعد انتصاف الليل وصلت رسالة نصية على هاتف صملول من جبل فيها: "علَّقنا التيس والراية مرفوعة".

جبل:

حين وصلنا لبيت الشيخ سالم لم أكن خائفًا، نزل صملول من السيارة وبعد أن انتظر لحظات قليلة فتح باب البيت ووقف قرب الباب رجل شديد النحول، دخل صملول وبقي الباب مواربًا. انتظرت دقيقة حتى خرج صملول، ورأيت الرجل النحيل مرة أخرى واقفًا ممسكًا الباب وينظر نحوي. أتاني صملول، فتحت النافذة وقال لي: "انزل وطفّ السيارة". أطفأتُ المحرِّك وسحبت مفتاح السيارة، نزلت وناولت صملول مفتاح سيارته. حين رفعت رأسي لأنظر باتجاه الباب الذي ما زال مواربًا لم أجد الرجل النحيل. لم تكن ثمة أنوار مضاءة في فناء المنزل الأمامي، لكن أنوار الشارع أضاءت المكان قليلًا. دلفت من الباب باتجاه حوش البيت، أحسست بشعر جسدي يقف، وبدني يقشعر. التفتُّ من الفزع الذي سرى في بدني يمينًا ويسارًا محاولًا طرد الخوف، رأيت خزانًا أكل الصدأ طبقته الخارجية على يسارِ باب المنزل، وأذهلني منظر القط الذي يقف فوق الخزان، كان قطًّا شديد السواد مثل فحم، مقطوع الذيل، وكان ينظر صوبي بشكل مريب. صعدت الدرجتين اللتين أمام مدخل البيت، دلف صملول لداخل الغرفة. كانت إضاءة الغرفة متوسطة، أربع لمبات من نوع النيون الأبيض علقت في سقف الغرفة وتتوسطهم مروحة لها ثلاث ريشات تصدر أزيزًا مزعجًا. اقتربت من الشيخ ولم يتحرك من مكانه، ولم أرغب في تقبيل رأسه مثل صملول فمددت يدي مصافحًا.

لا أخفيكم القول أني لم أرتح لمنظر الشيخ، كان طاعنًا في السن نحيلًا، قصيرًا، ضئيل الحجم. كان يلبس ثوبًا عمانيًّا مُتَّسِخًا،

ويعتمر طاقية صفراء من شدة الاتساخ. له لحية متناثرة غير مهذبة، لونها بين الأبيض والأحمر الفاتح. يداه تشبهان يدي طفل من صغر حجمهما. جلست عن يساره، وشَرَعَ في رمي اللبان فوق الجمر والتمتمة وحركات اليدين التي لا أفهمهما، ومن ثَم شرع في القراءة عليَّ. حين وضع قدمه فوق قدمي في المرة الأولى لم أحس بها حتى بدأت قراءته تتصاعد، أحسست وقتها بحجر ثقيل يضغط بشدة فوق قدمي. كدت أصرخ قبل أن يتوقف الشيخ عن القراءة ودخل لداخل البيت، التفت لي صملول الذي بدت عيناه كعيني القط الذي رأيته عند مدخل البيت، خفت كثيرا وازداد الهلع. عاد الشيخ مرة أخرى وشرع في القراءة من جديد، وهذه المرة في أذني تمامًا، وبالرغم من ذلك لم أستطع تمييز ما يقول، كان يقول كلامًا يشبه القرآن الكريم، ولم أتمكَّن من تمييزه. أتذكر أنه كان يكرر عبارة "عزّمت، عزّمت، عزّمت"، وكذلك كرَّر أكثر من مرة مقطع في غاية الوضح، ربما لكثرة تكراره: "لا يفلح الساحر حيث أتى". كانت قبضة يده الصغيرة تؤلم جبهتي جدًّا، حتى إنِّي بعد أن خرجت للسيارة تفحَّصتها مخافة أن يترك ضغط يده على جبهتي أثرَ كدمةٍ أو شيءٍ من هذا القبيل ولم أجد شيئًا. الأغرب من ذلك هو أني كنت أراه يضرب ركبتي وقدمي اليمنى لكني لم أحس بذلك وقتها. توقف عن القراءة بعد ذلك وعاد ليدخل، ثم خرج علينا للمرة الأخيرة، وطلب منًّا أن نتبعه. تبعته وجسدي ينتفض خوفًا، دخلنا وتحلَّقنا حول الغرفة الموحشة، انتظرنا حتى ينتهي من القراءة والحرارة تتصاعد من البلاط. خرجنا بعد ذلك، عدنا للغرفة الأولى وأخرج المناديل، وذهلت لما رأيت. تساءَلت في نفسي: هل هذا المنديل يخصني فعلًا ؟ دار رأسي، ولم يعد من الممكن أن أخمِّن أو أن أتنبأ بما يجري. بعد مضيٍّ لحظات

طلب مني صملول العودة للسـيارة، ناولني المفتاح حين هممت بالخـروج، خرجـت ولـم أجـد القط الأسـود ولا الرجـل النحيل. أسـرعت الخطـى باتجـاه السـيارة، ركبت وبـدأت تفحُّص جبهتي في المرآة العلوية للراكب الأمامي، وجاء صملول بعد دقيقة تقريبًا. أعاد صملول وصايا الشيخ سالم، وأشار عليَّ أن أترك المنديل في السـيارة حتى الغد، ورفضت إذ إني لم أعد أثق بأي أحد. حين وصلت للمنزل طلبت من صبحي أن يحضرِ لي عشاء بحريًّا من المطعم، استلقيت في الملحق لكي أرتاح قليلًا قبل تناول العشاء، وبدأت أفكِّر في زوجتي.

(27)

تعليق التيس

حين دخل جبل إلى مطعم (اليخت الأول) استقبله مدير المطعم اللبناني عند المدخل، والذي تربطه به وبأبيه علاقة متينة منذ مشهد الربطة، رحَّبَ به، وصافحه مصافحة حارة، وسأله عن أحوال العائلة، وترحَّم على المرحوم كثيرًا، ودعاه للجلوس. أجاب جبل أنَّه أتى بدعوة من صديق، والتفت يجول بعينيه في المكان حتى رأى صملول، فبادره مدير المطعم قائلًا: "إيه، أهلا وسهلا، أنت ضيف السيد أبو خالد اليوم، تفضل". تقدم جبل باتجاه صملول الذي بادر بالقيام لاستقباله متهللًا وسعيدًا من أجل جبل، تعانقا وجلسا.

حكى له جبل عن بعض ما جرى ليلة البارحة، وأنه استطاع) تعليق التيس(ثلاث مرات متتاليات. كان جذلًا وهو يقصُّ عليه تلك الأخبار، وصملول مستمتع بما يسمع. في المقابل أكَّد صملول لجبل أنه دفع الخمسة الآف الباقية للشيخ في ذلك الصباح قبل صلاة الظهر. قاطع جبل صملول متسائلًا:

- يا أبو خالد، وشلون عرفت هذا الداهية؟
- اللي فيه فايدة لازم نعرفه، والشيخ سالم معالج ثقة.
- أنا أشهد. بس وش اللي وداك له؟

لم يُجِب صملول إجابة صريحة، لكنه تحدث بلا إسهاب أن المرء يصيبه في حياته من الابتلاء الكثير، ويجب عليه أن يكون مستعدًّا لأحلك الظروف. كان صملول يتحدث بتجلٍّ فيما جبل منصتٌ. قال له إن العبرة دائمًا بكيفية التصرف في الظروف الصعبة، وإن التعقُّل في بعض الأمور ضرورة مُلِحَّة. أنصت جبل بكل حواسِّه لحديث صملول، وأثنى على

تماسكه في بيت الشيخ، ووجد صملول بعد هذا الثناء فرصة سانحة لتمرير بعض نصائحه لجبل، قال له إن المكان يخضع لقوانين ولغة صاحب المكان، ولذلك يجب أن يضبط الشخص مؤشر تردده على موجة صاحب المكان. كان صملول يرى أنه يجب أن يكون مريدًا ومتبعًا في حضرة الشيخ، و(نسونجيًّا) في حضرة لوزية، وملكيًّا مع الملك، ومتدينًا مع المتدينين، وعربيدًا مع المعربدين. نصح صملول جبل بأن لا يعاكس الموجة أبدًا، وأن يمشي مع التيار. معاكسة الموجة تهدر الطاقات، والسباحة مع التيار تمنح طاقة متجددة. أسهب صملول في وصاياه، كانت فرصة لا تُعَوَّض لفرض رؤيته على جبل بعد أن ساهم بفعالية في معالجته. كانت فرصة مناسبة للإفصاح عن صملول الحكيم.

قبل الانتهاء من الأكل نظر جبل طويلًا لصملول وقال:

- عز الله يا صملول أنك صديق صدوق صادق مصدقاني.

- الله يسلمك. (قالها صملول مبتسمًا)

- عندي استشارة يا صملول: تتذكر البارحة يوم قلت لي "لا تستعجل بأي شيء في علاقتك مع هنادي، يمكن يكون معها شيء من أثري". طيب وش تقترح نسوّي؟

- الأمر سهل، نودّيها في داهية!

- كيف؟

- الآن خلّ علاقتك تستمر كم يوم، ومن ثَم قل لها إنك بتسافر لفترة بسيطة، في هذا الوقت هي ما راح تنقطع عن طلعتها، وندبر لها فضيحة، ويفتضح أمرها وتتخلص منها.

- إيه، والله منت سهل يا صملول. طيب يا أبو خالد، ما جاوبتني: وشلون عرفت هذا الداهية الشيخ سالم؟ هذا شكله ساحر.

- والله يا جبل سواء كان ساحر ولا شيخ اللي يهمني إن عنده حل لبعض الأمور.

- من اللي دلّك عليه؟

- أووه، هذي قصة طويلة يا أبو عبيد. خلّ نطلب الحلا والقهوة، ونسولفها.

بدأ صملول يسرد القصة مع فراغه من طبق الحلو ورشفته الأولى للقهوة التركية، ذَكَرَ لجبل أنَّه كان يعمل سائق تاكسي مساءً في السنة الأولى من الجامعة، والتي كان صملول يسميها مرحلة البناء. ذات مرة ركبت امرأة مع صملول في التاكسي وطلبت منه أن يأخذها لبيت الشيخ بعد أن وصفته له. وصل صملول لمنزل الشيخ وطلبت المرأة منه أن ينتظر، خَرَجَت من المنزل بعد نصف ساعة تقريبًا، وكرَّرت طلبها لصملول أن يأتيها بعد بضعة أيام لذات المشوار. ظلت المرأة تتردد على هذا الشيخ مرة واحدة في الأسبوع لمدة أربعة شهور، وفي زيارتها الأخيرة للشيخ رَكِبَت مع صملول في الطريق إلى منزل الشيخ. كانت تردد طول المشوار كلمة: "الحمد لله، الحمد لله" حتى وصلوا لمنزل الشيخ. غابت المرأة في المنزل مدة أقصر تلك المرة، وعادت من منزل الشيخ وركبت السيارة، وشرعت في بكاء يقطع القلب.

- وش سالفتها؟ (قاطع جبل حديث صملول)

- اصبر شوي، حتى أنا غلبني الفضول يا أبو عبيد. (رشف صملول من القهوة وعاد لإكمال سرده)

أخبر صملول جبل كيف أنه كان قد عَقَدَ علاقة حديث متبسطة مع المرأة خلال تلك المشاوير، ولهذا تجرأ وسأل المرأة: "اعذريني يا أختي، ولكن هل أقدر أساعدك؟" ازداد بكاء المرأة بعد سؤال صملول وكأنما تبوح بسرِّها في البكاء، وبعد أن هدأت قليلًا تكلمت ونشيجها يثقب القلب. كانت المرأة في حديثها كمن يداوي نفسه بالكلام، بدأت تبوح لصملول بقصتها وكأنها وجدت أخيرًا مفتاح الصندوق الأسود الذي بداخلها. قالت لصملول أن الشيخ هو من عالجها من سحر الصرف

الذي عملته لها ضُرَّتُها، وصنع لها (خاتم قبول) خصيصًا لزوجها، وأنها تحمد ربها كثيرًا إذ ظهرت نتائج الحمل من زوجها أخيرًا بعد ثلاث سنوات زواج.

- عطتني ذاك اليوم مائتين ريال وحلفتني أني ما أبوح بسرها. (أضاف صملول)

- لا إله إلا الله ! (علَّق جبل)

واصل صملول حديثه بعد أن طلب قهوة أخرى، وبدأ يقصّ عليه أنه عمل في صيف سنته الجامعية الثالثة بمهنة مُعَقِّب حكومي لتجربة أعمال أخرى (لابد من الإشارة هنا إلى أن صملول كان لا يضيع وقتاً في اجازات الصيف). ذكر صملول معاناته في أيامه الأولى من الاستقبال البارد من معظم مسئولي الدوائر التي كان يراجع بها، ولم يكن يملك من المال لكي يهدي لهم في مجيئه ورواحه. كان في بعض الأيام يجلب لهم بعض السندوتشات المُعَدَّة في المنزل، ووجد أنها لم تميزه عن الآخرين. في تلك السنة عادت عبارة خاتم القبول ترنّ في أذنه، ذهب للشيخ، وشرح له أوضاعه. وَعَدَ الشيخ أن يصنع لصملول خاتمًا، على أن ذلك سوف يكلفه سبعة الآف ريال، وقبل صملول شرط الشيخ شريطة أن يدفع بعد التجربة، ورفض الشيخ، لكنه قَبِلَ أن يعيد صملول الخاتم إليه ويسترجع المبلغ بعد ذلك. عاد صملول للشيخ بعد أسبوع والمبلغ معه، وأعطاه خاتم القبول.

- هذا هو الخاتم يا جبل. (أشار صملول بسبابته اليمنى نحو الخاتم في بنصره الأيسر)

- بالله عليك! والله يا صملول كنت أقول في نفسي من زمان: وش هذا الخاتم الموحش اللي لابسه صملول. أثره خاتم قبول؟

- هذا الخاتم دفعت فيه سبعة الآف من أكثر من عشر سنوات، والآن ما أبيعه حتى بسبعمائة ألف ريال.

- الله ! لهذي الدرجة؟

- نعم، وبعدين يا جبل هذا حجر طبيعي، وعلى فكرة لازم أكرمه كل ليلة قبل ما أنام.

- كيف يعني؟

- قبل النوم أفتح علبة خاصة للخاتم وأرشّها بماء الورد، وأجيب الخاتم وأفرك الحجر بدهن عود كمبودي أصلي، التولة بخمس آلاف يا جبل، وبعدين أحط الخاتم في العلبة، وأقفل عليه حتى الصباح. في الصباح ألبس الخاتم.

مع كلمة دهن العود تذكَّر جبل فواتير مشتريات فردوس والتي كانت تأتيه عن طريق كشف الحساب من البنك، تذكَّر أنها اشترت من أحد محلات العطور الشرقية مشتريات بقيمة تسعة عشر ألف ريال، واشترت ذات يوم من محل لبيع العطور الغربية مشتريات بقيمة سبعة آلاف ريال.

اكتشف جبل أن صديقه صملول ينفق في بعض المشتريات مبالغ طائلة مثلما تفعل فردوس. لم يكن بمقدور جبل تصوُّر أن هناك من ينفق مبالغ طائلة على أشياء كمالية، غير أساسية في نظر جبل، مثل صملول وفردوس. بدأت سلسلة من الأفكار والتساؤلات تمر في عقل جبل، متواليات على طريقة انهيار أحجار الدومينو: دهن عود صملول، فواتير عطور فردوس، فواتير مشتريات فردوس، بيانات كشف الحساب، كشف الحساب الذي لم يعد يأتي. اكتشف لوهلة أن آخر كشف حساب لفردوس أتى على بريده كان منذ ما يربو على الشهر أو ربما أكثر.

في آخر مرة استلم فيها البريد رأى جبل كشف حسابات كل أفراد العائلة ما عدا فردوس وطرقي، لم يتساءل وقتها عن غياب كشف الحساب، وللتو فقط تذكَّر أن البريد أتى مرتين يحمل ذات الغياب. سَرَحَ جبل فيما صملول يقصُّ عليه، فكَّر في نفسه أن انقطاع كشوف الحسابات ربما كان مدبرًا، وأمضى بضع دقائق يقلِّب في أحجار الدومينو

المنهارة ويدوِّن أسئلته التي سيحاول الإجابة عنها فيما بعد، وقرَّر أن يسأل البنك في عصر ذلك اليوم حين يذهب لمكتبه.

لا يعلم جبل أن فردوس قرَّرت منذ اليوم الذي جاءها فهيد ينقل لها رسالة جبل أن تذهب للبنك وتطلب تحديث جميع بياناتها بما فيها صندوق البريد الجديد الخاص بها، والذي أنشأته لها، كما حاولت الحصول على كشوفات حسابات الأبناء، ولم يُقبَل طلبُها لأن الوكالة ليست لها.

طرقي كذلك فعل مثل فردوس، كان قد همَّ بتحييد جبل عن كل مصادر معلوماته وخصوصًا المالية منها. لم يَرُق له أن تكون كل معلوماته المالية لدى جبل، ولم يكتفِ بتحديث بياناته فقط، بل نقلها لبنك آخر، خمَّن أن المعلومات ربما تتسرب لجبل.

حين عاد جبل لمتابعة الأعمال بجدية وتركيز أكثر، فوجئ بنية أخيه طرقي في مغادرة المنزل مع والدته، كما فوجئ به يطلب تثمينَ نصيبه من منزل ابن طرَّاق، وأن يأخذ التعويض المادي له ولوالدته، كما جاءت الصدمة الكبرى من طرقي حين وصلت جبل نسخة من إلغاء وكالة طرقي وأمه الخاصة لجبل فيما يخص الإرث.

جبل لم يعد باستطاعته إحصاء الجبهات التي فُتِحَتْ في مواجهته.

زوجة جبل:

هل تعرفون جبل أكثر مني؟!

الرواة قرَّروا الشروع في الكتابة دونَ أخذ رأيي، والآن فقط تريدون شهادتي! الرواة قرَّروا أن يجعلوني امرأة على هامش الرواية، وذكروا كل نساء منزل المرحوم وتركوني، تحدثوا عن نصف نساء المدينة ونسوني، أو ربما تناسوني. كل ما فعلوه عنِّي أنهم قالوا إن الريال كان شفيعًا جيدًا بيني وبين جبل، وأوهموا الجميع أني امرأة مادية. كيف تقبلون بهذا الكلام؟ هذا الكلام لا

يجوز، وحكمهم عليَّ لم يكن عادلًا.

لو كنت في حضرة روائي حصيف لقرأ أحداث حياتي جيدًا، وكتب عني سيرة مجيدة. كان سيكتب أني رهنت حياتي لأبنائي وزهدت في العيش، وسيكتب عن صبري على هجران زوجي بلا مبرر، وسيثني على محافظتي على عفتي، وصبري على ابتلائي حين هجرني جبل في بيت أهلي عاماً كاملاً، وسوف يكتب أكثر من ذلك. أتألم كثيرًا والله وأنا أكتب شهادتي هذه؛ إذ إن أقدار الحياة أحيانًا تضع حكايتك لدى روائي غير كفؤ، لا يقرأ الأمور بتمعُّن فيُهمِل سيرتك، ولا يكتبها بالشكل الذي يرضيك. وإذا افترضنا أن الفرص لا تأتي كثيرًا سيكون من العبث التفكير بأن يأتي روائي آخر ويرى في سيرتي ما لم يره الروائي الأول. المعضلة هنا أن الرواة كانوا اثنين، وفوق ذلك اتفقا على أن يجعلاني امرأة على الهامش. الآن فقط يريدان شهادتي، ويريدان مزيدًا من التفاصيل حول (تعليق التيس). حسنًا، سوف أحسن الظن هذه المرة وأمرر لكم بعضًا منِّي عسى أن تعيدوا النظر في الأمر. تلك الليلة، والتي تسمونها أنتم ليلة (تعليق التيس)، كان جبل مختلفًا عن كل سنين حياتنا الزوجية، لم يكن يومًا بهذه القوة سوى في الشهور الأولى، كان مقبلًا مثل جمل هائج. علَّق جبل التيس ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة بكيت بكاءً صامتًا لم يلاحظه، ولا تسألوني لِمَ بكيتُ. ربما سأقول لكم أني أعلم أنه يخونني، وربما أقول لكم أني لم أعد أحبه، وربما لأني أحس أن حظي في الحياة سيء. لديَّ إجابات كثيرة.

هذا ما لدي الآن، لكنْ، لي رجاء أخير، أرجو أن لا يصدق أحد أني امرأة مادية، وأن الريال كان شفيعًا جيدًا لإسكاتي، الجيب يستر العيب يا سادة. فكروا مرة واحدة، لو أصبحتم كرماء مع

أبنائكم ونسائكم أكثر مما تفعلون الآن، هل سيغضون النظر عن بعض ما لا يرضيهم؟ الجواب: نعم، سوف يفعلون. وستكون عين الرضا عن كل عيب كليلة، ولن يحاسبكم أحد على ما تفعلون.

لـي رجـاء أخيـر: أرجـو أن يُحذَفَ اسـمي مـن هذه الرواية، وآمل أن يأتي روائي آخر يومًا ما ليكتبني كما أتمنى، وكما يليق بصبري. احذفوا اسمي رجاءً.

(28)

البرواز

حين تتوقف الرسائل، فثمة أمر متغيِّر يدركه من ينتبه له، ومن يغفل قد يذهله الأمر ويستغرب لحدوث ذلك المتغير. هذه جملة مجازية، ربما تصلح للتنظير والاستطراد، لكنها مدخل جيد لكي نحدثكم عن ما حدث بعد انهيار أحجار الدومينو في عقل جبل حين كان يتناول الغداء بصُحبة صملول في صبيحة ليلة تعليق التيس.

فيما سبق مغادرة طرقي وأمه للمنزل بأسابيع قليلة توقفت (على نحو مفاجئ) شكوى فردوس لجبل عن أم طرقي وابنها لسبب ما، ولسبب غير معروف، لم يلاحظ ذلك جبل. لكي نشير إلى سبب التغيير نودُّ أن نخبركم أن فردوس توقفت عن الشكوى بعد أن أتاها أبوها فهيد ليبلغ رسالة جبل. هذه الرسالة كانت بمثابة قطع الشك باليقين حول قدرتها على تحريك جبل. لهذا أصبح تغيير نهج فردوس متطلبًا عمليًّا لفرض سطوتها بعد تأملها لرسالة جبل. اكتشفت أن جبل له نهج آخر ومختلف عن نهجها، وأن التحرك أصبح لازمًا.

وقعت الواقعة بعد ذلك، وغادر طرقي بصحبة أمه من المنزل، وأُسقِطَ في يد جبل، وأصبح مجبرًا على تثمين منزل ابن طرَّاق مجددًا، وتسليم نصيب طرقي وأمه من المنزل من مال الذين يسكنون في المنزل كما فعل مع أخواته المتزوجات قبل تقسيم المال. في واقع الأمر، ومن وجهة نظر مادية، كان خيارًا جيدًا لطرقي وأمه أن يقبضا ثمن خروجهما من المنزل لأسباب عديدة، والعارفون بالسلع العقارية يدركون ذلك.

لنعد قليلا إلى الوراء، حين تم تثمين منزل ابن طرَّاق بما لا يتناسب مع حالته؛ إذ إن المنزل الضخم أصبح في وسط حارة قديمة، كان جل

سكانها عائلات ذوات نفوذ، وأصبح نصف سكانها بعد عقدين من الزمن من الوافدين. تغيَّر منزل ابن طرَّاق تحديدًا مع مرور الوقت، إذ دأَبَ ابن طرَّاق في حياته على شراء كل الأراضي الموجودة في ذات (البلك) وضمها إلى سور منزله، حتى وصل الحال به إلى أن أصبح مجموع الأراضي ستَّ عشرة أرضًا متجاورة في (بلك) واحد، وهكذا تغيَّر اسم الحارة مع مرور الوقت إلى اسم حارة الطرَّاقيَّة نسبة إلى بلك ابن طرَّاق الكبير. كان ابن طرَّاق يضيف ملحقًا جديدًا أو فناء للسيارات أو مخزنًا متعدد الاستخدامات على كل أرض جديدة يضمها لداخل السور، ومع كل هذه الإضافات ظلَّ المنزل الرئيسي بأجنحته مُقامًا فوق قطع الأراضي الأربع الأولى من المنزل، له إضافة وحيدة عملها ابن طرَّاق بعد البناء بسنوات خمس وجعل فيها مجالس النساء والخادمات والجناح الخاص بزوجته الثالثة آنذاك مع طفليها. بعد وفاة ابن طرَّاق أصبح عمر البناء ما يربو على الخمسة وعشرين عامًا. قلَّما أعمل البناؤون أيديهم فيه لصيانة الجدران أو دهنها، وظلَّ سور هذا المنزل الشاسع هو العلامة الفارقة لحي الطرَّاقيَّة.

كان مدخل المنزل الشرقي هو مدخل الرجال، والمدخل من الجهة الجنوبية كان مخصصًا للنساء، بينما بقيت الجهة الغربية مخصصة للسيارات والملاحق الخارجية، أما الجهة الشمالية والتي تطل على نافذة مشاة فكانت مخصصةً لتنزيل مختلف الأشياء التي كان ابن طرَّاق يرغب في وضعها في المخازن.

حاول جبل أن يبطئ عملية تسليم المبلغ المثمَّن لطرقي وأمه، لكن طرقي رَفَضَ وأصرَّ على تسلُّم المبلغ في أسرع وقت وعدم إرجاء الموضوع. كان طرقي حاسمًا في طلبه مثلما كان حاسمًا في قرار خروجه من المنزل.

قبل ذلك اليوم الذي خرج فيه طرقي (لنسميه يوم الخروج) كان

طرقي قد انتهى من تجهيز منزله الجديد والخاص به وبوالدته. قرَّر طرقي أن ينهي موضوع تأثيث المنزل في غضون أسبوع واحد فقط، لم يترك مساحة لوالدته لكي تختار أيًا من مقتنيات المنزل ما عدا تجهيزات المطبخ الجديد. بعد ذلك الأسبوع من التجهيزات السريعة والسرية في ذات الوقت أفاق طرقي صبيحة يوم الخروج غير المعلن للبقية، وكتب رسالة نصية في هاتفه المحمول وأرسلها من هاتفه إلى هاتف أخيه جبل، كتب فيها:

"قال زارقني وأزارقك، قال فارقني وأفارقك"

لم يُعِر جبل أيَّ اهتمام لهذه الرسالة سوى حين اتصلت به والدته قُبَيلَ الظهر لتخبره بما حدث. قالت له إن أم طرقي وابنها غادرا المنزل ذلك الصباح بصُحبة خادمة أم طرقي، وبكت أم جبل قليلًا أثناء مخاطبتها جبل متعللة بأن جبل تركها وحيدة مع الأفعى (كانت تقصد فردوس) وأبنائها. كان جبل مذهولًا بعد سماعه الخبر. بادر جبل بالاتصال بطرقي مباشرة، ولم يُجِب طرقي على اتصاله سوى في مساء ذلك اليوم. كان الموضوع محسومًا لدى طرقي، بيد أن جبل أمضى ذلك المساء في حسبة جديدة ومفاجأة جديدة. حاول جبل ثني طرقي وفشل، كانت الحبات تنفرط من مسبحته.

في الجهة المقابلة شرع طرقي في بدء جادٍّ وجديد في حياة جديدة، حياة لا تشبه الحياة "المعفنة" بحسب وصف جبل، تلك الجملة التي دلقها جبل في أذنه ذات غضب. كانت تلك الجملة عتقًا له من الحياد، نبهته أن تلك الهدنة كانت معقودة مع الشيخ عبيد ابن طرَّاق، ولم تكن مع جبل، ولن يجدي الحياد في التعامل وانتظار شخص آخر ولو كان أخاك ليحدد بوصلة اتجاهاتك.

في ليلته الأخيرة في منزل ابن طرَّاق كان طرقي وحيدًا في ملحقه الخاص، قرَّر تلك الليلة أن يشرب النخب الأخير لهدنة أبيه. ذهب طرقي

لملحقه باكرًا، كان قد جهَّز كل ملابسه ومستلزماته الشخصية في غرفة نومه، وشرع يجمع ما تبقَّى من الملحق: كمبيوتر محمول، ومسجِّل، ومجموعة أسطوانات (سي دي) متنوعة لمحمد عبده وعبادي وطلال مداح وآخرين، ديوان "ما ينقش العصفور في تمرة العذق" لبدر عبد المحسن، ديوان خالد الفيصل، مجموعة أعداد قديمة وكثيرة من مجلات الشعر النبطي كمجلة "المختلف" و"فواصل" و"قطوف"، دفتران ذوا جلدة زرقاء مقاس صفحاتهم (A4)، وألبومات صور شخصية، وبورتريه كبير لأبيه عبيد ابن طرَّاق.

كانت صورة أبيه النادرة معلَّقة في الملحق، على الجدار الذي يقابل جلسته، تُظهِرُ ابن طرَّاق مبتسمًا للكاميرا ابتسامة خفيفة. كانت الصورة تُبدي ثلث ابن طرَّاق الأعلى من منتصف الصدر. بدا في الصورة شابًّا، والذي لا يعلمه طرقي أن هذه الصورة قد أُخِذَت لأبيه في أستوديو تصوير فوتوغرافي في القاهرة في أواخر السبعينات. لبس ابن طرَّاق في ذلك اليوم بزته الرسمية لأول مرة في حياته، وكانت بزة رمادية فاتحة، وقميصًا أبيض ذا ياقة كبيرة كما كانت "موضة" ذلك الوقت، ورابطة عنق مقلمة بخطوط عريضة باللونين الأسود والرمادي. احتفظ ابن طرَّاق بهذه الصورة فترة طويلة معلَّقةً في مكتبه المتواضع، وكانت هذه الصورة تمثِّل أفخم قطعة موجودة في المكتب، تباهى بها أمام زواره كثيرًا. بعد وفاة ابن طرَّاق كانت الصورة من نصيب ابنه طرقي، ولم يسأل عنها أحد سواه. علَّقَ طرقي صورة والده في ملحقه الخاص، وفاء له وللهدنة التي منحته رغباته كلها.

حين أنزل الصورة من الجدار، وضعها فوق مركأ وأسندها على الجدار تمامًا في مستوى ارتفاعه، عاد لمكان جلوسه وقابلها، وتربَّع مواجهًا الصورة. كان حزينًا ذلك المساء، لم يفتح أي (سي دي) غنائي، وآثر أن يُبقي على جهاز التلفزيون مقفلًا، وضع العود بجانبه، وشرع

يرشف من كأس الويسكي ويدخِّن سجائره.

بعد مضيٍّ نصف ساعة تقريبًا أطفأ السيجارة الرابعة التي في يده، وملأ كأسًا جديدة بالويسكي من دون ثلج، قرَّبَ آلة العود وضمَّها في حضنه، أخذ الكأس بيده اليمنى، نظر إلى الصورة طويلًا، وبعد دقائق من الصمت رَفَعَ كأسه الملأى للأعلى وقال:

- أبيض يا أبو جبل، في صحتك وين ما كنت، في صحة اتفاقيّة الرجاجيل، والفهم اللي بيننا، في صحة الرجال اللي ما بقى منهم أحد، أبيييض.

دَلَقَ طرقي الكأس دفعة واحدة في جوفه مثلما قال لأبيه: "أبيض يا أبو جبل". تغضَّن وجه طرقي بعد فراغه من الكأس وزم شفتيه، وضع الكأس ومسح بظاهر كفه فمه. كان رأسه ينضح بالعرق حين بدأ يدندن، كانت الدندنة للأغنية الأخيرة التي سيعزفها طرقي في ذلك الملحق، وفاءً للهدنة، ولصاحب الهدنة، للغائب الذي لن يحضر مرة أخرى. ارتفع صوته منشدًا:

"الأماكن كلها مشتاقة لك
والعيون اللي انرسم فيها خيالك
والحنين اللي سرى بروحي وجالك
ما هو بس أنا حبيبي، الأماكن كلها مشتاقة لك".

غنَّى طرقي تلك الأغنية وأعاد مقاطعها أكثر من مرة على مدى ساعة كاملة، لم يقطعها سوى غصته بالدموع، بينما ابن طرَّاق كان صامدًا في البرواز. قبل أن يفرغ طرقي من الغناء سقطت الصورة من المركأ، وتوقَّف.

الروائي (لا نعلم أيهما):

"جميعنا يعرف، لكننا فقط نتظاهر بعدم المعرفة". هذه العبارة منقولة عن فرجينيا وولف، ولأن هذه العبارة تعجبني أنقلها

لكـم، وأذكِّركـم عـن مـاذا يفعل البعض. ولِمَ يتجاهل شـخص ما شـخصًا آخـر ويدَّعـي عـدم المعرفة بحـدث ما؟ كيف يدَّعي رب الأسـرة عدم معرفته بنقص ما داخل أسـرته؟ وكيف يدَّعي الزوج أو تدَّعي الزوجة التظاهر بالنوم وعدم معرفة أحدهما برغبة الآخر؟ وكيف يدَّعي من يرتكب مخالفة في مكان عام أنه ليس لديه علم؟ كلُّنا نعرف، لكننا فقط نتظاهر بعدم المعرفة، نتظاهر ربما لنختلق عـذرًا لنـا أمـام الآخريـن، أو ربمـا لعدم قدرتنا على المواجهة، أو لإخلاء ذواتنا من المسئولية. ندرك في أعماقنا أن المعرفة تتطلب قدرًا كبيرًا من الشجاعة لإعلانها للآخرين، ونعلم في ذات الوقت أن إظهـار معرفتنـا فـي وقـت الإخفاق يكرِّس فكرة الفشـل. نحن نتظاهر بعدم المعرفة لدرء سوءاتنا.

لم يكن لهذا الحديث داعٍ لو أن جبل لم يكن مذهولًا حين أخبرتـه والدتـه، مـن الواضـح أنه تظاهر بعدم المعرفة، أو أنه ربما كان يعاني من بطء وعلة ليس لها حل في الإدراك وقراءة الأمور المسـتقبلية ومعرفة النهايات! هذا ليس تجنيًا على جبل حتى لو بدا لكم سلوكًا تهكميًّا ضدَّه، أنا أقول ذلك بقناعة تامة، وبالرغم من تحفُّظ صديقي (الروائي الثاني) على هذا الكلام، لكن لا بُد من ذكره هنا، وبعد خروج طرقي من المنزل.

عـودة إلـى طرقـي، لقـد بكيت مع غنائه ليلة خروجه، كانت طريقـة غنائـه وعزفـه مؤثـرة، وترتيبـه لتلك الليلة جعلها مثل لقطة سـينمائية (ماسـتربيس) عالية الدقة، خصوصًا في اللحظة الأخيرة عندما سـقطت صورة ابن طرَّاق من فوق المركأ. كانت الصورة صامدة لمدة طويلة تفوق الساعة، وسقطت بعد ذلك من دون أن يقترب منها أحد، لم يكن ثمة اهتزازات أرضية في ذلك المساء، ولم تمر في ذات اللحظة طائرة حربية، ولم يتكئ أحد فوق المركأ،

سـقطت بلا مقدمات، سـقطت بعد أن سـكب طرقي دموعًا كثيرة وهو يغني، قام طرقي من مكانه وضمَّ الصورة إلى صدره، وخرج بها لسيارته.

خـرج طرقـي مبكـرًا ذلـك المسـاء، بـات فـي فراشـه للمرة الأخيرة، قبل أن يودعه صبيحة اليوم اللاحق.

(29)

علبة فازلين

نمـط الحيـاة الـذي تغيَّـر فـي بيـت ابـن طرَّاق لم يكـن هو الذريعة الحقيقية لأم جبل بشكواها المتكررة من فردوس، إذ إن الحياة تغيَّرت لكل سكان المنزل، والأدوار كذلك تغيَّرت بوفاة ابن طرَّاق، حتى ابنها جبل تغيَّر جدول حياته، ولم يبق سوى أم جبل فقط هي من لم تتغيَّر. كانت الذريعة الحقيقية خفية على الكثير، وإن لم تَـخفَ على ابن طرَّاق في حياته. كانت أم جبل تؤمن بأن فردوس هي المرأة المدللة الوحيدة عند ابن طرَّاق منذ اليوم الأول لدخولها المنزل؛ هي المرأة الوحيدة التي غـادر معهـا لشـهر عسـل اختـار ابـن طرَّاق أن يقضيه فـي مكة والمدينة، وهـي أيضـا الوحيـدة التـي خصَّـص لها ولأبنائها جناحًـا كبيرًا في منزله، وهي كذلك (و هذا ما لا يمكن أن تتفوَّه به لأحد) المرأة الأجمل والتي كانت حياتها الجنسية مع ابن طرَّاق الأطول عمرًا والأكثر تكرارًا، وهو ما منحها مزية إنجاب الكثير من الأبناء. لم تقتنع أم جبل أن شهر العسل كان مقابل الـمَـذَلَّة التي دخلت بها بيتَ ابن طرَّاق، وأن ذلك كان جزءًا من صفقة المعروف الذي سكن بطن فهيد المنهاجي.

حين تكون المرأة هي صاحبة السطوة الكبرى عند ابن طرَّاق، فإن ذلـك يمنحهـا سـلطةً أكبـر وصوتًـا أعلى. حاولـت أم جبل جهدها أن لا تبـدي كل هـذه الغيـرة عنـد ابـن طـرَّاق؛ أكثـر ما كانت تخشـاه أن تظهر بصورة المرأة الغيور وغير الحكيمة، وحينئذ سـتفقد دورها المنوط بها في البيت، الدور الذي أتى بلا اتفاق مسـبق، انتخبته الأيام لها، وراقها الـدور هـي وابـن طـرَّاق، دور المـرأة (أخت الرجـال)، المرأة التي تقف خلف زوجها أيًا كانت الظروف، تتبع بوصلته ولا تحيد عنها أبدًا، وتثني

على ما قاله فلا تخالفه.

بإمكان الكثير أن يفترض أن أم جبل لم يكن لديها خيار آخر في حضرة ابن طرَّاق سوى هذا الدور، إذ إنها إما أن تكون المرأة (أخت الرجال)، أو أن تكون المرأة (الممسحة)، المرأة التي لم يشفع لها سوى ابنٍ صبيٍّ، وهو الدور الذي تبقًّى لأم طرقي. بقيَ الدور الثالث، والذي كان قبل زواج فردوس يتبدل بأكثر من امرأة، تبقى المرأة فيه حتى تنجب أنثى أو لا تنجب، وسيكون الطلاق مصيرًا لها بعد ذلك. حين جاءَت فردوس دخلت قلب ابن طرَّاق بالرغم من انكسارها بجمالها وسحر أنوثتها، وأنجبت فوق ذلك البنين. كان ذلك الأمر بمثابة أن تبقى فردوس فوق هذا العرش سنوات عدة، حتى حصل المحظور لابن طرَّاق وأصيب بالعنة، وأصابته مع زوجته فردوس واكتشف أنها أصابته أيضًا مع بقية زوجاته.

حاول ابن طرَّاق بشتى الوسائل علاج ذلك الأمر، حتى وصل أمره للشيخ سالم، والذي عالجه بعد عدة جلسات طويلة، ولم يخبره عن مَن كان خلفَ سِحرِ الصرف الذي عُمِلَ له مع فردوس. كذلك ابن طرَّاق لم يبحث في من يكون، وحين عُولِجَ لم يبحث عن الفاعل، حاول لحكمة يجهلها الكثير تجاهُلَ مَن هو الفاعل.

داوم الشيخ سالم آنذاك على معالجة ابن طرَّاق، نفث عليه، وأعطاه زيت الخروع المنفوث فيه لتنظيف البطن، ومسحوقًا يخلطه مع شامبو ويدهن به جسده مع لون الصُّفرة مغربَ كل يوم. اعتكف ابن طرَّاق في مزرعته آنذاك، وبدأ رحلة العلاج التي استمرت ما يقارب الشهر، كان يأخذ من الزيت ملعقةً كل صباح، ويبدأ يومه، وحين تقترب الشمس من المغرب يبدأ خلط علاج الشيخ سالم، يأخذ مقدار ملعقة كبيرة من المسحوق الأسود الذي لا يدرك مصدره، يضع المسحوق في علبة فازلين من الحجم الصغير، ويسكب فوقها شامبو حتى تمتلئ علبة الفازلين،

يغلق علبة الفازلين الصغيرة ويرجُّها حتى يختلط المزيج. كانت الخطوة التالية أن يُدهَنَ جَسَدُهُ كاملًا بالمزيج، وكان صبحي يقوم بهذا الدور في مزرعة ابن طرَّاق يوميًّا.

كان ابـن طـرَّاق يخلـع ملابسـه كاملـة ويبقـى كما ولدتـه أمه، يأمر صبحي بالبدء في دهنه وفرك كامل جسده بهذا المزيج، ينام ابن طرَّاق على بطنه في البدء، ويشرع صبحي في فركِ جسد ابن طرَّاق من العنق حتى أصابع القدمين بالمزيج، حين كان صبحي يقترب من مؤخرة ابن طـرَّاق، يتجاوزهـا ويبتعـد قليـلًا، فيباغتـه ابن طرَّاق آمِرًا أن يَفرك في كل مكان كما أمر الشـيخ سـالم بذلك. حين يفرغ من هذه الوضعية ينقلب ابن طرَّاق على ظهره ويشرع صبحي في الصدر أولًا ثم ينزل لبقية جسد ابن طرَّاق. كان صبحي يحس بالخجل الشديد من هذا الفعل، الخجل المصاحِب للشعور بالخوف والذهول معًا من هول ما يراه من جسد ابن طرَّاق وكبر حجم أعضائه التناسلية. كان ابن طرَّاق يأمره أن يجتهد في تدليـك أعضائـه بالـذات، كان يعتقـد أن هـذا المزيج يجب أن يجتهد فيه عند المنطقة المصابة، ويطلب من صبحي أن يفرك ما بين فخذيه بعناية وبطء شاملًا خصيتيه.

بعـد مـرور بضعـة أيـام مـن التدليـك اليومي لـم يَعُد صبحي يحس بخجلِ الأيامِ الأولى، وشرع يتبسط في الحديث مع ابن طرَّاق. في نهاية الأسبوع الثاني أصبح صبحي يُبدي دهشته أمام ابن طرَّاق بلا حرج من كبر حجم أعضائه التناسلية، وأنه لم يتوقع في حياته أن يرى عضوًا بهذا الحجم، وكان ابن طرَّاق يبتسم ويشعر بالزهو من هذا المديح. في نهاية الأسبوع الثالث بدأ ابن طرَّاق يحس بشعور غريب، كان يحس بتدفق الدم من جديد إلى أعضائه التناسلية مع فَرك صبحي، واستمر صبحي في مديح حجم أعضاء ابن طرَّاق، وبدأ ابن طرَّاق ينقد صبحي مائة ريال بعد كل جلسة. في بداية الأسبوع الرابع بدأت نفسه تهدأ وأحسَّ أن الفرج قريب.

حين التقى بالشيخ سالم قال له إن قضيبه بدأ يحس أكثر من ذي قبل، وأمره الشيخ سالم بأن يستمر في فركه مع كل جسده حتى نهاية الأسبوع الرابع، ولا ينقطع عن ذلك حتى لو أحس بقوته الجنسية تعود. في نهاية الأسبوع الرابع بدأ قضيبه ينتصب انتصابًا قويًا كما كان عهده به، وكان صبحي يشعر بالحياء والخجل، إذ إن منظره أصبح مهيبًا وضخمًا جدًّا حين ينتصب، حتى إن ابن طرَّاق كان يئن في هذه الأثناء. كان صبحي ينتقل إلى بقية جسد ابن طرَّاق حين يراه يئن، ويعود لقضيبه حين يتوقف أنينه، وكأن ثمة تناغم تواطئي بين صبحي وابن طرَّاق.

بعد أن انتهى الأسبوع الرابع عاد ابن طرَّاق للشيخ سالم الذي طلب منه أن يأتيه قبل صلاة المغرب بقليل. دَخَلَ ابن طرَّاق على الشيخ سالم الذي كان يسخن سيخًا حديديًّا فوق الجمر المشتعل، وأكَّد له أنه قد داوم على العلاج كما أمره الشيخ، وأن الحياة بدأت تعود إلى جسده وأنه أصبح يئن مع فرك الجسد، وطلب منه أن يمنحه فرصة لمحاولة المبيت مع فردوس. أعطاه الشيخ كأس ماء فيما هو يسخن السيخ، وطلب منه أن يشربها وأتبعها بكأس أخرى. بعد بضع دقائق، وبعد أن غابت الشمس وبدأ حلول الظلام، طلب منه الشيخ أن يبول فوق السيخ الحديدي الذي احمرَّ طرفُه. قام ابن طرَّاق وتبع الشيخ إلى غرفة أخرى أرضها ترابية، رفع ثوبه وأنزل سرواله وبال فوق طرف السيخ الحديدي الساخن، "تشتش" السيخ بعد سقوط القطرات فوقه، وغرس الشيخ ذلك السيخ المسخن في الرمل وأمره أن يغادر. قال له الشيخ سالم قبل مغادرته: "اذهب وكل جيدًا، وامش قليلًا بعد العشاء. وحين تخف معدتك من الأكل، ضاجع من تريد من نسائك، وأخبرني كيف سرت الأمور في الغد".

مضى ابن طرَّاق تلك الليلة إلى منزله، هاتَفَ جبل وأمره أن يشتري عشاءً بحريًّا مكونًا من الاستاكوزا، والجمبري، وشراب كوكتيل الفواكه بالعسل. أحضر جبل كل ما أمر به أبوه إلى البيت، كان حينئذ يجلس في

الصالة الكبيرة المتوسطة للبيت، جلست عن يمينه أم جبل وأمامه جلست تبادره بفناجين القهوة أم طرقي، فيما قامت فردوس من مكانها ذاهبةً لجناحها بعد أن أمرها ابن طرَّاق أن تُعِد العشاء. بعد بضعة فناجين من القهوة العربية والتمر طلب من أم جبل أن تدنو منه، همس في أذنها قليلًا ثم قام من مقعده متجهًا إلى الدرج، صعدَ ومَضَى إلى جناح فردوس، سبق دخوله للجناح نحنحة متواصلة. دخل ابن طرَّاق للجناح، كان العشاء مُجَهَّزًا له، جلس على الكرسي وشرع في الأكل، وبدا على فردوس أنها متحفزة إلى كون تلك الليلة مختلفة.

كانت فردوس تدرك تمامًا كيف يفكر ابن طرَّاق حين يأتي من المزرعة بعد غيبة: يطلب العشاء في الجناح، يأكل ويشرب الشاهي بعد ذلك، تقترب فردوس من ابن طرَّاق، تمسك قدمه اليمنى وتبدأ في مسحها بمنشفة مبللة بالماء. كان ابن طرَّاق يرفع قدمه في حضنها ويبدأ في تحسس فخذيها بكعب قدمه، فيما يد فردوس تبدأ في تدليك ساقي ابن طرَّاق من الأسفل للأعلى، تُدخِلُ يديها في السروال الطويل وتصعد للركبة، تبدأ يدها بمسِّ فخذ ابن طرَّاق ويبدأ قضيبه في الانتصاب. كان ابن طرَّاق بعد هذه السلسلة من الأفعال المـُجَدوَلَة يقوم من مكانه ويمشي لغرفة النوم، يخلع ثوبه في طريقه للغرفة، وتتبعه فردوس.

تلك الليلة جَلَسَت فردوس كعادتها أمام ابن طرَّاق وهو يأكل، كانت قد فردت شعرها أمامه، ولبست قميصها المسائيّ القطني الخفيف الضيق، وتعطرت كعادتها منتظرةً ابن طرَّاق أن يفرغ من الأكل. حين فرغ ابن طرَّاق من العشاء حَمَدَ ربَّه وانتظر قليلًا حتى ترفع فردوس الصحون من أمامه، أتت بالشاي، وشرع يرشف من الشاي وهو يقلِّب ناظريه في الغرفة وكأنما لم يرها منذ زمن، بدا شارد الذهن، وانتظرت فردوس إشارته لتبدأ طقوسها، لكنَّه اكتفى بتأمُّلِها قليلًا وإغماض عينيه أحيانًا. بعد أن فرغ ابن طرَّاق من شرب الشاي قام من مكانه بلا كلمة، وخرج

من الغرفة باتجاه الدرج. خَرَجَ ابن طرَّاق من البيت، مشـى قليلًا حول الحارة التي هدأت طرقاتها، كما أوصاه الشيخ سالم، عاد بعد ساعة من المشي إلى للمنزل.

دَخَلَ ابن طرَّاق المنزل، وجلس في مجلس الرجال ليشرب الماء ويستريح قليلًا، اتجه بعد ذلك صوب غرفة أم جبل هذه المرة من دون أن يلاحظ أحد ذلك، كانت الساعة تقترب من العاشرة، فَتَحَ الباب ودخل. كانـت أم جبـل تجلـس وحيـدة على الأريكة المجاورة للسـرير، تحفزت مثـل قطـة خائفـة بعـد دخولـه وأحكمت لفَّ (الشـيلة) وهبَّت من مكانها واقفة. دخل ابن طرَّاق الغرفة، وقف قليلًا في وسط الغرفة. عاد وأطفأ النـور مُبقِيًـا علـى الضـوء الخافت القادم من باب الحمام الموارَب، خلع ثوبه ورماه، اتجه للسـرير وجلس ثم نام على ظهره. صمت ابن طرَّاق قليلًا ونادى أم جبل التي ما زالت واقفة:

- يا أم جبل، رجولي توجعني شوي، همّزيها يا مال العافية.

اقتربت أم جبل وجلست على طرف السرير واجمةً، بدأت تدلِّك أقدام ابن طرَّاق ولم تنبس ببنت شـفة، جلبت علبة فازلين سـائل طويلة وشرعت في التدليك، كانت تضغط ثلاث ضغطات من السائل وتضعها علـى سـاقي ابـن طـرَّاق وتدلِّـك، فيمـا ابن طرَّاق يئن قليلًا. بعد فترة من الصمت والتدليك سألت أم جبل قائلة:

- وشلون رجليك يا أبو جبل الحين؟

لم يرد أبو جبل، مضت لحظات من الصمت قليلًا. فجأةً هبَّ ابن طـرَّاق مـن مكانـه بجذعـه الأعلـى مثل ملـدوغ، جَذَبَ أم جبل من كتفها اليسرى وألقاها بخفَّة إلى جانبه، سَحَبَ الشيلة الملفوفة على رأسها، خلع سـرواله ورفع أطراف الجلابية التي كانت أم جبل تلبسـها إلى منتصف بطنها. كانت أم جبل مدهوشةً، وَجِلَةً وصامتةً من دون حراك أو مقاومة، فتـح ابـن طـرَّاق فخذيهـا، وخلـع عنها "الكلـوت" القطني المنقَّط، وضع

يده اليمنى على وركها الأيسر المكتنز، أغمض عينيه ورفع رأسه، وبدأ يخوض في لجةِ بحرٍ عتيقٍ.

اضطربت أنفاس ابن طرَّاق بعد ثوان معدودة، تقاطعت مع شهقات أم جبل التي لم تُسمَع منذ سنوات، إذ كانت المرة الأولى التي يأتيها ابن طرَّاق بعد سنوات هجر أربع، شَهَقَ ابن طرَّاق ونخر بقوة معلنًا فكَّ سحر الصرف الذي رَقَدَ على فحولته شهرين. قام ابن طرَّاق من مكانه، لبس سرواله وثوبه، سحب ربطة نقود من جيبه وتركها فوق المنضدة التي بجانب السرير، غادَرَ غرفة أم جبل متجهًا لغرفته العلوية في سطح المنزل عاقدًا العزم على أن يزور فردوس في ذات الشأن بعد ظهيرة اليوم التالي. كانت أم جبل ما تزال تسابق لهاث أنفاسها، باتت تلك الليلة على رقدتها ولم تغتسل سوى بعد قيامها من النوم، كانت الشمس قد ارتفعت مقدار ذراعين حينئذٍ.

صبحي:

أعلم أن ابن طرَّاق بات تلك الليلة للمرة الأولى بعد فراق شهرين من هجر كل نسائه، قضاها متعللًا بانشغاله في المزرعة، وما لا يعلمه العم أبو جبل أن الشائعات كانت تنتشر في منزله مثل رائحة طبيخ (مسبّك) بالبصل، وكنت أنا الوحيد الذي يدرك كنهَ هذا المصاب الذي ألمَّ بالعم ابن طرَّاق. في المقابل لم يحاول ابن طرَّاق البحث عن مَن كانت خلف هذا التصرف الذي أتاه وأصابه في مكان رجولته. سألتُه ذات يوم عن هذا الأمر فيما كنت أدلِّكُ جسده، وكان سؤالي في لحظة أنينه القصوى، ولم يُجِبني. حين فرغت من تدليكه أعدتُ سؤالي، وقال لي: "مالك شغل يا قواد". لم أشغل بالي بعد ذلك بهذا الأمر، لكنني أعلم من تكون بنسبة ٪90، ولا أعلم إن كنتم تشكّون بها مثلي، لكن ليس لدي دليل.

منـذ ذلـك اليـوم شَـرَعَ ابـن طـرَّاق في ترتيب زيجات جديدة له في المزرعة، عقد العزم على أن يفعل مثلما فعل في بعض رحلاته للقاهرة والمغرب، إذ كان يتزوج زواجًا عرفيّا ومن ثَم يُطَلِّقُ حين تحين عودته. في مزرعة ابن طرَّاق يكون الاتفاق مختلفًا، يقرر أن يتزوج زواجًا عرفيًّا، وحين يفرغ من المرأة يطلِّقها بعد ذلك بيوم أو يومين، لا يجب أن تبقى الزوجة أكثر من ليلة أو ليلتين، وكنت أنا الشاهد دومًا. شَرَعَ ابن طرَّاق فـي تنفيـذ مـا يحيـك فـي نفسـه، وجلـس على هذه الحال عدة سـنوات، تأتيه لوزية بزوجة كل أسـبوع أو أسـبوعين أو ربما شـهر، وتمضي هذه الزوجـة الجديـدة ليلـة أو ليلتيـن. مـذ قـرر ابن طرَّاق ذلك وجلسـاته في المزرعـة أصبحـت تطـول، كان يغيـب عـن البيت ما يزيد عن الشـهر في بعـض الأحيـان، يجلـس فـي مزرعتـه ويبقـى جبل حارسًـا ونائبًا عنه في شئونه، واعتدت أنا أكثرَ على لقب القوَّاد، صار فخمًا من ابن طرَّاق.

(30)

بنفسجي خطير

بوصلة جبل لم تعُد تهدي إلى سواء السبيل، اتخذ صملول مستشارًا جديدًا، وأبو ضاري ما زال مستشارًا بدرجة أقل. لم يدلُّه صملول حتى الآن على كيفية تخلُّصه من هنادي، واتصالات هنادي ما زالت تتكرر، كما أنها بدأت تحسُّ أن ثمة أمرًا ما مختلفًا لدى جبل، وجبل ما زال يتهرب من لقاء هنادي.

لنتذكر بعض المتغيرات الكثيرة التي حدثت لجبل: البحث عن المبلغ المفقود، حادثة الربط، علاج الشيخ سالم، رحيل طرقي ووالدته من المنزل، إلغاء بعض الوكالات، وسحب بعض الصلاحيات. كل تلك الأحداث أدخلت جبل في ثورة شك وتخبُّط. عاد جبل لصبحي، طالبه مجددًا بالمبلغ المفقود، وبكى صبحي مجددًا، استمع لأقذع الشتائم من فم جبل ويلعها على مضض. أصبح جبل يتفنن في الشتائم، قاموسه ممتلئ بها، ورثَ هذا القاموس عن أبيه، لكنه لم يُحسِن استخدامه. أصبح جبل ينعت كل موظفي الشركة بالقوادين والملاعين والفجرة، بيد أن ابن طرَّاق كان عكس جبل، كان يختار لكل شخص مفردةً واحدةً أو مفردتين ينعته بهما. كان ابن طرَّاق يطلق على جبل شتيمة الفاجر، وعلى صبحي شتيمة القواد، وعلى ابن مسبط شتيمة الملعون، وعلى لوزية شتيمة الجنيّة، وعلى فردوس شتيمة (فردوسة) تحقيرًا حين يغضب. المفارقة كانت في رد الفعل؛ إذ إن ابن مسبط ولوزية مثلًا لم يَعُدَّا ما يقوله ابن طرَّاق شتيمة بل إطراء، وكذلك فردوس كانت تَعُدُّ فردوسة للدلع لا التحقير، حتى لو عَدَّت أمُّ جبل ذلكَ شتمًا. كانت مفردات ابن طرَّاق الشتائمية كثيرة، لكنه كان يحسن استخدام الشتيمة المناسبة

للشخص المناسب في الوقت المناسب، وتخرج هذه الشتيمة والمشتوم لا يدري إن كانت شتيمة أو مديحًا في بعض الأوقات. أصبح جبل يخلط الحابل بالنابل، فالجميع أصبح يستقبل شتائمه صباحًا ومساءً، وقاموسه متفرِّد بالمزيد من الشتائم.

أصَـرَّت هنـادي علـى لقـاء جبـل، ولم تعطـه الفرصة لأي عذر في مكالمتهـا الأخيـرة، بـل حسـمت الأمـر وقالـت لـه: "نلتقي فـي فيلا أبو ضاري". لم يسـتطع جبل إعطاء أي عذر هذه المرة، إذ كانت أعذاره قد نفدت، ووافق على اللقاء. طلب جبل المشـورة من صملول، وأكَّد لـه صملـول أن الوقـت لـم يَحِـنْ بعـدُ، وعليه أن يذهب بصُحبتها ويمتنع عن المبيت في الفراش معها، واتفقا على تدبير حيلة تمنعه من المبيت، وكانت الحيلة تقضي بأن يسـتعين بأبي ضاري وفرج، رسـما السـناريو المحتمل ونفذاه.

حين دخل جبل بصحبة هنادي لفيلا أبي ضاري مَثَّلَ على هنادي أنه قد فوجئ بوجود مرزوق وفرج، وكان ممثلًا رديئًا في ذلك، جلسـا في صالة الجلوس بصحبتهم. كان أبو ضاري جالسًا في منتصف الصوفا الكبيـرة، أضـاف فـي جلسـته هـذه قليـلًا من التعقيـد، إذ إن بقية الأماكن كانـت كلهـا فرديـة ولا تسـمح بـأن يجلـس جبل بجانـب هنادي. بدا أبو ضاري وكأنه يستعد لاستقبال زوار باتفاق مسبق مع جبل، بيد أن فرج كان يجهِّز الجلسة ومستلزماتها من مزة وشراب. جلس جَبل بجانب أبي ضاري على الصوفا، وبقيت هنادي وحدها على كرسي كلاسيكي مفرد.

مضـت السـاعة الأولـى وجبـل يتبـادل الأحاديث العامة مع مرزوق وهنادي منصتة، بينما فرج يملأ الكؤوس ويَسرِق النظرات لهنادي التي لم تُعِره انتباهًا. تململت هنادي وأومأت لجبل أن يتحرك من مكانه للذهاب لمـكان آخـر، إذ إن مـرزوق كان قـد أبـدى رغبـة مبطنة في خلوِّ المكان، وفهم جبل وهنادي أنه يجب عليهما المغادرة. لم يُعِر جبل هنادي أي

أهتمـام بـأن ينتقـل لمـكان آخـر، قامـت من مكانها وجلسـت في حضنه وأصرَّت عليه، قال لها إن الأيام القادمة كثيرة، ومع ذلك لم يفوّت فرصة غرس إصبعه في مؤخرتها، أقنعها أنهم سيخرجون عائدين لمنازلهم بعد مغادرة فيلا أبي ضاري وأن الوقت تأخر.

استأذنت هنادي من الجميع ودخلت الحمام، كان الغيظ في ذروته من برود جبل ولأنها تشك كثيرًا في تصرفاته أخيرًا. جلست هنادي على طرف البانيو، أحنَت جذعها للأمام ووضعت رأسـها بين يديها، أعادت هنـادي تفاصيـل المشـهد، وخمَّنـت أن ردة فعـل جبـل البـاردة لرؤيته أبا ضاري وفرج عند دخولهم الفيلا تثبت أن الأمر شبه متفق عليه، محاولة للهروب من إصرارها على جبل. أيقنت هنادي أن علاقتها بجبل شارفت على النهاية، ولم يعد ينفع أي أمر آخر لإصلاح العلاقة. ظهرت صورة أبـي ضـاري بغتـة في شاشـة عقل هنـادي، تذكرت نظرات الإعجاب من قِبَلِه في حفل رأس السنة حتى إنها فكَّرت في مخالفة وصايا لوزية آنذاك وتـرك جبـل جانبًـا، وكيـف أنهـا لـم تعطه الفرصة منذ ذلك الحين. كيف سـمحت لنفسـها أن تمنع الآخرين عنها ما دامت بصحبة جبل؟ قامت هنادي من جلسـتها، حدَّقت في المرآة قليلًا وهي تقضم أظفر سـبابتها اليسرى، أخرجت من حقيبتها قلم روج وعطرًا و(بلاشر)، وشرعت ترتِّب نفسـها مـن جديـد. قبـل خروجها من الحمـام خلعت هنادي "الكلوت"، رشـت عليه أكثر من سـت رشَّـات من عطرها، وعلَّقته في طرف المرآة المثبتة فوق المغسلة، وخرجت بلا "كلوت" تلك الليلة.

بعد عدة دقائق عادت هنادي وطلبت من جبل المغادرة. كان باديًا عليها كثير من التوتر، جاءت عينها في عيني أبي ضاري فيما كان جبل يهمُّ بالوقوف استعدادًا للمغادرة، وأردفت نظرتها بابتسامة خفيفة. غادر جبل بصحبة هنادي فيلا أبي ضاري، وبقي أبو ضاري وفرج. واصل أبو ضاري الشـرب مع فرج الذي أشـعل سـيجارة حشـيش، كان يتمتع ذلك

اليوم بمساء مفتوح خارج العمل المسائي كسائق، أذِنَ له جبل من بعد صلاة العصر أن يترك العمل ويذهب لملاقاته مع أبي ضاري، احتفل تلك الليلة مع أبي ضاري بنجاحه في عمله الجديد الذي يدرُّ عليه دخلًا لا بأس به، وحكى الكثير من الأحاديث لأبي ضاري عن أحوال منزل ابن طرَّاق وفردوس.

قام أبو ضاري للذهاب إلى الحمام، دوَّخت رأسه حين دخل للحمام تلك الرائحة العطرية، وذُهِلَ بعد أن وقف أمام المغسلة ليقضي حاجته كما يفعل دائمًا حين يفرط في الشراب، ورأى "كلوت" معلقًا على طرف المرآة المثبتة فوق المغسلة. قَضَى أبو ضاري حاجته، غسل يديه وسحب "الكلوت" المعلق، لم يكن ثمة امرأة دخلت الفيلا في الأيام الأخيرة سوى هنادي، وكان متأكدًا أن "الكلوت" لم يكن معلقًا قبل ذلك. قلَّبَ أبو ضاري "الكلوت" بين يديه، كان لونه بنفسجيًّا، مصنوع من الدانتيل ماركة "**Chantelle**" الفرنسية. قرَّبَ أبو ضاري "الكلوت" من أنفه وشمه، انتشى وتأكَّد أن الرائحة العطرية التي ضربت عقله لحظة دخوله الحمام كانت رائحة "الكلوت"، واصل تقليبه وقرأ مقاسه من الخلف: (M)، والغريب في ذلك أن هنادي ذات قوام رشيق، خمَّن أن مقاسه يجب أن يكون (S) كقوامها، لكن المقاس اختلف، تذكَّر أن هنادي تمتاز بمؤخرة أكبر قليلًا من بقية جسدها.

خرج أبو ضاري للصالة وهو يضحك، كان فرج ينفث دخانه، ابتسم أبو ضاري وقال:

- شفت القحبة؟ تركت كلوتها هنا!

- من هي؟

- هنادي، علقت كلوتها في الحمام، صدق أن القحبة ما تتعطَّل يا فرج.

- أسألك بالله؟ تكفى خلني أشوف.

- شوفه، هذا هو (هزَّه أبو ضاري بيده) لونه بنفسجي بعد.
- من يومها تحب البنفسجي. (كان فرج يبتسم ويحرك حاجبيه للأعلى)
- أخس ! وش دراك؟
- تكفي يا عم أبو ضاري، أنا طالبك: قل تم؟
- في إيش؟
- قل تم يا عمي، تكفى. (قام فرج من مكانه متجهًا نحو أبي ضاري وقبل رأسه)
- يا فرج تم، لكن قل لي في إيش؟
- أبي الكلوت يا عمي.
- ليه؟
- تكفي يا أبو ضاري.
- أعطيك إياه ولكن قل ليه؟
- هذه قصة طويلة يا عم أبو ضاري، أقول لك عليها، والليل طويل.
- أخبرني الآن. (كان أبو ضاري يهز الكلوت بيده)
- حاضر يا عم، بس تمّم لي.
- تم يا كابتن.

سحب فرج نَفَسًا من سيجارته، وبدأ بالحديث:

- أنا كان لي علاقة مع هنادي.
- أخس يالخال، لا تقول، والله أني كنت أشك فيك يالهيس !
- كيف شكيت فيني؟
- من نظراتك لها.
- صح عليك.
- طيب علمني يا كابتن، كيف تعرفت عليها؟

- تتذكر يا عم قبل سنة تقريبًا، يوم زارك بعض الأجانب في الفيلا؟
- إيه أتذكر.

تلك الليلة كان أبو ضاري على موعد مع أربعة زوار من خارج المملكة، حاول التفاوض معهم على وكالة مكتب هندسي، واصطدم بضخامة رأس المال المطلوب لافتتاح مكتب إقليمي في المملكة، مضت المفاوضات من دون نجاح، وكان يبحث عن شريك استراتيجي صاحب رأس مال قوي للدخول معه شريكًا في فرع المكتب داخل المملكة. حاول أبو ضاري معهم بشتى الطرق، ودعاهم في ليلة إلى الفيلا، وجَهَّزَ أنواعًا متعددة من المشروبات الكحولية، وأعطى فرج مبلغًا يتجاوز الثلاثة آلاف لشراء (شقفة) حشيش. قال له فرج إن (إصبع حشيش) واحد سوف يوفي باحتياج الأربعة أكثر من مرة، لكن أبا ضاري أصرَّ على شراء شقفة كاملة. خَمَّنَ أن هؤلاء الأجانب مولعين بالحشيش. جاء الأجانب الأربعة في المساء: ألماني وفرنسيان وإيطالي. قدم لهم كل ما طلبوا من المشروبات، ودخَّن الإيطالي وأحد الفرنسيين سجائر الحشيش، وبعد الثالثة من الفجر غادر أبو ضاري والأجانب الأربعة. أوصى فرج أن يهتم بالمكان لأنه مضطر للمغادرة بصحبتهم للفندق. سَحَبَ فرج نفسًا من سيجارته وبدأ يسرد:

- بعد ما مشيتم يا أبو ضاري، رتبت المكان، وقلت أدخّن صاروخ، طلعت من الباب الخلفي للفيلا قبال بركة السباحة.

كانت لدى فرج رغبة مُلِحَّة آنذاك في تدخين سيجارة الحشيش في الهواء الطلق، جلب كرسيًّا وجلس في الباحة الخلفية وشرع في التدخين. في منتصف السيجارة، وفيما هو يتابع تلوِّي خيوط الدخان الخارجة من سيجارته، سمعَ فرج أحد الأبواب يُغلَق من إحدى الفيلات الموجودة عن يساره، وبدأ طرق الكعب النسائي يطرق رأسه. كان طرقًا سريعًا متتابعًا وخمَّن فرج أنها امرأة، قام من مكانه وتقدَّم قليلًا، رآها تمشي باتجاه

الفيلا في طريقها للخروج من الباب الرئيسي للبركة، ومن ثَـم لمواقف السيارات عند مدخل النادي الصحي. اقتربت المرأة ولم تكن تغطٍّ رأسها بعد أو حتى تقفل عباءَتها، كان فرج يراها تقترب بمحاذاة السور الصغير من الخلف والذي كان هو يقف عند محاذاته، وقبل أن تصل إليه سمع فرج ذات الباب يفتح مجددًا، ارتبكت المرأة، وخرج رجل وتبعه آخر، كان الأول يلغـو بصـوت عـال منـذ خـرج من الباب والآخر ينادي عليه، والمـرأة أصبحـت قريبـة منـه، قـرأ فـرج ارتباكها وناداهـا: "تعالي تعالي، شكلك هربانة منهم، ادخلي بسرعة".

دخلت المرأة ولم تعترض، فَتَحَ فرج باب السور الصغير وسحبها من يدها التي كانت تنتفض، مشت معه إلى داخل باب المطبخ، دخلت وأشـار عليها فرج أن تصمت. أغلق فرج السـتار المعدني المطل على الفناء، وأمرها أن لا تتحرك. قرَّبَ أذنه من الباب، وبدأ يستمع من خلف الباب، قالت لفرج: "اطلب الأمن له، هذا مجنون". أشار لها فرج بسبابته فوق شفتيه طالباً منها أن تصمت، وحين هدأ الصوت ذَكَرَ لها أن التفكير في إبلاغ الأمن في هذا الوقت سوف يفضح الجميع، وسألها إن كانت قد هربت من تلك الفيلا، أومأت برأسها موافقةً، وسألها مرة أخرى إلى أين كانت ستذهب، فردَّت بأن سائقها ينتظرها. حذَّر فرج الفتاة من خطر الخروج في ذلك الوقت، إذ ربما ينتبه الرجل وتتعقَّد الأمور، وطلب منها أن تأمر السائق بالمغادرة فورًا، وأخبرها أنَّه لا ينبغي أن تخرج حتى ترتفع الشـمس. قـرَّر فـرج أيضًـا أن يخـرج للتفاهُم مـع الرجل الذي ظلَّ يرعد ويزبـد فـي فنـاء المجمـع. لم يسـأل فـرج عن ماذا فعل ذلك الرجل لها، ولِـمَ هربت منهم، لكنه أحس بأنه أنقذها من ورطة، وساهم في تهدئتها.

تلـك المـرأة كانـت هـي هنـادي، والرجل الذي هربت منه هو أحد سكان المجمع. حين خرج له فرج، واقترب منه وطلب منه الهدوء، قال له: "تبي تفضحنا بين الأجانب سـكان المجمع؟" لم يجبه ذلك الرجل

وظل يتحدث بكلام غير مفهوم، سأله فرج مجددًا: "من هي البنت اللي هربت منك؟" وأجابه بقوله: "هذي قحبة". كان الرجل ثملًا، هدأ حينما اقترب منه فرج وابتسم، وضع فرج يده على كتف الرجل ومشى معه باتجاه فيلا الرجل، وأقنعه أن الهدوء واجب في مثل هذه الأمور، وأقنعه أيضًا أن التي مضت ساقطة وبدلًا منها ستأتي ساقطة أخرى ما دامت لم تسرق منه شيئًا ولم تأخذ مالًا. بدأ الرجل يقتنع بكلام فرج، دخل الفيلا التي تخصُّه، وأقسم على فرج أن لا يغادر إلا حين يشرب كأسًا معه، شرب فرج كأسه ومضى عائدًا يحث الخطى لهنادي.

حين دلف فرج عائدًا إلى فيلا أبي ضاري وجد هنادي جالسة في صالة الفيلا، لم تخلع عباءتها بعد. كانت هنادي تشرب (سفن أب)، ابتسمت لِمَقدِمِه، وبادرته بالسؤال:

- هذي الفيلا لك؟
- نعم.
- ما شاء الله.

كانت نظرات هنادي تجول في الصالة وهي تردد "ما شاء الله". واصلت حديثها:

- تصدق كأني شايفتك من قبل؟
- يعني ما عرفتيني؟ (نفخ صدره قليلًا بعد سؤال هنادي)
- والله ما أدري! بس مشبهة عليك.
- ما تتابعين كورة؟
- مو كثير.
- أنا كنت أخطر مهاجم في المملكة بعد ماجد عبد الله.
- واااو! والله!
- نعم، وعلى فكرة كنت مع منتخب المملكة اللي فاز في كأس العالم في أسكوتلندا.

- بالله !

- إيه، بس اعتزلت الكورة من كم سنة.

أسهب فرج في سرد تفاصيل كثيرة لأبي ضاري عن لقائه الأول مع هنادي، ذكر له كيف تحدَّثا كثيرًا ذلك المساء، وباشرها فرج بكأس من النبيذ الأحمر، وتناولا سجائر حشيش معًا. كانت هنادي قد طلبت منه السيجارة بعد أن قدم لها كأس النبيذ، قالت له إنها لَمَحَته وهو يدخِّن (الصاروخ) في فناء الحديقة الخلفي. كان أبو ضاري منصتًا جيدًا من دون أن يقاطع فرج. تحدَّثَ فرج على أن هنادي كانت تحب الحشيش لدرجة الإدمان، وقال لأبي ضاري إن جيبه يومئذ كان عامرًا بالحشيش، وسَرَدَ عليه كيف فتحت هنادي (السي دي) على أغاني حسين الجسمي، ورَقَصَت على أغنية "مالي عزا من دونك".

واصل فرج وهنادي جلستهم من الفجر حتى الظهر، وذكر فرج أنها مشت لبيتها بعد الظهر مباشرة. تكررت لقاءات فرج مع هنادي فيما بعد، وكانت هنادي مدمنة حشيش بحق، وفرج كان كريمًا معها، إذ إن الشقفة (قطعة حشيش بحجم الكف) التي اشتراها قبل ذلك المساء تكفي لأكثر من ثمانين سيجارة. كانت هنادي تهاتف فرج وتقول له: "يا فرووجي، خرماااانة موت، أبي أشوفك، وجيب معاك باكت". كان فرج يخرج معها في الليالي التي تخلو فيها فيلا أبي ضاري من الزوار، استأذن مرتين من أبي ضاري في ذلك وسمح له، وفي المرات الثلاث الأخرى لم يستأذن ولم يخبر مرزوق، كما لم يقل له أنه ادَّعى ملكية الفيلا عند هنادي.

صمت فرج ليشرب قليلًا، وبادره أبو ضاري قائلًا:

- طيب وش سالفة الكمثرى؟

- ههههه. وش.دراك يا أبو ضاري؟

- جبل علمني عنها، تدري أن جبل كان منجن على هنادي حتى وقت قريب، وبيني وبينك تراها كانت ساحرته من جد!

- والله أني شكيت فيها، الرجال تولع فيها بقوة!

- طيب قل لي: وش سالفة الكمثرى؟

- هذي الله يسلمك وحمة فوق الورك الأيسر من الخلف، تقريبًا خلف الكلية. وحمة على شكل كمثرى، شكلها مثل الكمثرى الشقراء بالظبط، وهنادي زادت عليها وحددت الوحمة بـ (تاتو)، على شكل خط داكن خفيف على حفة الكمثرى.

- أخس، تعرف التاتو بعد؟

- إيييه. نعرف كل اللي نبي نعرفه يا أبو ضاري، المهم أن الكمثرى صارت علامتها الفارقة، ما يمكن تنساها.

- أنا داري عن الموضوع، ولو تتذكر يا ملعون يوم كنا في البر، وناديت الهندي وقلت له: قطع لنا كمثرى، كنت أدري أن لك علاقة في الموضوع.

- ما شاء الله عليك، ما تطوفك يا أبو ضاري.

- طيب يا فرج، علمني: كيف هنادي في الفراش؟

حين سأل مرزوق هذا السؤال تجلّى فرج وأسهب في وصف علاقته مع هنادي، ذَكَرَ له أنَّه لم يمارس الجنس بحياته مع امرأة مثل هنادي، ذَكَرَ كذلك أنه كان يضاجعها ثلاث مرات على الأقل حين تكون معه، وأقسم أنه ذات يوم حينما كانت هنادي متخدرة جدًّا من الحشيش مارست معه جنسًا فمويًا:

- أخس يا الخال! من جدك؟

- والله يا عم، كنت في وضع خيالي ذلك اليوم.

حين انتهى فرج من حديثه قال لأبي ضاري أن هنادي بحركتها هذه توجه دعوة له، سوف تحضر لو أراد هو من الليلة، لكن يجب عليه أن يكون حذرًا منها. طلب فرج "الكلوت" البنفسجي من أبي ضاري مجددًا، وانتبه أبو ضاري إلى أن "الكلوت" ما زال في يده، قام من مكانه، نقَّلَ

نظره بين "الكلوت" وفرج، رماه في وجه فرج قائلًا:

- خذ لعنة الله عليك ! هذي رفيقة عمك. تف!

رفع أبو ضاري كأسه ودلقه في جوفه دفعة واحدة، ومضى إلى غرفته، بيد أن فرج ما زال يقلِّب "الكلوت" بين يديه ويشمُّه، استلقى على جانبه الأيمن وشرع في البكاء.

فرج:

أنتم تصرُّون على البحث عن صغائر الأمور، وبودِّي أن أنصحكم إذًا بقراءة كتاب (لا تهتم بصغائر الأمور، فكل الأمور صغائر). أنا مضطر هنا لمخاطبتكم بهذه اللغة المثقفة والمتكلفة؛ كي لا تظنُّوا على الأقل أني جاهل، والأمر الآن لا يحتمل سوى عشر دقائق من البحث عبر صفحة (GOOGLE) عن أي موضوع شئت، وسوف تخرج لكم روابط كثيرة لمواضيع شتى. ليس عليكم سوى حفظها والتنطع بهذه الكلمات الفخمة مع الاستشهاد بعنوان كتاب وربما اسم كاتب... فقط.

حسنًا، ما زلتم تصرون على البحث عن صغائر الأمور مثل نمل! هل رأيتم؟ أنا أيضًا أجيد الاستعارة. لقد نعتُّموني في المقطع الثامن عشر بقولكم "مثل كلب"، ونبشتم كل ألقابي غير المحببة، وردَّدتم هذه الألقاب على مدار أربعة فصول، ولم تذكروا أن المعلِّق كان يسميني في النقل الحي لنهائي كأس الملك بـ (البازوكا)، حين سددت الكرة في الدقيقة التاسعة تحديدًا، وعَلَت القائم بقليل. لِمَ هذه الخيانة للتاريخ؟

لا بأس، ما زلتم تصرون على البحث عن صغائر الأمور مثل نمل!

تسألونني: لِمَ بكيت؟ بهذه السهولة توجِّهون أسئلتكم بلا صفة رسمية، وأنتم تعلمون أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة لا

تأتي بلا دافع أو خوف، ولأن صفة الخوف لا توجد هنا إذ لستم من جهة حكومية نخشاها، ولستم تملكون صفة الأب. إذًا سوف أجيبكم هنا بدافع إيضاح بعض الأمور والتي أتيتم على ذكرها بمرور سريع. نعم يا سادة، الرجل يبكي حين تقتله امرأة، والقتل هنا استعارة بلاغية كما تعلمون.

دعوني أخبركم: في حياتي المليئة بالأفراحِ والأتراح والأمجاد والهزائم والمتغيرة مثل طقس صحراوي، أُصِبتُ مرتين فقط. في المرة الأولى كان القطع الذي تعلمون في الرباط الصليبي، والإصابة الثانية وهي الأقوى كانت هنادي. حسنًا، الآن وبعد أن علمتم بسر إصابتي الأقوى ستدركون كِنهَ ذلك البكاء الذي حدث في ليلة رأس السنة بالقرب من لوزية، ربما تتذكرون ارتباكي الذي لم ينتبه إليه أحد حين سقطت زجاجة الويسكي وتهشمت في تلك الليلة، وبكائي في هذا المقطع أعلاه.

من القهر أن ترى حبيبتك تصعد الدرج إلى غرفة نوم رجل آخر، والله. تبًّا للجميع، وتبًّا لي، وتبًّا لركبتي، وتبًّا للون البنفسجي، وتبًّا لفرووجي...

(31)

قالت: يا ولدي لا تحزن - 1

- رجعنا في سوالف الخرابيط؟

كانت هذه إجابة صملول على طلب جبل، صمتا لفترة بعد هذه الجملة، وتبادلا التأتأة، وانتهى الحديث بطلب من صملول الذي قال لجبل إنه سيفكر في الموضوع.

فوجئ صملول كثيرًا بالطلب، ليس لأن صملول لا يحبِّذ هذه الأمور المتعلقة بالغيبيات (بإمكاننا أن نقول إن صملول تخصُّص في السحر والشعوذة)، إذ إن صملول يجاهر كثيرًا للمقربين منه بأنه ذهب لسَحَرَة وعرافين وعرافات وقرَّاء فنجان، لكنه أدرك أن جبل، والذي يبدو دائمًا معارضًا للذهاب لمثل هؤلاء، كان واقعًا في حيرة من أمره، وهذا ما دعاه لِأن يطلب من صملول أن يدبِّر له عرَّافة (مُحَنَّكة) بحسب وصفه، بحيث تدله على بعض الأمور التي يقع في حيرة منها.

كان صملول يجزم بعد هذا الطلب أن جبل وصل لمرحلة لا تُحتَمَلُ من الحيرة والتردد. رجل بحجم جبل، وبصفته وكيلًا شرعيًّا لورثة ابن طرَّاق، لا يجب أن تكون حاله هكذا، كما أن صملول كان مستغرقًا في التفكير في اتخاذ قرار مختلف عن جبل، كان قد عقد العزم على أن يتزوج زواج مسيار، بل لم يفاتح أحدًا من أصدقائه عن هذه النية، لكنه رسم خارطة طريقه وقرَّر الشروع في ذلك.

وعد صملول جبل في حديثهم التالي (كان أقل تأتأة من جانب جبل) أن ينسِّق له مقابلة مع قارئة فنجان مُخَضرَمَة (بحسب وصف صملول هذه المرة)، لتقرأ الطالع وتكشف المستور. سُرَّ جبل كثيرًا بعد سماعه رد صملول. في المكالمة التي تلت، كان جبل يبتسم مثل طفل

حين أخبره صملول أنه قد نسَّق الموعد مع قارئة فنجان في البحرين، وأخذ معها موعدًا يومَ الخميس؛ إذ إنها لا تقرأ سوى في أيام السبت والاثنين والخميس.

طرق صملول باب بيت القارئة، وفتحت باب البيت الخارجي خادمة آسيوية، وأدخلتهم الغرفة المجاورة للباب الرئيسي في الحوش. دخل صملول بصحبة جبل للغرفة، وبادرتهم الخادمة بقولها: "انتظار سوي". كانت غرفة متوسطة الاتساع مفروشة بسجاد إيراني قديم ومتآكل الصوف، وعلى جنبات الغرفة في الجدار المواجه للباب اصطفت مساند متعددة من القماش القطني المحشو بالإسفنج. في منتصف الجدار وأمام المسندة المتوسطة كان هناك (دافور) وأربعة أكواب قهوة تركية وكيس بنٍّ صغير، وخمس قوارير مياه صغيرة.

دَلَفَت الحاجة مريم للغرفة، ألقت السلام وبادرت بالجلوس قرب الدافور. قام صملول وجبل من مكانهما في طرف الغرفة، بعد أن ردُّوا السلام على الحاجة مريم، وسَحَبَ جبل وجلسا أمام الحاجة. بَدَتَ الحاجة مريم ثقيلة في جلوسها على الأرض، كانت تبدو وكأنها تجاوزت الخمسين سنة، ولا يبدو عليها أثر لرغد العيش. بادر صملول قائلًا:

- كيف أحوالك يا حاجة؟
- بخير والحمد لله.
- هذا يا أم محمود صديقي جبل اللي قلت لك عنه، وعاوزك تقري فنجانه.
- والله وبقيت تتكلم مصري يا أبو خالد!
- كله من بركاتك يا حاجة.
- طيب فنجان بس ولا كوتشينة كمان؟
- اللي تشوفيه مناسب. (رد صملول على أم محمود قبل أن ينطق جبل)

- اسم أمك إيه يا جبل؟
- مشعاء.

صمت الجميع ولم يبقَ سوى هدير المكيِّف المعلَّق على يسار الحاجة أم محمود. شرعت في تحضير القهوة، وأشعلت الدافور بـ "ولاعة" سجائر. جهَّزت أم محمود فنجان القهوة، ومدت الفنجان لجبل والذي تأمل يدها قليلًا. كانت يد أم محمود تبدو أشدّ سُمرةً من وجهها قليلًا، متينة الأصابع مثل أقلام فاخرة، وتبدو الخشونة على سطح بشرة يدها وكأنها مُصابَة بمرض جلدي. بدأ جبل يرشف الفنجان، وأمَرَتهُ بأن لا يستعجل، وأن يرشفه على دفعات كثيرة. حلَّ الصمت وأطبق على المكان إلا من صوت رشفات جبل. قطع الصمت سؤال أم محمود لصملول قائلة: "إزّي أحوالك يا أبو خالد؟" وأجابها صملول إجابة مقتضبة مبتسمًا. أنهى جبل شرب قهوته، وأعاد الفنجان لأم محمود. بدأت أم محمود ترج الفنجان بحركة دوران أفقية حتى يختلط البن المتبقي في أطراف الفنجان ببقايا القهوة، رفعت الطبق وغطت الفنجان ثم قلبته، وضعته على الأرض وقالت:

- هنستنّى خمس دقائق؟
- ننتظر يا أم محمود، كل دقيقة معك خير وبركة. (صملول يجيب)
- المصريين ما بيقدروش معاك يا أبو خالد.

بعد مرور بضع دقائق، رفعت أم محمود الفنجان، وطلبت من جبل أن يبصم بإبهامه الأيمن في قعر الفنجان ويطبع البن على لسانه. بَصَمَ جبل في قاع الفنجان والتصق البن الرطب بإبهامه، رفع إبهامه وبصم على لسانه. طلبت أم محمود أن يمد لسانه ليريها أثر بصمة البن، كَوَّنَ البن على لسان جبل شكلَ قلبٍ مخروقٍ بسهمٍ. ابتسمت أم محمود قبل أن تطلب من صملول أن يشاركها رؤية المشهد قائلة:

- بص يا أبو خالد، صاحبك بيحب؟

- يا الله ! (جحظت عينا صملول ذهولًا)

- إِنـت بتحـب يـا جبـل، وعاوزين نعرف الســت دي مين. (قالت مبتسمةً)

لم ينبس جبل ببنت شفة فيما شرعت أم محمود في رفع الفنجان وتقريبـه منهـا وتأملـه، ابتسـمت حيـن رأت في قاع الفنجان رسـم امرأة، وهمست لجبل فيما سبابتها تشير إلى قاع الفنجان:

- هِـيَّ دي الست اللي بتحبها؟

حاول جبل أن يقترب من الفنجان ليرى، ونهرته أم محمود، قالت له إنها هي التي ترى فقط وليس هو. بادرها صملول سائلًا:

- من هي هذي يا أم محمود؟

- هو بيعرفها، مش كده يا جبل؟

- هااه. لا والله، فيه واحدة حبيتها بس بطلت.

- لا، لسه بتحبها يا جبل.

- يا أم محمود، كيف شكلها؟ (صملول يسأل)

- هي ست جميلة جدًّا، وعمرها زي عمره بالضبط!

فوجئ صملول من إجابة أم محمود ولـم يُرِدْ أن يسترسل في أسئلته، إذ إن هنـادي كانـت تصغـره بخمسـة عشـر عامًـا علـى الأقل. قطعت أم محمود صمت صملول مجددًا بعد أن رأت في قاع الفنجان قرب المرأة ثعبانًا، وقالت:

- لازم تنتبه وتفتّح يا جبل، ليك أعداء كتير.

- منهم؟ (جبل متفاجئًا)

- قريبين من البيت! (كانت تجيب وهي تتأمل الفنجان)

الأعداء كثر كما كان جبل يظن ولـم تفاجئه هذه القراءة، كان جبل مرتابًا من الجميع، إذ إن خروج طرقي وصمت فردوس أحدثا ربكةً لديه مثل وسواس الصلاة. قطعت أم محمود وسواسه قائلة:

- فيه حاجة مسروقة منك؟ (رأت رسم فأر على حافة الفنجان)
- هااه. نعم يا أم محمود.
- باين إنه مش حتلاقيها!
- ليه؟
- علمها عند ربنا يا ابني.

ما يزال المبلغ المفقود في قائمة أولويات جبل، المائة وخمسون ألف ريال، والشكوك التي تحوم حول صبحي كدوامة، وجبل كان لا يرى سوى دوامة صبحي، ولم يرَ غيرها حول أحد آخر. قطعت أم محمود الصمت مجددًا:

- عندك صديق مخلص، اسمه يبدأ بحرف الصاد. (كانت ترى ما يشبه الكلب على جانب الفنجان من الداخل)
- هذا صملول يا أم محمود. (كان صملول يبتسم حين سمع جبل يجيب أم محمود، لكنها ابتسامة خلت من التعبير. من رأى تلك الابتسامة لن يدرك إن كان صملول ابتسم متواضعًا أو سارحًا في أمر آخر، كانت ابتسامته مثل ابتسامة أبله)
- خلي بالك منه، ده بيحبك أوي.
- لا توصين حريص يا أم محمود.

جبل كان سعيدا بالعلاقة التي نمت من جديد بينه وبين صملول. كان يشعر بالألفة معه، ويُحِسُّ أن صملول رجل صادق، لا يناور. صراحته تذهل الجميع، وبساطته مع جبل تحديدًا تبعث الدفء في نفس جبل. تحدثت أم محمود مجددًا قائلة:

- إيه الحكاية يا جبل؟ ده في حديقة حيوانات في فنجانك!
- وشو بعد؟
- ده تمساح! (رأت التمساح على طرف الفنجان من الأعلى. كان فمه مفتوحًا، وذيله ملويًا، ويشبه كثيرًا العلامة التجارية LACOSTE من

دون ألوان)

- وش معناه يا خالة؟ (جبل يخلط كثيرًا بين كلمة خالة وعمة، تمامًا كما ينادي أم زوجته، وأم طرقي أحيانًا يناديها بالعمة وأحيانًا بالخالة)

- يعني فيه خصم جبار موجود في حياتك، ممكن يجيب رزق وممكن يجيب لك مصيبة، ديله ما يعطيش الإشارة الصح!

- طيب منهو؟

- مش عارفة، هنحاول نعرفه من الكوتشينة!

رفعت أم محمود رأسها، ووضعت الفنجان جانبًا:

- بس خلاص.

أم محمود:

ما هي غايتكم مما تكتبون؟

هذا هو السؤال الذي لا مهرب منه، على الأقل أنا غايتي من قراءة الفنجان واضحة: إيجاد دخل إضافي لمواجهة أعباء العيش، وهي مهمة يبدو أني بارعة بها. أما بالنسبة لمن يريد قراءة الفنجان، فغايته البحث عن اليقين، وربما يجده لدي. لكن أنتم ما هي غايتكم من هذه الكتابة؟ وفيما لو ثرثرت لكم عن جبل وصملول، وكتبتم كل ثرثرتي، ما مدى أهمية ما تكتبون؟

رواية! وما أهمية ذلك؟ العالم مليء بحكايات لا يريد أحد أن يستمع لها، وكلٌّ منَّا يريد أن يصنع حكايته الخاصة بنفسه. دعوكم من ذاك الذي يقول إن الصغير يتعلم من الكبير، هذا هراء.

- كل يتعلم من كيسه يا أم محمود. (هكذا قال الراوي، لا ندري أيهما)

- مهو ده اللي بيقوله العجايز.

حسنًا، لو قلت لكم ما لديَّ هل تعداني أن تكتبا روايتي لاحقًا؟ لو وعدتماني بذلك فأنا أعدكما أيضًا بأن أقرأ لكما

الفنجان مجانًا بالمقابل، وما دمتم تهتمون كثيرًا بجبل فسأخبركم عنه وعن ما وراء فنجانه.

هذا الرجل يكذب، أو بمعنى أدق لا يقول الصدق. ثمة امرأة تسكن كيانه، ربما يحبها، وربما يخاف منها، لكنها تسيطر على كيانه وتثير في قلبه الرهبة. بالمناسبة لم يظهر حرف الصاد في الفنجان، ظهر كلب فقط، وخمنت أن صملول هو المعنيّ بذلك، أيقنت بمحبة صملول لجبل حين خاطبني لطلب الموعد، كان يتحدث عن جبل لإقناعي بقبول الموعد على وجه السرعة وكأنه يتحدث عن حبيب. لنعد بالحديث إلى جبل: مشكلة جبل أنه لا يعرف ما يريد، إذ إن كل شخص يأتي إليَّ يكون لديه هدف من القراءة، إما امرأة تبحث عن رجل، أو رجل يطلب حماية من امرأة، أو أيهما يبحث عن مال. حين سألت جبل عن سبب مجيئه للزيارة وهو ما لم تكتبانه في الأعلى، قال لي كلامًا كثيرًا وغير دقيق، قال إنه يريد معرفة حظه في المستقبل. سألت جبل: "هل تريد معرفة حظك في المال أو العمر أو النساء؟" قال: "كلهم". هذا الطلب غير مستحب، من يأتي لقراءة الفنجان يجب عليه أن يكون لديه هدف واضح. لاحقًا حين فتحت (الكوتشينة) أدركت أن أحد أهدافه البحث عن مال ضائعٍ أو مسروق، وسيعلم القراء بذلك لاحقًا. لكن، ولأنه لم يكن صادقًا معي، ظهرت بعض الأمور التي تثير الريبة في حياة هذا الكائن، وأظن أن جزءًا مهمًّا من كتابتكما لهذه الرواية هو البحث عن السر المفقود في حياة هذا الجبل. أظن أن هذا الجبل حين يتمخض لن يلد فأرًا. أكملا البحث، وسنرى.

(32)

قالت: يا ولدي لا تحزن - 2

- هنفتح الكوتشينة يا جبل.

قبل أن تنطق أم محمود بهذه الجملة كانت قد سحبت من تحت الإسفنجة التي بجانب قدميها كمية كبيرة من أوراق الكوتشينة، ومختلفة ظاهر الأوراق (كانت زوجين من الكوتشـينة الكاملة ومجموعهما 104 ورقـة). خـلال نطـق أم محمـود للجملـة والتـي تعلـن فيهـا أنها سـتفتح الكوتشـينة كان رأسـها محنيًّا باتجاه الورق الذي جمعته في يديها بينما عينُهـا مرفوعـة ومُصَوَّبـة إلـى عينـي جبل تحديـدًا. بعد ذلك أخفضت أم محمود عينيها على الورق، وشرعت تُقَلِّب الورق وتخلطه وتنظر بذات اللحظة إلى أصابع جبل والذي شبَّك أصابعه وبدأ في فرقعتها، قاطعته أم محمود لتبديد قلقه:

- بتحب تلعب كوتشينة؟

- قليل.

- أُمَّال بتحب تلعب في إيه؟ في النسوان؟ (ضحك صملول كثيرًا)

سكت جبل ولم يرد على أم محمود، التفت إلى صملول ثم عاد لرؤية أم محمود التي قالت له:

- خُد يا جبل، انوي عليها. (ناولته ورقة الولد)

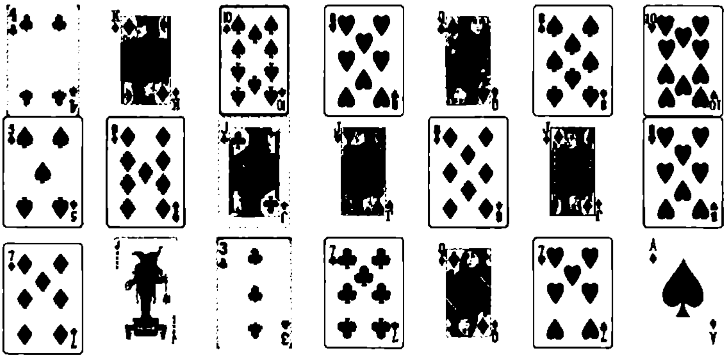
- كيف أنوي عليها؟

- قول: باسم الله مشفي الجريح تكشف لي كل أمر صحيح. وبعد كده اتمنى اللي في بالك.

قَرَّبَ جبل الورقة من فمه وتمتم فيها وأعادها لأم محمود، والتي بدورها طلبت منه أن يدس الورقة في منتصف بقية الورق. شـرعت أم

محمود في خلط الورق مجددًا، وبدأت في فتح الكوتشينة.

بحثت عن الولد (ولد السبيت) الذي نوى عليه جبل، وأخرجت السبع ورقات التي تليه، وصفَّت الأوراق بشكل عرضي. أعادت أم محمود خلط الأوراق من جديد، وبحثت عن ذات الولد الذي نوى عليه، وفرشت الأوراق السبع التالية للولد بشكل عرضي فوق الصف الأول. كررت الكَرَّة وصفَّت صفًّا ثالثًا مرة جديدة حتى خرجت بالشكل التالي:



بدأت أم محمود تنظر إلى الكوتشينة، أمعنت النظر إلى الصف الأول من الورق، كانت أصابعها تتنقَّل بين الأوراق في الصف الأول بخفَّة من ورقة إلى أخرى بسرعة. بعد بضع دقائق (كان فيها جبل صامتًا، شابكًا أصابعه وينظر إلى أصابع أم محمود)، رفعت أم محمود رأسها ونظرت إلى جبل وقالت:

- خُد الأخبار الحلوة.
- عطينا يا أم محمود؟
- بعد سبع أيام، أو سبع أسابيع، أو سبع شهور، أو سبع سنين، جاي لك رزق كتير يا جبل.
- ما شاء الله، الحمد لله.
- بس ما تنساش وقتيها الحلاوة.
- أبشري بالخير يا أم محمود.

بدأت أم محمود تدس أصابعها في الصف الثاني بين صور الأولاد، وأحيانا في الصف الأعلى، على صورة البنت و(الأكة) والشايب، كأنما ترسم روابط متراجحات رياضية. سحبت أم محمود نَفَسًا عميقًا، وضعت يدها اليمنى على أسفل فكها واستمرت سبابة يدها اليسرى برسم المتراجحات في الهواء، ونظرت إلى جبل وقالت:

- الست اللي عندها أربع ولاد، إيه علاقتك بيها؟

- من هي؟

- اِنت عارفها كويس؟

- والله ما أدري من تتكلمين عنه؟

نظرت إلى صملول، وأشارت بذات السبابة التي كانت ترسم بها في الهواء قائلة:

- اطلع برا يا صملول واقفل الباب وراك، خلينا شوية.

- ...

الألم الذي عادة يداهم فخذي جبل من أسفل البطن حتى الركبتين نزل بشدة في تلك اللحظة، أطبق فكيه صامتا، وسرت الرجفة في أطرافه. نظرت أم محمود لجبل بعد خروج صملول، وقالت:

- اسمع يا جبل، أما تيجي تطلب مني أقرأ الفنجان لازم تكون صريح معاي شوية اتفقنا!

- طـــ طـــ... طيب يا أم محمود (بدأت مرحلة صعوبة نطق الكلمات، ولو ناولته أم محمود في تلك اللحظة كأس ماء، لانسكب)

- طيب، الست اللي عندها أربع أولاد، وعارفها انت كويس، انت بتحبها! الكوتشينة بتقول كل حاجة، لو بتحبها لسه، لازم تقول لي!

- يا أم محمود (سكت بعد أن أحس أن الكلمة التي أوشك على نطقها ستتوقف في حلقه، خاف من مغبة افتضاح أمره عند أم محمود)

- يا ابني يا جبل، دي ناوية لك ! (لم تحتمل صمت جبل وأرادت

أن تباغته)

- والله؟ (خرجت الكلمة سريعة على شكل تساؤل مثل سهم أفلت من قوس)

- يبقى انت عارفها كويس. مهو لو انت لسّه بتحبها هتكون ناوية لك، ولو هيّ لسه بتحبك هتكون انت اللي ناويلها بقى!

- ....

أحسَّت أم محمود بارتباك جبل، حاولت القيام من مكانها قائلة:

- أنا هاغيب شوية وراجعة لك، مفيش جديد في الكوتشينة غير الحتة دي. (ناولته قارورة ماء صغيرة قبل أن تقف. كانت تريد لجبل أن يهدأ قليلًا حتى تتكلم معه بأريحية أكثر، لكن رغبتها الأشد كانت في تدخين سيجارة والتفكير في كوتشينة جبل)

خرجت أم محمود من الغرفة وأغلقت الباب على جبل، قالت لصملول الذي كان خارج الباب: "ما تدخلش، خليه لوحده وأنا ثواني وراجعة". بعد مضيٍّ دقائق عادت أم محمود للغرفة وجلست قبالة جبل مجددًا. كان من السهل على جبل تمييز رائحة السجائر المختلطة بحبوب النعناع من فم أم محمود حين نطقت قائلة، قبل أن تجلس مستوية على الإسفنجة:

- قلت إيه يا جبل، انتوا لسه بتحبوا بعض؟ (خمَّنت أن شيئًا من عدم الوضوح ظهر لها في الكوتشينة، المرأة أو ورقة البنت في الصف الثالث والتي كانت فوق أربعة أولاد في الصف الثاني، والمحاطة بثمانيتين وعشرتين كعلامتي تنصيص، كل هذه الأوراق كانت تنبئ بعدم تمام الأمر ووقوع مصيبة بينهما)

- يا أم محمود (كان الألم في الفخذين قد خفَّ، وأنفاسه هدأت، وشاربه مبلول) انسي هذا الموضوع رجاء. فيه موضوع أهم، شوفيه لي لو سمحتي.

نظرت أم محمود طويلًا في عيني جبل والذي بدأ ينظر في الإسفنجة المسندة على الجدار متأملًا تطريز الطاووس على المخدة الإسفنجية، وهاربًا من نظرات أم محمود التي نطقت أخيرًا:

- إيه هو؟

- فيه مبلغ مفقود أو مسروق بالأصح، تقدرين تعرفين من السارق؟

- طيب ليه ما قلتش من البداية؟

- ما أدري يا أم محمود، أنا نويت على هذا الشي، وبعدين هذا أنا قلت. تقدرين؟

- آه. ممكن أعرف اسمه واسم أبوه!

- ممتاز.

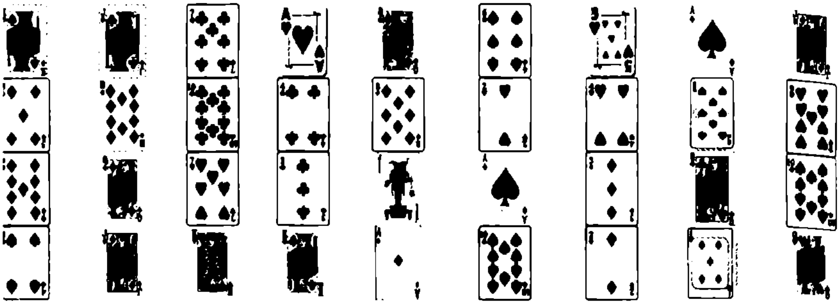
- مش كفاية، كان لازم تقول لي من الأول. هنبدأ من جديد. بس على فكرة ده هيكلفك كتير!

- ما فيه مشكلة.

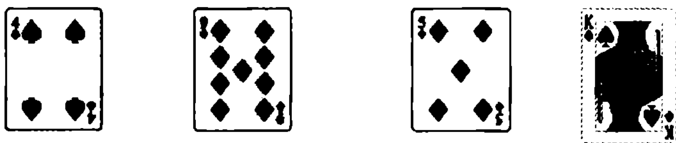
أعادت أم محمود خلط الأوراق من جديد، واختارت رقم 5 السبيت، أخرجت كذلك 5 السبيت الأخرى ووضعتها تحت الإسفنجة. قدَّمت أم محمود ورقة خمسة السبيت التي في يدها لجبل وقالت:

- انوي عليها يا جبل.

أخذ جبل الورقة، قرَّبها من فمه ونوى عليها أن يكشف له اسم السارق، ثم قدَّمها لأم محمود. شرعت أم محمود في خلط الأوراق من جديد، كانت مغمضة العينين هذه المرة، فتحت (الكوتشينة) وبحثت عن الـ (5 سبيت)، حين وجدتها أخرجت التسع أوراق التي تليها وصفَّتها كصفٍّ أفقي. خلطت الأوراق من جديد وأعادت الكَرَّة وسحبت التسع أوراق التي تلي ورقة (5 سبيت) وصفَّت صفًّا أفقيًّا آخر تحت الصف الأول. أعادت الكَرَّة مرتين حتى أكمَلَتْ أربعة صفوف أفقية، هكذا:



سحبت أم محمود ورقة وقلمًا من تحت الإسفنجة، وأخرجت من داخل ثوبها جهة الصدر ورقة مهترئة وشرعت في تكوين جدول وكتابة الأحـرف. كانـت تنتقـي الورقـة الأخيـرة في نهايـة كل صف أفقي، حتى خرجت بالشكل التالي:



م هـ ط د

ض ص ت ف

حاولـت تكويـن اسـم معـروف من هذه الأحـرف، فكَّرت قليلًا ثم كتبت (مصطفى)، رفعت رأسها لجبل مبتسمة:

- اسمه الأول مصطفى.
- كيف؟ من مصطفى؟ انتي متأكدة؟
- الكوتشينة بتقول كده.
- اممم. طيب، تقدرين تعرفين اسم أبوه زي ما قلتي لي؟
- ممكن، واسم جده كمان.

شرعت أم محمود في إعادة الكَرَّة من جديد كما فعلت في المرة الأولى، وخرجت بصفوف أربعة مختلفة أخرى، وحاولت تكوين اسـم معروف جديد مرة أخرى مستعينة بذات الورقة المهترئة. قطع تركيزها

طرق صملول للباب، وأمرت جبل أن يقوم من مكانه ويقول له أن ينتظر. بعد مضيٍّ لحظات التركيز والكتابة في الورقة نطقت اسم الأب (شاكر).

- اسمه الكامل (مصطفى شاكر).

- منهو هذا؟

- طب أعمل لك إيه؟ هو ده اسمه كده. قوم دوَّر عليه وخُد فلوسك اللي سرقها.

- طيب تقدرين تجيبين اسم جده؟

- أهو احنا بنهزر كده، انت حتتقدم لبنتهم يا ابني؟ (رفعت صوتها قليلًا)

- طيب طيب خلاص.

قام جبل من مكانه، ومد يده إلى محفظته وقدم مائة ريال.

- إيه يا ابني؟ كل ده ومية ريال؟

- أجل كم؟

- يا ابني ده شغل كتير هات خمسمية.

- طيب سوي لنا خصم.

- يا ابني اختشي على دمك.

مد جبل يده بالخمسمائة ريال، شكر أم محمود وخرج. قبل أن يصل السيارة كان قد كتب اسم (مصطفى شاكر) في هاتفه الجوال.

جبل:

لم يعد أحد يبني في وسط منزله (مَنوَر)، بقي القليل منه في بعض العمائر والمباني المتعددة الشقق، هذا لمن أراد أن يعرف المَنوَر. أمَّا في الفيلات فمن النادر أن تجد منورًا يتوسط البناء، ما عدا منزل المرحوم ابن طرَّاق، والذي كان مختلفًا بكل المقاييس. السبب في ذلك لتوضيح الأمر للجميع كان كثرة غرف النوم في الدور العلوي، وكذلك دورات المياه الكثيرة والتي كانت في وسط

المنزل. ومن هنا أتت الحاجة لبناء منور بطول ثلاثة متر وعرض مترين في وسط البيت تمامًا. الغريب في هذا المنور هو في كونه يطـل فقـط مـن السـطح مرورًا بالـدور العلوي وينتهي فوق إحدى دورات مياه الدور الأرضي. وإحدى ميزات هذا المنور كونه مزودًا بسلم للصيانة والتنظيف من السطح.

كان السبَّاك في كثير من المرات ينزل من هذا السلم لتنظيف أكواع المواسـير الرئيسـية وتسـليكها، وبالإضافة إلى هذا الغرض كان المنور يضيء غرفتي الخاصة ودورة المياه التي تخص غرفتي ويطـل عليـه المكيـف (الونـدو) ويَقطُـرُ ماءه في فصل الصيف في ذلـك المنـور. الغرفـة الثانيـة والتـي يضيئهـا المنـور ويضيء دورة مياههـا ويطـل منهـا مكيـف الوندو كانت غرفة المرحوم عبيد ابن طرَّاق، وظلَّت هذه الغرفة والتي ينام فيها بعد أن يضاجع إحدى نسائه حتى جاءت فردوس وأنجبت الطفل الأول، وكنت آنذاك قد تخرجت أخيرًا من الثانوية العامة. فيما بعد بنى والدي غرفة كبرى فـي سـطح المنـزل، وزودهـا بنظام تكييـف وتهوية رائع ومختلف وانتقل لهذه الغرفة.

حسنًا، دعوني أقول لكم: لو أن نافذة حمامي والمطلَّة على المنـور كانـت متقابلـة مـع نافذة حمام فردوس لما انفضح أمري. كانـت النافذتـان متقاطرتـان، أي أن نافـذة حمامـي كانت في أول المنور، ونافذة حمام فردوس في آخر المنور في الجهة المقابلة. حيـن أفتـح نافـذة حمامـي، وتكون نافذة حمـام فردوس مفتوحة، فإن زاوية الرؤية تكون صعبة جدًّا.

فـي إحـدى الليالـي، والتـي كان والـدي رحمه الله موجودًا، دخلت للحمام لقضاء حاجتي، وسمعت صوت غناء ضعيف يأتي مـن النافـذة، غلبنـي الفضـول وقمـت من مكانـي وفتحت النافذة.

مددت رأسي لرؤية النافذة، ورأيت كتفين عاريين ومرفقين مرفوعين فوق الرأس، كانت زاوية الرؤية صعبة كما قلت لكم، وخمَّنت أنها فردوس، وأنها كانت تدلك فروة رأسها، وأن والدي قد ضاجعها وصعدَ لغرفته العلوية في السطح. كنت أستمع بوضوح للأغنية التي كانت ترددها وهي تحت (الدُّش)، كانت أغنية رباب (مطربة كل النساء آنذاك)، وأتذكر كذلك كلمات الأغنية التي حفظتها بعد تلك الليلة:

(لنا بالعادة نتلاقى كل خميس
و حبيبي وسيدي ما جانا هالخميس
قلت أسأل وأتحرى وينه وين
قالوا محبوبك يا فلانة عريس)

كما قلت لكم كانت زاوية الرؤية صعبة جدًّا، لا تسمح سوى بمشاهدة قطع صغيرة بيضاء تلمع تحت الماء مثل ندف الثلج، والحقيقة أني بِتُّ تلك الليلة بخيال لم ينقطع ولحاف رطب. لو أنني اقتنعت بهذه الفسحة البسيطة والتي تسمح بها زاوية الرؤية وتركت خيالي بعد ذلك يمارس كلَّما استطاع ولم أرغب في المزيد لكان الأمر قد مضى بردًا وسلامًا. كان من الممكن أن لا ينكشف أمري لفردوس حتى وهي تسمع صوت فتح النافذة، لكني أردت المزيد في واقع الأمر، وتحيَّنت فُرَص ذهاب والدي ومبيته في المزرعة، وبدأت أنزل من سلم (المنور) حافيًا، وأجلس قبالة النافذة مثل شبح، أراقب فردوس وهي تحت (الدُّش)، أسهر مع ندف الثلج، وأحس بالحرارة رغم ذلك تصعد من داخلي وتحرقني.

لكن سري انكشف. ليتني اكتفيت بزاوية الرؤية الضيقة، ليتني!

الفَصْلُ الخامِسُ

(33)

الحافَّة

كانت خشية جبل كبيرة من انكشاف أمره، إذ دفن سرَّه في صدره فسحةً كبيرة من الزمن، حتى أتت أم محمود واطَّلعت على الميت الذي دُفِنَ في صدره. من المفجع أن ينكشف ما في صدرك للآخرين، إذ ما في الصدر لا ينكشف حتى لأعتى أجهزة المخابرات، لا ينكشف سوى عند حي قيوم، وتلك الرجفة التي دكَّت جسده عند أم محمود كانت ربما بسبب خوفه من الفضيحة، أو ربما لأنها أدمَت جرحًا قديمًا.

كان الأمـر صادمًـا حـدَّ الذهـول لجبـل، لكنه غَفَرَ لأم محمود حين طلبـت مـن صملـول أن يغـادر الغرفة، لو انكشـف أمره لصملول لكانت فضيحته لا تُحتمَل. هذه الـ (لـو) التي قلبت حياة جبل وعاثت فسـادًا في سريرته، لو أنه اكتفى بزاوية الرؤية الضيقة ولم يقرر النزول من سلم المنور، ولو أنه لم ينزل إلى المنور، ولو أنه صَمَدَ في لحظة المقايضة الأولى، ولو أنه لم يسمح لأحد أن يبتزَّه، ولو أنه من الأصل لم يجمح خياله ويلبي شيطانه ذلك النداء الربابي في تلك الليلة وهو جالس في حمامه. كل تلك الأحتمالات مرت في ذهن جبل مثل شـريط سـينمائي حيـن قالـت لـه أم محمـود: "السـت اللي عندهـا أربع ولاد، إيه علاقتك بيها؟"، كل تلك الـ(لو)ـات عبثت في صدر جبل كثيرًا، لم تشفع لها سوى (لـو) واحدة فقط: لو أن فردوس لم تكتم السر لهلك جبل. الهلاك بالنار التي سـيقذف ابن طرَّاق ابنه جبل في جوفها لو لم تكتم فردوس السر.

أنتم تعرفون ابن طرَّاق جيدًا الآن، تخيَّلوا مثلًا لو أن ابن طرَّاق عَلِمَ عن مراقبة جبل لفردوس من نافذة الحمام، أو نزوله من سلم المنور في

بعض الليالي التي لا يكون موجودًا فيها بغرض التلصص على فردوس وهي تستحم. ماذا برأيكم تظنونه يفعل؟ نحن نطرح السؤال عليكم الآن لتدركوا معنى الهلاك الذي سَلِمَ منه جبل.

نعود للقصة، كان جبل آنذاك قد اعتاد التلصص من النافذة، وشرعت فكرة النزول إلى المنور تطرق رأسه في إحدى الليالي، وكان أبوه تلك الليلة قد قرَّر المبيت في المزرعة. نَزَلَ جبل ثلاث ليالٍ، وكان يظن فيها أن فردوس لن تنتبه لهذا الأمر.

في الليلة الأولى كانت ذات الأغنية تتردد في المنور من نافذة حمام فردوس إلى نافذة حمام جبل، وكان جبل قد فَكَّرَ في النزول إلى المنور في الليلة التي سبقتها. تأكد جبل أن أباه لم يأتِ ذلك المساء، وقرَّر النزول بمجرد سماع النداء الشيطاني الآتي من صومعة المواسير تلك. كان جبل حافي القدمين رغم أنه تأكد أن كل مَن في المنزل قد ذهب إلى فراشه، وكان يلبس سروالًا طويلًا وفانلة. نَزَلَ من سلم المنور المجاور لنافذته وخطى على أطراف أصابعه، لم يسمعه أحد في المنزل، وَقَفَ في الزاوية المقابلة لنافذة فردوس وبدأ ينظر بدهشة أكبر. هذه المرَّة كانت زاوية الرؤية أوضح كثيرًا مقارنة بنافذة حمَّامه، إذ ظهرت يدا فردوس وذراعاها كاملتين، وكذلك الكتفان والرأس والشعر المدعوك بالشامبو، ونصف النهدين. تفنَّنت فردوس في دعك رأسها تلك الليلة، وكان جبل ينظر لها من الجانب الأيسر، رافعةً يديها لشعرها، ورأسها محنيٌّ قليلًا للخلف. شاهَدَ جبل سقوط الماء المنساب بخفة من الوجه ليتجمع أسفلَ الذقن مثل شلال يهبط فوق نهر ما بين النهدين ويتسرب بعضه تحت الإبطين، لكنه لم يشاهد أين يكون مُستَقَر ذلك النهر. تابع جبل فردوس حتى خرجت من حمامها مرتديةً الروب وأقفلت النور قبل خروجها وتركت النافذة مفتوحة.

في مساء الليلة التالية كان جبل قد جلب معه (بلكة)، نزل من

السلم قابضًا عليها بيد واحدة بأصابعه الطويلة، أربعة أصابع داخل تجويف البلكة، والإبهام قابض على البلكة من الخارج. حين وصل جبل لأرض المنور، أحنى رأسه وقبض على البلكة بيديه، ومشى على أطراف أصابعه المرتجفة، وضع البلكة بشكل أفقي في الزاوية المقابلة لنافذة حمام فردوس ووقف عليها. أحس جبل أن لحظة فرك الرأس ونزول الشلال إلى النهر قد طالت مدتها هذه المرة. كان جبل مستمتعًا بمشاهدة كامل استدارة النهدين، ومشاهدة مصبِّ النهر بينهما. توقَّفت عينا جبل عند منظر أنتصاب حلمتي فردوس تحت الماء، ذهل لمنظر الحلمتين المنتصبتين، نظر قليلاً ثم نقل بصره نحو قضيبه الذي بدا منتصباً خلف السروال، سرت نشوة جديدة في داخله وكأنما أكتشف سراً جديداً من أسرار الجنس الآخر. بعد أن انتهت اللحظة الخالدة، خرجت فردوس من مكان النداء وركن أكتشافات جبل الجديدة، أطفأت النور وغلَّقَت الباب، وتركت النافذة مفتوحة. سحب جبل البلكة معه إلى جانب السلم حتى لا يثير اهتمام أحد فيما لو رآها من السطح.

في مساء الليلة الثالثة نزل جبل ومعه بلكة أخرى. أعاد جبل البلكة الأولى إلى مكانها السابق، ووضعها بشكل عمودي، ووضع بجانبها البلكة الثانية، ووقف فوقهما واستند بالجدار، وشرع يثقب كل الزوايا من مكانه هذا. شاهد جبل من مكانه ذلك كامل مسار شلال الماء النازل قبل أن يصبح نهرًا، وحتى سلك مسار النهر، واستقر في السهول التي تليها، وتوقف مصب النهر في الغابات التي لم يكن بمقدوره رؤيتها حتى بوضعية البلكات تلك. انتهت لحظة النهر الخالدة، تلك التي رآها جبل منذ البدء حتى المنتهى، وبدأت لحظة أخرى من تجلِّي الاشتهاء. في تلك الليلة لم تلبس فردوس روب حمامها مباشرة، وقفت بجانب البانيو وتناولت منشفة وشرعت تجفف ببطء شديد كامل جسدها. بدأت فردوس برأسها وهي تدير ظهرها للنافذة، ومن ثَم فردت المنشفة أفقيًا ورفعتها

على ظهرها، وشرعت تحرِّكها برفق من اليمين إلى اليسار لتجفيف البلل، فردتها مجددًا والتفتت باتجاه النافذة ورفعت قدمها فوق البانيو ودلَّكَت فخذها الأيمن بعناية، وفعلت مثل ذلك بفخذها الأيسر فيما جبل يزداد دهشةً، جحظت عيناه حين رأى ما بين الفخذين، أصابته دوخة خفيفة قبل أن تنتهي فردوس من تدليك الفخذين مع رؤية شعر عانتها. سحبت فردوس قدمها اليسرى من فوق حافة البانيو ووقفت باتجاه الجدار المحاذي لها، علقت المنشفة على المشجب وتناولت الروب، لفَّت الروب على جسدها وربطته من الوسط، ثنت جسدها وأصبحت في وضع الركوع وحرَّكت شعرها للأمام، سحبت المنشفة بعد ذلك ولفَّت شعرها.

كانت أنفاس جبل تصعد وتهبط بعمق حين التفتت فردوس إلى النافذة، وقضيب جبل بدا منتصبًا في حلكة ظلام المنور لا يبين سوى سرواله المشدود للأمام، حدَّقت فردوس لبرهة في النافذة، كان جبل متيقنًا أنه رآها وهي تحدق به، وتبادلا نظرة بدت لجبل طويلة. كان جبل قد شعر لحظتها بالألم المزمن يضربه من أسفل بطنه بِحِدَّة ساحقة وينزل إلى ركبتيه سريعًا مثل طعنات خنجر، شعر أنه يكاد يسقط من فوق (البلكتين) وأن دويَّ صرخة من مكان النداء الشيطاني سوف يدوي كجرس إنذار، وسيسمعه كل من في البيت، ويفتضح أمره، وقبل أن يسقط من فوق البلكتين جذبت فردوس النافذة وأغلقتها.

سقط جبل من فوق (البلكتين) إلى الأرض على ركبتيه، وسقطت إحدى البلكتين من طولها واستوت بالعرض، كان قد بلغ الألم شدته حتى كاد أن يصرخ متأسفًا من فعلته ومستحلفًا فردوس أن لا تقول شيئًا من ذلك لأبيه، لكنها أنقذته وأغلقت النافذة فقط. شرع جبل يبكي بكاءً صامتًا، ينتفض في ذلك المنور مثل مكلوم. كان متأكدًا حدَّ اليقين أن فردوس رأته واقفًا فوق البلكتين في تلك اللحظة، وبعد أن هدأ قليلًا،

نقل البلكتين إلى جانب السلم المجاور لغرفته، وصعد بعد أن هدأ الألم في فخذيه وركبتيه.

كانت ركبتاه ترتجفان لحظة صعود السلم، وآثار دم قليل فوق السروال الذي تقطّعَ منه القليل فوق الركبة اليمنى. عاد جبل لغرفته، ولم تغفُ عيناه تلك الليلة حتى ارتفع أذان الفجر، توضأ وخرج للصلاة، صلى ذلك الفجر صلاة مودِّع، وظل يقرأ القرآن بخشوعِ مريضٍ مشرفٍ على الموت حتى أشرقت الشمس.

بعد يومين، عاد ابن طرَّاق من المزرعة، وظل هو في اليومين اللذين سبقا لقاء النافذة لا يجلس في صالة البيت. كان جبل يخرج بعد تناول إفطاره مع والدته حتى مغرب ذلك اليوم، ويتعذر بجولات عمل هنا وهناك لتفقد مشاريع أبيه العقارية، رغم أن أباه لم يكلِّفه بأي عمل، إذ إنه رسب للمرة الثانية في الثانوية. بعد عودة أبيه اختفى ذلك اليوم تمامًا، تعذَّر لاحقًا لوالدته بأن سيارته قد تعطلت وأنه كان مجبرًا على جلب كهربائي سيارات لإصلاحها، كان خائفًا من لقاء أبيه رغم علمه في قرارة نفسه أن ابن طرَّاق لن يسكت على ما فعل وسيعلِّقه هو وفردوس التي لا ذنب لها في ما فعلَ بمشنقة واحدة. توالت الأيام بعد حضور أبيه وبدا عليه الهدوء فيما بعد، إذ لا شكَّ أن فردوس لم تخبر أباه عن ما حدث، وبدأ خوفه يقل.

بعد خمسة أيام أخرى مضى ابن طرَّاق مجددًا للمزرعة، تأكد في يوم رحيله أن فردوس لم تخبره بشيء، وفرح كثيرًا. قضى معظم النهار بصحبة أصدقائه، مارسوا التجول بعد العصر حتى العشاء لملاحقة النساء في الأسواق، وبعد صلاة العشاء تجمعوا حول مائدة مندي، ولاحقًا سهروا في مقهى شعبي يلعبون (البلوت) ويتداولون النكات البذيئة. حين عاد عند منتصف الليل (مهلة أبيه الأخيرة دائمًا)، فوجئ بوجود فردوس جالسة في منتصف صالة الجلوس، كان صوت التلفزيون منخفضًا، ونصف الأضواء

مُطفَأة. همَّ جبل بصعود الدرج مباشرة حتى أتاه صوت فردوس مناديًا:

- جبل تعال شوي.

كان صوتها حاسمًا مثل مطرقة قاضٍ. وقف جبل في الدرجة الثانية ولم يتحرك، بدأ الألم يتحرَّك من أعلى الفخذين نزولًا إلى الركبتين، استجمع قواه ولم ينبس ببنت شفة ومشى باتجاه فردوس، وحين صار على مقربة ستِّ أقدام تقريبًا سمعها تقول مجددًا:

- تعال أبيك شوي.

زادت حِدَّةُ الألم، وسال العرق غزيرًا على جبهته. استجمع قواه ورد:

- سمي.

- بَكَلِّف عليك شوي (كانت تخاطبه وهي تنظر باتجاه التلفزيون بينما هو ظل واقفًا) أبيك بكرة تروح لشارع السوق، فيه محل دايم نروح له اسمه (لبس الهوانم)، بيعطيك البياع كيستين ملابس حاجزتهم أختي عنده لحد ما أروح أنا. (التفتت تجاهه وناظرته في تلك اللحظة).

- ....

- الله يعافيك ادفع له وجيبهم معاك.

- طيب.

خرجت الكلمة من جبل بعد أمر فردوس بسرعة، إذ أراد أن يُنهي نظرتها تجاهه، نظرتها التي ذكَّرته بليلة المنور الأخيرة. قال كلمته وأراد أن يمضي صاعدًا الغرفة، كانت ساقاه ترتجفان بالفعل، كما عانى صعوبة في صعود الدرج.

أكمل جبل صعود الدرج بصعوبة، وصل لغرفته ودخل فراشه. بعد قليل دخل الحمام ونظر للنافذة صوب نافذة حمام فردوس، كانت مغلقة والإضاءة خلفها مُطفَأة. انتظر جبل نصف ساعة عند النافذة مثل سجين يرقب ما في الخارج حتى فقد الأمل، عاد لفراشه وترك باب

الحمام ونافذته مفتوحين؛ لعلَّه يسمع ذلك النداء.

فكَّـر جبـل فـي كلام فـردوس، قالت لـه: "ادفع له وجيبهم معاك". ظـنَّ أنهـا ربمـا تغفـر لـه ذلـك لـو فعل ما تريد، ولـم يفكِّر أن هذا الطلب ربمـا تتبعـه طلبـات كثيـرة فيمـا بعد، ولا كيف سـيتدبر أمر الدفع لاحقًا. كان عليه فقط أن يتدبر أمر الدفع. تَدَثَّرَ جبل في فراشه، كان ينتفض مثل عصفور في عشِّه، فوق فراشه الذي تبلل كثيرًا ودُنِّسَ بمائه بعد كل نداء شيطاني، وغرفته التي انتقل منها بعد سنة واحدة مع زوجته لغرفة أخرى في الضفة الأخرى للمنزل.

انتقلت غرفة جبل وسريره بعد ذلك إلى طرقي، وتَبَدَّل فراش جبل بفراش جديد لا يحمل ذكريات قديمة.

جبل:

هذا مخجل والله.

أنا لست شخصية روائية، أو (كاركتر) مختلق والسلام حتى تكتبوني وتحفروا في أعماقي وتستبيحوا أسراري بشكل فجٍ كهذا! أنا من لحم ودم يا سادة ! غدًا سأصبح إنسانًا مهمًّا، بل إنِّي إنسان مهم جدًّا منذ الأمس، ومن سَقطِ الكلام أن يُكتَبَ عن الشيخ جبل شيء مخجل كهذا، وفحش كهذا الفحش.

مـن أنتـم حتـى تسـتبيحوا كل هـذا الكلام غيـر المُباح؟ هل تدينوننـي بهـذا الحديـث؟ هـل أبـدو مخطئًـا في نظركـم؟ ماذا لو اطَّلعتـم علـى أفئـدة كل البشـر؟ وعلـى كل مـا سُـجِنَ خلف هذا القفـص؟ وكل مـا حـاك فـي تلـك النفـوس؟ وكل مـا اسـتطابته خيالاتهـم؟ وكل مـا أيقـظ نزواتهـم؟ وكل مـا جمح من أفكارهم الشيطانية؟ وكل ما جال في سريرتهم وأيقظ شياطينهم؟

هل بمقدوركم إدانة الجميع؟

يـا إلهـي عفـوك، مـا أنـا إلا إنسـان مـن لحـم ودم، وأنتـم

تسلخونني بذلك سلخ الشاة قبل الذبح. كنت مخطئًا حين بُحت لكــم. نعـم، كنــت مخطئًـا حدَّ السـذاجة. أقنعت نفســي أني ذات يوم سأجد المال المفقود، وستضيئون لي بعض الدروب المعتمة، لكنكم خذلتموني، وسـالت محابركم على أكل لحمي. إن كنتم تعتقدون أن ما تفعلونه صحيح فأنتم مخطئون.

(34)

كانت الرحلة حزينة للأسـف!

تحولت غرفة جبل فيما بعد إلى غرفة طرقي، أمضى فيها طرقي ما يقارب العقدين من الزمان إلا قليلًا حتى أضحت تلك الغرفة المطلة علـى المنـور مقفلـة. خـرج جبل ليفسـح الغرفة لطرقي، وخرج طرقي تـاركًا كل ذكرياتهمـا تمـوت فـي المـكان. بعد خروج طرقي أصبحت لـه غرفتـان: غرفـة أولـى فـي منزلـه الجديد مع والدتـه، وغرفة أخرى جديدة في الشقة.

شـرع طرقـي فـي ترتيـب شـقته الجديـدة التـي اسـتأجرها في أحد الأبـراج متوسـطة الارتفـاع فـي أطـراف المدينة. كانت الشـقة مكونة من غرفتـي نـوم ودورتـي ميـاه، وصالة كبيرة في طرفها المطبخ مصممة على الطراز الأمريكي المفتوح. حين استأجر طرقي الشقة قام بإجراء تعديلات تتناسـب مع احتياجاته، قام باقتطاع جزء كبير من الصالة وأغلقه بألواح (الجبسمبورد). وضع اللبَّاد على الأرضيات ثم وضع الموكيت الفاخر، فرش فوقه سجادة صغيرة، وطاقم من الكنبات الأمريكية الفاخرة سكرية اللون، والمطعَّمة بالخشب من الأسفل. في الزوايا وضع طرقي طاولات مسـتديرة خشـبية، وطاولـة بيضاويـة ذات سـطح زجاجـي فـي منتصـف الصالة. كان طرقي قد ألغى الإضاءة الموجودة في السقف، ووزَّع أربع (أبجورات) والعديد من الشموع الكبيرة، كما علَّق شاشة (بلازما) مقاس 40 بوصة على الجدار المقابل للكنب، وأضاف نظام سـماعات مُوزَّعة فـي الزويـا الأربـع. تحـت شاشـة البلازمـا وضع علـى رف صغير جهاز الاستقبال، وبجانبه وضع جهاز (DVD) وأوصله بذات النظام الصوتي الخاص بالتلفزيون.

كان السقف في شقة طرقي أشبه بلوحة فنية جميلة تُظهر سماء مضيئه بالنجوم بمجرد إغلاق الباب، أما الجدران فعُتِّقَت باللون الكحلي الممزوج بالأزرق والأسود على خلفية سُكَّرية اللون، واختلف لون التعتيق في غرفة نومه إلى التعتيق الأحمر الممزوج بالوردي على خلفية لون (بيج) مشبَّع بالأحمر. اشترى طرقي غرفة نوم على الطراز الأمريكي ذي الخشب المهوجني الفاخر، واستبدل أرضيات الغرفة بخشب (الباركيه) بدلًا من السيراميك. في الغرفة الأخرى وضع غرفة نوم عادية للضيوف العابرين، وجَعَلَ من الخزانة الخشبية في الغرفة مخزنًا لصناديق الويسكي وعُلَب السيجار الكوبي الفاخر.

كانت المرة الأولى التي دخَّنَ فيها طرقي سيجارًا كوبيًّا أثناء دراسته التي لم تكتمل في جامعة برونل في لندن، مع والد صديقته (أبو غيداء). كان أبو غيداء قد استوطن لندن بعد سنة من هروبه عام 1979 ميلادي من بغداد مباشرة بعد مذبحة الرفاق الشهيرة. هربَ أبو غيداء مع زوجته وابنته ذات السنتين غيداء من بغداد، ومنذ ذلك الحين وحتى سنة 1996 وأبو غيداء خارج القطر. مكث سنة واحدة في براغ، حتى تدبر أمره وانتقل إلى لندن مقررًا إكمال دراسته بعد حصوله على بعثة دراسية مجهولة المصدر، درس الماجستير وحضر رسالته في الأدب الإنكليزي عن حياة تشارلز ديكنز، وأكمل الدكتوراه بعد ذلك وعُيِّنَ أستاذًا جامعيًّا في جامعة برونل. جلس أبو غيداء مع طرقي في المرة الأولى في شتاء 1996، شاركه طعام الغداء بصحبة زوجته وابنته، وبعد ذلك دعاه لتناول سيجار كوبي مع الشاي الإنجليزي، ومنذ ذلك الحين وطرقي مغرم بالسجائر الكوبية، يوصي عليها من كل مطار ومكان.

عَلَّقَ طرقي في الصالة الرئيسية صورة والده ابن طرَّاق، ووضع صورة حبيبته غيداء في غرفة نومه المؤقتة في الشقة، والتي لا يبيت فيها سوى ليلة أو ليلتين من الأسبوع. كانت هذه هي المرة الأولى التي

يُخرِج فيها صورة غيداء من الدفتر الأزرق، والذي حَمَلَ في داخله صورة غيداء لسنوات طوال مع أبيات الشعر التي يكتبها. وضع طرقي صورة غيداء في إطار خشبي مستطيل بني اللون، وتركها على (الكومودينو) بجوار سريره. كانت رغبة قديمة لطالما حلم طرقي بها ليراها في كل وقت، عوضًا عن استراقه النظر لها كلما فتح الدفتر الأزرق. قَبَّلَ طرقي صورة غيداء واحتضنها، أغمض عينيه ليسترجع أجمل أيام حياته حين تعرَّف عليها أثناء دراسته في لندن. مكث طرقي في لندن سنة واحدة فقط، وعاد بعدها بأمر عسكري لقواعده في منزل ابن طرَّاق. عاد بعادات مختلفة وشعر طويل الذيل، وسوالف طويلة، ولسان مهذب.

لم يُكمِل طرقي دراسته في لندن رغم إعجاب ابن طرَّاق بذكاء طرقي، وكان يدرك مواهبه المتعددة وذكاءه وتفوُّقَه على جبل، خصوصًا لأنه لم يسبق له الرسوب طيلة مراحله الدراسية. كان ابن طرَّاق يعقِد المقارنات بين طرقي وجبل، ويتذكر أنه لم يسبق لطرقي أن احتاج لمدرس خصوصي أثناء دراسته، وهذا ما جعل ابن طرَّاق يتوسَّم فيه أنه سيكون مطوِّر أعماله في المستقبل. آنذاك كان من الشائع أن يرسل معظم التجار أبناءَهم كمُبتعثين للدراسة في الخارج، وفكَّر ابن طرَّاق أن طرقي ليس أقل منهم، وأنه هو ليس أقل شأنًا من بقية التجار. هكذا جاءَت فكرة إرسال طرقي للدراسة في الخارج، خصوصًا أن ابن عابد حامد (صديق الشيخ ابن طرَّاق وأحد كبار وكلاء السيارات المستوردة) يدرس في جامعة برونل في لندن، وسيكون قريبًا من طرقي ومساعدًا له في استقراره هناك، كما سيكون عينًا لابن طرَّاق على طرقي.

قبل مغادرة طرقي في مساء صيفي من عام 1996، طلبه ابن طرَّاق بعد صلاة العصر وجلسا على حدة، قال له كلامًا مختصرًا، وأوصاه بتقوى الله، ووعده بأن يكون ذا شأن في المستقبل لتنظيم أعمال أبيه المتناثرة، خصوصًا وأنه سيكون متمكنًا من التحدُّث باللغة الإنجليزية.

اقتصد ابن طرّاق في حديثه الأخير مع طرقي وختم كلامه بوصايا ثلاث قائلًا:

- أولا: تروح تدور الشهادة، وتجيب الشهادة. ثانيا: تروح واحد، وترجع واحد. ثالثا: تروح طرقي، وترجع طرقي.

صمت ابن طرّاق قليلًا بعد وصاياه الثلاث ونظر في عين طرقي لبضع ثوان ثم سأله:

- سمعت؟
- سمعت يبه، وإن شاء الله أبيّض وجهك.

مضى طرقي في سنوات دراسته التي لم تكتمل، وعاد بعد سنة قسرًا لا يحمل من دراسته سوى لكنة إنجليزية فخمة، لو أنّه لم يقابل غيداء لربما أصبح الآن خبيرًا اقتصاديًّا يحمل شهادة معتبرة، وصار يخرج في القنوات الفضائية لتحليل مؤشرات الأسهم، لكنه لن يتعرف أكثر على الفنان الذي داخله، ولن يكتب شعرًا شعبيًّا تنشره المجلات التي تغصُّ بها رفوف البِقالات، ولن يعرف أسرار آلة العود التي تعرف عليها قبل سنتين من رحيله إلى لندن ومارسها خِفيةً، حتى عاد وانكشفت أشياء كثيرة لأبيه، وتقلَّصت خياراته الكثيرة.

كانت غيداء هي من غيَّرت حياة طرقي حين رآها في المرة الأولى، رأى المسحة العربية في قَسَماتِ وجهها متوجًا فوق عنق طويل وقَصة شعر فرنسية قصيرة (بوي كت)، بَدَت مختلفة عن معظم الطالبات اللائي يسلكن ذات الطريق من محطة الأوكسبريدج إلى الكلية عبر الحافلة. في الأيام الأولى لم تكن غيداء تُعِره اهتمامًا كبيرًا حتى باستراق النظر له كما يفعل هو، كانت تضحك كثيرًا بصحبة صديقتيها الإنجليزية والهندية في طريقهنَّ اليومي. حاول طرقي ذات مرة أن يفتح حوارًا بسيطًا، استغلَّ أحد الأيام النادرة التي تشرق فيها الشمس ليتحدث عن الموضوع المحبب لكل سكان لندن في صبيحة مثل تلك، بادرها بلكنة إنجليزية مرتجفة

ذلك اليوم قائلًا:

- تودي إز سني.
- ياه. (ردت ببرود والتفت إلى الجانب الآخر)
- لندن أحلى لما الشمس تطلع. (بادرها مخاطبًا بالعربية)

لم ترد على الكلمات التي نطقها، ولحسن الحظ أن معظم من كان في الباص كان في مزاج جيد ومرح احتفاءً بالشمس، ولم يلحظوا ارتباكه الذي سرق منه ابتسامته الخجولة. لم يتغلَّب اليأس على طرقي لهذا التجاهل الذي حصل له في الباص، كتم السر ومضى دون أن يخبر أيًّا من أصدقائه عن هذه الفتاة العربية التي سوف تسرق حلمه، وعطَّلَت سنوات كثيرة من حياته فيما بعد. حاول طرقي في الأيام اللاحقة أن يفتح أكثر من حوار في الحافلة، شرع يسألها أسئلة مثل: ما هو تخصصك؟ كيف تجدين الجامعة؟ هل سبق أن أدَّيت اختبار جامعة برونل في اللغة؟ كان يسأل مرة بالعربية وأخرى بالإنجليزية الركيكة التي يملكها، ويحفِّز ابتسامتها لسوء نطقه لبعض الكلمات. بعد مضيٍّ أسبوعين أخذ طرقي يتبسَّط أكثر في طرحه للأسئلة والملاحظات، مثل: كيف تشعرين هذا الصباح؟ يبدو يومًا ثقيلًا هذا اليوم، وبدأت غيداء تتبسَّط في الرد عليه، وتسأله أيضًا مثل أي زميل آخر. تعرَّف طرقي على صديقتها الهندية وتبسَّطَ أكثر معهم.

شاءت الصدف أن يلتقيا مرة أخرى في محل بائع شاورما تركي قرب محطة الأوكسبريدج، والحقيقة أنها كانت صدفة مرتبة، إذ إن طرقي رآها ذات يوم تخرج من المحل بصحبة صديقتها، وكان هو قد نزل في ذات اللحظة قادمًا من الحرم الجامعي. بعد تلك اللحظة أصبح يداوم يوميًّا على شرب كأس الشاي عند بائع الشاورما التركي بدلًا من كوب القهوة السوداء في كافتيريا الحرم الجامعي. خمَّن أنه سيلتقي غيداء ذات يوم، وربما يدعوها لتناول الشاي معه، كان يحس بتوقٍ للحديث

أكثر معها بدلًا من الأحاديث البسيطة اليومية في الحافلة. بعد ثمانية أيام من انتظار طرقي اليومي في المحل دخلت غيداء بصحبة صديقتها للمحل، كانت ترتدي كنزة خريفية رمادية وبنطالًا أسود من قماش اللينين الفضفاض وحذاءً رياضيًّا. كان طرقي قد تحسَّن هندامه بعد مرور شهرين مقيمًا في لندن، إلا أنه في ذلك اليوم بدا في في كامل أناقته. لبس جينز كحليَّ اللون، وجاكيت من الجينز بذات اللون الكحلي، وبلوفر كريميَّ اللون طويل الرقبة تحت الجاكيت وحذاءً رياضيًّا خفيفًا ذا لون أبيض. يلبس كما تفرضه الموضة آنذاك في لندن. كان طرقي يجلس وحيدًا في الطاولة الأخيرة بالمحل بالقرب من مطعم الشاورما التركي.

شرع ينظر لغيداء قبل دخولها المحل مُطلِقًا ابتسامة عريضة واثقة، تأملها عن كثب وهي تدلف إلى المحل متقدمة على صديقتها الهندية السمراء، تأمل عنقها الطويل وشعرها (البوي كت)، كان معجبًا بطول قامتها الذي لم يره من قبل والعين السوداء الواسعة، وبشرتها البيضاء الصافية المشرَّبة بحُمرة. كان طرقي واثقًا من نجاحه هذه المرة في المضيِّ بخطوة إضافية في علاقته بغيداء. وقفت أمام بائع الشاورما بعد أن ابتسمت لطرقي ابتسامة سريعة في طريق دخولها للمحل لتطلب منه ساندوش الشاورما، بَدَت ابتسامتها تشبه ابتسامات كبار السن للعابرين. تَشَجَّعَ طرقي بعد ابتسامة غيداء، واستجمع كل قواه ونهض باتجاهها وهو يهمس:

- أهلين. كيفك؟ إيش هالصدفة الحلوة؟

- كان آي هاف تو ساندويتشز بليز؟ (كانت غيداء تخاطب بائع الشاورما)

- الحساب عندي اليوم، أنا عازمك بها المناسبة.

- إنتا شتريد انتا أبوي لو أخوي؟ حسبالكم ماكو حد عده فلوس غيركم؟ صحيح هَمَج!

قالــت غيــداء ذلــك وهــي تُخـرِج ورقتي 20 باوند وترمي بهما على الطاولة. طلبت من البائع أن يكون حسابها وحساب طرقي عليها وأن تترك الباقي عنده. أخذت غيداء الساندوتش بصحبة صديقتها واندفعت خارج المحل فورًا.

كان طرقــي مذهــولًا لــرد غيــداء الحاســم، لــم يكن يتوقَّع ما حدث إطلاقًا. خذلته غيداء وخذله حدســه قبل ذلك، كان قد رَسَــمَ في خياله متواليــات لتوطيــد علاقتــه مــع غيــداء، بدأت مــن حديثه معها في الحافلة وتبسُّــطه فــي الأحاديــث بعــد ذلــك. وقف طرقــي مكانَه لبرهة عاجزًا عن النطق والحركة، بدأت ضربات قلبه تتسارع ويداه ترتجفان. جلس على الكرسي، حدَّقَ في السيراميك الذي يكسو الجدران، وبعد دقائق طلب قارورة ماء وخرج. لم يذهب طرقي إلى الجامعة في اليوم التالي، وبقيَ حبيس غرفته من هَولِ الصدمة.

بعــد مضــيٍّ ثلاثــة أســابيع تخلَّلَها تبادل النظــرات بفتور في الحافلة والحــرم الجامعــي رأى طرقــي غيــداء مجــددًا في يوم أحد خريفي غائم. كان طرقي في أيام الآحاد يخرج بصحبة أيمن العابد (ابن عابد حامد) وبعــض الأصحــاب الذيــن يتجمعــون ويقضــون فترة ما بعــد الظهيرة في إحدى حدائق لندن. التقت المجموعة ذلك الأســبوع في حديقة الهايد بارك، وتحلَّقوا على شكل نصف دائرة يتوسطهم طرقي. كان يمسك بآلة العود ويغني بعض الأغاني القليلة التي يحفظها ويتقن عزفها على العود. شَرَعَ طرقي في الغناء، قبل ذلك دوزن العود ثم عزف أغنية (أحبك لو تكون حاضر) لطلال مداح، وتبعها بأغنية (يبان الشوق في عين المعذب) لعبادي الجوهر. كان من المعتاد أن يقف بعض المارة حول المجموعة مستمعين ومصفِّقين خصوصًا من الجاليات العربية. في أغنية طرقي الثانية لَمَحَ غيداء واقفة بين المتجمهرين من الناس مع بعض صديقاتها، بَدت مذهولــة مــن المشــهد. لــم تكــن غيــداء تتوقع أن ذلك الشــاب الخليجي

الذي تراه كل يوم يملك هذا الحس الفني وهذا الصوت المقبول، ظهر لغيداء من طريقة انسجام طرقي في الغناء ولعًا موسيقيًا أخَّاذًا. انتهت الأغنية الثانية، والتي أضاع طرقي مذهبها الأخير حين رأى غيداء، صَفَّقَ الحاضرون وطلبوا المزيد، وعاد الارتياح مع التصفيق لطرقي، وظهر أكثر ثقةً. شرع طرقي يعزف الأغنية الثالثة مغمضًا عينيه وهو يغني:

(ولعتني وخليتني أنشد الناس
و فضحتني ما بين ربعي الادنين)

وعندما وصل إلى:

(لا باس يا سيد الغنادير لا باس
مقبول ما جاء منك يا كامل الزين)

كان طرقي ينظر لغيداء وهو يردد المقطع الذي أعاده ثلاث مرات، نَشَّزَ في غنائه. ابتسمت غيداء مرة أخرى وهو يغني، وما إن انتهى حتى غابت بين القادمين والذاهبين لسماع الحلقة.

غابت غيداء من الحشد وبقيت ابتسامتها صورة لا تفارق خيال طرقي، كلما رأى تلك الابتسامة في الصورة الموضوعة على الكومودينو تذكَّر ذلك النهار الخريفي في حديقة الهايد بارك وابتسامتها التي بدت مثل غيمة ماطرة فوق صحراء عطشى. حين يسأله زوار الشقة بعد استقراره فيها عن مَن تكون هذه التي تزيِّن ابتسامتها أجواء الغرفة سيجيبهم طرقي مباشرة: "هذه هي حبيبتي الخالدة". سيقولها بملء فمه بلا مواربة.

طرقي:

آلة الهارب الموسيقية، هذه الآلة التي ألهمت ريمسكي كورساكوف ليؤلف مقطوعته الخالدة (شهرزاد)، ويصبح أحد أشهر مؤلفي الموسيقى. تلك الآلة القادمة من الشرق، والتي لم أرها في حياتي قط سوى في صالون شقة أبي غيداء الكائن في هامر سميث في لندن. قال لي أبو غيداء إنه جلب هذه الآلة

لعشقه للموسيقى أولًا، ولأن منظرها الشرقي المهيب يجلب الأُلفة والحميمية في صالونه. لم يكن يعلم حين وضعها في صالونه أنها هي الآلة التي وقعت في عشقها ابنته غيداء، ومن المؤكد أنه لا يعلم أني أنا من وقعتُ في عشقها حدَّ الخلود الذي لا يُمحَى من قلبي بعد رؤيتي لها تعزف في صالون أبيها.

كنت أعرف أن غيداء تعزف على الكمان فقط، إذ حين دعتني بعد ثلاثة أيام من مشهد الهايد بارك الذي رَمَّم مشاعري إلى الانضمام لنادي الموسيقى في الجامعة. أخبرتني أن فرقة الوتريات في النادي بحاجة إلى عازف عود، وقَبِلتُ الانضمام فورًا. منذ ذلك الحين ونحن نقضي معًا مع بقية المجموعة ما يزيد على الست ساعات أسبوعيًا، وبعد مضيٍّ بضعة أسابيع بدأت فقط أحس بغيداء تبادلني ذات المشاعر التي أشعر بها. تأكدت بعد أن دعتني ذات يوم بحياء لتناول مائدة الغداء في بيت عائلتها، وتعرَّفت على والدها ووالدتها للمرة الأولى، وأصبحت صديقًا رسميًّا لغيداء في لندن على الطريقة الشرقية.

بعد أن فرغنا من مائدة الغداء العامرة بالكفتة العراقية في لقائي الأول مع أبيها دلفنا إلى الصالون، وسألني عن سر تعلُّقي بالموسيقى، وحكيت كلامًا إنشائيًّا مثل: الموسيقى غذاء الروح، والعود صديق وفي... إلخ، وسألته إن كان يودُّ أن يستمع لي، وأجابني بأنَّه لا يُمانِع، بل يتوق إلى ذلك لولا أنه خاف من أن أكون قد أكثرت من الأكل، وأجبته بالنفي وأني أريد أن أُسمِعَه، وقلت له إني سأطلب منه رأيًا فنيًّا بعد أن يسمعني. أخذت العود، وشرعت (أدوزن) العود أكثر من المعتاد، كانت لديَّ رغبة شديدة في إبهار غيداء وأبيها. بدأت أدندن، وكنت قد اخترت أغنية قريبة من نفسي، وتدربت عليها جيدًا، وكانت أغنية (المزهرية) لعبادي

الجوهـر. كنـت أعتقـد أن عزفـي كان مقبـولًا، إذ إنـي حين بدأت في الغناء بدت العائلة مستمتعة بما تسمع، أعدت الكويليه الأول ثلاث مرات:

"لا إنتي وردة ولا قلبي مزهرية من خزف
صدفة واحدة جمعتنا، شوفي وشلون الصدف"

دَخَلَت أم غيداء آتية بالشاي العراقي بعد فراغي من الأغنية مباشـرة، صَبَّـت لنـا كوبيـن، وطَلَـبَ أبو غيداء مـن ابنته إن كانت تستطيع بعد هذه الوجبة أن تعزف لنا، وأجابته بالموافقة. ناولني أبو غيداء سيجارًا كوبيًّا، فيما غيداء تجلس فوق كرسي كلاسيكي حوافُّه مُذَهَّبَة خلف آلة الهارب، هذه الآلة المثلثة العجيبة. كانت غيـداء فـي حُلـة رائعـة جديـرة بالجلوس خلف هذه الآلة، ارتدت فستانًا مخمليًّا أسود طويلًا له أكمام حتى منتصف المرفق. جلست على طرف الكرسي، رفعت ثوبها المخملي الأسود فوق الركبتين بقليل، وأدنت الهارب بزاويته المثلثة بالقرب من رقبتها الباسـقة علـى نحرهـا الأيمـن، أسـندت عنـق الهـارب المائـل على نحرها الأيمن وكأنها تهدهد حبيبًا مغادرًا. كنت مأخوذًا ببياض بشـرتها المشـرب بحُمـرة، هـذه الفتـاة التـي فُطِمَـت بالقرب مـن الفرات، وعاشت ربيبة كنف نهارات لندن الرقيقة على بشرة النساء. أخذت أسترق النظر لساقيها الناعمتين اللتين ضمَّتا عود الهارب بينهما، وذراعيهـا اللتيـن تحضنـان الأوتار بوَلَهٍ، وشـرعت تعزف مقطوعة (شهرزاد). يا ليتني عشت ليلة واحدة من تلك الألف ليلة وليلة!

(35)

مسيار

قَرَّرَ صملول استئجار شقة جديدة مثل طرقي، وإن اختلف الغرض؛ نوى أن تكون مقرًّا لزوجته الجديدة، وجهَّز الشـقة قبل الزوجة، وكأنما الشـقة هي التي سـوف تدوم عمرًا أطول. خاطب صملول لوزية مثلما بيَّتَ النية من قبل، وكانت نواياه تدور حول العنود زوجةً أخرى، زوجة مسيار. فكَّرَ أن العنود سوف تقبل وضع المسيار الذي ربما يكون مؤقتًا، فهو في نهاية الأمر خير من وضعها الحالي، كما فَكَّرَ في أن يجد طريقة طبية لمنعها من الحمل.

حين خاطب لوزية في هذا الموضوع أبدَت دهشـتها؛ إذ لم تكن تتوقـع أن يطلـب منهـا أحـد مـن جيل عملائها الشـباب التفكير على هذا النحو، لكن صملول طَلَبَ منها، وأكَّد لها أن الطريقة المناسـبة للزواج من العنود هي زواج المسيار، وقال لها إنه استأجر شقة لها لكي (يُسَيِّر) عليهـا، ويفضـل أن يقضـي معهـا شـهرًا فـي مكان خـارج المملكة، ومن الأفضـل أن لا يعلـم أحـد عـن الأمـر، إذ إن العنـود ربمـا لو صَلُحَت له سـتكون زوجـة مسـيار لفتـرة. فـي المقابل وَعَـدَت لوزية أن يكون الأمر سـرًّا، وأنها سـوف تفاتح العنود في هذا الأمر ليتقدم صملول لخطبتها من عمها، إذ إن أباها تُوفِّـيَ منذ سنين، وأصبح عمُّهَا هو الولي عليها، لكنها ما زالت تسكن مع أمها وأختها وأخيها الصغير في مسكن واحد.

بعد مضيٍّ يومين هاتَفَ صملول لوزية وسألها ماذا فعلت في الأمر، وأجابته:

- ما بعد سألتها يا صملول.
- ليه يا لوزية؟

- شكلك مستعجل يا أبو خالد؟

- أي والله مستعجل؟

- إذا مستعجل أجيبها لك من الليلة، وشاور نفسك بعدها.

- رجعنا في طير يااللي؟ يا لوزية ما أبي أسمع هالسوالف الماصخة. (ردَّ بغضب واضح)

- صارت ماصخة الحين؟

- إيه ماصخة، أنا ما طلبت منك هالكلام إلا بعد تفكير يا لوزية، ما يحتاج أشاور نفسي مرة ثانية، أقول لك: أنا في شقتي الجديدة الآن، تعالي عندي الآن.

- وين أجيك؟ وبعدين وش تبي فيني؟

- لازم نتفاهم وتكلمينها بالتلفون قدامي اليوم يا لوزية.

- بس يا أبو خالد....

- لا بس ولا شي، اطلعي الآن وكلميني من السيارة وأوصف لك مكان الشقة، ضروري تجين الآن.

لم يكن بإمكان لوزية أن ترفض، ولم يترك لها صملول خيارًا آخر. خرجت بعد عشرين دقيقة من مكالمة صملول، وهاتفته بصحبة سائقها الخاص الذي استطاع إيصالها لشقة صملول الجديدة. استقبل أبو خالد لوزية في شقته، وبدا عليه الغضب. جلسا في صالة الجلوس. عاتب صملول لوزية كثيرًا على تأخرها في التحدُّث مع العنود، وأصرَّت لوزية على عرض فكرتها المختلفة:

- يا أبو خالد، أنا والله ناصحة لك، وش رأيك أعرض عليك واحدة غير العنود؟ واحدة مالها في هالسواليف. عندي مُدَرِّسَة تشتغل معي.

- يا لوزية، أنا اللي ابتزوج ولا انتي! ماله داعي هالأمور.

- يا أبو خالد اللي أقولك عنها وردة، ومطلّقَة وبنت حمولة تليق

فيك، ومُدَرِّسَة مالها بها الخرابيط.

- مُدَرِّسَة ولا زبَّالة؟ (ارتفع صوت صملول) هل أنا طلبت منك تدورين لي زوجة؟ أنا قلت لك يا لوزية خلَصي أمري مع العنود، بتساعديني ولك الحلاوة أو لا.

- خلاص خلاص. ناصح البدو في النار.

- وشو!

- يا أخوي أمزح معك.

أخرج صملول هاتفه المحمول وناوله لوزية وقال:

- اتصلي على العنود الآن، واسأليها وأنا أسمع.

- وشلون أتصل عليها وأنت عندي؟

- يا لوزية أنا ما عندي وقت أنتظر، اتصلي الآن.

- ما يصير يا أبو خالد، أول ما أرجع بيتي بكلمها.

- لا، الآن.

- يا أبو خالد، والله وغلاوتك أني أكلمها الليلة وأرد عليك.

- أنا ما عاد أصدقك يا لوزية.

- أفا يا أبو خالد، خلاص وعد.

- وعد رجال يا لوزية؟

- وعد لوزية يا أبو خالد، انتظر اتصال مني الليلة.

اقتنع صملول بوعد لوزية الذكوري، وبعد مضيٍّ بضع دقائق همَّت لوزية بالاستعداد للخروج، وأصرَّ عليها صملول أن تمكث قليلًا، ودعاها لشرب كأس، وقَبِلَت لوزية على مضض. بعد أن ناولها صملول الكأس سألها:

- الحين يا لوزية، وش اللي تقولين عن البنت الثانية أنها مُدَرِّسَة وتشتغل معك، انتي وين تشتغلين يا لوزية؟

- أنا يا حبيبي وكيلة مدرسة قد الدنيا.

- بالله! أول مرة أدري.

- لا أدر يا أبو خالد، كنت ناصحة لك وغلاوتك.

- طيب يا لوزية، مدامك وكلية مدرسة ومخضرمة بعد، يعني راتبك ما شاء الله، وش لك بهالأمور على ما تقولين.

- إيييه. هذي قصة طويلة يا أبو خالد.

- علمينا يا لوزية، وش عندنا الآن غير قصتك؟

شرعت لوزية في قصِّ حكايتها، قالت له إنها كانت متزوجة منذ خمسة وعشرين عامًا تقريبًا، عاشت فيها كملكة متوَّجة، وسافرت لأماكن لن يجدها صملول على الخارطة، روت له أنها كانت تتناول إفطارها الصباحي في جبال محاطة بندف الثلج البيضاء، وأن غداءها سمك مشوي وإستاكوزا على البحر، وأنها كانت تتعشى مزَّة ونبيذًا ورقصة يونانية. أخبرته أنها في صباح آخر تتمشى في الهايد بارك، وفي ذات المساء تكون في ملهى باريسي، وتجوب الشواطئ الاستوائية في اليوم التالي بعد الاحتفال برأس السنة في الشانزليزيه. قالت لوزية كل ذلك لصملول، وصملول منصت مثل طفل لحكايتها بلا مقاطعة، أردفت قائلة:

- كنت يا أبو خالد ألبس ملابسي كاملة بتوقيع مصمم واحد، وماركة ثانية في وقت الغداء، ومصمم ثالث لما أروح أقضي ساعة تسوق من هارودز، ومصمم رابع لملابس السهرة، وأخيرًا أبدِّل ملابسي كلها وألبس آخر صيحات ملابس السرير من فكتوريا سكرت: أرواب دانتيل وبيبي دول وكريمات ما وصلت البلد بطعم الفواكه والشوكولا أمررها على جلدي.

- يا سلام! لازم تعطين العنود كورس يا لوزية في هالأمور.

ضحكت لوزية وأكملت له أنها لأربع سنوات كانت خلالها تعيش مثل ملكة، حتى قررت الحمل. قاطعها صملول قائلًا:

- إيه. هذا اللي ما نبيه يا لوزية، ترى ابروح الدكتور مع العنود

وأخلّيه يشوف لنا حل طويل لمسألة الحمل.

- كلكم كذا يا صملول، آه منكم. أمي كانت توصيني أن الرجل ما يبقيه غير الولد، وأنا يا أبو خالد كنت منتظرة كثير. تصدق يا أبو خالد كنت زوجة ثانية وكان الأمر مقبول، زوجي صالح شيخ ولد شيخ وأنا يا أبو خالد من شيوخ بني خضير.

- الله يقطع سوالفك يا لوزية.

ضحك صملول، واسترسلت لوزية التي كانت تحاول أن تسترجع حِسَّهَا الحزين المؤثِّر حين تروي هذه الحكاية، لكن صملول كان يقاطعها كثيرًا بملاحظاته التي أراد أن تنقلها للعنود. قالت لوزية مثلما قالت غير مرة أن جمالها لم يكن شفيعًا لأن تكون أمًّا، حتى لو شفع لها لكي تكون زوجة أخرى. ذكرت لوزية كل الشفعاء الآخرين الذي كانوا معها بصحبة جمالها، وختمت بقولها: "أمور ثانية لو تعرفها كنت تتزوجني بدل العنود". ضَحِكَ صملول وأخبرها أنه يود أن تصب كل هذه الخبرات والشفاعات في أذن العنود، وأكملت له لوزية قصة فراقها وطلاقها من صالح وتفاصيل رحلتها الأخيرة في كان، وماذا فعلت حين جاء صكُّ طلاقها، وكيف بكت دمًا. كانت لوزية تروي ذات التفاصيل التي روتها لفرج ولابن طرَّاق وللكثير من أصدقائها. كانت هذه المرة الخمسين بعد المائة (ربما) التي تروي فيها هذه الحكاية، الحكاية التي ترددها دومًا وتتلذذ بها. تلك المرة كان صملول مصغيًا.

حين انتهت لوزية من الحكاية كرَّرَ صملول طلبه على مسمعها مجددًا، ذكَّرَهَا أن تُنهي أمر زواجه في أسرع فرصة، وأنه سيسافر مع العنود لقضاء شهر خارج البلاد، لكي يُجَدِّد فيه شبابه حسب وصفه.

حين خاطبت لوزية العنود بكت العنود فرحًا، ولم يهم أن يكون أبو خالد زوج مسيار أو غيره، كانت فرحة لدرجة مثيرة للشفقة، إذ كان من المهم لديها هو أن ترتبط بزوج لا بأس به، وإن كان مثل صملول

والـذي تعرفـت عليـه قبـل ذلـك في تلك الليلة، وبَقِيَت بينه وبينها بعض الرسـائل النصية في الأسـابيع اللاحقة. إذًا هذا عرض لا يقبل الرفض. قَبِلَت العنود أن يتقدم لها صملول، وخاطبت أمها التي بدورها تحدثت مع عمها. أخذت العنود على نفسها وعدًا بأن تحافظ على أبي خالد، وأن تكون كالأمة حين يتزوجها، كانت تدرك بفطنتها أن الفرص لا تأتي مرتين، وفرصة كهذه لا بُد أن تعضَّ عليها بالنواجذ. الأمر الذي كان مفرحًا لها أن عرض صملول رسمي، وبناء عليه سيكون لديها وثيقة زواج مسجَّلة في المحكمة الشرعية للمرة الثانية في حياتها بعد طلاقها في المرة الأولى بعد سنة زواج يتيمة. لن يكون الأمر كما كان لدى ابن طرَّاق: مجرد ورقة وشاهدين، وليلة تبيت فيها باسم الزواج. كان لدى العنود إحساس جديد تولَّدَ لديها بأن ليالي ابن طرَّاق الثلاث كانت ابتذالًا لجمالها، وجعلتها مثل ثوب زفاف للإيجار. آمنت أن ليالي صملول القادمة يجب أن تكون نقطة تحوُّل في حياتها. بَنَت العنود أحلامًا وآمالًا كبرى، وبعد بضعة شـهور ربما سوف تهوي تلك الآمال، ولا نعلم إن كان صملول غيَّر نواياه أم أن العنود حَنَثَت بعهودها التي أقسمت عليها. "كان صرحًا من خيالٍ!"

صملول:

يجب على المحارب أن يسـتغل فترة راحته خير اسـتغلال. كنَّا في بداية فصل الصيف حين قررت الزواج، أو محطة استراحة المحارب. الجميع يعلم الآن أني محارب صعب المراس. حاربت يـا سـادة علـى كل الأصعـدة، حاربـت حتى أتعلَّم، وحاربت حتى أنهض بنفسـي، وحاربت حتى أبني أسـرة، وحاربت حتى أصنع مجـدًا تجاريًّـا، وحتـى وصلـت لمـا أريـد الوصـول لـه. أنا رجل عصاميٌّ بكل ما تحمله الكلمة من معنى. أصبحت الآن يا سادتي أجلس في صدور المجالس، في المكان الذي أشعر أنه يليق بي. بعـد أن جلسـت وخضعـت لـي كل الـرؤوس لا يهـم مـاذا أفعل،

المهم هو أن الرؤوس خاضعة لي الآن.

حسنًا، كنت أتحدث عن الاستراحة، لوزية ليس لديها بُعد نظر؛ تظن أني تعلَّقت بالعنود، وأن العنود ستعلِّقني كالتيس وتتمشَّى بي. لا تعرف من هو "أبو خالد"... "الشيخ أبو خالد". أبو خالد سيكون الحاكم بأمره، سيقول عنه الناس ذات يوم ما بعد ابن طرَّاق غير الشيخ أبو خالد. يا سادتي أنا أبو خالد "الفزعة"، أنا أبو خالد "الشيخ"، أنا أبو خالد "الهامور الأكبر"، أنا أبو خالد النشمي، أنا أبو خالد صاحب السكِّين الحمراء، التي لا تبرد من الذبح والسلخ، أنا الكريم ابن الكريم.

بالمناسبة، أرجو أن لا يضحك أحد حين أقول أني الكريم ابن الكريم؛ إذ بإمكاني إعادة كتابة التاريخ. لا تفرحوا بما كُتِبَ في هذه الرواية، التاريخ معي في جيبي، مرفق مع شيك. دعوهم يقولون ما يشاؤون يا سادة عن بداية حياتي، ودعوهم يفرحون قليلًا بما كُتِب، ويثرثرون مع من يشاؤون حول الرواية. التاريخ في جيبي، مرفق مع شيك، سيكتبه عشرة بدلًا من كاتب أو كاتبين، ويطبعه مائة، ويوزعه ألف، ويدرسه عشرة آلاف دكتور في أرقى الجامعات، ويدرسه مائة ألف طالب ومحب، وعليكم الحسبة.

(36)

لعبة قيس وليلى

ليس ثمة قواعد معينة في الحب، ولوزية لا تعرف إن كان صملول فعـلًا أحـبَّ العنـود، أم أنـه أرادهـا رغبـة لحظيـة. كان لدى لوزية تحليل بسيط للموضوع؛ إذ إن كل الحب نزوة، لحظة زمنية قصيرة مرتبطة بزمان ومكان، تمامًا كما تشتهي أن تأكل سوشي أو حبة كبة، لكن الفارق يكمن في حجم هذه النزوة، وأبعاد النزوة الثلاثية، والزمن الذي تحتاجه هذه النزوة لكي تنطلق من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) حتى يتم اكتمالها.

كانـت لوزيـة تحكـم الأمـور بمرجعيتهـا المهنيـة والعلميـة لكونها مدرسـة فيزيـاء. كانـت تُـدَرِّس مـادة الفيزياء لطالبات القسـم العلمي في الثانوية العامة لمدة سـبعة عشـر عامًا، وبعد ذلك تَحَوَّلَت إلى الإدارة، وبَقِيَـت منـذ ذلـك الحيـن لثمانيـة أعوام وكيلة المدرسـة الثانوية، والرقم الصعـب فـي المدرسـة، والمـرأة القادرة علـى احتواء كل المراهقات في ذات المدرسة. كان للوزية ذلك الأسلوب المحبب والقريب إلى نفوس الطالبـات، تتدخـل دومًـا حيـن تعجز الاختصاصيَّة الاجتماعية عن تقويم سـلوك طالبة وحل مشـكلاتها الدراسـية، وتسـتطيع لوزية انتشـال الطالبة من الاختصاصيَّة الاجتماعية مثل أم حنون، وتحلُّ مشكلاتها على طريقة (1 + 1 = 2).

منحت الطالبات لوزية النيشان الأول في المحبة، حتى على مستوى المعلِّمات، وأصبحت هي الصديقة المقربة لكل مدرِّسة، مهما اختلفت ظروفها. كانت لوزية تؤمن بالجزء الحسـي أكثر من أي شـيء معنوي، ولهذا لا تلجأ لمواساة الطالبات فقط، بل تعرض خطةً لحل المشكلة، مشـكلتها الوحيدة تكمنُ في كونها تعرض دائمًا خطةً بديلةً حتى لو لم

يُطلَب ذلك منها، ولهذا عرضت على صملول العنود مرة أخرى، لعلَّه يتأمل قليلًا في ما يريده، وربما لأنها أرادت مقياس البعد الثلاثي لهذه النزوة (بحسب وصف لوزية): الزمن الذي تنطلق فيه هذه النزوة من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) حتى تكتمل.

ذات مرة، وفي إحدى جلسات لوزية مع ابن طرَّاق، والذي كانت مأخوذة به حدَّ الهوس، سألته:

- الحين يا أبو طارق، البنت اللي تتزوجها مرة، ليه ترد لها وتتزوجها مرة ثانية وأحيانًا ثالثة؟

أجابها ابن طرَّاق بنبرة عصبية:

- يا لوزية، لا تسألي عن أشياء مالك فيها نصيب.

- كيف يا أبو طارق، لازم أعرف علشان كثير من البنات يسألوني، يقولون مدامه يبينا مرة ثانية ليه طلّقنا؟

أحس ابن طرَّاق بجدية الموضوع، فكَّرَ وأجاب على تساؤلها:

- يا لوزية، أحيانا تشتاق نفسك لأكل ذقتيه وطعمه في لسانك، ولمَّا ترجعين له ما تلقين هذا الطعم. تدورين عليه ثانية وثالثة ولا عاد تلقينه، بعد كذا ما عاد ترجعين له.

- ليه عاد؟ يعني المرة مثل الأكل يا أبو طارق؟

- لا، المرأة أجمل من الأكل بكثير، بس نفس النظام يتبعهم كلهم.

- ظلمت حظنا يا أبو طارق. طيب وقيس وليلى، وعنتر وعبلة وش معنى هذولا؟

- هذا كلام مأخوذ خيره، الحركات هذي موجودة علشان التمثيليات والأفلام والمسلسلات والقصص، تشوفها الناس وتتمنى تعيشها، وش الحياة بدون أمنيات؟ وبعدين يا لوزية، قيس لو أنه ركب ليلى كان تغيرت علومه، هذولا مغفلين!

أفصح ابن طرَّاق عن عقيدته الذكورية في حديثه مع لوزية، وأثبت

لها أن الاستمتاع والعناية بالملذات والتفرغ لها هو مذهبه الذي يمارس طقوسَه بمنتهى الرغبة والجديَّة.

كانت لوزية تؤمن قليلًا بما يقوله ابن طرَّاق؛ إذ إنها -مثلًا- تهوى كثيرًا طبق (الكبّة المقليّة) على الطريقة اللبنانية، وحين تأكل واحدة تبحث بعد القضمة الأولى عن حبة السنوبر المزروعة في الكبّة، وربما لا تجدها أو ربما ابتلعتها مع القضمة الأولى، وتظل تأكل (الكبة) حتى تمسك بحبة السنوبر بقواطعها الأمامية، وتقطع حبة السنوبر من المنتصف، وتحرك الحبة السنوبرية على لسانها، ترفع لسانها وتتحسس الحبة بسقف فمها، وتُعيد تحسُّسها لبضع ثوان قبل أن تبتلعها، وبعد هذا الطقس الخفيِّ تكف لوزية عن إكمال أكل الكبّة. لو أنها وجدت حبة السنوبر من المرة الأولى لاكتفت بهذه اللذة ولن تأخذ مزيدًا من الطبق، وإن لم تجدها، فإنها ستقضي على كل حبات الكبّة التي في الطبق حتى تمارس طقسها.

قاست لوزية حكم ابن طرَّاق في موضوع المرأة على تجربة حبَّة السنوبر في الكبَّة المقليَّة، وخمَّنت أنها طريقة ناجحة، أسَّسَت بعد ذلك كل نظرياتها على الرجل من حبَّة السنوبر تلك، وخرجت بقانون حجم النزوة العابرة، وقاست الزمن الذي تنطلق فيه هذه النزوة من النقطة (أ) والتي أسمتها فيما بعد (الشهوة) حتى النقطة (ب) والتي أسمتها (الفراغ) أي الفراغ من الشهوة. هكذا شكَّلَت لوزية كل نظرياتها في إقناع النساء القابلات للدخول في النزوة العابرة، وكان لديها فراسة عجيبة في تصيُّد هؤلاء النسوة.

ممَّا سبق ذكره، وصلت لوزية إلى أن نزوة صملول العابرة ربما تطول قليلًا، لن تكون ليلة، ولا أسبوعًا، ولا شهرًا، لكنها سوف تعيد تأمُّل المشهد بعد الشهر الأول، وسترى كيف تمضي الأمور. كانت لوزية متيقنةً من أن صملول من صنف الرجال الذي تعرفه مثل صالح، كانت تقول إن هؤلاء الذين يشبهون صالح وابن طرَّاق وصملول مثل

الكائنات غير المرئية، لا يعلق فيهم شيء، ولن تستطيع أعتى امرأة في العالم الالتصاق بهم متى ما قرروا غير ذلك.

بعد أن تزوج صملول العنود (زوجته المسيارية) غادَرَ بصحبتها لقضاء شهر كامل، وجَنَّدَ كل طاقاته لسرد أعذار مبررة لزوجته الأولى (أم خالد). قرَّرَ صملول أن تكون العشرة أيام الأولى في شواطئ المالديف، في غرفة تحيطها المياه من أطرافها الأربعة، كان يأكل أكلًا بحريا في وجباته الثلاث مثل حوت؛ لإيمانه بأن الأكل البحري مُقَوٍّ جنسيٌّ، كما قضى تلك الأيام متخففًا من ملابسه طيلة اليوم.

في العشرة أيام الثانية كانت مدينة دبي هي محطته، رأى صملول أنها مكان ملائم للتبضُّع، خصوصًا أنه لم يكن لديه وقت كاف لاستخراج فيزا له وللعنود لقضاء هذه العشرة أيام في باريس أو لندن. كان صملول قد قرر المرور على كُبريات دور الأزياء والمجوهرات، وفتح ميزانية الشراء على حدِّها الأقصى. في العشرة أيام الأخيرة رَتَّبَ صملول حجوزاته لقضائها في بيروت. كان من المهم لدى صملول أن يستعرض قدراته على كبار المصطافين لإيمانه بأن المرأة الجميلة الأنيقة تكون أعظم إكسسوار للرجل الثري.

رَتَّبَ صملول كل أموره وغادر، لم يقبل النقد الذي وجهه له جبل حول زواجه حين قال له:

- أنت ما عندك إلا النقيدة يا جبل، اسكت أحسن لك.

أسقط في يد جبل، وسكت عن صاحبه، أدرك أن رغبته تفوق محاولاته، حاول أن يستخدم معه ذات السلاح، وقال له:

- شكلك مربوط يا صملول!

لم يجد جبل لجملته هذه أذنًا مُصغية، لم يجد سوى ضحكة من صملول، كانت ضحكته غريبة، ولم يدرك جبل ماذا كانت تعني تلك الضحكة! لكنها ذكَّرَتهُ بضحكة أبيه ابن طرَّاق حين كان يضحك هازئًا

بعد استماعه لصوت جبل إثر تغيُّر صوته وازدياد خشونته بعد البلوغ. لم يختلف شيء سوى أن صملول لم يهزأ بعد هذه الضحكة بصوته كأبيه.

الراوي:

لـم تقنعنـي كثيـرًا نظريـة لوزية، ولـم تقنعني أيضًا نظرية فرج التي سنأتي على الحديث عنها فيما بعد. صدِّقوني: إنَّ الكلَّ يظنُّ نفسَـه فَطِنًا وفيلسـوفًا عند الحديث عن موضوع الحب، لكن في الحقيقـة لا أحـد يفهـم، وليـس ثمـة تفسـير مقنِع لما يحدث عند حـدوث التفاعـل الكيميائـي للحـب. خذوا مثـلًا ما حدث لجبل، الذي ربما (لا أقولها جازمًا) وقع في حب فِردوس، وتأملوا كيف أحـب؟ هـل كان يحـب الثمـرة المحرمة فعـلًا لمجرد كونها ثمرة محرمـة؟ لـم نجـد لذلـك تفسـيرًا جيـدًا، لكن مـن المؤكد أن ثمة تورطًا عاطفيًّا بشـكل ما بين جبل وفردوس، هذه حقيقة على ما أظن، ولا أقولها جازمًا. صحيح أن جبل كان ينظر للنساء بخصيتيه لا بعينيه، ولكن تذكَّروا أنَّ عَينَي جبل ذرفتا دموعهما الأولى على وفاة والده حين رمت فردوس برأسها فوق صدره ودخلا معًا في نوبة بكاء، بعد أن أخبرها جبل بالخبر.

في الطرف الآخر هناك فرج: فرج الذي ربما أحبَّ هنادي في التوقيت الخاطئ؛ إذ أنه لم يدرك أن المرأة التي تمتهن مهنة هنادي تصاحب أربعة في الوقت ذاته، ثلاثة منهم متغيرون، ويبقى رجل واحد ثابت. الرجل المتغيِّر الأول: هو من يوفِّر لها الحماية، ولم نتعرف عليه حتى لحظة كتابة الرواية، لكنه هو مَن ساعدها بالطبع لكي تكون في مكانها الذي رآه أحدنا ذات يوم في مقهى فـي أبـو ظبـي. الرجـل المتغيـر الثانـي: هو من يؤمِّـن لها مزاجها الخاص، وفرج كان هو ذلك الرجل. الرجل المتغيِّر الثالث: هو من يصرف عليها، وكان في حالة هنادي آنذاك هو جبل. علمت

هنادي أن جبل قرر أن يفارق هذا المكان، ولهذا قررت الاستعانة بصديق، وكانت المحاولة مع أبي ضاري، ولم تنجح. الرجل الثابت الرابع: هو من تقوم بصرف مالها عليه، ولم يتم التعرف عليه قَطُّ حتى لحظة كتابة الرواية.

ما دمنا نحكي عن لعبة قيس وليلى، طرقي يكاد يكون نوعًا آخر من هذه اللعبة، كانت حالته مع غيداء حالة من الانعتاق ربما من ماضيه، وتَشَكَّلَت حالة الحب الذي حين وصل لحظته النابضة بالخلود سقط من عليين. إذًا يا أيتها المرأة التي أخذت الرجل من حضن أمِّه، إما أن تضميه إلى حضنك، أو ترديه إلى حضن أمِّه.

لن أتحدث هنا عن صملول والعنود، ولا عن لوزية وصالح، ولا عن ابن طرَّاق في كل حالاته، ما أنا مؤمن به هو أن الكل يظن نفسه فطنًا وفيلسوفًا عند الحديث عن موضوع الحب، ولكن في حقيقة الأمر لا أحد يفهم، وليس ثمة تفسير مقنع لما يحدث عن حدوث التفاعل الكيميائي للحب. ليس لديَّ ما أقوله أكثر من ذلك، الحديث هنا ذو شجون، وأظن أن من جمال الحب هو أنه ليس ثمة تفسير مقنع لما يحدث. فكِّروا قليلًا: لو كان ثمة تفسير لما سمعنا كل هذه القصائد، والألحان، والأغاني، والقصص، والروايات، والملاحم، والمسرحيات، والأفلام، والأساطير، والجرائم، والحروب، و... تعبت. أرجو أن تحبوا فقط لتعلموا عمَّ أتحدث!

(37)

المسبحة

ترك سَفَرُ صملول لقضاء شهر عسل جديد مع العنود فراغًا كبيرًا لدى جبل، تَذَكَّرَ يوم الدفن و(الشقرديّة) الذين بايعوه، وانفضُّوا من حوله بعد شهور. تساقط أصدقاء جبل من أجندته مثلما تسقط حبات مسبحة انقطع خيطها، سقط طرقي من المسبحة وغادر الدار، وابتعد أبو ضاري بعد أن غرق في ديونه وفقد الأمل في مدٍّ يد عون جبل له، وسقطت فردوس (التي كانت رسائلها مليئة بالطلبات) من حساباته، وانشغل فرج بمهامه الجديدة كسائق لفردوس بدلًا من أن يكون مرافقًا لجبل، وأصبح صبحي يناور المكان الذي يكون جبل موجودًا فيه، وبقيَ صملول، وصملول غادر لشهر على الأقل. كذلك بقيت لجبل صُحبة أمه ونصائح الشيخ ابن مسمار الذي ظل يهاتف جبل في الأسبوع مرتين ليطمئن على أحواله تارة، ويعرض عليه بعض فرص الاستثمار العقارية الرائعة.

أضحت الدار خالية في عين جبل، ولربما فُوجئ جبل بخلوِّها أكثر؛ إذ إن الأحداث المتوالية أفقدته القدرة على قراءة مستقبل الدار ومعرفة شكلها، وليس غريبًا أن يفكِّر أكثر من مرة في العودة لإشارات أم محمود أو الشيخ سالم لمساعدته في الكشف عن كُنه قادم الأيام وماضيها الذي لم يقرأه جيدًا. خلا البيت الذي كان يجتمع في حضور المرحوم على وجبة الغداء، حيث يكون الرجال على مائدة واحدة، والنساء على مائدة أخرى منفصلة. أصبح منزل ابن طرَّاق آنذاك مثل نُزُل فندقي معزول، كل نزلائه يطلبون وجباتهم في غرفهم، والعاملون في المنزل فقط هم من يجتمعون على مائدة العشاء.

في إحدى الليالي الصيفية دخل جبل على ملحق العاملين من سائقين وقهوجي ومزارع وبواب، كان جبل مدركًا أن هذا هو الوقت الذي يوضع فيه عشاء العاملين، ولا يتخلف عنه سوى سائق أو سائقين أحيانًا حين يكونون خارج المنزل. حين دخل جبل إلى الملحق هَبَّ صبحي واقفًا من مكانه، وأشار له جبل أن يجلس، تَوَجَّه إلى أحد المراكئ خلف فرج وصبحي وجلس عليه، وأشار لهم أن يكملوا الأكل. صمت كل الموجودين في حضرة جبل، كان هناك فرج وصبحي وزلفي (البواب السريلانكي)، وكندوس (القهوجي الهندي)، وبياني (السائق الفلبيني)، وعماد الحضرمي (أمين أرزاق المنزل)، وجميعهم منتظمون في حلقة حول المائدة المستديرة.

تأمَّلَ جبل كثيرًا الألفةَ التي جمعتهم متحلِّقين حول المائدة، راقب عماد يوزع من بادية المرق على الأرز للجميع، وكندوس يباشر سكب (الدقوس) الحار على الأرز للموجودين، وصبحي يناول علبة اللبن لزلفي، وبياني الوحيد الذي كان يأكل من صحن صغير اغترفه من الصحن المستدير له، وشاهد ابتسامة زلفي الخفيفة لصبحي. شاهد جبل الجميع يأكلون بحميمية، حَدَّقَ كثيرًا في فرج، راقبه وهو يمازح عماد وصبحي وبياني، رآه وهو مستمتع بمحادثاته للجميع، وتساءَل عن سرِّ الأُلفة الحاضرة لدى فرج، وكيف يكون متصالحًا في كل الأوقات مع الجميع، مع العاملين ومع أصدقائه المصنَّفين من صفوة المجتمع! سَرَح جبل في نظراته لفرج، مضى وقت غير قصير وفرج يلاحظ نظرات جبل الساهمة له، وبعد مضيٍّ دقائق من صمت جبل قطع فرج صمته قائلًا له:

- يا عم، وري ما تمالحنا في الأكل؟

- لا شكرًا، ما أحس بجوع يا فرج. بس ناولني علبة لبن.

ناوله فرج علبة اللبن وهو جالس على المركأ، فتحها وشرع يشرب من اللبن. بعد رشفتين خاطب الكل قائلًا:

- وشلون الشغل؟

- الحمد لله كل شي تمام. (رد فرج)

- و السيارات، مواظبين على صيانتها ومعاينة الزيوت؟

- لا توصي حريص يا عم، معتبرينها سياراتنا. (فرج يرد مجددًا)

- و نظافة الحوش والسور والبوابات؟

- زلفي شغال مضبوط بالساعة. (رد فرج)

- ما فيه أحد يتكلم إلا أنت يا فرج؟

لم يرد فرج الذي كان يبتلع لقمته، نادى جبل صبحي:

- وأنت يا صبحي. وش أخبارك؟

- الحمـــد لــلـــ... (لـم يكمـل الـرد بعـد أن ضربت علبة لبن في كتفـه. كان صبحـي يهـم بالالتفـات للـرد على جبل الذي رمى علبة اللبن في اتجاه صبحي بعد أن رمى بسؤاله)

- وش أخبار اللي قلت لك عليه؟

- ... (بلع صبحي ريقه ولم يدرِ بِـمَ يُجيب، وكان الجميع تقريبًا قد توقفوا عن المضغ بعد رمي العلبة)

- ما فيه جديد منك؟ ولا من مصطفى شاكر؟ (ابتسم بشفته اليسرى مثل ابتسامة عدو)

- والله يا عم مافيش جديد لسه؟

- إيه، فكّر زين يا صبحي وسلم لي على مصطفى شاكر.

رمى جبل كلمته الأخيرة وقام من مكانه خارجًا من الملحق، وقبل أن يخرج، التفت إلى فرج وقال له:

- خلّني أشوفك يا فرج الليلة إذا ما عندك مشوار مع أم طارق، أو بكرة أول ما تجي بعد صلاة العصر. ترا من زمان ما سمعت صوتك.

- إن شاء الله يا عم.

كان من الواضح أن جبل بدأ يضيق بالوحدة، وعاد يلتفت لصغائر

الأمور، ويحاسب الداخل والخارج من منزل ابن طرَّاق. كان جبل يظن أن فترة استغراقه مع هنادي أفقدته الكثير من الإمساك بزمام الأمور، ولهذا خرج طرقي من دون أن يحس به، ولم تعُد فردوس تكترث به كثيرًا، وبدأت تتصرف وكأنه لا رجل في البيت، حتى والدته لم تعد تشتكي منها أو من أحد آخر، ولم يدرك أنها فقدت الصبر ولم تعُد تشتكي. كل ما كانت أم جبل تطلبه من ابنها في الأيام الأخيرة أن تنتقل إلى بيت آخر أصغر حجمًا لا يشاركها فيه أحد، وتعذرت بأنها لم تعد تطيق الجلوس في المنزل بعد وفاة المرحوم والذي لا يفارق مخيلتها، ومن الصعب عليها نسيانه. غَيَّرَت أم جبل من أعذارها القديمة، كان من الواضح أنها لم تُجدِ مع جبل، جبل في نظرها لم يحاول - حتى مجرد المحاولة - الحديث مع فردوس أو إيقافها عند حدِّها، ولهذا وجدت أم جبل أن الحل هو في ذكرى المرحوم التي تشقيها، ورؤيته المتكررة في المنام. لم يكن لدى جبل في المقابل أدنى نية في الخروج من المنزل، حتى إجاباته على طلبات والدته المتكررة بقوله: "إن شاء الله" لم تكن تعني سوى أنه يريد أن يقفل الموضوع.

في عصر اليوم الذي تلا ليلة زيارة ملحق العاملين التقى فرج وسأله عن أحواله، ومن ثَم سأله عن: أين يذهب في مشاويره مع فردوس؟ ومَن تزور؟ ومع مَن تذهب للنزهة والتسوق؟ ومتى تعود دائمًا؟ وأجابه فرج إجابات مختصرة لا تحتمل التأويل أو التلفيق، قال له إن المدام أم طارق تحب التسوق كثيرًا، ولا تزور سوى أخواتها خصوصًا أختها نادية، وهي غالبًا تعود باكرًا قبل العاشرة ما عدا في أيام الزواجات. لم يسأل فرج عن طرقي، إذ لم يكن يعلم أن فرج يقوم بزيارة طرقي في شقته الجديدة مرة أو مرتين في الأسبوع متى ما تَسَنَّى له ذلك.

كان طرقي هو الذي طلب من فرج أن يزوره بعد استئجاره للشقة مباشرة، وقال له إنه على الرحب والسعة متى ما وجد الفرصة للزيارة.

فرج لم يُكَذِّب خبرًا، زار طرقي في أول خميس أتى بعد دعوة طرقي له، أتاه ذلك المساء وكَرَّرَ الزيارة كلما سنحت الفرصة، وكان جدول طرقي لا يختلف كثيرًا عن جدول ملحق الهدنة، يزوره بعد صلاة العشاء ويكون مدير الشقة الفلبيني (البتلر جون) قد أعدَّ الشقة ونظَّفها وجهز الأقداح والمزة وأشعل الشموع، وحين يتصل به طرقي للاطمئنان على جاهزية الشقة يقول له البتلر جون: "كل شئ على ما يرام".

كان طرقي يدخل الشقة ويغادر بعده البتلر جون بدقائق، يطمئن أن كل شيء جُهِّزَ مثلما طلبه طرقي. كان طرقي بعد ذلك يختار نديمًا له في الساعة الأولى من لائحة (السي دي) الموجودة لديه، في الساعة الثانية يكون العود نديمًا آخر، وفي الساعة الثالثة يكون قد شرع في كتابة قصيدة جديدة أو الحديث مع زائر من الزوار القلائل الذي يزورونه في الشقة.

كان فرج ثاني زوار الشقة، وفي الزيارة الثالثة أبدى تبسطًا كبيرًا مع طرقي في الحديث مثلما كان يفعل في الملحق، سأله عن جدوى الكأس في غياب المرأة، ألقى عليه السؤال مباغتة، وضحك طرقي من سؤاله، وأجابه بأن الكأس مزاج وحدها، وغاوي الكأس لا يقبل بغيره نديمًا. لم ترُق هذه الفلسفة لفرج؛ إذ إنه يدرك أن طرقي ما زال باقيًا على ذكرى غيداء، وأنه زهد في كل النساء من أجل عينيها. قال له فرج:

- شف يا بو عبيد أنا بصراحة ماني مقتنع بكلامك وأدري أنك إلى الآن باقي على ذكرى غيداء وهذا وفاء منك يستحق الاحترام، بس ودي أوضح لك نقطة مهمة وهي أن العمر يجري وأنا أخوك والسالفة مر عليها سنين، واللي مثلها تزوجت ويمكن بعد جابت عيال.

- يا فرج وسع صدرك. أنا مالي بالزواج؟

- أنا ما قلت لك تزوج، قلت لك عش حياتك ولا تنسى نصيبك من النساء يا أبو عبيد.

- بس اللي يحب يا فرج بنت ما يشوف أحد عقبها.

- أنا أقول مشكلتك أن حب غيداء مستعمر قلبك، وانت مش قادر تطرد هذا المستعمر.

- أيوه أيوه يا دكتور فرج.

- خلني أكمل يا بو عبيد انت منت قادر تطرد المستعمر، علشان كذا لازم تجيب من يحاربه ويطرده من قلبك. يعني انت محتاج دخول أنثى أو أكثر في حياتك ومن خلال تواجدهم راح يتحرر قلبك من الاستعمار. وش رأيك ؟؟

- والله منت سهل يا فرج فيلسوف بعد! أنا أخبرك لاعب كورة، ما كنت فيلسوف!

- يا أبو عبيد اللي لعب كرة يعرف يلعب أي شي ثاني، ويعرف الحياة أكثر. صدقني قوانين الكرة هي نفسها قوانين الحياة. اعتبر قلبك مثلًا مقفل دفاع، وتبي تهاجمه، لازم وقتها تنوّع اللعب، شوية كور طويلة، ولعب من الأطراف، ومرة غزو من العمق، وأحيانًا تسديد من بعيد، وكذا تجيب جول.

- وش الحب عندك يا أبو كورة؟ أنك تجيب هدف مثلًا وتهديه لحبيبتك؟

- ههههه، لا يا أبو عبيد، الحب أنك تضيع البلنتي في نهائي كأس الملك علشان حبيبتك تحب النادي المنافس.

- هذي خيانة لناديك.

- أنت تخون الناس كلهم إلا حبيبتك.

- يا فرج، بالله هذا معني للحب!

- ما أدري عنك، أنت اللي جبت طاري الكورة.

- طيب أبسألِك يا كابتن فرج: عطني معنى للحب عندك، هات مثل واحد لموقف حب.

أطرق فرج قليلًا، حكَّ شعره ثم نطق:

- شف يا أبو عبيد، الحب ممكن يبين في أبسط المواقف، والمحبوب ما يحتاج بطولات علشان يجرب حبيبه. تَخَيَّل نفسك في السيارة مثلًا وحبيبتك جنبك وأنت مسرع، وفجأة ظهرت لك مفاجأة في الطريق ومسكت فرامل بقوة، الحب هنا أنك تمد يدك وتمسك جسم حبيبتك وأنت تعرف أنها ما لبست حزام الأمان. هذا أسميه موقف حب.

سكت طرقي قليلًا، حدق في فرج لبرهة ثم قال:

- و إذا ما هي موجودة أساسًا؟

- الحب هنا أنك تدعي لها أن الله يسعدها وتشوف حياتك وتدور بنت ثانية.

- يا فرج، هذا عاد كلام!

- حبيبتك لو تدري أنك معتزل النساء أكثر من عشر سنين ودرت عنك المفروض تزعل إذا هي تحبك، لو فرحت فاعرف أنها تحب نفسها لأنك دافن نفسك ومقاطع الحريم مع أنّك فحل. (تذكَّر فرج ما كان يوسوس في نفسه عن شكِّه في ضعف طرقي الجنسي).

- فحل! وش الفحولة عندك يا فرج؟

- وأنت ما عندك إلا أسئلة؟ أنت علمني وش الفحولة؟!

اعتدل طرقي في جلسته، وحدَّقَ في وجه فرج وقال له: "إن الفحولة ليست أن تضاجع ألف امرأة، بل أن تضاجع امرأة واحدة ألف مرة". لم يقفل رد طرقي الباب على محاولات فرج؛ إذ استمر في محاولاته لإغواء طرقي وإقناعه بدعوة النساء لشقته. حاول فرج مثل شيطان مُحَنَّك، تَجَلى في أحاديثه، حتى مَلَّ طرقي من النقاش وقال:

- طيب وش تقترح يا فرج، خلاص. سو اللي تبيه.

- أنت بس وافق ولا يهمك، والباقي عليّ، أبقترح عليك خطة لعب 4-2-4، خطة هجومية معتبرة.

ضحك طرقي من كلام فرج، وترك له وضع البرنامج المناسب.

لـم يكـن الموضـوع صعبًـا على فرج، كان مجرد اتصال منه للوزية كفيل بتدبُّـر الأمـر، لكـن فـرج حَذَّرَ لوزية من إرسـال البنات (الـمُسـتَهلَكَات) كما أسماهم فرج، وطلب منها بنات حديثات عهد بالسهرات، وفهمت لوزية مقصده. قالت لوزية إن ما يبحث عنه صاحبك: بنات "أبو جوال وأبو شـنطة". الفتيات اللائي يسـهرن ويرقصن فقط، ولا يبِتن، ويقبضن مقابل ذلك ما يكفي للجوال والشنطة الجديدة.

- عليك نور يا لوزية.

- يا فرج، كلهم في البدايات كذا، مهي البنت يا كانت، يا حاليا، يا مشروع!

- ههههه، وش هذي التقسمية يا لوزية؟ كنها تقسيمة فئات سنية؟

- بسيطة أشرح لك: يعني طلبك في البنت المشروع: مشروع بنت، بعد فترة هتكون بنت خبيرة ومسـتهلكة على قولتك، ومسـتقبلًا هتكون كانت بنت، وبتصير تدور على البنت المشروع وتسحبها معها.

- عجيب! أجل السالفة كذا؟

بدأت السهرات في شقة طرقي بعد مضيٍّ أسبوع واحد من حديثه وفرج، وغالبًا تكون مُجَدوَلَةً في مساء يوم الخميس، وكان ذلك اليوم هو الوحيد لطرقي الذي يفرط فيه في الشـراب، ويضطر للمبيت في شـقته. خلال السهرات الأربع التي أقامها طرقي لم ترُق له أي من البنات، كان يسهر ويضحك معهن ويتفرج على رقصهن فقط. كان طرقي في نهاية كل سـهرة يُسِـرُّ لفرج أنه لم تعجبه أي بنت، ويطلب منه أن يعطيهن مالهنَّ كاملًا غير منقوص، وأن يضيف على حساب كل واحدة خمسمائة ريال إكرامية. بعد مضيٍّ سهرتين، فَكَّرَ فرج أن طرقي ربما يعاني من ضعف جنسـي ما، وحَزِنَ كثيرًا لهذا الاسـتنتاج، بيد أن طرقي يردد أنه لا يرى سوى صورة غيداء، حتى في قعر الكأس التي يشربها.

قبـل السـهرة الثالثـة فَكَّـرَ فـرج أن يقتـرح ضيفًـا آخـر علـى طرقي

لتشجيعه أكثر على الدخول في الأجواء كاملة، فتح معه موضوع أبي ضاري قبل ذلك في زيارة مقتضبة سبقت السهرة الثالثة بيومين، وحَدَّثَهُ عن أحوال جبل وأصدقائه، وحين وصل الحديث عن أبي ضاري قال فرج:

- أوضاع أبو ضاري المادية سيئة جدًّا هاليومين، تصدق أن الفيلا اللي قلت لك عليها أخلاها وسَلَّمها؟

- بالله عليك؟ أجل بطل سواليفه؟

- لا ما بطل إلا البنات، ولا الشرب، ما بَطَّلَه إلى الآن، بس صار ينحد على العرق في بعض الأيام. باع بعض معداته وسياراته وسلّم الفيلا، كله علشان يعدل من وضع قروضه للبنوك ويسدد لو شوي.

- إيه يا زمنَ والا من يصدق أن أبو ضاري يوصل إلى هذي الدرجة!!

- الدنيا دوارة يا أبو عبيد، وهذا الوقت ورَّانا ناس تطلع بسرعة الصاروخ، وناس تهوي لأسفل سافلين في غمضة عين. كله من الربا يا أبو عبيد.

- هذي أمور السوق يا فرج.

- أنت أبخص بالسوق، بس تبي الصدق عاد أبو ضاري يكسر خاطري تراه طيب، بس هو اللي ضيع نفسه!

- كيف يا فرج؟

- أنا أعرف أبو ضاري زين، ما فيه أبيض من قلبه، بس لو فيه لستة سواد وجه مثل كذا لستة المقاضي، فلازم تعرف أن أبو ضاري جربها كلها ولا خلا شي.

- ههههه. الله يرجك؟

- يعني كثر الذنوب اللي عليه خلاه يعض الأرض.

- طيب، ورا ما تعزمه يا فرج، خله يجي يسهر معنا.

- والله كنت أفكر يا أبوعبيد، بس المكان مكانك.

- لا لا. اعزمه وقل له طرقي موصيني عليك، خل نشوف علومه.

- بس أبقولك شي يا أبو عبيد، أخاف يدل الدرب، تلاقيه كل يوم هنا؟

- ههههه. الله يقطع سوالفك يافرج، توك تقول كاسر خاطرك، وش جاك قلبت عليه؟

- صحيح هو كاسر خاطري، بس أنا ألزم ما عليّ أنت يا أبو عبيد، ترا والله غلاك عندي غير.

- يا رجال خلّه يجي، الخير واجد.

مثلما توقَّع فرج أصبح أبو ضاري يعرف تمامًا مواعيد طرقي، ويحضر بعد وصوله للشقة بربع ساعة تقريبًا. أصبح مرزوق ضيفًا ثقيلًا مثل عاصفة رملية، لكنه سرعان ما يتحول إلى ممثل كوميدي منفرد فوق مسرحه. في السهرة الأسبوعية، وخصوصًا عند وجود البنات، كان أبو ضاري يتفنن في إضحاكهن بحركاته، لم يعد ذلك المهيب (مرزوق شنب)، هكذا قَلَبَت الدنيا أبا ضاري، جعلته يصبح الكوميديان الأول بعد الكأس الأولى، والمونودرامي الأخير بعد انتهاء القارورة.

طرقي:

فرج يتحدث عن الحب دائمًا وكأن الحبيبة إلى جانبك، لكنه لا يعلم عن لوعة المُحِبِّ الذي فارق حبيبته غصبًا، ولا يعلم عن جوازي الذي صادره أبي بعد عودتي من لندن، ولا يعلم عن الدموع التي سكبتها في حمامات مطار هيثرو، ولا يعلم عن وزني الذي نزل من 82 كيلو جرامًا إلى 63 كيلو جرامًا حتى صرت شبحًا.

فرج لا يعلم أنه ما من أمنية دعوت لها سوى وغيداء جزء منها، وما من حلم جميل رأيته إلا وغيداء بطلة ذلك الحلم،

ومـا مـن ضحكـة ضحكتهـا من القلب إلا وكانت صورتها تضيء ذاكرتـي، ومـا مـن لحـن عزفتـه إلا واستحضرت صورتهـا أمامي لتسمعني، وما من كأس شربتُ إلا لكي أهدئ من وجيب قلبي، ولا يعلم كذلك أني ما كتبت قصيدة سوى في غيداء.

تذكـرت لحظتهـا قصيدتـي الأولـى في غيداء والتي نشـرتها لاحقًا في إحدى المجلات الشعبية، بعد عودتي أسيرًا برفقة والدي إلى أرض الوطن:

"طرقي اللي خذته من المقادير غادة

أتعبه كل طيف(ن) من حلاها يزوره

ما عرف عقب فرقاها طريق السعادة

متعب الحال في غيبته ولا حضوره"

أوجعتنـي يـا فـرج سـامحك اللـه. أنت ربمـا لا تعلـم أني ما كتبت قصيدة سوى في غيداء، حتى أبي حين مات لم أستطع أن أكتـب لـه قصيـدة رثـاء واحدة، وكأن قلمي يرفض الكتابة لغيرها، كل ما فعلته أني بكيت، وكان كافيًا ذلك البكاء.

(38)

البهو

لم تكف المفاجآت عن مداعبة جبل، تأتيه تمامًا مثل إصبعه حين يطعن مؤخرات النساء في السهرات الخاصة، وجبل الذي كان يتمنى في بداية العام قضاء صيف عامر مع صحبة رائعة ونساء يُعِدنَ تشكيل جغرافيته، أتاه الصيف ولم يعرف كيف أتى ولم يخطط لقضائه.

ليست المفاجأة في كونه لم يخطط للصيف، ولم تكن أيضًا في ذهاب أصحابه، المفاجأة التي لم يقرأها كانت في خبر سفر فردوس بصحبة ابنها طارق، والتي كانت عليه أشبه بالصدمة؛ إذ إن أم جبل لم تخبره سوى عن الحقائب التي خرجت من المنزل بصحبة فردوس وأبنائها نادر وهديل وسامر وفهيد، والذين مضوا إلى بيت الجد فهيد المنهاجي، وبَقِيَ طارق في المنزل وحيدًا. كان جبل يظن أن فردوس وأبناءَها سوف يقضون بعضًا من أيام الصيف في صحبة جدهم فهيد وجدتهم، لكن فردوس غادرت بصحبة طارق وأختها نادية (أم عادل) وعادل ابن صويغاني.

هكذا إذًا مضت فردوس، لا يعلم جبل كيف مضت، ومن الذي أصدر لها وابنها طارق إذنًا بالخروج من البلد، ولكن من المؤكد أن ابن صويغاني على صلة بالموضوع؛ إذ إن أحد إخوته كان ضابطًا ذا رتبة عالية في مكتب الجوازات. مضت فردوس وابنها ولم يعلم جبل سوى بعد رحيلهما بيومين. كان ذلك في صباح صيفي ساخن، هاتف فهيد المنهاجي جبل وأبلغه أن الصغير فهيد مصاب برشح وحرارة مرتفعة، وطلب منه رقم الملف الطبي في المستشفى حتى يذهب به، فوجئ جبل بطلب فهيد وحين سأله لِـمَ لَم يطلب الرقم من طارق أو أمه أخبره فهيد

أنه لم يود أن يقلقهما على حال فهيد وهما خارج البلاد.

كانت معلومة فهيد جديدة على جبل، عرفَ من فهيد أنهما مسافران بصحبة أم عادل وسيقضيان أسبوعين ربما في بيروت، وأحس فهيد أن جبل لا يعلم عن الأمر شيئًا. في تلك اللحظة التي علم بها جبل كانت فردوس وأختها قد نزلتا للتو من غرفتيهما لتناول الإفطار في فندق (فينيسيا) في بيروت، وكان هاتف فردوس مغلقًا، ولهذا لم يتسنَّ لجبل أن يفجِّر غضبه في فردوس. لا أحد يجزم طبعًا إن كان جبل فعلًا سوف يفجِّر غضبه في فردوس وأن يصرخ من الطرف الآخر غاضبًا عليها تحديدًا، لم يفعلها من قبل، ولكنه كان في مزاج يتطلَّب الصراخ على أحد ما. هاتف جبل فرج في ذات اللحظة التي وجد فيها هاتف فردوس مغلقًا، وحين رد عليه فرج قائلًا:

- سم يا عمي.
- عما يعمي عيونك يا كلب، أنت خسيس وملعون والدين.
- عسى ما شر يا عمي؟
- الشر كله فيك يا نذل.
- يا عم هد أعصابك.
- وين أهدئ أعصابي وأنت كلب ابن سطعش كلب، يعني عمتك تسافر وما تعلمني يا كلب؟
- يا عم أنا في مكان عمل الآن، وهد أعصابك.
- وين أهديها!
- أنت بس صبرك عليّ، ترى أنا ما أدري عن اللي تقوله.
- كذاب يا قوَّاد.

قَفَلَ فرج الخط وأطفأ هاتفه، وأدرك أن ذهاب فردوس لبيت والدها حمل مفاجأة لجبل، وهو لا يدرك سر هذه المفاجأة مثل جبل. كل ما كان فرج يعلمه أن فردوس قالت له: "خذ إجازة أسبوعين يا فرج حتى

أكلمك". كان فرج عازمًا على أن يخرج من عمله تلك الليلة للقيام بزيارة جبل في مكتبه، إذ ربما يكون أكثر هدوءًا ويخوض معه في شرح الموضوع بكل صدق.

حين وصل فرج لمكتب جبل بعد مغرب ذلك المساء كانت تنبؤاته في مكانها الصحيح. هدأت أعصاب جبل، وأصبح من الممكن الحديث معه بأريحية، وشرح له فرج أنه لم يكن لديه علم بالموضوع، وكل ما في الأمر أن فردوس منحته أسبوعين إجازة من العمل. عَاتَبَهُ جبل كثيرًا قائلًا له إنه هو من يمنح الإجازات في منزل ابن طرَّاق، وليس لأحد سواه أن يفعل ذلك، وختم كلامه بقوله:

- روح لفردوس وخلّها تدفع راتبك أجل مدامها هي اللي معطيتك إجازة.

قال جبل كلامه الأخير بعد أن رفع صوته أكثر، حتى إنه قام من مقعده وهو ينطق الجملة الأخيرة، تمامًا مثل خطيب شاب فوق المنبر، ثم وضع يديه على مكتبه ونظر لفرج:

- مرة ثانية لا تعَوَّد تأخذ أمر ما هو مني.

وعد فرج بعدم تكرار الأمر، وضحك في نفسه هازئًا من حديث جبل؛ إذ إن إكراميات فردوس تتجاوز مرتبه الذي يوقِّع عليه في نهاية كل شهر في مكتب جبل، ويخصمه جبل من مصاريف فردوس.

خرج فرج من مكتب جبل مع صوت ارتفاع الأذان، لَعَنَ جبل في نفسه وبصق على الرصيف وهو خارج من المكتب، وتَذَكَّرَ فردوس بالخير. كانت فردوس هي التي منحته إجازة لمدة أسبوعين وجعلته يطلُّ على طرقي كل مساء، دعا في نفسه أن يمتِّع اللهُ فردوس بإجازتها، وتهاتفه بعد مضيِّ الأسبوعين لتمنحه أسبوعين آخرين، وتمكث في رحلتها مزيدًا من الوقت.

كانت فردوس تستمتع بالفعل في رحلتها الثانية لبيروت، الرحلة

التي حلمت بها منذ أن زارتها بصحبة المرحوم ليوم واحد عابرةً المعابرَ البريَّةَ من سوريا إلى بيروت. قضا ابن طرَّاق وكل زوجاته وأبنائه ذلك اليوم بفرح غامر، أتوا من سوريا وعبروا المعبر البري ووصلوا بيروت قُبَيل الظهر، مشوا كثيرًا تلك الأيام في شوارع الحمراء وفرن الشباك، وصعدوا التلفريك إلى حريصة، واحتفظوا بصورة عائلية قرب الروشة، وأكلوا من المائدة اللبنانية العامرة في مطعم قرب السوق العتيق في جبيل. منذ ذلك اليوم الذي قضوا، في ما يقارب الساعات العشر، وفردوس تتوق لزيارة بيروت، وزاد تَوقَها للزيارة حديثُ أختِها أم عادل لها بعد كل زيارة آتية من بيروت.

حين خرج فرج على صوت الأذان من مكتب جبل كانت فردوس تستمع لصوت عازفة البيانو وهي تجلس مع أم عادل لتناول الكوكيز وشاي ما بعد المغرب في بهو فندق (الفينيسيا). كان البهو مكتظًّا بالروَّاد على عادته اليومية من كل صيف، حيث يكون في ساعة الذروة لمدة ساعتين تقريبًا. كان من السهل تمييز معظم الوجوه الموجودة يوميًّا: أمراء، وأميرات، ورؤساء أندية رياضية، وتجار، ومُلَّاك قنوات فضائية، ومطربون من الصف الثاني، ومنتجون، وممثلو أدوار ثانوية، وعارضات فيديو كليب، ومصممو أزياء، ولاعبون دخلوا تشكيلة المنتخب للمرة الأولى، وآخرون يحضرون مرة واحدة أو ربما مرتين. بدت فردوس وأختها بأبهى حُلَّة، كان من السهل أيضًا تمييز ماركات المجوهرات والملابس والأحذية والشنط والساعات والهواتف المحمولة. كان المشهد العام بانوراما أشياء كثيرة بلا تناسُق مثل لوحة رسمها رسَّام رديء.

أمضت فردوس بصحبة أم عادل أسبوعين في رحلة لبنان، تعرفت فيها على شكل حياة أخرى كانت تتوق لها، حياة لا تحجبها العباءة والحجاب، حافلة بالحرية، ورأت فيها ما لم تره في ما يقارب الأربعة عقود التي مرَّت من حياتها، أكلت من المائدة اللبنانية كل ما جاء في

خاطرها، وسَرَّحَت شعرها عند الصالونات المتخصصة لنجوم الفن، ومرت أصابع اختصاصيَّات التجميل على كامل جسدها بأجود أنواع الكريمات النسائية الخاصة بالشد وتنعيم البشرة، وعوملت مثلما تُعامَلُ الأميرات وكُبريات الفنانات في متاجر (أيشتي) و(معوض) ومحلات شارع (الفيردان)، وبَقِيَت طاولتها الخاصة محجوزةً كل مساء لمدة أسبوعين في أحد مقاهي السوليدير أمام دوار النجمة. كانت أم عادل خير دليل ومرشد سياحي في الرحلة، تفتح لها الأبواب المغلقة، إذ تبدأ رحلتهما من الصباح على مائدة إفطار (الفينيسيا) وتنتهي بالشاي الأخضر في مقهى بالسوليدير، مرورًا بالعديد من العيادات والمتاجر ومراكز التجميل والصالونات.

في منتصف الأسبوع الثاني، وفيما فردوس تمارس طقوس التَعَرُّفِ اليومية في بهو فندق الفينيسيا حين تحتسي قهوة ما بعد المغرب، لفت انتباهها ذلك الرجل الذي نادى على طارق حين مرَّ من أمام طاولته، سلم الرجل على طارق، وعَرَّفَهُ على زوجته وتبادلا بعض الأحاديث. عاد طارق للطاولة التي يجلس فيها مع والدته وخالته وابن خالته، انتبهت فردوس إلى الرجل وهو ينظر لهم من بعيد، وسألت ابنها:

- من هو هذا اللي سلمت عليه يا طارق؟
- هذا صملول يمه، أبو خالد اللي جاب العشا الكبير يوم العزاء.
- هذا هو صملول؟
- إيه هذا هو، تعرفينه؟
- إيه أعرفه، هذا صديق أخوك جبل.
- أدري أنه صديق جبل، بس هو وش يشتغل فيه، لابس ساعة ألماس ولبسه كوول، حتى اللي معه، تلمع من كل محل.

قطعت أم عادل حديثهم متسائلة:

- من هي هذي اللي معه؟ شكلها لبنانية.

- ما أعتقد، شكلها سعودي أو خليجي من ملامحها. (أجاب طارق)

- بس هذي سافرة مرة، ولابسة فوق الركبة بشوي! (تساءلت أم عادل)

- طيب وش يصير، يعني الخليجية ما تلبس فوق الركبة؟ هذي ملامحها خليجية مية بالمية. (عادل يرد على حديث أمه)

بعد أربعة أيام من سلام صملول على طارق تمكنت فردوس من التحدث إلى المرأة التي رأتها بصحبة صملول، تَبِعَتهَا إلى دورة المياه، وتبادلتا الابتسامة ومن ثَـمَّ التحية، وبادرت العنود بتقديم نفسها بعد أن ذكرت لها فردوس أنها ربما سبق لها رؤيتها ذات يوم لكنها لا تتذكر. بادرت العنود وقَدَّمَت نفسها: "العنود، حَرَم الشيخ صملول". ابتسمت فردوس للعنود، ورَدَّت عليها بأنها: "فردوس المنهاجي، سيدة أعمال". لم تبادر فردوس بتقديم نفسها على أنها زوجة رجل ما أو أرملة، تبادلتا الأحاديث قليلًا واتفقتا على أن تلتقيا فيما بعد، وقبل عودتهما للبهو كان على فردوس أن تجيب على تساؤل العنود الأخير: "أجل أنتي وأختك جيتوا بس بدون أزواجكم؟"، وردَّت فردوس بأنها أرملة، وأن زوجها الشيخ عبيد ابن طرَّاق تُوفِّـيَ قبل عام. ارتبكت العنود بشدة لحظة سماعها من فردوس أنها أرملة ابن طرَّاق، عادت وفتحت صنبور المياه بعد أن أغلقته وغسلت يديها مرة أخرى، أخرجت من حقيبتها قلم روج ومررته على شفاهها، عادت تنظر للمرآة لتخفي ارتباكها وتتأكد من ترتيب الماكياج، وهي تجيب بإيماءة رأسها على أسئلة فردوس. عادت فردوس للبهو، وبَقِيَت العنود مذهولة وكأنما لسعتها شحنة كهربائية.

فوجئت العنود كثيرًا بلقاء الصدفة مع فردوس، إذ لم تكن تتصور أن هذه المرأة الجميلة هي طليقة أبي طارق (الاسم الحركي لابن طرَّاق)، كان في مخيلتها أن زوجات ابن طرَّاق عجائز وعلى قدر متواضع

من الجمال. لم تلاحظ فردوس ارتباك العنود، كانت مشغولة بمتابعة المجوهرات التي تلبسها العنود، وكان من الملفت للانتباه أن العنود في كل مساء تلبس لبسًا أقل احتشامًا، إذ يندر أن تلبس شيئًا طويلًا.

كانت فردوس قبل هذه المقابلة المقتضبة قد رأت صملول وهو يركب السيارة (الميباخ) مرتين أمام الفندق، ولاحظت الرجلين اللذين يفتحان الأبواب له ولزوجته، وكيف كانا يتبعان الميباخ بسيارة مرسيدس صغيرة. تأكدت فردوس أن هذا الرجل يصرف بكرم وبذخ على نفسه وزوجته، كان لا يقيم للمال وزنًا.

فردوس:

سفور! أي سفور هذا الذي تتحدثون عنه يا سادة؟

أرجو أن تستغفروا ربكم إنه كان غفَّارًا، ولا تكونوا مثل العوام، ترددون كلامًا لا تفقهونه. قلت لكم من قبل إني أعرف حدودي، ولا تطلبوا الكثير مني، ولا تحمِّلوني فوق طاقتي، وضعوا أنفسكم في مكاني، أنا في النهاية نفس والنفس لها رغبات، ونفسي لو منعتُها لن أقدر عليها. آن لي يا سادة أن أعيش حياتي، هل رأيتم ذلك الرجل "أبا خالد" كيف يعامل زوجته؟ زوجته التي لا تقترب من ربع جمالي، حتى وأنا على مشارف الأربعين، لا تنافسني. لكن انظروا كيف كان يعاملها، وكيف كان يُلبِسُها مجوهرات مثل ملكة، ويقدمها على نفسه حين يمشي، ويضع يده فوق خصرها حين يقف منتظرًا سيارته أمام الفندق، وكيف يسحب لها الكرسي حين تجلس؟ وكيف تلبس؟ آها، بمناسبة موضوع اللباس، والسفور الذي تتحدثون عنه: هل رأيتم كيف تلبس زوجة أبي خالد؟ كيف تجرؤون الآن وتقولون عن ملبسي بأنه سفور وهي مثلي تسكن ذات المدينة التي أسكن، وزوجها يتاجر في ذات المدينة التي كان أبو جبل يتاجر فيها، هل تكيلون بمكيالين

أم تغضون الطرف؟ أم لأنني أجمل منها تقولون عني هكذا؟

مسكينة هي المرأة الجميلة؛ تلوكها ألسن النساء لأنها أجملهن، وتلوكها ألسن الرجال لأنهم لا يستطيعون الاقتراب منها. إنَّ نصيب المرأة الجميلة قليل في الحياة الدنيا. قال عجائزنا: "الرفلا مرزوقة"، ويدعي البعض أن القبيحة قد دعا لها الرسول الكريم، وأظن أن المرأة الجميلة (مثلي) يكون حظها في الجمال كبيرًا، ويأخذ من بقية النصيب من الحظ في الأشياء الأخرى. آه، كل ما أعلمه الآن أني جديرة بأن يعاملني زوجي مثل ملكة، مثل العنود زوجة أبي خالد.

(39)

التوبة - 1

عـادت فـردوس وأختهـا وأبناؤهمـا مجـددًا للبلـد، ولم تحدث أي مواجهة بينها وبين جبل.

في الأسـبوع نفسـه كانت السـهرة الخامسـة التي يقيمها طرقي في شـقته، كان ذلك المسـاء بصحبة فرج وأبي ضاري في الشـقة منتظرين مجيء البنات للسهرة.

كان حضور البنات عند الساعة الحادية عشرة تقريبًا، وعددهن ثلاث بنات بصحبة الرابعة لوزية. سبق لإحداهن الحضور في إحدى السهرات السابقة، بينما البنتان الأخرتان حضرتا للمرة الأولى لشقة طرقي. كانت منـال مـن بيـن الحاضـرات، الفتاة طويلة القامة، وصاحبة البشـرة البيضاء المشربة بالحُمرة، وقَصَّة "البوي كت" مع القوام الأنثوي الرشيق. دخلت منال الصالة بصُحبة فرج، وأشار هو إلى طرقي قائلًا لمنال:

- هذا هو الشاعر والفنان وشيخنا كلنا اللي تسألين عنه.

قاطعه طرقي وهو يضحك:

- بطل حركاتك يا فرج.

صافحـت منـال طرقـي وتبعتها بقية البنات، وجلسـت بجواره على يساره وهي تسأل:

- أجل أنت طرقي الشاعر والفنان اللي أسمع عنه، أخيرًا شفتك.

- وش هالكلام؟ تسمعين عني؟ من مين؟

- من البنات اللي جو عندكم في السهرات، كلهم يتكلمون عنك ومن كثر كلامهم عنك قررت آجي أشـوف بنفسـي، والله وأكلم لوزية وفرج وعزمت نفسي عندكم، اعتبرني ضيفة يا أخي.

- يعني انت مش جاية عشان...

- لا مش عشان فلوس، أنا جاية بمزاجي، أنا أحب الوناسة والفلة، والناس الرايقين والرومانسيين. وإذا على الفلوس أنا بخير والحمد لله.

- طيب وش عرفك بالبنات اللي يجون عشان الفلوس إذا انتي صادقة؟

- يا طيوب، تعتقد هذولا من وين يجون؟ اللي نشوفهم في الجامعة، وفي السوق، ونقابلهم أحيانًا في السهرات الكبيرة، نرقص ونتونس ونوسع الصدر، ولنا مزاج مثلكم. يعني ما في أحد يشرب إلا أنتو؟

- الله الله!

- إي والله، وأنا أحب أسمع سوالفهم عن الناس اللي يروحون عندهم وسمعت عنك منهم، وتشوقت إني أشوف هالإنسان الشاعر والفنان واللي ما يعجبه أحد، يبي جو رقص وضحك وبس! وبعدين البنات يقولون إنك محترم وجوك رايق، وبصراحة كل اللي عرفوك ارتاحوا من معاملتك.

- كل هذا قالوه عني؟

- أووه! وأكثر. وفي أشياء ثانية ما راح أقول لك عليها إلا بعدين!

كان فرج ولوزية يراقبان المشهد بهدوء، إذ إنهم من حاكوا هذه الخطة بدهاء بائع خردة. نقل فرج كل ما يعرفه عن طرقي ونفسيته إلى لوزية، كما وَصَفَ لها غيداء حبيبة طرقي، وتدبرت لوزية أمر بقية الخطة باختيار منال وإقناعها بتمثيل الدور. أوحى هذا المشهد والحوار المتبادل بأن خطة لوزية وفرج في طريقها الصحيح للنجاح، وكان من الواضح للحضور أن طرقي كان فَرِحًا بمنال، وثبت هذا حين شرع بالرقص معها.

طلبت منال من طرقي أن يعزف أغنية على العود، ورجاها أن لا تستعجل هذا الأمر. بعد مضيٍّ ساعة ثالثة التفت طرقي إلى فرج وأمرهُ

أن يوقف (السي دي)، أشار بيديه إلى الجميع وطالَبَهم بالإنصات مع قليل من الهدوء. كان طرقي منتشيًا قليلًا وأخبرهم أنه سوف يسمعهم قصيدة له، وأختار قصيدة قديمة كتبها محاكيًا وزن قصيدة (من عذابي) لخالد الفيصل والتي غناها عبادي ومحمد عبده وخالد عبد الرحمن بألحان مختلفة، وكان مطلعها يشبه كثيرًا مطلع القصيدة الأصلية. شَرَعَ طرقي يُسمِعُ شِعره للجميع:

"في حياتي ما عرفت إلا هواك

يا حياتي كيف أعيش بلا هواك

في فراقك ما أعرف طعم الحياة

غير نارك تشتعل فيني فداك"

صَفَّقَ الجميع بحرارة، وقام أبو ضاري من مكانه ورمى عقاله بحركة مسرحية عالية المستوى في حضن طرقي، اتجه صوبه وقَبَّلَ رأسه، وردد "صح لسانك". كانت ابتسامة طرقي تلتمع بين الحضور، أحَسَّ بالتجلِّي وأمر فرج أن يناوله العود. تناوله ودوزن الأوتار قليلًا وبدأ يعزف أغنية (من عذابي) على لحن عبادي الجوهر. كان طرقي يغني ويضع رأسه على العود بين الكوبليه الأول والثاني وينظر بانتشاء لمنال فيما لوزية تراقب المشهد بعناية وفرح.

انتهت أغنية طرقي، وصفق الحضور. طلبت منال أغنية مصرية، إذ كانت ترغب في أن ترقص رقصًا شرقيًا. قامت من مقعدها واتجهت صوب أبي ضاري وتناولت بخفَّةٍ شماغَه من فوق رأسه، رَبَطَت الشماغ على وسطها وسط ضحكات الجميع، خصوصًا بعد رؤية صلعة أبي ضاري. علا صوت الموسيقى والتصفيق والصراخ من الجميع بلا استثناء، كان الجميع في حالة ثَمَل قريبة من السُّكر، بيد أن منال كانت برغم ثملها لا يبدو على اتزانها شيء مريب وهي ترقص. كانت منال ترقص باحترافية، يدق ردفها مع دقة الطبلة، وينخفض مع الطبلة التي تليها،

تلوَّت مثل أفعى. كان كل من ينظر إلى منال يتابع حركة الخلخال أسفل ساقها، خصوصًا حين تتكئ على قدم واحدة وترفع الساق الأخرى في الهواء، تطوِّحها وتعود لتضم قدمها للأخرى ويَسري اللحن في جسدها من الكعب مرورًا بالساقين صعودًا للفخذين، وصولًا للردفين اللذين يضبطان نقل اللحن إلى الجذع الأعلى بحركة أفقية، حين كان يصل النغم للصدر تتبدل الحركة وتصبح بقدرة عجيبة حركة عمودية. كان من الواضح أن منال تصب كل خبراتها في الرقص الشرقي في تلك الرقصة، تكافئ طرقي على قصيدته وعزفه للأغنية، وتنفِّذ دورها باحترافية ممثلة هوليودية. كان العرق ينز على نحرها وصولًا للصدر لتصبح طبقة شفافة لامعة تحيط بصدرها. زاد حماس منال في الأغنية الثانية، ارتفع رِتم التجلِّي ووقفت فوق الطاولة لتكمل رقصتها الغجرية الأخَّاذة، وفيما الحضور مستمتعون بالجو الأخَّاذ رنَّ جرس باب الشقة.

كانت رنة الجرس طويلة بشكل يوحي بأن إصبعًا يضغط على الجرس بشكل هستيري، رافَقَ صوت الجرس صوت ضرب متقطع على الباب. انتفض الجميع، وركض فرج متحمسًا باتجاه (السي دي) وأغلقه، وقف مذهولًا ينظر للبقية فيما منال ترتمي في حضن طرقي (لا نستطيع الجزم بأن هذه الحركة كانت جزءًا من الدور التمثيلي). نظر طرقي لفرج برهبة فيما فرج يقف مشدوهًا عند جهاز السي دي، حَدَثَت ربكة بين البنات وجمود حَجَري عند أبي ضاري ولوزية، بيد أن الجرس استمر في الرنين، وازداد قرع الباب.

تحرك طرقي من مكانه، كان يشير للجميع بيديه مهدئًا ومتجهًا صوبَ باب الشقة، تَبِعَهُ فرج وأبو ضاري، نَظَرَ طرقي من العين السحرية، ورأى رجلًا ملتحيًا ذا بنية ضخمة يقف خلف الباب، هَمَسَ لأبي ضاري بأن ينظر، ارتجف جسد أبو ضاري لحظة، وضع عينه على العين السحرية وهو يقول:

- الهيئة، الهيئة، الهيئة.

كانت منال قد تبعت طرقي للتلصُّص عليهم على بُعد خطوات، سَمِعَت أبا ضاري وهو يقول: "الهيئة"، هرعت للبقية وهي تصرخ:

- الهيئة، رحنا فيها يا بنات، رحنا فيها يا بنات.

انطلق طرقي صوب الصالة، وضع يده على فم منال وطلب من الجميع الصمت مشيرًا بسبابته على شفتيه، أخرجهم من الصالة وأدخلهم الغرفة الثانية وطلب من أبي ضاري الذي بدا منهارًا هو الآخر للدخول معهن، حين همَّ بإغلاق الباب التفت لفرج، وجده ينتفض بشدة مثل أبي ضاري ويشير صوب الباب، قال فرج بصوت خفيض:

- المطوع يا طرقي، وش يفكنا من المطوع؟

أشار طرقي لفرج أن يدخل ويغلق باب الغرفة من الداخل، وأمره أن لا يفتح الباب إلا إذا أمره فقط، وطَلَبَ منه أن يشير للجميع بالتزام الهدوء التام. رَنَّ جرس الشقة للمرة الثالثة، وقُرِعَ الباب مجددًا. وقف طرقي بنفسه ليرى من العين السحرية الرجل (المطوع) الذي لا يفصله عن دخول الشقة سوى ذلك الباب، لم يرَ شيئًا إذ كان المطوع يغطي العين السحرية فيما هو يسترق السمع لما يحدث في داخل الشقة.

تراجع طرقي عن الباب قليلًا، خُيِّل له أن الباب سوف يُقتَلَع في أي لحظة، وتراجع للوراء. عاد طرقي للصالة، اتجه لمقعده وسحب قارورة ويسكي من عنقها وجلس، أشعل سيجارة وشرب الويسكي من القارورة مباشرة. استمر طرقي يشرب بشكل متقطع حتى رنَّ جرس الباب مرة أخرى بعد لحظات من شروعه في الشرب، لم يقم هذه المرة، ولم يرغب في رؤية المطوع مجددًا.

ظلَّ طرقي مستمراً في الشرب، وشرع خياله يطوف، بدأ يشاهد حياته كلها تمرُّ كما شريط عرض سينمائي، ظهر له والده ابن طرَّاق، كان في الصورة شديد الغضب، عاد بظهره للخلف وتَسَنَّدَ على المقعد

متسمرًا، ظهرت والدته بعد ذلك في العرض، وكانت تبكي بشدة. توالى الحضور في هذا العرض السريع، ظَهَرَ جبل، بدا سعيدًا وهو يضحك ويشير لطرقي بسبابته، فردوس كانت أيضًا تبتسم واضعةً يدها على فمها محاولةً أن تُخفي ابتسامتها، وظهر أبو غيداء حزينًا يدخِّن سيجارًا في منتصفه، رأى غيداء تبكي بعد ذلك ومن ثَم تأتي لتجلس بحضن أبيها ويربت على كتفها. توالَت البقية: أيمن العابد وصبحي وعماد وكندوس. لم يتخلَّف أحد عن حفلة طرقي المُتَخَيَّلة. شَعَرَ طرقي بأن ذلك اليوم فاحم اللون مثل شعر غيداء القصير، وفَرَّت دمعة من عينه، رفع القارورة إلى فمه وشرع يشرب الويسكي مثل عطشان.

طرقي:

ليست هذه السهرات من النوع الذي يستهويني، وأنا لا أحب الصخب منذ كنت في لندن، ولا أنسجم كثيرًا مع ذهابي مع بعض الأصدقاء إلى أماكن الديسكو. كنت أتخذ أي مبرر حتى لا أذهب للديسكو. كانت أماكن العزف "السولو" هي التي تستهويني، رجل يعزف البيانو فقط، امرأة تعزف الكمان وحدها، أو شرقي يدندن على عوده، أو زنجي ينفخ في الساكسفون. أماكن الصخب هذه ليست لي. لا أعلم كيف تورَّطت بقبول هذا الأمر من الأساس! هل تعلمون أيضًا أني لا أحب المومسات؟ المرأة التي تقبض بعد الفراش لا تستهويني مطلقًا، ولا تقبلها فحولتي. أتذكر تجاربي القليلة مع مومسات لندن، الأمر يبدو لي شديد الانحراف. الجنس يا سادة لا يكون سوى مع مَن تحب، ولا أنكر أن هذه المرأة (منال) قد شدَّتني قليلًا نحوها، لكن لم يتطور الأمر بعد، كان من المهم أن أراها عدة مرات قبل أن أتأكد أني سأكون معها مثل حصان في غرفة النوم.

صدِّقوني لم أضع اعتبارًا لهذا المطوع الذي يطرق الباب

بعنف، إذ إني كنت أنسل من مزرعة والدي ولا أقيم اعتبارًا لأحد حتى الأسد ابن طرَّاق، وأمضي وأكرع من الشراب وأدندن حتى الفجرِ ولا أهتم بأحد. حتى عندما علم عن أمري لم أخف. كنت متماسكًا مثل أبي كأسد، ولهذا هادنني بهدنة الملحق، كنت مصرًّا وكان حكيمًا حين هادنني ذلك الأسـد، والأسـد كما تعلمون لا يهادن سوى أسد مثله.

(40)

التوبة– 2

في الغرفة الأخرى كان جميع الفتيات يجلسن بجوار بعضهن في وضع القرفصة فوق السريرين، يبكين منتفضات بلا صوت ولوزية تحاول تهدئتن، والكل يرتجف. كان أبو ضاري يبكي على الأرض، زَحَفَ على يديه وركبتيه باتجاه الدولاب المخصص لحفظ الوسكي والسجائر الكوبية، فَتَحَ الدولاب وسحب قارورة ويسكي، نظر في أرجاء الغرفة في كل اتجاه، لم يكن ثمة كأس أو آنية زجاجية ليشرب بها، بينما فرج يقف بالباب منتظرًا أي أمر من طرقي. خَلَعَ أبو ضاري فردة من حذائه، فَتَحَ قارورة الويسكي وسكب ملء نصف كأس في الحذاء وشرع يشرب من حذائه. لم ينتبه فرج لمشهد أبي ضاري، ولم ينتبهن البنات كذلك ما عدا لوزية (كانت الأكثر هدوءًا بينهن). رأت لوزية مشهد شرب أبي ضاري من الحذاء، وتَبَسَّمَت بأسى، وتذكَّرت حين رأت أبا ضاري يجلس عند ساقي إحدى الفتيات ذات يوم حين سكرَ، ويخلع كعبها العالي ويصب فيه الويسكي ويشرب، لا تعلم لوزية كيف تكرر المشهد مرة أخرى في لحظة خوف بدلًا عن لحظة إغواء. تنبَّهت لوزية من ذكرياتها على صوت ضحك منخفض من أبي ضاري، انتبه فرج كذلك واستغرب أمر الضحك، التفت إلى أبي ضاري قائلًا:

- هذا وقت ضحك الحين يا أبو ضاري؟

- تصدق يا فرج، شربت وسكي من جزمتي ما أبي أتلف القارورة، بس ريحة الوسكي ما قطعت ريحة الجزمة.

نظر إليه فرج باستغراب، وهز رأسه مسفهًا ما فعله أبو ضاري. لوزية عادت للتهدئة من روع منال.

بقي طرقي وحيدًا في الصالة، أنهى قارورة الويسكي التي في يده، ولم يعُد يسمع طرق الباب ولا صوت الجرس. قام طرقي من مكانه، واتجه للعين السحرية في باب الشقة، كان يخطو بثبات صوب الباب على الرغم من كمية الويسكي التي شرب. نظر من العين السحرية ولم يتبين له أي أحد خلف الباب، قرَّب أذنه من الباب وحاول استراق السمع، ولم يسمع شيئًا.

قرَّر طرقي أن يفتح الباب، تذكَّر أنه كان يفعل أشد من ذلك في مزرعة والده ابن طرَّاق، ولم يكن خائفًا حينها من والده، فكيف إذًا يخاف من المطوع؟ فتح الباب وخطى خطوة للخارج، وقف لبضع ثوان محاولًا التخلُّص من خوفه، اتجه بعد ذلك لمخرج الطوارئ وفتح الباب صوب الدرج، نظر لداخله، ولم يجد أحدًا أو يتبيَّن له أي مصدر صوت. عاد طرقي نحو باب شقته، وقف ونظر نحو قدميه، ورفع رأسه ينظر للسقف، ولم يكن ثمة أثر لأحد، كأن الأرض انشقت وابتلعت (المطوع). عاد طرقي يحدق في باب الشقة المقابلة، تلك الشقة التي لا يعلم مَن يسكنها ولم يتبيَّن له أي صوت في يوم من الأيام، قرَّر أن يمضي نحوها، كأن كمية الويسكي منحته شجاعة نادرة، اقترب من باب الشقة، ونظر من عينها السحرية من الخارج، وكان فعلًا غبيًّا إذ لن يتمكن من رؤية أحد من داخل الشقة. انتبه طرقي لغباء تلك الحركة، رجع برأسه ووضع أذنه خلف الباب، حبس أنفاسه لعله يركِّز سمعه لسماع أي حركة، ولم يسمع همسًا. عاد طرقي بعد ذلك لشقته وأغلق الباب.

بعد أن أغلق طرقي الباب وأحكم القفل جاءَت له الفكرة مباشرةً، مضى للمطبخ، وجهَّز آلة إعداد القهوة، شرع بعمل قهوة سوداء ثقيلة وعزم على ترتيب خطوات الخطة في رأسه فيما آلة إعداد القهوة تعمل. كانت خطة طرقي مبنية على أن هؤلاء البنات يجب أن يمضين أولًا لبيوتهن، وبعد ذلك سوف يتمكَّن هو وأبو ضاري وفرج من الخروج

بأمان خلال ساعة واحدة. رشف طرقي من قهوته، ومضى إلى الصالة ومعه (المجّ) المليء بالقهوة. شرب فنجانه ودخَّن سيجارة واحدة، ثم قام من مكانه صوب غرفته التي كانت خالية. شرع طرقي في تغيير ملابسه، ولبس الثوب والشماغ والعقال. كان من ضمن الخطة أن يدخل إلى الغرفة الثانية ويخبر الجميع بخطته، مضى للغرفة وطرق الباب طرقًا خفيضًا مثل نقر عصفور مذعور. كان فرج ما يزال خلف الباب جالسًا فوق كرسي جذبه للباب وجلس خلفه، إذ لم تقو ركبته على الوقوف كل هذه المدة. رد فرج على طرق طرقي الخفيض قائلًا:

- من؟

- افتح يا فرج، أنا طرقي.

فتح فرج الباب ودلف طرقي للغرفة، فوجئ الجميع بمنظر طرقي بعد أن خلع الجينز والتي شيرت ولبس لبسًا سعوديًّا تامًّا. سحب طرقي الباب وأغلقه، والتفت للبنات مخاطبًا:

- تجهّزوا، كلكم البسوا عباياتكم وبنطلع بعد شوي حسب الخطة اللي نتفق عليها.

أفاق أبو ضاري من نومته فيما طرقي يتحدث، التفت طرقي نحوه وناظره بعينه التي تخفيها النظارة الشمسية وقال:

- أنت يا أبو ضاري أفضل أنك تنتظر مع فرج لحد ما أودي البنات.

- ليه أنتظر؟ (رد أبو ضاري)

- انتظر وبس، أهم شي يمشون البنات بستر لبيوتهم.

خرج طرقي من الغرفة وسحب معه فرج ولوزية ليخبرهم بالخطة، قال لهم إنه سوف يخرج وحيدًا من الشقة، وبمجرد خروجه يجب أن يُغلَق الباب مباشرةً على من في الشقة، أكمل لهم بعد ذلك أنه سوف ينزل لموقف السيارات، وسوف يتفحَّص الوضع متسائلًا إن كان ثمة

مَـن يراقـب مـن هنـاك؟ وبعـد ذلك سـوف يتصل طرقي على هاتف فرج الخلوي ويقول له الخطوة التالية.

خـرج طرقـي مـن الشـقة، وفؤجي أثناء خروجـه بفرج يدفعه بقوة لخارج الشـقة ويغلق الباب مباشـرة، ضغط على مفتاح المصعد، فتح البـاب ونـزل منـه للـدور الأرضـي. خرج طرقي من بـاب العمارة، كان مُلَـثَّمًا بشـماغه، واضعًا النظارة الشمسـية. مضى طرقي باتجاه مواقف السيارات، تجوَّل كثيرًا في المواقف، ودار حول الكثير من السيارات. كان يريـد أن يكـون متأكـدًا مـن أن لا أحـد يوجـد فـي هذه السـاعة في مواقف السيارات، كان خائفًا من أن يكون ثمة من يترصَّده في المواقف. بعد دقائق من التجوُّل في المواقف ركب سـيارته واتصل بهاتفه على فرج وقال له:

- اسمع يا فرج، تطلع أنت من الشقة ومعك البنات، وقبل ما تنزل بالمصعد للدور الأرضي، تدق دقة واحدة على جوالي.

- إن شاء الله.

- أنـا بكـون قـدام بـاب العمارة بعد الدقة على طول وبفتح الباب الخلفي، أول ما يفتح باب المصعد تخلي البنات يجون يركبون السيارة بدون كلام وإزعاج.

- إن شاء الله.

- ترجع للشقة وتنتظر مع أبو ضاري.

- إن شاء الله.

- و ما تفتح لكائن من كان. سمعت؟

- إن شاء الله.

- إذا رجعت يا فِرج للشـقة لا تفتح الباب لو تشـوف أبوي يطل عليك من العين السـحرية، لا تفتح يعني لا تفتح، ولا تطلع من الشـقة لحد ما أجي.

- إن شاء الله.

نفَّذ فرج الخطة، وطلب من البنات الخروج معه من الشقة للمصعد، حين خرجن البنات وهمَّ فرج بإغلاق باب الشقة تسرَّب أبو ضاري من باب الشقة بخفِّة نشال، مضى صوب باب الطوارئ وبدأ بنزول الدرج، تعثَّر بعد دورين وجلس يبكي متألِّمًا وخائفًا. في ذات اللحظة التي تسرَّب فيها أبو ضاري حدث هرج بين البنات وصرخ بعضهن، أشار لهن فرج أن يصمتنَ واضعًا يده على أفواههن وساعدته لوزية في تهدئة الوضع. أقفل فرج الشقة وتناسى أمر أبي ضاري واتصل على هاتف طرقي وأغلق الخط بعد رنة واحدة. نزل بصحبة البنات من المصعد. بعد أن فُتِحَ باب المصعد كان باب سيارة طرقي الخلفي مفتوحًا وهو مطل برأسه خلف النافذة، أسرعت البنات بالدخول للسيارة، ركبن كلهن من ذات الباب، وأشار طرقي لمنال أن تأتي في المقدمة.

عاد فرج للشقة، لم يخبر طرقي عن أمر أبي ضاري خشية أن يوتِّره الأمر، دخل الشقة وأحكم إغلاق الباب، وجلس في الصالة. شرع فرج يشرب من قارورة ماء، وأخرج سيجارة حشيش وشرع يدخِّنها، كان يتمنى لو أن أبا ضاري كان موجودًا، لربما قلَّل وجود أبي ضاري من خوفه، إذ إن خوفه بدأ يزداد مع تقدُّم الوقت وارتفاع الشمس. فكَّر فرج في أن يهاتف طرقي ولم يفعل، خاف أن ينكشف له أن أبا ضاري قد هرب. أبو ضاري الذي عاد وأكمل مسيرته بعد تعثره في سلم العمارة، لم يكف عن البكاء سوى حين وصل سيارته، وحين كان فرج يفكر في مهاتفة طرقي كان أبو ضاري قد انتصف طريق عودته لمنزله.

ازداد شعور فرج بالخوف، كان شعورًا متباينًا بين الخوف على نفسه والخوف على طرقي، شعور من تأنيب الضمير إذ إنه هو من جرَّ طرقي إلى هذا النوع من السهرات، وربما فات عليه أن المكان لا يصلح لمثل

هذه السهرات، وزاد هذا التفكير من شعور فرج بالندم، تخيَّل لوهلة أن المطوع سوف يأتي ويقتحم المكان، والمذنب الأكبر حينئذ سيكون طرقي الذي ملأ خزانته بثلاثة كراتين من الويسكي، سوف تكون حينئذ فضيحة كبرى لطرقي، فضيحة لم يكن هو المذنب فيها، بل فرج. فكَّر فرج في أن أمر اقتحام الشقة من قِبَل المطوع وبقية زملائه هو مجرد وقت لا أكثر، وأن الهيئة لن تفوِّت فرصة مثل هذه الفرصة عليها، وأن المانشيت الأكبر في صحف الغد لن يكون مكتوبًا على الصفحة الرياضية، بل على صفحة المحليات: "هيئة الأمر بالمعروف تداهم وكرًا للخمر". فكَّر فرج في أنَّه لو نظَّف الشقة وأخرج كراتين الويسكي منها لربما لن يجد أفراد الهيئة شيئًا حين يقتحمون الشقة. لم يعد يحتمل هذا الخوف الذي يمزِّق قلبه، قرَّر أن ينظِّف الشقة بنفسه وأن يُخرِج كل كراتين الويسكي إلى سيارته، على الأقل حين تُقتَحَمُ الشقة لن يجدوا شيئًا. نسيَ فرج تحذير طرقي له بأن لا يخرج من الشقة، وفكَّر أن الوقت قد يستغرق أكثر من ساعتين حتى يستطيع طرقي أن يوصل البنات لبيوتهن، ولربما خلال الساعتين، لا بُد للهيئة أن تقتحم الشقة.

شرع فرج مباشرةً في عملية التنظيف، جمع كل القوارير الخالية ووضعها في الكرتون الثالث المفتوح حتى لا يبقى أثر للويسكي، وحمل الكرتون الثالث نصف الفارغ والثاني والأول المليئين ونزل بهم لسيارته. وضع فرج الكراتين في حقيبة سيارته، وحين أقفل سيارته عاد للشقة، تذكَّر فرج تحذير طرقي له بأن لا يخرج من الشقة، لكنه تذكَّر أيضًا أن الشقة الآن نظيفة، وحتى لو اقتحم أفراد الهيئة بعد تبليغ المطوع فلن يجدوا شيئًا. قرر فرج بعد ذلك أنه من العبث الجلوس بعد هروب أبي ضاري وحيدًا في الشقة، هاتف طرقي من هاتفه ولم يُجب طرقي اتصالَه، كان يود أن يخبره أن لا حاجة تدعو للمكوث في الشقة بعد خروج

الجميع وهروب أبي ضاري وتنظيف الشقة. فكَّر فرج أن طرقي ربما كان مشغولًا بتوصيل البنات ولهذا لم يجبه، كان خائفًا من المكوث وحيدًا، وقرَّر الخروج وأغلق الشقة.

كان ضمير فرج مرتاحًا جدًّا لهذا القرار حين وصل لسيارته وهمَّ بالخروج والعودة لمنزله، قاد سيارته باتجاه بوابة الخروج وخرج. في التقاطع الأول من بعد موقع الأبراج السكنية لم ينتبه فرج لسيارة الأجرة التي كانت باتجاهه، فوجئ بالأمر ولم ينتبه أنَّه خرج بالاتجاه المعاكس للسير، حاول في اللحظة الأخيرة تغيير مسار سيارته محاولًا تفادي سيارة الأجرة القادمة باتجاهه، ونجح في أن ينجو من الاصطدام وجهًا لوجه، لكنَّه صعد فوق الرصيف.

كان منظر السيارة (معلقةً فوق الرصيف) غريبًا حين لمحته دورية الشرطة المارة مصادفة بالموقع، وكان فرج صامتًا وملثمًا محاولًا إخفاء رائحة الويسكي النفَّاذة من فمه. طلب الجندي المباشر للحادث من فرج أن يركب معهم، كان الجندي قد انتبه لرائحة فمه النفَّاذة، فتَّش سيارة فرج ورأى كراتين الويسكي، واستغرب كثيرًا حين رأى بعض القوارير الفارغة، أبلغ العمليات أن الحادث يشتبه في كونه لبائع خمر، وطلب سيارة دورية أخرى لتباشر الموقع للمساعدة. لم ينتظر قائد سيارة الأجرة في موقع حادث سيارة فرج، كل ما فعله هو أنه رأى فرج يطلع الرصيف ويصطدم بلوحة اسم الشارع، بينما هو انشغل في رفع إصبعه الأوسط ملوِّحًا لفرج.

فرج:

لا يعلم المرء متى يسقط في هاوية عاقبة أفعاله، هذا ما أُدرِكُ تمامًا، حتى لو كانت النوايا سويَّةً وصافيةً. دعوني أتحدث عن نواياي فضلًا لا أمرًا، أشعر بأريحية حين أتحدث عن نواياي التي تبدو دائمًا أفضل من أفعالي، ولأن (النية مَطِيَّة) كما تعلمون،

وأقسمُ لكم إن نيتي كانت صالحة. كنتُ يا سادتي أرغب فقط في فداء طرقي بروحي؛ إذ ليس من العدالة أن يصبح طرقي في سهرته الخامسة مُدانًا. الآخرون يفرُّون من أعمالهم بعد أن يمضوا السنين في هاوية الأفعال المشينة، ولنقل بدلًا من كلمة (المشينة) الأفعال غير المُعلَنَة، التي تُفعَل في الخفاء.

لو جلستُ يا سادتي في الشقة كان من المُحتَمَل أن تُقتَحَم، وأظنهم كانوا سوف يفعلون ذلك لو بقيت في مكاني قليلًا. عملت حسبتي البسيطة داخل الشقة: لو اقتحموا المكان، سأكون أنا وطرقي مدانين بالجرم؛ إذ الشقةُ مليئة بالخمر، ولكن حين فكّرت بالهرب وإفراغ الشقة من الخمر كان كل ما يدور في خلدي أن لا يُدان طرقي بشيء. حتى حين حصل الحادث الغريب، والذي لا أعلم كيف ارتكبته، لم أكن حزينًا. لا أخفي عليكم، في قرارة نفسي كنتُ سعيدًا بذلك. كانت المرة الأولى منذ اعتزالي القسري كرةَ القدم التي أحس فيها أني بطل، كان المهم لدي أنِّي فديت طرقي. لم أفكِّر كثيرًا في أطفالي وزوجتي آنذاك، لكني متأكد أن طرقي من دون أن أطلب منه ذلك سيتكفَّل بأمر أبنائي وزوجتي حتى أغادر السجن. ربما سنة! سنتان! أو أربع سنوات، لا يهم؛ سوف يتكفَّل بهم خيرًا مني، وأنا متأكد من ذلك. من المهم فقط أن يبقى طرقي حيًّا، حرًّا، طليقًا وسوف يعتني بما تركت. لا ينفع الندم الآن يا سادتي، الجندي فتَّش السيارة وقبل ذلك ابتسم حين اقترب مني، ووجد في سيارتي كل كراتين الويسكي، واستغربت أنه سألني فقط عن القوارير الفارغة، ولم أجبه. كنتُ صامتًا، حتى حين أكَّد لي أني سأذهب معهم للقسم لفتح أكثر من محضر، كنت أعلم أن الأمر قد انتهى.

قبل أن نمضي للقسم جاء طرقي، ورأيت سيارته تحوم حول

المكان، ولم أحاول النظر إليه. هل تصدقون؟ لو قلت لكم أني حين رأيت سيارته تحوم حول مكان الحادث والدوريات تقبض عليَّ، وتحاول استخراج السيارة من مكان تعليقها، كنت داخلَ نفسي سعيدًا. على الأقل كنت سعيدًا بهذا الشعور الذي لم يأتِني منذ مدة، شعور البطولة، مَن جرَّب منكم هذا الشعور؟

(41)

المطوع:

لم يعد هناك سر أكشفه لكم، ما كنت خائفًا منه تعلمونه الآن. اخترت هذا المكان ليس لأنه برج حديث الإنشاء، وليس لأنه من نوع الشقق الفاخرة التي تستهوي البعض، وليس لأن زوجتي الرابعة ليس لها أبناء ولا تحتاج أكثر من شقة. اخترت هذا المكان لأنه فقط بعيد عن أعين المتطفلين. نعم، أنا أيضًا أيها المتطفلين أبحث عن الستر.

دعوني أخبركم لِمَ: لديَّ ثلاث زوجات، وزوجتي الأولى هي أم أطفالي، ولهذا تسكن البيت الكبير مع أطفالها وهذا من حقها بعد زواج أصبح عمره أكثر من عشرين عامًا. الزوجة الثانية كانت أرملة مسكينة، وتكفلتُ بابنتيها بعد موت زوجها وتزوجتها، وأسأل الله أن يتقبَّل ذلك في ميزان أعمالي. أما الزوجة الثالثة، ولأن القدماء قالوا: "القِدر ما يركب إلا على ثلاث"، فقد تزوجتها بعد الزوجة الثانية بسنة واحدة، وكلاهما (الثانية والثالثة) يسكنان في (دوبلكس) متجاور منذ ما يقارب العقد من الزمان. بالمناسبة دعوني أؤكد لكم من تجربة حقيقية أن الرجل يحتاج لتجديد شبابه، تمامًا مثلما قال لكم من قبل الشيخ أبو خالد، وأود أن أضيف هنا أن دورة تجديد الشباب هذه تأتي بعد كل عشر سنوات تقريبًا للرجل، وللتأكُّد من كلامي: بإمكانكم عمل إحصائية بسيطة بين الرجال الذي يتزوجون أكثر من امرأة، وسوف تعلمون حينئذ أن تجاوز السنوات العشر هي ربما المَحَكُّ الحقيقي للرجل، ولمدى رغبته في إكمال حياته مع زوجة واحدة بقية الحياة. نعود لحديثنا: لم يعد هناك سر أكشفه لكم، نعم تزوجت زوجة رابعة، ولكن هذه المرة تزوجت حسب العرف السائد في هذا الوقت، زواج مسيار، وأقسم لكم إن لديَّ من المبررات التي تجعلني أُقدِم على زواج المسيار هذا، وسوف أشرح لكم ذلك. زوجتي

الرابعة هي ابنة ماهر، المقاول السوري الذي بنى لي الدبلوكسين، حيث تسكن زوجتيَّ الثانية والثالثة. ماهر يعمل رجل مقاولات، ويعمل بسجل تجاري باسم (أم العيال)، أنا شريك له بالطبع، أنتم تدركون أن المرتبات الحكومية لم تعُد تسد احتياجات الرجل الشهم مثلي. بالمناسبة أنا أعمل كاتب عدل، ومواظب على صيانة اسمي ومهنتي، وحلفت لله أن لا أدخل الحرام في بطني أو بطن أبنائي وأن لا أخون شرف المهنة، وأظن هذا الشيء يُحسَب لي، ولهذا تشاركت مع ماهر في مؤسسة المقاولات، وماهر كما قلت لكم رجل مقاولات من الدرجة الأولى، وعقوده كثيرة ولله الحمد، ولديه كذلك بنت جميلة، وهي مَن تزوَّجتُ. نعود لصلب الموضوع: قررت أن أسكن في هذه الشقة، وشاءَت الصدف أن يكون جاري هو هذا الرجل الذي تسمونه طرقي. كنت مداومًا على المجيء للشقة تقريبًا كلَّ ليلتين، ولحسن الحظ أن زوجاتي لا يعلمن أين ستكون ليلتي التالية، إذ إن كلَّ زوجة تظن أني عند الأخرى. لم ألاحظ في أيام مبيتي في الشقة أيَّ أمر مثير للريبة طيلة الشهور الماضية، ولم يصدر منها أي إزعاج، حتى بدأت الموسيقى ترتفع في الشهر الأخير، وغالبًا تكون ليلة الجمعة والعياذ بالله. أنا يا سادتي لا أحب الفسوق، ورفع الموسيقى في ليلة شريفة مثل ليلة الجمعة يعتبر فسقًا.

في الأسبوع الذي سبق صبيحة طرق الباب خرجت من شقتي قُبيل الفجر بقليل على صوت الموسيقى، وقرَّبت أذني من باب الشقة المقابلة واسترقت السمع، وللأسف سمعت صوت ضحك ماجن مرافق للموسيقى الصاخبة. تألَّمت كثيرًا والله، ولم أستطع المبيت حتى علا أذان الفجر، وقررت أن أتكلم مع صاحب الشقة. بعد يومين أتيت للشقة بعد صلاة الظهر مباشرة، كان مسيارًا سريعًا لزوجتي، وقررت طرق الباب لتنبيه صاحب الشقة قبل أن أدخل على زوجتي، وطرقت الباب قرابة الدقائق الثلاث، ولم يرد أحد، وكان الصمت مخيمًا على أجواء الشقة،

تذكَّرت أني في زياراتي الكثيرة فترة ما بعد الظهر، لا أتذكر أني رأيت أحدًا أو سمعت صوتًا يأتي من الشقة. أتذكر ذات مرة، قبل ليالي الجمعة التي يكون فيها الصوت عاليًا، أني كنت أرى عاملًا آسيويًا يخرج أكياس النفاية من بعد صلاة المغرب، ومرة رأيت رجلًا نحيلًا يدخل الشقة، ومرة رأيت رجلًا أسمرَ يدق الجرس، لكني لا أتذكَّر أني شاهدت امرأة تدلف للشقة قطُّ. ساورني الشك في أن هذه الشقة تعود لمجموعة من الشباب، وهم والعياذ بالله يأتون ببعض النساء، خصوصًا في ليالي الجمعة، لهذا السبب قررت أن أبيت الجمعة التالية عند (بنت عمي) في شقتها العامرة.

أمضيت الليل عند زوجتي، وبعد منتصف الليل تقريبًا بدأت أسمع صوت الموسيقى، لكنها لم تكن صاخبة، كان الصوت هادئًا قليلًا. ضايقني الأمر قليلًا، لكني لم أشأ أن ألفت انتباه (بنت عمي) لهذا الفسوق. قبل أن أنام وضعت هاتفي الخاص عند "الكومودينو" قرب رأسي ورفعت صوت سورة البقرة لكي يخفي أي صوت آخر.

حين دقت ساعة المنبه قُبيل أذان الفجر بقليل صحوت وسمعت صوت الموسيقى في غرفتي أعلى من ذي قبل، اغتسلت ولبست ملابسي وخرجت، كان عليَّ الخروج باكرًا للحاق بإمامة الصلاة في المسجد القريب من بيت (أم العيال). حين خرجت من باب الشقة كان صوت الأغاني والفسق عاليًا جدًّا، أقفلت باب شقتي واقتربت من شقة جاري. كان صوت أغنية (سواح) القديمة للهالك عبد الحليم حافظ صاخبًا، أحسست بضيق في صدري إذ كان أذان الفجر على مقربة من هذا الوقت. قررت أن أرن الجرس، وفعلت، ومن ثَمَّ قررت أن أطرق الباب. ضغطت على الجرس وطرقت الباب كثيرًا. فجأة انقطع صوت الموسيقى، قرَّبت أذني من الباب لعلي أسمع شيئًا ولم أسمع. كان من المؤكد أن هناك شخصًا أو بضعة أشخاص داخل الشقة، إذ إني سمعت صوت وقع الأقدام على أرض الشقة، لكني لم أسمع أي حديث، لم يكن

ثمة شيء سوى همهمة تأتي من داخل الشقة. انتظرت قليلًا لعل أحدًا يفتح الباب، تسليت بالسواك في فمي وأمضيت اللحظات بالاستغفار. حين لم يستجِب أحد لطرق باب الشقة، واصلت الطرق. ثمة شجاعة أكثر أتتي حين غابت كل الأصوات، لا شكَّ في أن صوت الطرق هو صوت الحق الذي أزهق الباطل، ولهذا واصلت الطرق مجددًا. انتظرت، وطرقت مجددًا، لم يستجب أحد.

بعد مضيٍّ قرابة الدقائق العشر قررت أن أغادر المكان، كما قررت أن أترصَّد لصاحب هذه الشقة، لكي أتحدث معه من باب المناصحة، فإن لم ينتهِ ويزيل منكره بالصوت ربما أقرر اللجوء لاحقًا لهيئة الأمر بالمعروف ليغيروه بيدهم. المعضلة الكبرى أني لو أبلغتهم لن أكون في ملجأ عن أعين المتطفلين، إذ إن زواجي ما زال سريًّا وغير مُسجَّل في سجلات المحكمة، وأنا أرغب في الستر كما تعلمون.

الفَصْلُ السَّادِسُ

(42)

حكاية العين السحرية

هكذا وقعت الواقعة، ودخل فرج في قضية لم يحسب لها، انزلقت قدمه في هُوَّة بئر سحيقة، وتخلَّى الجميع عنه.

كان جبل أول الذين تخلوا عنه، لم يكلف نفسه عناء زيارته أو حتى السؤال عنه، وحين ورد إلى مسمعه أن القضية المترتبة على فرج هي شُبهة بيع الخمر لم يكلف نفسه حتى عناء السؤال عن حال أبنائه. طلب جبل من صبحي أن يخبر أم طارق بالموضوع، وأخبرها صبحي، وكانت مفاجأة صاعقة لفردوس التي لم تتبين كل ملابسات الموقف، لم تدرك كيف حصل الأمر، ولا كيف اِتُّهِمَ فرجُ ببيع الخمور. كان من الصعب عليها أن تصدِّق أن هذا الحمل الوديع معها في طاعتها ما هو إلا بائع خمر، لكن الشكوك حاكت في نفسها، وشكَّت في أن جبل له علاقة بالموضوع، خصوصًا بعد أن عادت من السفر وحكى لها فرج عن غضب جبل حين علم بسفرها، وكيف أنه لم يصدق أن فرج ليس لديه علم. كانت فردوس تعلم أن جبل يسترق الأحاديث من الجميع عنها.

قررت الشركة الأمنية التي يعمل لديها فرج فصله عن العمل بمجرد وصول خطاب الشرطة لها، كان الأمر سريعًا، وردَّت على الخطاب بخطاب مماثل وأرسلت نسخة لمكتب العمل لتعلن أن فرج قد تم فصله عن العمل بعد ثبوت قضية جنائية عليه. كان أبو ضاري مشغولًا بنفسه وترتيب أموره المالية فلم يلتفت لأمر فرج، حَزِنَ لحاله، لكنه تجاهل الأمر وكأن لا علاقة له بما حدث، وحمد الله أنه قرر الهروب من الشقة، إذ وصله خبر القبض على فرج بحكاية مختلفة قليلًا، وكان

متأكدًا من أنه لو جلس في الشـقة كما أمره طرقي لربما آلت حاله إلى مثل حال فرج.

علـى العكـس مـن موقـف جبـل كان طرقـي هو صاحـب الموقف الأقوى، قرَّرَ هذه المرة أن يكون صاحب اللمسـة الإيجابية، وزار فرج للمرة الأولى في التوقيف مسـاءَ نفس اليوم الذي قُبِض فيه على فرج. حين قابل طرقي فرج حيَّاه فرج بابتسامة، لم يستطع طرقي أن يرد عليها بكلمة، تيبَّس حلقُه ولم يقوَ على الحديث، وكل ما قاله لفرج أن طمأنه علـى أن أولاده وزوجتـه مكفولـون لديـه، وليعتبـر نفسـه أخًا له. لم يطل اللقاء، دام لبضع دقائق، وخرج طرقي من الحجز بعد لقائه حزينًا، وحين وصل لسيارته ركب وبكا بكاءً مرًّا على فرج قبل أن يعود لمنزله.

في ذلك المساء لم يذهب طرقي إلى شقته، وقرر عدم الذهاب لها منذ ذلك اليوم المشئوم. عاد لمنزله، وفوجئت والدته حين أطلَّ عليها بعد التاسـعة، مبكرًا على غير عادته. جلس طرقي مع والدته قليلًا، وألحَّت عليه بالسـؤال إن كانت حالته على ما يرام، وطمأنها. كان الوجوم باديًا علـى مُحيَّـا طرقـي، لـم يمـر ذلك اليوم مرور الكرام، مر ثقيلًا مثل حجر عتيق لم تفلح الريح في زحزحته. منذ ذلك المساء أدركت أم طرقي أن ثمة أمرًا غريبًا يبدو على ابنها. أمر لم تعتده طيلة عقد من الزمان، ظلت تراقب ابنها على تلك الحال لبضع ليال، وتشهد على كل التغيُّرات التي طـرأت عليـه، بـدءًا مـن عودتـه كل مسـاء بعد صلاة العشـاء وعدم ذهابه لمكان آخر، ومرورًا بذقنه التي بدأت ترسـم ملامح لحية غزيرة الشـعر سـتطول فـي الأيـام اللاحقـة، وملاحظـة ثوبه الـذي قصر طوله قليلًا بعد عدة أيام، وإفاقته كل فجر مع أذان الفجر.

كانـت توبـة لطرقـي، وظـنَّ أنـه وصل للطريـق الصحيح، واعتبر ما حدث له في تلك الجمعة رسالة ربانية، بغرض إنذاره ليصحو من غفلته. طرقي الذي ما عرف كيف يخطط للمضيِّ في طريق ذات يوم، واكتفى

بركوب أول طريق، ومضى لا يعلم أين المسير. قرر طرقي أن ينقطع عن الشرب وفعل، وقرر أن يمتنع عن العود وفعل، وقرر أن يقطع التدخين، وفعل في اليوم الأول فقط. في مساء اليوم الثاني دخَّن طرقي سيجارة وحيدة في حمام غرفته ودار رأسه حتى كاد أن يسقط لولا أنه تمسَّك بالمغسلة، وفي اليوم الثاني دخَّن سيجارتين، واحدة في الصباح بعد أن خرج من منزله ذاهبًا لمكتبه وفيما هو يشرب قهوته السوداء، والأخرى في حمام غرفته. بعد اليوم الخامس كان طرقي يدخِّن من ثمان إلى عشر سجائر يوميًّا متخفيًا عن الأنظار، لكن مصاريف تدخينه تضاعفت كثيرًا، إذ أصبح يسوك أسنانه طيلة اليوم، يتمضمض ويتناول حبوب النعناع المنعشة، ويتطيَّب بدهن العود وزجاجة عطر فرنسي بعد كل سيجارة. كل أفعال طرقي الظاهرة كانت تشير إلى التزام ديني: أطلق اللحية وقصَّر الثوب، لكنه لم يتنازل عن عقاله، كأنه بدأ يتحول إلى ذلك الكائن الذي وقف خلف العين السحرية في شقته في فجر الجمعة ذاك.

استمرت أم طرقي تراقب كل التغيرات التي طرأت على ابنها، كانت فَرِحَةً جدًّا وودَّت لو أن ابن طرَّاق عاش ليرى ذلك التغيُّر الذي قطعًا كان نتيجة دعواتها له كل ليلة بأن يهديه الله ويكف عنه أولاد الحرام. بعد عدة أيام من متابعة أم طرقي لابنها شرع الفرح يطرق قلبها مثل مسافر عائد، ولم تستطع تحديد هُويَّة هذا التغيُّر سوى حين فاتحته ذات صباح بحديث حانٍ قائلةً:

- والله يا ولدي أن النور بادي يطلع في وجهك هالأيام عسى الله يثبتك على الإيمان وطاعة الرحمن.

لم يعقِّب طرقي على الحديث، اكتفى بابتسامة خجلى، كان في قرارة نفسه خجلًا من كل أفعاله في حياته الماضية، تحديدًا منذ عودته من لندن.

كان طرقي يظن أن كل هذه الأفعال سببت لوالدته تحديدًا متاعب

لا تُحصَى، صبَّ فيها والده ابن طرَّاق جام غضبه على أم طرقي، والتي من الأساس لم يكن نصيبها جيدًا في الحصول على حظوة عند ابن طرَّاق. كانت أم طرقي تكتفي بالصمت والبكاء الصامت حين يعنِّفها ابن طرَّاق لعدم قدرتها على تربية ابنها التربية المطلوبة، معتبرًا كل هذا الفساد الذي به ما هو إلا نتيجة دلعها الزائد له، والذي انتهى إلى انفراطه وعدم انضباطه في حياته: فشل في دراسته، وأدمن الموسيقى والدخان والخمر، وهي لا تفعل شيئًا.

حين اعترض ابن طرَّاق طريق ابنه طرقي اكتفى طرقي بعد ذلك بالوقوف، لم يتزحزح عن مكانه، عدَّ غيداء طريقه الذي لم يصل إليه، وحرية لندن حياة مختلفة. هاتف طرقي أباه في بداية الصيف الأول بعد انتهاء الفصل الدراسي. كان ابن طرَّاق يعتقد أن طرقي سوف يأتي لزيارتهم في ذلك الصيف، وكان قد أعد العدة لإيقاف ابنه عند حدِّه. كانت أخبار طرقي تصل لمسمع أبيه بدِقَّة وتفصيل، كان أيمن العابد هو الناقل الرسمي لأخبار طرقي الذي لا يعلم بهذا السر. في تلك المحادثة الهاتفية أخبر طرقي أباه أنه ينوي عدم المجيء في ذلك الصيف، كان يحس من استعجال أبيه لعودته أن في الأمر سرًّا لا يدرك كنهه. فوجئ ابن طرَّاق بقرار ولده، وارتفع صوته من خلف الهاتف مطالبًا ابنه بضرورة زيارة العائلة في ذلك الصيف، لأن قلب أمه يحترق لغيابه، ورفض طرقي. حين احتدم النقاش ارتفع صوت ابن طرَّاق قائلًا:

- وش المصيبة اللي طايح عليها علشان ما تجي؟

- ما فيه مصيبة يا يبه، بس عندي أشغال وواجبات علشان أعد العدة للفصل الجاي.

- يا كلب، تكذب عليّ بعد! والعراقية بنت الكلب التي تمشي وراها مثل الكلب، تحسبني ما أدري عن شي؟ أنا مكلمك من شهرين، وحذرتك من هالأمور.

أُسقِطَ في يد طرقي الذي أدرك للمرة الأولى أن أباه لديه علم بعلاقته مع غيداء، صمت قليلًا حتى عاوده صوت أبيه صارخًا:

- تكلم يا كلب.
- نعم يبه، فيه بنت أحبها وتحبني وبصراحة ناوي أتزوجها.
- أنت من جدك يا ملعون؟ يا كلب أنا أصرف عليك علشان تدرس ولا علشان تخاوي قحاب؟
- يا يبه...
- اسكت، عندك مهلة ثلاث أيام تدور حجز وترجع، وهذا كلام نهائي.

أغلق ابن طرَّاق سماعة الهاتف، كان يعلم أن طرقي لن يأتي، ويعلم كذلك أن خطة قطع المصروف أو أي خطة ثانية لن تأتي به، ولهذا قرَّر أن يسافر بنفسه للمجيء بطرقي.

في اليوم الثالث لمهلة ابن طرَّاق فوجئ طرقي بباب الأستوديو الذي يسكنه يدق في الثامنة صباحًا، كان للتو قد صحا من نومه، خرج من غرفته وهو يعرك عينيه، وصل لباب الشقة ونظر من العين السحرية، ارتجف حين رأى أباه عبيد ابن طرَّاق يقف بنفسه خلف الباب، عرك عينيه مجددًا وهزَّ رأسه ونظر مرة أخرى، كان ذات الرجل يقف خلف الباب بهيئته كاملة، لابسًا ثوبه وشماغه وعقاله. التفت طرقي الذي بُهِتَ بما رأى، أسند ظهره على الباب وانعقدت ركبتاه ونزل بجسده على الأرض، قعد على الباب وهو يبكي بصمت، قطع بكاءَه صوتُ رنين الجرس مرة أخرى، وطرق الباب مجددًا. هبَّ طرقي واقفًا من مكانه، تماسك وفتح الباب بهدوء، نظر إلى وجه أبيه الذي كان يبتسم، دنا طرقي من أبيه وقبَّلَ رأسه وانحنى على يده، كان يشك أن ابتسامة أبيه تُخفي أمرًا جللًا. بعد السلام دَلَفَ ابن طرَّاق للشقة، دخل على صالة أستوديو طرقي الصغيرة، رأى العود، والمنفضة المليئة بالسجائر، وقارورة

الويسكي التي بقي ربعها. تلفَّت ابن طرَّاق قليلًا في جنبات الأستوديو، ثـم التفـت إلـى طرقـي الـذي أغلق الباب وبقي مسـتندًا عليه، ابتسـم ابن طرَّاق في وجه ابنه وقال:

- وين الحمام يا ولدي؟

تحرك طرقي من مكانه، وأشار قبل أن يتحرك باتجاه الحمام قائلًا:

- من هنا يبه؟

مشى أمام أبيه وفتح باب الحمام، وأضاء النور قائلًا:

- أعذرني يبه، توني قايم والحمام مهو مرتب؟

- مـا يخالـف يـا ولـدي، أنـا محصـور مـن عقب الطيـارة وطريق المطـار. البـس ملابسـك علـى مـا أطلع من الحمـام. (كان طرقي يرتدي شورت فقط)

أقفل ابن طرَّاق باب الحمام، ومضى طرقي باتجاه الصوفا والطاولة فـي الصالـة الصغيـرة، خبـأ العود وقارورة الويسـكي في دولاب غرفته، ورمـى المنفضـة بمـا فيهـا في كيس النفاية، رتب المسـاند وفتح السـتار والنافـذة ليدخـل هـواء يوليـو وينعش الصالة الضيِّقة. كانت حركة طرقي سـريعة فـي الأسـتوديو لإخفـاء مـا تمكَّن من إخفائـه، وبعد ذلك مضى للغرفـة ولبـس (بنطـال جينـز وتي شـيرت). فـي الحمام أطال ابن طرَّاق مكوثـه، وكان متعمـدًا ذلـك حتـى يسـمح لطرقـي بإزالـة مـا يتمكَّن من إزالتـه. لـم يكـن بمـزاج يسـمح لـه بعتاب ابنه فـي ذات اللحظة، وحين هدأت حركة طرقي خارج الحمام قرَّرَ ابن طرَّاق أن يخرج من الحمام، خـرج وهـو ينفـض يديـه مـن البلل ويطوحهما فـي الهواء كمن يتخلص مـن أذى. كان يريـد أن يوحـي إلـى ابنـه أنـه انتهى للتو من غسـيل يديه، نظر إلى طرقي قائلًا:

- حيا الله ولدي، وشلونك؟

- الحمد لله يا يبه.

- يللا قم تجهز وخل نمشـي نفطر برا، أبيك تعزمني على فطور لندني.

- إن شاء الله يبه.

تذكَّر طرقي أنه شرب في الليلة التي سبقت مجيء أبيه، مضى وغسل أسنانه وتعطَّر وخرجا معًا.

تناول ابن طرَّاق إفطاره بصحبة طرقي ذلك الصباح في مطعم لبناني فـي (أدجـوار رود)، تحـدث طرقـي مع أبيه أحاديث كثيرة عن الدراسـة، والاغتراب، وأحوال الطقس المتقلِّبة، وسكان لندن العرب، والمظاهرات التـي يراهـا كل يـوم أحـد، والأقليـات المتنوعـة في لندن، وأشـياء كثيرة أخرى، ولم يتحدثا طيلة الثلاث ساعات التي أعقبت الخروج من الشقة عن أي أمر يخص غيداء، والأدهى أن ابن طرَّاق كان باسمًا حنونًا طيلة الوقت. أحسَّ طرقي ببصيص أمل أن أباه قد قَبِلَ مسألة زواجه من غيداء، وأتاه ذلك الهاجس الرومانسي في كونه سوف يفاجئه ويخبره أنه سوف يخطب له غيداء بنفسه، خصوصًا أن ذلك كان شرط أبي غيداء والذي لم ينقله لأبيه بعد، وبنى الكثير من الآمال. بعد العودة إلى الشـقة قرَّر ابن طرَّاق، والذي جاء بلا حقيبة سفر أن يخلع ثوبه ويُبقي على السروال والفانلة، تمدَّد على الصوفا الوحيدة في أسـتوديو طرقي، وشـرع يحدِّق في سقف الشقة الصغيرة، وخاطب ابنه قائلًا:

- يا ولدي أمك تبي تشوفك وقلقانة عليك، وأنا حجزت لك في رحلة بكرة الصباح، وبنمشي سوا. حضر شنطتك الليلة علشان نروح.

أغمـض ابـن طـرَّاق عينيـه، وبعـد ثـوان من جمـود طرقي واقفًا في مكانه سأله ابن طرَّاق قاطعًا جموده:

- كم الساعة الحين؟

- الساعة إثنعشر إلا ربع.

- قومنـي مـن النـوم بعـد سـاعتين، بنطلـع نتمشـى فـي الحديقـة

ونتغدى، ولا تنسى شنطتك.

كان ذلك اليوم هو اليوم الأخير لطرقي في لندن، جهَّز حقيبته واكتفى بأغراض قليلة، وكان مؤمنًا بأنه سيعود، حتى حين قال له ابن طرَّاق في صالة المغادرة في مطار هيثرو:

- الظاهر أن لندن ما تصلح لك يا ولدي!

قالها ابن طرَّاق بلا مناسبة وبهدوئه الذي بدا عليه منذ حضوره للندن، وتسللت خيبة الأمل إلى طرقي الذي بكا في حمام صالة المغادرة كثيرًا لهاجس الخوف بعدم المجئ مرة أخرى، وبعد وصول الرحلة إلى المملكة كان الفعل الأول لابن طرَّاق بأن مَزَّقَ تصريح السفر فور نزوله من الطائرة، لم ينظر إلى طرقي وهو يمزقه، لكن طرقي رآه ولم يستطع منعه من ذلك، وكان ابن طرَّاق مدركًا أن ابنه قد انتبه لفعلته، ولهذا مزَّق التصريح ببطء شديد.

حين فَرَغَ ابن طرَّاق مع طرقي من ختم مكتب الجوازات وضع جواز ابنه في جيبه الأيمن، والذي كان خاليًا من الربطات هذه المرة، وضعه بالحركة البطيئة، إذ نقله بين جيبه الأيمن والأيسر مرتين محاولًا إدخاله في الجيب، حتى أعاده أخيرًا إلى الجيب الأيمن، وبعد أن أدخله في جيبه مضى في طريقه وهو يلوي لسانه بداخل فمه وكأنما يزيل عوالق الأكل بين أسنانه ولثته. تظاهر ابن طرَّاق بمظهر الرجل الذي لا يبالي أمام ابنه، وحافظ على هدوء أعصابه حتى خرجوا من المطار. كان جبل في استقبال أبيه وأخيه، نزل من السيارة وقبَّل رأس أبيه وبادل طرقي السلام والعناق، ومضى لقيادة السيارة. التفت ابن طرَّاق لطرقي قائلًا:

- اركب يا السلوقي.

تأكد طرقي أن هذه الزيارة لم تكن مجرد زيارة لوالدته التي اشتاقت لرؤيته، بل عودة إجبارية لمنزل ابن طرَّاق. كان ابن طرَّاق قد كلَّف أيمن العابد بتسليم أستوديو طرقي للمالك ودفع ما ترتب عليه من إجراءات

فسخ العقد، وكلَّفه كذلك بشحن ما تبقَّى من أغراض طرقي، أمَّا طرقي فقد صُودِرَ جوازُه، وحكم عليه أبوه بعد حبسه لمدة أسبوعين في ملحق المنزل الخارجي أن يعمل في مكتبه من الثامنة حتى الثامنة، وأشار لأمين الصندوق في مكتبه أن يعامله مثلما يعامل عامل نظافة.

كانت الرحلة حزينة لطرقي، وقف أبوه في طريقه الذي كان يرغبه، وكانت العين السحرية تخفي مفاجأة من العيار الثقيل، وبعد عقد من الزمان فاجأته عين سحرية أخرى بمفاجأة من العيار الثقيل أيضًا: وقف المطوع في طريقه هذه المرة، وكأن على طرقي أن يتلمس حكمته ويغير مسلكه، ولو استمر في طريقه لربما كانت نهايته تمامًا تشبه نهاية فرج، فرج الذي أصبح في عداد المأسوف عليهم؛ أرهقت نفسه التحقيقات، وطلبات الاعتراف.

في زيارة طرقي الثانية لفرج جاء طرقي مبتسمًا وملامح وجهه تحفل بلحية خفيفة، كان في صحبته سجادة صلاة ومصحف وعلبتا دخان مارلبورو أحمر لفرج، كما وعده بزيارة أخرى في شهر رمضان.

طرقي:

الوقت يمضي سريعًا، قبل فترة غير قصيرة أنهيت العقد الثالث من عمري وشرعت أخطو في عقدي الرابع. من المحزن أني علمت للتوِّ مقدار حجم ذكرياتي الضئيل. "كيف راحت يا أبو ضاري حياتي شقاوي"، كنت في سهراتي الأخيرة أنظر إلى أبي ضاري، وأغنِّي هذا المقطع لمحمد عبده مع تحريف بسيط، ولم أكن أعلم أني كنت أعيش في دوامة كبرى. رأسي يكاد ينفجر، أتطلَّع للماضي ولا أعلم كيف مرَّت سنيني خاوية، تحصَّلت على درجة عالية في دراستي الثانوية ومن المؤسف أني لم أكمل الجامعة. رفضت إكمال دراستي بعد برونل. من المؤسف أيضًا أني بالرغم من نشري لقصائد كثيرة في المجلات

الشـعبية لا أحد يعرفني، لو مضيت في طريق الشـعر لربما كنت الآن شاعرًا بارزًا في مسابقات الشعر التي تهطل من كل جانب. من المؤسف أيضًا أني اعتزلت النساء، لو أردت ذلك لكنت قد فعلـت، لا أعلـم لِـمَ غفلـت عنهن! كيف مضت كل تلك السـنين وبقيتُ الآن بلا محطة بارزة أفخر بها وأحكيها لأبنائي؟ أظن الآن أن لدي لائحة طويلة من الأشياء التي يجب أن أعيد التفكير بها، لائحة طويلة يا سادتي، والوقت يمضي سريعًا.

إنه شيء يشبه لعب كرة القدم في الدقائق الخمس الأخيرة وأنت خاسر بهدفين؛ إذ إن الوقت يمضي سريعًا، حتى إن الناس لم يعد بإمكانهم تنفيذ كل ما كتب في اللائحة الطويلة للأعمال التـي يتوجـب القيـام بهـا. لكن، لأن لائحة الأعمال طويلة جدًّا لا بُد للوقت أن يمضي سريعًا لـقطع هذه المسافة الطويلة.

(43)

المانشيت

ذهبت عاصفة الصيف، وهدأت الأحوال للجميع ما عدا فرج، والذي ظلَّ يتقلَّب في فراشه الرث في السجن، بيد أن البقية انشغلوا في طقوس رمضان المعتادة. حتى طرقي لم يتذكر زيارة صاحبه سوى بعد مضيِّ عشرة أيام. كان طرقي في هذه الأيام العشرة مداومًا على صلاة التراويح كاملة، إضافة إلى قضائه ثلاثة أيام بصحبة والدته في مكة، اعتمرا وصلَّيا في الحرم المكي.

كانت واضحةً للجميع هذه التغيرات الجلية على حال طرقي، والذي زار جبل بعد قطيعة امتدت لبضعة أسابيع في مساء اليوم الأول من رمضان. ذهب طرقي بصحبة والدته لمنزل ابن طرَّاق، دخل من الباب الجنوبي المخصص للنساء، ولم يكن ذلك المساء معدًّا لاستقبال أيِّ امرأة، ولم يكن في المنزل سوى أم جبل وشقيقة جبل التي جاءَت لزيارتها. دلف طرقي إلى الصالة الواسعة، واتجه بصحبة والدته ممسكًا بيدها إلى أم جبل، قبَّل رأسها وبادرها بالسلام، وتبادلا الأدعية المعتادة في يوم رمضان الأول، كما سلَّمَ على شقيقه جبل ثم اتجه للمجلس الرئيسي، كان متأكدًا أن جبل سوف يجلس في المجلس في تلك الليلة كما عادة أبيه من كل رمضان.

فوجئ جبل وبقية الموجودين القليلين في المجلس بدخول طرقي، ولم تكن المفاجأة لدخوله عليهم بعد قطيعة؛ إذ الوقت مناسب لقطع دابر القطيعة، ولكن مفاجأتهم كانت لرؤية هيئة طرقي الجديدة والتي لم يعتادوها، حتى إن البعض لم يتعرف عليه من الوهلة الأولى. دخل طرقي للمجلس الكبير برجله اليمنى ورفع صوته بالسلام، قام جبل من مكانه

مباشرة. عرف جبل طرقي مباشرة حين بادر بالسلام، وحين همَّ بمصافحة صبحي والذي كان جالسًا عند طرف المجلس من جهة اليمين، كان جبل واقفًا منتظرًا قدوم طرقي. أكمل طرقي مصافحاته وتهانيه برمضان للجالسين، مر على عماد الحضرمي، وتقدم ثلاث خطوات لمصافحة سرحان بن مسبط، ويليه طارق (لم يذهب مع والدته لبيت جده وبقي بناء على أمر فردوس)، كان صملول هو الرجل التالي لطارق، كان جالسًا بين طارق وجبل، صافحه طرقي مصافحة رسمية، وبعده واجه أخاه جبل. كان سلامًا باهتًا من طرقي وحارًّا من جبل والذي شد على يدي أخيه. الرجل الذي كان يلي جبل لم يتعرف عليه، بادره بالسلام ومضى في طريقه. بادر طرقي بإكمال السلام على بقية الجالسين وكانوا ثلاثة (هم: جاران لمنزل ابن طرَّاق ونسيب جبل). بعد أن انتهى طرقي من السلام التفت ودار بعينيه على المجلس، بادره جبل بقوله: "تعال هنا يا طرقي" وأشار للمكان الخالي عن يمين الرجل الذي لم يتعرف عليه، لم يُعِر طرقي إشارة أخيه جبل أيَّ اهتمام، وقال وهو يطوِّح بيده في الهواء: "خلوكم في أماكنكم"، واتجه للجلوس عن يسار ابن مسبط وترك مقعدًا خاليًا بينه وبين سرحان. فيما كان يهم بالجلوس رفع صوته قائلًا:

- الشهر مبارك عليكم يالربع.

ردت أصوات كثيرة عليه قائلة: "علينا وعليك" و"الله يبارك فيك" و"الله يبلغنا صيامه وقيامه". هدأت الأصوات بعد ذلك ما عدا جبل والذي أردف قائلًا:

- الله يبلغنا صيامه وقيامه ويجعلنا من عواده. (أَمَّنَ الموجودون)

لم يرد طرقي على دعاء جبل، بقي صامتًا للحظات. أخرج مسبحة وبدأ يعد حباتها، وضع رجلًا فوق رجل ونظر إلى السقف مرخيًا رأسه على المسندة، قطع صمت الجميع حين قال بصوت خفيض: "أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله". كان الجميع مندهشين لهيئة طرقي

الجديدة والتي لم يتعود عليها أحد.

مضت الدقائق بطيئة على الجميع، كأن الجو ازداد توترًا (لم يكن الجو حميميًّا قبل دخول طرقي)، شرب طرقي فنجاني قهوة قبل أن يقوم من مكانه ويدخل للمنزل. لم يقل أحد أيَّ كلمة حين قام طرقي من مكانه، دخل وجلس مع والدته وأم جبل قليلًا قبل أن يستأذنا من أم جبل ويودعاها. كانت الزيارة خفيفة، بدت في ظاهرها ملطِّفةً لأجواء المنزل المشحونة، واستبشر فيها جبل خيرًا. كان جبل متأملًا من هيئة طرقي والتي تغيرت بالثوب القصير الواسع واللحية النابتة على وجهه وطيب رائحته أن طرقي قد هداه الله، وقرر عودة المياه لمجاريها وربما العودة للبيت الكبير. حتى وإن لم يعد للسكن، فحتمًا سيعود لترميم الصف المنشق. فرغ جبل باكرًا من زوار ومهنئي دار المرحوم ابن طرَّاق بالشهر الكريم. كان عدد المهنئين قليلًا جدًّا هذا العام مقارنةً بالأعوام التي مضت حين كانت المجالس كلها تغصُّ بالزوار والمهنئين لابن طرَّاق، والذين لا يمضون عائدين لمنازلهم حتى يتناولوا طعام السحور عند ابن طرَّاق.

شجَّعت هذه الزيارة جبل على مناقشة طرقي لاحقًا في الكثير من المواضيع المشتركة (كانت المخاطبات الماضية رسمية مكتوبة وترسل لمكتب طرقي الجديد بناء على طلب طرقي). هاتف جبل أخاه طرقي بعد ثلاثة أيام، ولم يرد على اتصاله الأول سوى في المساء قُبَيل الفجر، أكد له طرقي أنه في مكة بصُحبة والدته للعمرة، وأرجأ جبل مفاتحته في ذات الموضوع حتى يعود. بعد خمسة أيام هاتف جبل أخاه طرقي مجددًا، ورد عليه بصوت بارد، تبادلا السلام وبعض الأسئلة المكررة عن الحال، ومن ثَـمَّ قال جبل:

- يا أخوي يا طرقي بغيت أكلمك في موضوع.

- يا جبل إذا هو يخص العمل اكتبه وأرسله لمكتبي.

- بس هذا ما يخص الورث وأنا أخوك.
- أجل عن إيش؟
- هذا الله يسلمك يخص زكاة الورث واللي كانت عادة الوالد الله يرحمه في كل رمضان، لازم نحييها.
- طيب والمطلوب؟
- حبيت أعلمك علشان تشارك بنصيبك في توزيع الصدقة والزكاة.
- يا جبل الزكاة في مالي ومال أمي الله يطول في عمرها أنا أحرص منك عليها، وإذا تبي تعيد إحياء اللي يسويه الشايب فعساك على القوة من مالك، أنا مالي أعرف أزكيه وكيف أوزعه.

حاول جبل إقناع طرقي هاتفيًّا، وكان موقف طرقي حازمًا في الموضوع، قرر أن زكاته وزكاة والدته سيوزعها بطريقته.

لم يكن رفض طرقي لفكرة جبل هو الرفض الوحيد، جاء الرفض بعد ذلك من كل أخواته وحتى شقيقته وفردوس وأبنائها، ولم يتبقَّ سواه ووالدته للعمل على طريقة ابن طرَّاق. أصرَّ جبل على تنفيذ توزيع الزكاة والصدقة على طريقة أبيه ابن طرَّاق، بدأ من الليلة الأولى للعشر الأواخر بوضع كرسي عند باب منزله، وجاء معظم من كانوا يأتون من فقراء المدينة والمدن المجاورة بدءًا من الليلة تلك. شرع عماد الحضرمي في تسجيل الأسماء، وإعطاء كل شخص تاريخًا في إحدى الليالي التسع الأخيرة، وعاونه جبل في التدقيق على هُوية كل شخص وجميع أفراد العائلة المسجلين لدى رب العائلة، وقرَّر جبل حذف نصف القائمة المسجَّلة لديه، وأمر عماد أن يهاتفهم ويبلغهم بالأمر.

شرع جبل في توزيع صدقته مع والدته في كل يوم من بعد صلاة العصر حتى قُبَيل المغرب بدقائق بسيطة، كان يعطي الرجل الفرد مائة ريال والمرأة خمسين ريال، ومَن لديه عائلة يعطيه عن كل ولد ثمانين ريالًا وعن كل بنت أربعين ريالًا. تقلَّصت المبالغ الموزعة على الجميع،

وحذف نصف اللائحة من الزكاة، وعزم معظم من أتوا هذا العام على أن لا يعودوا في السنة القادمة؛ إذ المبلغ المُقَدَّم لا يوازي إراقة ماء وجوههم، وردد معظمهم: "النار ما تورث إلا الرماد". ولم يكن كل هؤلاء يعلمون أن هذه صدقة جبل وأمه فقط وأنهما ليس بمقدورهما فعل ما كان ابن طرَّاق يفعله.

في الليلة التاسعة والعشرين (بقي يوم واحد على العادة السنوية) اجتمع جبل مع والدته في الصالة الداخلية لمنزل ابن طرَّاق، كان قد أرسل رسائل نصية لكل أفراد العائلة ودعاهم لتناول السحور الأخير (ربما) في منزل المرحوم، وأخبرهم أن الاجتماع سيكون من بعد صلاة التراويح.

جلس جبل متصدِّرًا المجلس، وعن يمينه والدته. خلت الصالة من البقية، انتظرا كثيرًا حتى فرغ إمام الحرم المكي (السديس) من دعاء الختمة، بكت أم جبل مع الدعاء، وتبعها جبل وهو يفكِّر بمن لم يحضر. حين انتهى دعاء الختمة، صمتت أم جبل وابنها قليلًا. انتظرا قرابة النصف ساعة، ولم يكن سوى الصمت المطبق. قامت أم جبل بعد ذلك وهي تزم شفتيها، حين وقفت في مكانها نظرت إلى جبل فيما كان ساهمًا في الفراغ وقالت:

- أبخليهم يحطون السحور لي ولك ويرسلون باقي العشاء للجمعية الخيرية. (كان من الواضح لهما أن لا أحد سيأتي)

في صبيحة يوم عيد الفطر فوجئ كل سكان حارة الطراقية بالعبارة التي كُتِبَت بالخط العريض مثل "مانشيت" على كل جدران منزل ابن طرَّاق الأربعة من كل الجهات: "النار ما تورث إلا الرماد".

الرجل الذي كتب العبارة على جدار المنزل:

حسنًا، سأحكي لكم يا سادتي بشرط واحد: أن تظلَّ هُويتي مجهولةً. سوف أعتبر ذلك وعدًا، وأرجو أن لا تخلّوا بهذا الوعد

لاحقًا. أنتم تضحكون، منذ اعترفت لكم وأنتم تضحكون، هل أعجبتكم العبارة؟ طيب، إذًا لن تجيبوا سؤالي حتى أجيب عن سؤالكم. أنتم تقايضونني إذًا؟ لا بأس، أنا لن أبحث عن إعجابكم بالعبارة، ولن أسألكم عن ذلك مرة أخرى، والحقيقة أني وجدت الإعجاب في عيون المارة ذلك الصباح، إذ إنَّ كلَّ من رأى العبارة ابتسم، حتى عماد الحضرمي وصبحي. ما علينا، نعود إلى سؤالكم عن الدافع وراء كتابة العبارة:

هل تنتظرون مني أن أقول لكم شيئًا مفيدًا عن جبل أو عن فردوس لتضمِّنوه كتابتكم هذه؟ هل تعتقدون أني أُكِنُّ حقدًا على جبل أو شيئًا من هذا القبيل؟ حسنًا، دعوني أخبركم: حين يعتقد المرء أنه بصدد الحصول على إجابة محددة، ثقوا تمامًا أنه سيحصل على إجابة مختلفة.

نعود لسؤالكم، ليس لما كتبت أي ارتباط بحقد أو ما شابه من هذه الأمور على جبل... والله. المسألة أبسط من ذلك، ودعوني أشرح لكم: بصراحة أظن أن أفضل طريقة للتعبير هي الكتابة على الجدران، الكتابة على الجدران كتابة خالدة، حتى حين يُعاد دهن الجدار مرة أخرى، لا يستطيع أحد أن يزيلها من ذاكرة القرَّاء، ودوري ككاتب وإن بقيت مجهولًا هو تخليد عبارة ما في وقتها المناسب ومكانها المناسب. أرجو أن تتذكروا دائمًا ذلك: العبارة الخالدة تشترط المكان والزمان المناسبين، لا تنسوا رجاءً.

أعتقد يا سادتي أني استطعت فعل ذلك في كثير من المرات، وهذه العبارة هي إحدى عباراتي الخالدة. أنا أعتقد أنها سوف تخلد ما شاء الله لها من الزمن على جبل وربما على أبنائه وأحفاده. سوف تبقى خالدة وتنضم لبعض عباراتي الخالدة أيضًا. أرجو أن لا يخذلني الناس هذه المرة كما خذلوني ونسوا عبارتي

التي كتبتها يوم مات ابن طرَّاق، كنت قد كتبت على جدار المقبرة بالخط العريض: "الموت درب العاشقين". وأصدقكم القول أني لم أنتقِ العبارة المناسبة، كانت العبارة غامضة قليلًا، والكثير من المشـيعين الذين قرؤوا العبارة، اكتشـفت أنهم لا يدركون خفايا حيـاة ابـن طـرَّاق، وقبـل ذلـك لم يعلموا أن المقصود بهذه العبارة كان ابن طرَّاق. أنا أجيز لكم أن تشيروا إلى ذلك، لا بأس، لعل الناس تمسـح الغبار الذي علق في الذاكرة، وربما تتذكَّر عبارتي تلـك حيـن قـراءة حديثـي هـذا، وربما تنفخ الروح في عبارتي من جديـد وتعـود لهـا الحيـاة علـى ألسـنة النـاس. هذا مـا لديَّ الآن، شكرًا جزيلًا لكم. أقدِّر كثيرًا اهتمامكم بكل ما يتعلَّق بما يسميه الناس هامشًا.

(44)

الهروب

لم تكن تلك العبارة التي كُتِبَت على جدران منزل ابن طرَّاق هي فقط ما كدَّر فرحة العيد على جبل، ولكن كان عدد المهنئين في العيد كذلك، والذي كان حتى أقل من مهنئي شهر رمضان، بل وحتى صملول لم يحضر، لكنه حرَصَ على مهاتفة جبل وإرسال رسالة نصية له ولطارق. ما عاد باستطاعة جبل التنبؤ بتحركات صملول، صملول الذي زار جبل في اليوم الأول من رمضان مهنئًا، فاجأه وأخبره في ذات اليوم أنه طلَّق زوجته العنود، وفرح جبل لهذا الخبر (لا يدري جبل لِـمَ كان فَرِحًا لذلك)، وحاول جبل أخذ المزيد من التفاصيل عن الطلاق ولم يسهب صملول في الحديث، اكتفى بقوله: "خذنا استراحة محارب يا جبل". سمع طارق حديث صملول لجبل (كان يجلس عن يسار صملول بعد أن أصرَّ صملول أن يقترب منه)، ولم يتداول أي حديث حول هذا الأمر، ولم يكن يعنيه كثيرًا أن يطلِّق صملول أو يُبقي على زوجته، لكن طارق عرف في هذه الجلسة أن صملول له زوجة أخرى وأولاد. عاد صملول للانتباه لحقوق هذه الزوجة والأولاد، وسافر في أول أيام العيد بصُحبتهم لقضاء الأسبوع الأول في دبي، وفقد جبل أحد الحضور القلائل المهنئين في يوم العيد في منزل والده الراحل.

حضر طرقي كذلك على عَجَلٍ تمامًا مثلما فعل في يوم رمضان الأول، لم يطق البقاء في المجلس أكثر من خمس دقائق ودخل بعدها لصالة المنزل للسلام على بقية نساء المنزل ومعايدتهن. في الجهة الجنوبية للمنزل كان باب سور المنزل مواربًا للمهنِّئات اللاتي تزايد عددهن بعد صلاة المغرب، بقيت فردوس في المجلس النسائي تستقبل المهنئات، كان

معظم الزائرات من الصديقات حديثات العهد، وموظفات البنوك (تعاملت فردوس مع ثلاثة بنوك في وقت واحد)، وطاقم صالون التجميل النسائي، وموظفتين في الغرفة التجارية، وأخواتها الثلاث، وخالتيها، وبعض النسوة من البيوت القليلة المجاورة، وأخريات من دفعة المدرسة الثانوية التي تخرجت منها فردوس، ومعلمة اللغة الإنجليزية الخاصة، ومدام سمحون والتي تعرفت عليها في زيارتها الأخيرة لبيروت. لم تستطع أم جبل المكوث أكثر من نصف ساعة مع هذا الجمع المحتشد في مجلس فردوس، وانسحبت بعد ذلك، وأعلنت احتجاجها لجبل في صبيحة اليوم اللاحق، وذكَّرته برغبتها في الخروج من هذا المنزل، واستندت في طلبها على عدة أسباب للاحتجاج حول هذا التصرف، وهي:

1- أصرَّت فردوس على أن يكون صوت الموسيقى منبعثًا في المجلس طيلة فترة الاستقبال من (السي دي) وحتى انتهاء العشاء (لم تكن تعلم أم جبل أن فردوس أظهرت رغبتها في جلب عازفة بيانو في عزف حي في عيد الأضحى وأن مدام سمحون وعدتها بأن تأتي لها بالعازفة). أم جبل أكدت أن هذا الأمر فسق وأن أبا جبل لو كان حيًّا لما رضي بهذا الفسق.

2- تطرَّقت أم جبل لنوع الملابس غير المحتشمة لمعظم النساء الزائرات خصوصًا أخت فردوس نادية، وإحدى خالات فردوس، وطاقم صالون التجميل، ومدام سمحون. (طلب منها جبل بعض التفاصيل عن ماهية اللباس غير المحتشم، وأكدت له أن بعضهن كنَّ يلبسن حتى منتصف الفخذ بحسب وصفها المبالغ فيه).

3- اعترضت أم جبل على البذخ الزائد في الاستقبال والمتمثِّل في صواني الشوكولا وبوكيهات الورد والعشاء الفاخر. (ذكرت له أنه شبيه بعشاء صملول يوم العزاء).

4- أكَّدت أم جبل أن لديها علمًا أكيدًا أن فردوس وزعت هدايا عينية

علـى كل مهنئاتهـا بعـد العشـاء ولا تـدرك كنـه هذه الهدايا. (كانت الهدايـا إكسسـوارات متنوعـة مـن أكبـر بيوت الأزياء مثل: شـانيل، ولوي فيتون، وهرمس... إلخ)

كان جبل يصغي بكامل حواسـه لما فعلته فردوس، قلَّب يديه في الهواء وزمَّ شـفتيه بعد كل سـبب ترويه له أمه، أحس في داخله بشـعور غريـب بيـن الغضـب والإعجـاب، لقـدرة فردوس علـى جمع كل هؤلاء النسوة في بيتها لتهنئتها بالعيد.

كان يعلم علمًا جازمًا أن لدى فردوس قدرة عجيبة على تنفيذ كل ما يجول بخاطرها وتحقيق كل رغباتها. استمع لكل كلام أمه التي فاجأته بتجديـد طلبهـا بعـد فتـرة مـن الصمت بالخروج إلى منزل آخر، وضربت لـه مثـلًا فـي راحـة أم طرقـي التـي ظهـرت عليها فـي زيارتها الأولى في رمضان وزيارتها الأخيرة في العيد. بقي جبل صامتًا مثل تمثال شـمع، لا يفعل شـيئًا على حديث أمه المتواصل سـوى تقليب يديه في الهواء، وزم الشفتين، وفي آخر الحديث قال: "يصير خير يمه".

كانـت فـردوس مختلفـةً هـذا العيـد، وصـارت ليـس فقـط حديث أم جبل بل حديث معظم سكان حارة (الطرَّاقيّة)، وتناقلت أخبارها وخصوصًا عيدياتهـا علـى زوارهـا بقيـة نسـاء المدينة، وأظهرت كرمًـا حاتميًّا لم تعتده النساء، وحضورًا مختلفًا ومغايرًا للجميع، ولهذا لم تفهم أم جبل سر هذا الاختلاف، كانت تظن أن واجب المرأة في يوم العيد أن تستقبل فقط قريباتها وزوجـات زوار ابـن طـرَّاق فـي الصبـاح، كما يفعل ابن طرَّاق حين يسـتقبل المهنئيـن مـن بعـد صـلاة العيـد. لـم تفهم أم جبل سـر هـذا التغير، ولا تراه سوى خروج عن المألوف، والخروج عن المألوف بدعة، واستقبال النساء في مساء العيد بدعة أخرى ككل الأسباب التي تلتها على جبل بصبغة تحذيرية.

لم يكن يفهم سـر هذا الاختلاف سـوى ابن طرَّاق نفسـه، والذي أدرك منـذ أسـبوعه الأول أن هـذه المـرأة مختلفـة عـن كل نسـائه، ولم

تـدرِ فـردوس أنهـا حتـى لـو أنجبـت أنثى من بطنهـا الأولى ما كان ابن طـرَّاق ليتخلـى عنهـا وهـي التـي جـاءَت مقابل معروف فـي بطن أبيها. أدرك ابن طرَّاق سر هذا الاختلاف في أسبوعه الأول، وعرف أنها لن تطيق أن يأتي بامرأة بعدها في المنزل، ولهذا أبقاها المدللة في منزله مقابل أن تترك السلطة المنزلية لأم جبل، ووزع المهام والوظائف على نسائه بحنكة قائد: قرَّرَ أن تكون أم جبل هي القائد في ساحة المعركة وأوهمها بأنها هي مَن يجب أن ينظِّم أمر المنزل، وكان متأكدًا من أن كلاسيكيتها لن تبتدع جديدًا وسوف تمتثل لسياسته، كما قرَّرَ أيضًا أن تكون أم طرقي هي الجندي الأول في المنزل، وأدرك أنها امرأة بسيطة مؤمنـة بزوجهـا وبـكل مـا يقـول. أما فردوس فترك ابن طرَّاق لها وظيفة الـمُلهِـم الرُّوحـي فـي المنـزل، وكان حريصًـا على أن لا يخرج إلهامها خارج غرفة النوم. تواطأ معها على أن تكون مذعنة له مقابل أن تكون المرأة الأخيرة على عرش ابن طرَّاق، علم أن مسألة المعروف أمر لا يخصها ولا يمكن مفاوضتها عليه، لكنه بقي يمارسـه مع والدها مثل ورقة ضغط في يد مفاوض سياسي. كان ابن طرَّاق يُجيد مسك العصا من المنتصف مع فردوس، حتى عندما أشفقت نفسه على نساء آخريات، فعل ذلك خارج المنزل.

جاءَت فردوس لمنزل ابن طرَّاق، وحاولت التغيير بقدر ما تستطيع، واصطدمت كثيرًا مع ابن طرَّاق الذي ملك زمام منزله بقدرته، مع بعض التنازلات البسـيطة. كانت قدرة ابن طرَّاق على المفاوضات قد فرضت على فردوس أن تذعن له في نهاية المطاف، لكنها قطفت منه الكثير من التغيرات، فاوضته منذ اليوم الأول على شـهر عسـل وفعل، لكنه مضى بشـروطه وقضى ذلك الشـهر في مكة والمدينة. بعد عدة سـنين أقنعته بعدم جدوى التعليم العام، وحظي أطفالها كلهم بمدارس خاصة. مضت فردوس في مفاوضاتها الشاقَّة مع ابن طرَّاق، ودخل الإنترنت إلى منزله

مـع بدايـات دخـول الإنترنـت للبلاد. وقبل ذلك وبعده كانت قادرة على إقناع ابن طرَّاق بالقيام بثلاث رحلات سياحية صيفية عائلية، لكنه أصرَّ على الذهاب فقط للدول الإسلامية.

سافر ابن طرَّاق مع عائلته جميعًا إلى ثلاث دول: ماليزيا في منتصف التسـعينات، وسـوريا (و قضوا يومًا واحدًا في بيروت) في بداية الألفية الجديدة، وتركيا بعد ذلك بأربع سـنوات. لا تزال فردوس تتذكر رحلة تركيـا بكامـل تفاصيلهـا تمامًـا كمـا تتذكَّر يوم زيـارة بيروت. كانت دائمًا تتأمل ابن طرَّاق وهو يسترق النظر لها أكثر من الأخريات حين يجتمعون على مائدة الغداء في أحد المطاعم. في تركيا تحديدًا صرَّح ابن طرَّاق للمرة الأولى لزوجتيه أم جبل وأم طرقي بأن يفعلن مثل فردوس (كانت المرة الأولى التي يفعلها ابن طرَّاق). كانت فردوس الوحيدة من نساء ابن طرَّاق التي تصرُّ على الأكل بالشوكة والسكين، فيما أم جبل وأم طرقي يأكلن بأصابعهن، يرفعن سيخ الكباب ويضعنه في الرغيف، يضعن قليلًا من المخللات والسـلطات على الرغيف ويلففنه حول اللحم (كانت أم طرقي تضيف كثيرًا من الشطة)، ويشرعن بعد ذلك في أكل الساندوتش. حين شـرعت أم جبل في عمل السـاندوتش الثاني بنفس الطريقة نهرها ابن طرَّاق (كان مفتونًا بطريقة أكل فردوس) وقال:

- ورا ما تأكلون اللحم بالشوكة والسكين بدل هالخبز اللي ينفخ البطون؟

قال ابن طرَّاق هذه الجملة وأشار بإصبعه على فردوس والتي كانت تضع اللقمة في فمها بالشوكة. انتبهت أم جبل وأم طرقي لفردوس، وكان واضحًا أن رفع السبابة أتى بحركة لا إرادية غير مقصودة من ابن طرَّاق، لكنه بدا مزعجًا لأم جبل والتي كظمت غيظها ولم يكن بمقدورها الرد على ابن طرَّاق، لكنها امتنعت عن لف السـاندوتش الثاني. أدرك ابن طرَّاق بفطنته أن أم جبل منزعجة، حرَّك دفة الحديث بعدها بلحظات، وأخبرهم

أن الجميع سوف يمضي في رحلة تسوُّق في ساحة تقسيم بإسطنبول بعد الغداء وتناول الشاي، لم يكن برنامج التسوق في ذلك اليوم في الحسبان، لكنه استغل قربه من الساحة وفكَّر أنها فكرة جيدة لتبديد الانزعاج الذي حرَّكته غيرة النسـاء. بعد تناول الغداء وشـرب الشـاي قرَّر ابن طرَّاق أن يتوزع الجميع في ساحة تقسيم للتبضُّع، أشار لجبل أن يبقى مع والدته، ولطرقي أن يبقى مع والدته، ولطارق أن يرافق أمه، كما كرَّرَ وصاياه على فردوس أن تنتبه لأبنائها الصغار، وكذلك لطارق، توزع الجميع في الساحة وانتقل هو إلى أحد المقاهي في بداية الساحة وقال لنسائه:

- اللي تنتهي، تجيني هنا في القهوة.

بقي ابن طرَّاق يحتسي الشاي ويقرأ جريدة الشرق الأوسط، لم يعبأ بنظـرات الأتـراك وهمسـاتهم الغامـزة لهيئـة ابن طراق (كان يُصِرُّ في كل رحلاته العائلية على ارتداء الثوب والشماغ). عادت النساء على دفعات، وصلت أم طرقي أولًا وتفحَّص مشترياتها التي كانت أقمشة متنوعة من الصوف وحذاء لها وحذاء لطرقي، تلتها أم جبل والتي عادت بإسـوارة ذهبيـة أكلـت كل ميزانيـة الشـراء، وكانـت فـردوس آخر من جاء بأكياس كثيـرة أكـدت أن معظمهـا يخـص الأطفال (كان ابن طرَّاق يحب تفحُّص أكياس الشراء الخاصة بفردوس في الفندق، وجد كيسًا مليئًا بأدوات الزينة والماكيـاج، وكيسًـا آخـر فيـه بضائـع متنوعة لملابس غرفة النوم، وكيسًـا ثالثًا مليئًا بأقمشة حريرية متنوعة، وكيسًا رابعًا فيه بدلة رقص شرقي).

كان ابن طرَّاق مفتونًا دائمًا بالنظر إلى أكياس فردوس بعد أن تتبضَّع، كان يـدرك أن طريقتهـا فـي التبضُّـع مختلفـة عن طريقة نسـائه تمامًا مثل حياتها وطريقة تعاطيها مع كل الأمور، كان مغرمًا بها وهاربًا من سطوة عشقها في ذات الوقت.

في ذلك العيد كان هروبًا بلا عودة، هروبًا أبديًا خالدًا، ولربما كانت فردوس تنتظر هذا الهروب الذي تأخر عن المجيء.

فردوس:

الحياة تشبه الاستثمار بعيد المدى، أن تعطي جزءًا لا بأس به من حياتك ليس لكي تعطي المزيد، ولا لكي تحافظ على ما تبقّى، ولكن لكي يعود لك نصيبك مُضَاعَفًا. ليس ثمة أحد يعطي بلا مقابل، حتى الأم، هذا كلام يردده الكثير وأنا لا أؤمن به؛ إذ إن الأم على سبيل المثال، وهي المثل الرائج عند الكثير من الناس في العطاء، تعطي لكي يرد لها أبناؤها المقابل حين تكبر، هكذا هي الحياة. وصلت لهذه القناعة، أن تعطي من رُوحِكَ اليسير للحفاظ عليها طويلًا، وحين تحين الفرص ليس بوسعك أن تواصل، أنت لا تواصل بمحض إرادتك الكاملة لفعل شيء لا تود فعله، لا بُد أنه لم يكن ثمة مَخرَج أخف وطأة، ولهذا تواصل، وأنا واصلت، مضيت حتى رأيت الكوة الصغيرة، وتبعتها، وحين وصلت، وخرجت، وجدت طرقًا كثيرة أمامي، وكانت الطريقة الأسهل أن تمضي خلف أول طريق سالك، لكنّي في هذه الحالة سوف أدع رُوحي تنزف من جديد، وأنا سئمت من هذا الدور. بصدق، لم يعد يهمني ما يقوله الجميع، قلت لكم قبل ذلك: المرأة الجميلة تلوكها ألسن النساء لأنها أجملهن، وتلوكها ألسن الرجال لأنهم لا يستطيعون الاقتراب منها.

أرجو أن تقبلوا اعتذاري عن الحديث في هذا الموضوع بعد ذلك، لا دخل لكم فيما أفعل، ولا دخل لي فيما يقول الناس. من المهم أن يعلم الجميع أنّي لم يعد باستطاعتي أن أتحمل المزيد، قدمت الكثير، للراحل ولأبي، لأبنائي، وامتد معروفي للكثير. أظنكم تدركون الآن أنّي وقيت جبل شر الهلاك، وليس من العدل أن لا أجد أحدًا يقيني من شرور البشر، يا إلهي أدعوك وأرجوك وحدك، طالت مدة اسثماري وحان الوقت لقطف الثمار.

الجينز

لم تكن شكوى أم جبل ذات أثر هذه المرة مع ابنها مثل كل مرة تشتكي فيها، ولم تؤتِ ثمارها، كل ما فعلته أن جعلت جبل يهرب من المكوث طويلًا مع أمه. أعاد جبل تقليب بعض الملفات القديمة والتي لم يقفلها ولم يتجاوزها (يحب جبل تقليب الملفات كثيرًا بلا فائدة): المبلغ المفقود من والده يوم وفاته، وكالاته التي أُلغِيَت من قِبَل طرقي ووالدته وفردوس، كشوف الحسابات التي لم تعد تأتيه. حاول بوسائل عديدة مع كبار موظفي البنوك أن يقبض على نسخ لحسابات طرقي وفردوس، وفي كل مرة يقابله الجميع بالرفض لمخالفته القوانين.

لم تلتفت فردوس إلى الخلف، لم تراجع أي شيء مما فعله جبل في الشهور الخمسة الأولى فيما جبل كان وكيلًا عنها لإدارة الورث، اكتفت بتصديق الكشوف التي تأتيها عن كل الحركات المادية والتي تخص ورث ابن طرَّاق. كانت فردوس أيضًا تُعِدُّ العدَّة لمستقبل جديد لأبنائها بإدارتها هي، وبعد عيد الفطر بأسبوع وقبل بدء العام الدراسي ببضعة أيام جمعت كل أبنائها في جناحها، قالت لهم إن لديها خطة لهم قبل مطلع العام الدراسي. اجتمع أبناء فردوس الخمسة عصر ذلك اليوم في جناحها الخاص، طارق فقط كان هو الوحيد الذي كان على مشارف السنة الثانية من الجامعة، نادر كان في سنته الأخيرة من الثانوية، وهديل التي بدأت استدارات جسدها تشبه استدارات جسد أمها كثيرًا كانت في سنتها الأولى. أمَّا فهيد وسامر فكانا لا يزالان بين المرحلة المتوسطة والابتدائية. دخل الأبناء جميعًا على والدتهم في وقت واحد تقريبًا، لم يكن بصحبتها سوى ابنتها هديل تجلس إلى جانبها (كان منظر هديل

يشبه النسخة الجديدة من فردوس، مثل زجاجتي عطر واحد من حجمين كبير وصغير). جلس طارق عن يمين والدته، ونادر في الكرسي المقابل للصوفا، وتربَّع فهيد وسامر على الأرض. كانت فردوس تلبس جاكيت أبيض مخصرًا ومشبوكًا بزر وحيد كبير فوق السرَّة، وتحت الجاكيت بدا قميص حريري مفتوح فوق الصدر بقليل دخلت أطرافه في بنطال أبيض ضيق عند الفخذين. كانت فردوس تضع ساقًا فوق ساق مبديةً أصابعها المطليَّة بالأحمر والتي لم يستطع الكعب متوسط العلوِّ إخفاءَها.

هَمَّ أبناء فردوس بتقبيل رأس والدتهم قبل جلوسهم، تجمَّعوا وشرعت فردوس بالحديث عن العام الدراسي الذي يطرق الأبواب، واختصرت كثيرًا في خطاب لم يتجاوز الدقائق الثلاث، أخبرتهم أنها أعدت لائحة هدايا للنجاح في الدراسة، وأن من يستطيع تحصيل معدل ممتاز بإمكانه أن يختار هديته بنفسه. بثَّت اللائحة التي أعدتها فردوس للهدايا المنافسة في صفوف أبنائها، أخذ كل منهم عهدًا على نفسه أن يبذل كل جهده في تحصيله العلمي، وأن ينال في نهاية العام ما يختاره بنفسه. كانت فردوس سخيَّةً في وعودها وهباتها، كذلك كانت سخية في تهيئة الجميع للعام الدراسي، وعدت كل ابن لها بتخصيص جهاز كمبيوتر محمول لكل ابن، شريطة أن يُستَخدَم لمدة ساعتين في اليوم كحدٍّ أقصى. جهَّزت كل غرفة من غرف الأبناء بمكتب جديد، وأعادت توزيع الإنارة في الغرف. كانت فردوس تتوق إلى إعادة دهن جدران الغرف التي يسكنها أبناؤها، لكنها لم تستطع سوى دهن غرفة ابنتها هديل، ووعدت البقية بذلك في إجازة منتصف العام الدراسي.

خرج الأبناء بنفس مفتوحة للتحصيل الدراسي، بدأ كلٌّ منهم يفكِّر ويحلم بهديته التي سيختارها. قررت فردوس أن تضع أبناءَها رهن خياراتهم، حددت الأهداف ووضعت الخطط، ومن ينجح سوف ينال هديته. كانت فردوس تريد التفرُّغ لمعركتها الأكبر، وكان لا بُد من

كسـب ولاء الجميع، لم تراهن على ذلك بلا عمل، بل وضعت نصب عينيها كل ما يزيد من ثقة أبنائها فيها.

لـو قـدر لفـردوس وعـادت الأمور إلـى المربع الأول بعد وفاة ابن طـرَّاق فلـن تقبـل بتنصيـب جبـل وكيـلًا عنها وعن أبنائهـا، ولهذا قررت إلغاء وكالتها، وأشـارت كذلك على طارق بأن يفعل بعد أن يبلغ السـن التي تمكِّنه من الخروج من الولاية وإلغاء الوكالة. بدأت فردوس تنظِّم أحوالها، وشرعت في تخصيص غرفة صغيرة في المنزل لترتيب وأرشفة كل مـا يتعلـق بأمـور الميـراث، سـاعدتها فـي ذلك مدام سـمحون والتي عرَّفتها بعد العيد على إحدى موظفات البنوك لتعمل لديها خارج دوامها في تدقيق كل حسابات الإرث، شاملةً التقارير الشهرية التي يعدها جبل ومقارنتها بالملف الأصلي لحصر ميراث ابن طرَّاق. عملت فردوس من هذه الغرفة صندوق أعمالها الأسود، بالرغم من أن مساحتها لا تتجاوز التسعة أمتار مربعة، اقتسمتها من جناحها الخاص وعزلتها عن بقية الجناح بجدارين من الجبسمبورد، ووضعت بها مكتبًا صغيرًا و"كمبيوتر" محمولًا متصلًا بالإنترنت، وبضعة أرفف جدارية خفيفة لأرشفة الملفات. قررت فـردوس منـذ بدايـة الصيـف الماضـي أن تراجع كل صغيـرة وكبيرة فيما يخص التقارير، تأكدت من خذلان جبل لها، ومن خروجه عن سطوتها، لم يعد في نظرها ذلك الفتى الذي تأمره ويطيع، وتشير عليه ليفعل. ماتَ ذلك التواطؤ بموت ابن طرَّاق، ولم يعد جبل في نظرها يخشـاها، كان يخشى ابن طرَّاق، وابن طرَّاق أصبح تحت التراب.

حين أمرت فردوس أمرها الأول لجبل قبل عقدين من الزمان إلا قليلًا كان فتى مطيعًا، وفي اليوم التالي لأمرها مضى جبل لمحل (ست الهوانم) منذ الصباح الباكر، سأل البائع عن الأغراض المحجوزة باسم أم طـارق، وأخـرج لـه البائع كيسًـا مليئًـا بالبضائع المتنوعة، فوجئ جبل بالمبلغ المطلوب، كان المبلغ يقارب التسـعمائة ريال تقريبًا. كان جبل

محتاطًا للأمر، ونَقَدَهُ معظم ما في جيبه ومضى. في الطريق للمنزل شرع جبل يقلِّب البضاعة في سيارته، كانت ملابس داخلية وأرواب نوم وجلابيتين وأقلام روج وفرشاة ظل وكريم نسائيًا، وحين عاد للمنزل قُبَيل صلاة الظهر كان متأكدًا أن ابن طرَّاق لم يعد من المزرعة بعد في ذلك اليوم (عادة يقضي أسبوعًا على الأقل في زيارته للمزرعة)، دخل بالكيس للملحق الخاص به، فتح الكيس وبعثر المحتويات، شرع ينتقي من الأغراض ويعيد البعض، أعاد بعد ذلك كل شيء ما عدا روب كريمي من الساتان وطقم كلوت وسوتيان ذي لون أحمر من الدانتيل، وطقم آخر أسود من الشيفون. قلَّبَ جبل الملابس في يده، قربها من أنفه وشرع يشم الرائحة (لم تكن سوى رائحة غريبة ممزوجة بالغبار من التخزين الرديء)، دار رأس جبل وأغمض عينيه وانتصب قضيبه، استلقى على أرض الملحق تاركًا كلوت الدانتيل الأحمر والروب الساتان الكريمي اللون فوق وجهه، قبض بيده الأخرى على قضيبه، وشرع يضغط عليه بعنف مغمضًا عينيه، كان خياله يُعيد ترتيب هذه الملابس على جسد فردوس التي رآها في النافذة، انقطعت عملية ترتيب الملابس بعد أن بلل سرواله الطويل ويده.

قام جبل من مكانه، وأعاد الملابس بيده اليسرى إلى الكيس، ومضى يغتسل، كان يفكِّر في كيفية توصيل الملابس إلى فردوس فيما كان الماء يزيل ما علق بيديه. في المساء قرر جبل أن يوصِّل الكيس بنفسه إلى غرفة فردوس حين لم يرها في الصالة، ووقف خلف باب غرفة فردوس بعد منتصف الليل، طرق الباب ثلاث طرقات متتاليات. انتظر جبل بضع ثوان حتى فتحت فردوس الباب، كان جبل مبتسمًا وهو يحمل الكيس بيده، نظرت فردوس إليه وقالت بصوت خفيض:

- هذا اللي وصيتك عليه؟

- إيه هذا هو. (كان صوته هامسًا وهو يشير بسبابته اليمنى على

الكيس المحمول بيده اليسرى)

- شكرًا جبل.

قبضت فردوس على الكيس، سحبته من يد جبل بخفَّة ومهارة من دون أن تسمح ليدها بمسٍّ يد جبل، وأغلقت الباب خلفها. مضى جبل لغرفته فرحًا لأن المسألة مرَّت بسلام وأصبحت النتيجة متعادلة، ولم يعلم أن هذه المرة الأولى سوف تعقبها مرات كثيرة، وسيكون مُجبرًا فيما بعد لاختلاس بعض المبالغ البسيطة من هنا وهناك، حين يشتري لوازم منزل ابن طرَّاق بنفسه أو حين يحصِّل إيجارًا أو دَينًا من أحد لصالح أبيه، وحتى بعد أن اكتشف أبوه سر السرقات الصغيرة، لم يُعِرها اهتمامًا، كل ما فعله أن خصَّصَ لجبل مبلغًا شهريًّا مقطوعًا، وعيَّنَ عماد الحضرمي أمينًا لأرزاق المنزل.

في الليالي اللاحقة لتلك الليلة (و لنسمِّها ليلة المقايضة الأولى) بقي جبل ينتظر كثيرًا عند نافذة حمامه مؤمِّلًا نفسه بسماع النداء الشيطاني مجددًا، لكن النداء لم يعد يأتي. حتى وإن سمعه كان سيجد النافذة مغلقة.

بعد ثلاثة شهور من القصة جددت فردوس خروجها للصالة ذات مساء منتظرةً جبل، طلبت منه ذلك المساء أن يذهب لمحل آخر، وأن يأتي بأغراض أخرى حجزتها لها أختها. لا يعلم جبل لِمَ وافق في بادئ الأمر على طلب فردوس. لم يدرك إن كانت سطوتها منعته من قول "لا" أم أنه كان مشتاقًا لتقليب المشتريات في الملحق! لكنَّه مضى في اليوم التالي، وذهل حين فتَّش الكيس ولم يجد سوى "بناطيل جنز" و"تي شيرتات" قطنية. لم يفوِّت جبل الفرصة، ومضى للملحق وقلَّب الأغراض، ووضع التي شيرتات القطنية على وجهه وفعل مثلما فعل في المرة الأولى.

في المساء، وحين طرق جبل باب جناح فردوس الثلاث طرقات المتتاليات (أصبحت فيما بعد شفرة بين جبل وفردوس) فتحت فردوس

الباب وأخذت الكيس بذات الخفَّة، وطلبت منه أن ينتظر في الصالة.

نزل جبل للصالة لا يعلم لِـمَ طلبت فردوس منه ذلك، لكنها نزلت بعد مضيٍّ دقائق عشر إلى الصالة، كان جالسًا قرب جهاز التلفزيون، مشدودًا بتعليق إبراهيم الراشد مع برنامج المصارعة الحرة في القناة الأولى، ذهل حين رأى فردوس تقترب منه، كانت تلبس جينز ضيقًا وتي شيرت قطنيًّا لاصقًا، فغر جبل فاه وهو ينظر حتى اقتربت منه فردوس وقالت:

- وش رأيك فيني بالجينز يا جبل؟ (كانت تدور حول نفسها حين نطقت الجملة)

- هاه!

- وش رأيك فيني؟ حلو اللبس عليّ؟

- إيه. (بدأت أنفاس جبل تشتد، وأحس بوخز الألم في أعلى فخذيه ينزل لركبتيه)

- يعني ما أرجعه؟ حلو؟ (دارت دورة أخرى)

- لا.

كانت إجابات جبل مقتصرة على كلمة واحدة، لم يعد بمقدوره النطق مع تسارُع أنفاسه، ولم تهدأ أنفاسه تلك الليلة سوى حين عادت فردوس إلى غرفتها بعد سؤالها الأخير. كانت فردوس تصعد الدرج بخطوات سريعة تشبه القفز فوق الجمر.

لم يستطع جبل المبيت في تلك الليلة (لنسمِّها ليلة الجينز)، حتى بعد أن بلل ملابسه مرتين، ذاكرته لم تحتمل مشهد رؤية امرأة ببنطال ضيق وتي شيرت لاصق، أعاده المشهد لطلاب المرحلة المتوسطة، حين بدأ يتعرف على فحولته، وأدمن مشهد الصبيان في ملابس الرياضة. كان جبل ينتظر بشغف حصة الرياضة في المدرسة، يستمتع بالنظر إلى الصبيان ببنطال (الترينينج) خصوصًا البدينين، والأجمل من ذلك حين ينزل البعض منهم إلى الملعب في سرواله الطويل الأبيض الشفاف مكتفيًا

بلبس فانلة رياضية مع السروال. اقترب جبل من الطلاب كثيرًا آنذاك وكان الفضل يعود للكوميديان الأول في الفصل: فرج طقعان.

كان جبل يتبع فرج حيث كان، ومثلما يكون أول الضاحكين حين ينتهي فرج من تجلياته يكون إلى جانب فرج في حصص الرياضة بالذات، وحين يكون الطلبة بالترينينج يكون جبل أول فتى يفرح بعد تسجيل الهدف، كان ينطلق جريًا إلى صاحب الهدف وهو يصرخ: "جووول" يعانقه، ويجتمع بعض الصبية الآخرين لتهنئة بعضهم البعض، ويشرع أصبعه الأوسط في التجلي. يبدأ جبل تجربة هذه الحركة للمرة الأولى مع صبي ما، كان يربت على مؤخرة الصبي بكفه، تمامًا مثلما يشاهد بعض اللاعبين في الملعب. في المرة التالية، وحين لا يعترض الصبي على هذا التصرف، يُخلي المكان لإصبعه بدلًا من كفه، وفي المرات التي يعترض بعض الصبية على هذا التصرف، ينبههم جبل إلى أن بعض اللاعبين الدوليين الكبار يفعلون ذلك في الملعب حتى وهم في صفوف المنتخب بزيهم الوطني، وما من حرج في ذلك حتى وهم يفعلونها أمام الجميع في التلفزيون. كان جبل يوهم الصبية بأن ذلك طقس من الطقوس الأصيلة في لعب كرة القدم.

استمر جبل على هذه الخطة حتى وصل للصف الثاني الثانوي، كان مستمرًّا في عمل كل هذه الحركات دون حساب ردود الأفعال، ولم يعلم أن بعض الصبية كبروا وأصبحوا يميزون الخطأ من الصواب. اشتكى أحدُ الطلبة جبل ذات مرة، ولم يستطع المشرف الاجتماعي مواجهة جبل لنهيه عن هذا التصرف (كانت هيبة جبل في المدرسة تشبه هيبة أبيه في الحارة)، وبدلًا من ذلك أرسل المشرف لطلب ولي أمر جبل. جاء ابن طرّاق للمدرسة وقابل المشرف الاجتماعي، شرح له المشرف بحلقٍ متيبِّسٍ كنهَ الشكوى المرفوعة ضد ابنه، وأخبره أنه لاحظ تصرفات جبل في آخر حصتين للرياضة، وأخبر ابن طرَّاق أن جبل يتعمد فعل ذلك،

وطلب منه أن ينبهه لهذا الفعل كي لا يورط نفسه مع أحد أولياء الأمور.

أدرك ابن طرَّاق آنذاك خطورة الأمر وعلم أن الحدث يتكرر من جبل في كل حصة رياضة، وحتى في الفسحة. كان ابن طرَّاق لا يسمح بدخول المجلات والفيديو إلى منزله، ويراقب ذلك مراقبة لصيقة عن طريق زوجاته، وفوجئ كثيرًا بأفعال جبل، ووبَّخ المشرف على تأخره في إبلاغه بالأمر. عصر ذلك اليوم طلب ابن طرَّاق ابنه جبل في الملحق، تحقَّق من شكوى المشرف، وبكى جبل حين اعترف بصحَّتِها، كان من المستحيل أن ينكر ذلك، منظر ابن طرَّاق المهيب لا يترك لعقل جبل فرصة إعادة سيناريو بعض الأمور، وينهار من اللحظة الأولى لمداهمة كلام ابن طرَّاق. أنزل ابن طرَّاق على جبل عقابًا شديدًا، وترك على ظهره ويديه وفخذه الأيسر خطوطًا بين الحمراء والبنفسجية من آثار عقال ابن طرَّاق.

حين عادت الصورة (البنطاليَّة) ذلك المساء للظهور أمام عيني جبل نبتت تلك الذكريات من جديد في عقله، أعادت فردوس صياغة ذاكرته الذكورية وخياله الجنسي، بدا الجينز الضيق أشد فتكًا، والأجمل أنه جاء بصحبة همس بسيط شجَّعه على التأمُّل. أتت الجملة: (وش رأيك فيني بالجينز؟) لتستنطق عقله، وتحوِّل خياله إلى طفل يلهو فرحًا بلعبة جديدة.

جبل:

لن أتحدث معكم مجددًا، قلت لكم قبل ذلك: أنا في الحقيقة لا أعلم عمَّ تبحثون هنا! وما هدفكم من هذا كله؟ أحيانًا يجول في بالي أنكم تمارسون الدجل، وأميل لهذا الرأي. لكن أظن أني تعلَّمت منكم الكثير، وأدين بالفضل لكم فيه، والحياة مدرسة، في كل لحظة تتعلم شيئًا جديدًا، وتكتشف مدى الجهل لديك. ما علينا، قلت لكم إن الدرس الأول الذي أحفظه الآن هو: إن لم تقدر على دفن سرِّك في صدرك فلا تُبح به لامرأة أو روائي.

دعوني في حالي فقط. أرفض الحديث معكم مرة أخرى.

(46)

ابن مسمار

ظهر اسـم الشـيخ ابن مسـمار على شاشـة هاتف جبل قبل صلاة الظهر، وأحسَّ جبل بالتفاؤل. كان جبل متأكدًا أن الشيخ سوف يعرض عليـه فرصـة اسـتثمارية عقاريـة جديـدة، ولـم يخالجـه الشـك في ذلك، خصوصًا أن مكالمة الشيخ ابن مسمار جاءَت قبل الظهر، أي في وقت الدوام الرسمي. ردَّ جبل على الهاتف مباشرة، رد كما يفعل حين يهاتفه الشيخ قائلًا:

- سلام عليكم يا شيخ.
- عليكم السلام يا جبل.
- كيف حالك؟
- أبشرك بأتم نعمة من فضل الله.
- وشلون العيال؟ عساهم طيبين.
- بخير، بخير يا جبل. أبنشدك.
- تفضل يا شيخ.
- وش عندك بعد صلاة الظهر؟
- أمر يا شيخ، ما فيه شي مهم.
- أجل مرني الله يرضى عليك، فيه موضوع صغير أبيك فيه.
- وشو عليه؟
- مرني وإذا جيت سولفنا.
- إيه ما يخالف، بس أجيب معي دراهم زود، في شي مستعجل للبيع؟
- لا يا جبل، أنت بس مر وما عليك.

كانت مكالمة الشيخ ابن مسمار مقتضبة، لم يكن صوته كما يبدو حين تكون لديه صفقة عقارية مستعجلة، ولم يبدُ على صوته أي حماس لقبض سعي آخر، ولا نبرة مسوِّق. كان صوت الشيخ مرتبكًا قليلًا، وهذا ما أثار شك جبل، إذ إن الشيخ دائمًا يكون حريصًا على تذكير جبل بالدراهم للسعي، كان يعلم أن جبل لا يحمل مبالغ كثيرة في جيبه، لم يكن مثل أبيه الذي لا يحتاج لتذكيره، كان ابن طرَّاق في عُرف الشيخ ابن مسمار (ملك الربطة). بعد أن أغلق جبل هاتفه نوى أن يصلي الظهر في الجامع القريب من المحكمة الكبرى والذي يؤمه الشيخ.

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة وربع حين همَّ الشيخ بالخروج من الجامع، واستقبله جبل في طريق الخروج قبل باب الجامع بخطوتين تقريبًا. قَبَّلَ جبل رأس الشيخ وظل ممسكًا يده اليسرى بيده اليمنى فيما هُم عائدون نحو المحكمة. حاول جبل استنطاق الشيخ في الطريق إلى المكتب، وبادله الشيخ في كل محاولة بابتسامة هادئة حتى وصلا مكتب الشيخ. أمر ابن مسمار الجندي بأن لا يدخل مراجعًا حتى يخرج للمكتب، وسحب يد جبل وأخذه للمختصر. حين جلس الشيخ بادر جبل بسكب فنجان قهوة للشيخ ثم له، سحب الشيخ نَفَسًا عميقًا بعد أن رشف من فنجانه وقال لجبل:

- يا ولدي، وشلون الوضع فيما بينكم يا عيال ابن طرَّاق؟
- الوضع زين، والأمور ماشية.
- فيه أحد ما هو راضي عن وكالتك، أو ولايتك للقاصرين؟
- والله يا شيخ أنت خابر أن طرقي ووالدته سحبوا الوكالة، وأم طارق بعد مع ولدها سحبوها.
- أنا خابر هالأمور، بس هل أحد كلمك أو سألك عن شي وما أجبته إجابة مرضية ومعترض على شيء؟
- لا يا شيخ، وش صاير؟

كان جبل ينظر لعيني الشيخ وهو يسأله، والشيخ لا يكفُّ عن طرح استفساراته، يطرح السؤال ويقلِّب كفه اليمنى في الهواء، ويجيبه جبل وهو يقلِّب كفَّيه الاثنتين. كان الواضح من حديث الشيخ لجبل أن ثمة أمرًا ما حصل أو ربما يحصل، لكنه لم يتخيل ما قاله الشيخ له بعد هذه التساؤلات:

- أم طارق رافعة عليك قضية.

سكت جبل قليلا، زمَّ شفتيه وعقد حاجبيه وقلَّب كفيه هذه المرة أيضًا فيما سبابتاه تشيران إلى نقطة واحدة في الهواء. كان ابن مسمار ينظر في ذات اللحظة التي رمى فيها بجملته الأخير إلى عيني جبل، بدت عيناه واجمتين بلا تعبير (لدى جبل عينان لا تبديان انفعالًا مثل عيني جَمَل). كان ابن مسمار منفعلًا بنبرة عاطفية حزينة حين أردف قائلًا:

- و مدعية عليك أنك بايع (سكراب) تعود ملكيته للمرحوم ابن طرَّاق وما خاشرتهم في المبلغ.

لم تتغير انفعالات عيني جبل، لكنه في تلك اللحظة شعر بذات الألم الذي يأتيه أعلى فخذيه نازلًا إلى الركبتين، عاد بظهره للوراء وتسنَّد على الصوفا في مكتب الشيخ، مدَّ قدميه قليلًا إلى الأمام حتى اصطدمت بالطاولة التي تتوسط مختصر الشيخ، فيما يده اليمنى مستمرة بالتقليب في الهواء، وحين اصطدمت قدم جبل بالطاولة أكمل الشيخ:

- و تقول أن معها إثباتات تقدر تثبت فيها هذا الشيء.

- وش إثباتاتها؟ (نطق جبل للمرة الأولى منذ قال له الشيخ عن أمر الشكوى)

- ما ذكرتها في مسودة الادعاء، لكنها تقول أنها تقدر تثبت.

- تعقب يا شيخ.

- لا يا جبل، ما يجوز هالكلام، هذي مهما كان أرملة أبوك الله يرحمه ويسكنه جنات النعيم.

- بس يا شيخ، وصلت فيها الأمور أنها تدّعي عليّ؟

- ما يخالف يا ولدي، مدامك متأكد أن ما عليك شبهة، لا يهمك. هي يمكنها شاكة في بعض الأمور، وعموما القضية عندي، وبنشرح لها ما يلزم.

- طيب وش تشور عليّ يا شيخ؟

- أشور عليك إن كان ما في ذمتك شيء أنك تحضر معها عندي، وأبحدد جلسة أولى، ولعلنا نحل الأمور.

- ما يصير إلا كل خير.

- أنت شاور نفسك الليلة، وإذا ما عندك مانع راح أجدول الجلسة في أسرع وقت، علشان ما تطول السالفة وتتعقد بعض الأمور، و"إنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا" يا ولدي.

- ما يخالف، شورك وهداية الله.

- أنا اللي مستغربه أن أم طارق متقدمة بالشكوى بنفسها، يعني ما وكلت ولدها أو أبوها ينوب عنها في هالأمور!

- والله يا شيخ هي شورها من رأسها، ما تسمع الكلام.

- هذولا الحريم، إذا نشبوا في أمور المال والحلال تشككوا بكل شي، ما ودك أن الواحد يسلمهم شي. أبوك الله يرحمه يا جبل، كان يقول لي دائمًا: "الحرمة لا تعلمها كم عندك، إن نقص حقرتك، وإن زاد هدت طلباتها اللي ما تخلص عليك".

- عاد يا شيخ الحين من يمنعها؟ هذا ورث ومثلك عارف.

- أدري الله يرضى عليك، بس أعلمك من كلام أبوك الله يرحمه.

خرج جبل من مكتب الشيخ، ناوله ابن مسمار قبل الخروج نسخة من خطاب الادعاء الذي تقدَّمت به فردوس ضد جبل، ولم يقرأه جبل سوى حين عاد للمكتب، حاول أن يقرأ في سيارته، لكن الكلمات كانت مندلقة على بعضها نظرًا لصغر الخط وعدم وضوحه.

في مكتبه وضع جبل نظارة القراءة وشرع يقرأ، بدأ الألم يعاوده حين وصل لمسبِّبات الادعاء، كان ينزل بشكل أخف هذه المرة من أعلى فخذيه للرُّكبتين، شكَّ في أن عضلة الفخذ فوق ركبته اليسرى ترتجف بسرعة، وضع يده عليها ولم يتبين له شيء.

أثارت لائحة الادعاء حفيظة جبل، بدأ يفتِّش في ذاكرته عن مَن كان يعلم عن بيعة (السكراب). كان جبل يتذكَّر جيدًا أن الأمر حدث بسرعة، ولا أحد يعلم عن السكراب الموجود في أرض بعيدة عائدة ملكيتها لأبيه، موجودة في أطراف المدينة الصناعية. كان جبل يتذكر جيدًا أن بيانات الأرض مرفقة مع لائحة الإرث الموجودة، وكان يتذكر كذلك أنه باع الأرض بموجب التوكيل الذي كان يملكه بعد حفل رأس السنة الشهير بأسبوع. كان جبل أيضًا يعلم أنه وزع مبلغ البيعة على كل الورثة ببيان مُوَقَّع منه شخصيًّا كما يفعل كل مرة، ولم يخاطبه أحد عن السكراب الذي جمعه ابن طرَّاق طوال سنوات كثيرة فوق الأرض.

كان ابن طرَّاق لديه ذلك الحس القوي تجاه الأشياء المادية مثل قنَّاص متمرِّس، لم يكن يقبل برمي أي شيء، ولهذا شرع في تجميع (السكراب) والحديد المتآكل بفعل الصدأ منذ بداياته التجارية، بل فرز مخلفات الحاويات الإنشائية أيضًا. كان ابن طرَّاق يُصِرُّ على أن يجمع ذلك ليوم سوف يأتي، فعل بالسكراب والحديد المتآكل مثلما جمع ألواح الخشب والألومنيوم وحتى صفائح الاسبستوس الضارة، لم يكن يرمي شيئًا قطُّ من تلك الحاويات والمخلَّفات. نقل ابن طرَّاق السكراب بين أكثر من ثلاثة مواقع، حتى وصل إلى أرض المدينة الصناعية، وكانت نبوءته لا تخطئ الهدف، إذ لا بُد أن يأتي يوم وتصبح لهذه المخلفات الإنشائية والصناعية قيمة، لكنه لم يعِش حتى بيع السكراب.

قبل وفاة ابن طرَّاق بسنتين تقريبًا بدأت أسعار الحديد والسكراب ترتفع بشكل تصاعدي، وكان ابنه جبل آنذاك يلحُّ عليه في كل شهر تقريبًا

بضرورة البيع، وابن طرَّاق يقابله بالرفض، كان يردد جملتين شهيرتين: "هذي مهي جمرة في يدك ترميها" و"كل شيء له وقته، حتى السروال الأسود". أمر ابن طرَّاق ابنه جبل أن يكف عن إلحاحه، وأخبره أنه يعلم متى يبيع، وأن كل هذه الظواهر يعلم متى تصل لقمَّتِها التي يتوجَّب عليه التحرُّك منها، ومع هذا لم يكف جبل عن التحسُّر. بعد وفاة ابن طرَّاق عزم جبل أن يبيع الأرض وقبل ذلك السكراب، ومهمته الكبرى انحصرت في كيفية بيع السكراب من دون ترك أي أثر يدل على البيعة.

قبل حفل رأس السنة الشهير استشار جبل أبا ضاري، ولم يجد أبو ضاري أيَّ مشترٍ من تجار الحديد لديه القدرة على دفع مبلغ نقدي كبير لتلك البيعة. عاد أبو ضاري واقترح على جبل أن يبيعه لعدة تجار ويأخذ كل منهم النصيب الذي يستطيع شراءه، وكاد جبل أن يفعل لولا أنه هاتف صملول قبل ليلة من التنفيذ، عرض عليه الأمر وأخبره أن شرطه الوحيد هو في أن يتم الدفع نقدًا. طلب صملول مهلة يوم للتفكير وبحث الأمر، واستعان بأحد تجار الحديد والسكراب المقربين لديه (مرجع بن سالم) والذين يثق بهم، وأشار عليه أن هذه فرصة استثمارية لا تفوت، إذ إن أسعار السكراب ما زالت في تصاعُد مستمر وبإمكانه بيعها حالًا عند أحد مصانع الحديد الكبرى في ظرف شهر واحد وبربح لا يقل عن 15٪ في المائة. فكَّرَ صملول في الأمر، وخمَّن أن في إصرار جبل على البيع نقدًا يكمن في كونه لن يدخل المبلغ في حسبة الورثة، لكنه لم يتحدث مع جبل بهذا الأمر، تواطأ معه، وقرَّر أن يفاوض جبل على سعر الطن الواحد. فاوض صملول جبل على تخفيض سعر الطن مقابل الدفع نقدًا، ووافق جبل مباشرةً. دفع صملول أكثر من ثمانية ملايين ثمنًا لذلك السكراب المتجمِّع فوق أرض ابن طرَّاق، وقبض جبل المبلغ نقدًا، وتمت البيعة في مكتب مرجع بن سالم بشهادة أبي ضاري ومرجع بن سالم. استعاد جبل كل تلك التفاصيل، ولو كان الأمر صحيحًا أن

فردوس قد عرفت بالأمر فشبُهة تسريب الموضوع لن تخرج عن ثلاثة أشخاص: صملول، أو مرزوق، أو مرجع بن سالم.

خمَّن جبل أن ثمة وشاية جديدة، وأدرك أن زمن الوشايات ليس محصورًا بزمن ابن طرَّاق، كانت الوشاية لا تنتهي عند أبيه، لكنها وشاية تدق أبواب المحاكم هذه المرة.

مرجع بن سالم:

أنا رجل سمسار أو شريطي مثلما يقول العامة، معدات ثقيلة، حديد، خشب، سكراب، وحتى عقار... إلخ. لكن من المهم أن تدركوا أنَّ تخصُّصي العقاري محدود فقط في العقار الصناعي والإنشائي والمخازن. لاحظوا أني سوف أعطيكم هذه المقدمة ليس لمجال الدعاية أو التفاخر، هي فقط معلومة حتى تتفهموا دوري جيدًا. في النهاية أنا لا يهمني إن كان البائع سارقًا والشاري (ملعون والدين)، ما يهمني فقط هو: وجود عين للبيع أولًا، ومالك يرغب في البيع، ومشترٍ مليء. من المهم كذلك أن يكون البائع سمحًا، والمشتري راغبًا، ويكونا مؤمِنَيْن بمقولة: "ربي ارزقني وارزق مني". متى ما تحقق ذلك فإن مهمتي تنتهي، أكتب المبايعة بأسرع وقت وأجهِّز الشهود لو لزم الأمر، وأقبض الثمن. في مهنتنا كما يعلم الكثير نقبض 2.5٪ والرزق على الله. ليس لدي شيء آخر، أنا في حديثي هذا لا أشكِّك في نية أحد، ولا أعلم عمَّ تبحثون. صحيح أن جبل كان متعجِّلًا كثيرًا في هذه البيعة، وأنه اشترط الدفع نقدًا، وهو بالفعل أمر مثير للريبة، لكن ذلك لا يهمني.

(47)

نظّارة منتصف العمر

كان جبل يمسك بطرف نظارة القراءة ويبرمها مع عقارب الساعة مثل طاحونة هواء بعد أن فرغ من قراءة خطاب الادعاء في مكتبه.

يجب أن نخبركم هنا أن جبل كان مغرمًا بقراءة الأخبار والتحقيقات في الصفحات الاجتماعية المحلية، تلك التي لا يتجاوز بعضها أكثر من ستين كلمة في الخبر، وتُكتَب مرصوصةً فوق بعضها البعض في صفحتين يوميًّا ويسمونها أخبار المحليات. كان يبحث مثلا عن: خبر انتحار شخص، وآخر عن حادث لمعلمات، وثالث عن مداهمة وكر للخمور المصنعة، ورابع عن اعتداء طالب على معلِّم، وخامس عن بدء صرف مستحقات الضمان الاجتماعي، وسادس عن صرف مستحقات المزارعين، وغيرها من الأخبار اليومية السريعة بالإضافة إلى أعلانات العزاء. لكنَّه قبل بضعة شهور من وفاة والده بدأ يشعر بـ"زغللة" حين يشرع بقراءة الجرائد، وخصوصًا في تلك الصفحات الـمُحَبَّبَة لنفسه والتي تُكتَب بخط صغير، وأصبح يرى حروفًا تسيح فوق بعضها وكأنما دخلت الحروف في حالة عناقٍ جماعي. ذهب جبل للطبيب لشرح معاناته، وصرف له الطبيب نظَّارة قراءة، وأخبره أن كل من اقترب من الأربعين لا بُد أن يحتاج لمثل هذه النظارة. تحسَّر جبل كثيرًا بعد خروجه، وفي ذات المساء حين التقى بصديقه مرزوق (أبي ضاري) شكا له الحال وأخبره أن العمر يجري، بل ستذبل أمور أخرى في جسده مثل أغصان الخريف، ولن ينفعه شيء من الطبيب. قال له مرزوق:

- يا ابن الحلال أهم شيء صحتك زينة.

- آااه! كل شـيء يخرب مع الوقت يا أبو ضاري، والمشـكلة أن الفلوس ما تجي إلا بعد ما تطيح همة الرجال.

- يعني أنت تحتري فلوس الشايب تجي.

- آااه. الشايب شكله مطوّل يا أبو ضاري، ولا هو سهل أن الواحد يلهط من عنده.

تُوفِّـيَ ابنُ طرَّاق بعد عدة شهور من بَوح جبل لأبي ضاري وقبل أن تمر سـنة واحدة من هذا الحديث. لم يعد أبوه قريبًا ليحل مشـاكل جبـل ويقـوِّم أمـور العائلـة. لـم تمـر علـى جبل مشـكلة عائلية قبل هذه المشكلة إلا وكان لها مَخرج يُوجِده ابن طرَّاق. لكن بعد الادعاء الأخير أحـسَّ جبـل أنـه دخـل نفقًـا مظلمًا لا يعرف له مَخرجًا مع فردوس. كان جبـل يـدرك فـي أعماقـه أنـه اختلس المبلغ كاملًا، وفي ذات الوقت كان خائفًا من تسرُّب بعض الأوراق الإثباتية ليد فردوس، وربما تصبح حينئذٍ فضيحته مدوية عند الجميع.

كان وجـود ابـن طـرَّاق كفيـلًا بحـل كل مشـكلات جبـل، وكل مـا طـرأ مـن عقبـات فـي وجـه أمرٍ سـعى جبل فيه، مكالمـة واحدة من ابن طـرَّاق كانـت كفيلـة بتذليـل كل الصعـاب، وتمرير أي أمر معاق لدى أي جهة حكومية، ولولا تدخُّل ابن طـرَّاق في السـنة الثالثة مع الوزارة لما تجاوز جبل اختبارات الشهادة الثانوية، ولولا مكالمته لمدير المرور لما استخرج رخصة القيادة في ذات اليوم، ولولا تدخُّل ابن طـرَّاق مع والد زوجة جبل لما عادت الزوجة إلى جبل مرة أخرى.

هذه القصة بالذات (خلاف جبل مع زوجته) كانت مغايرة ومثيرة، إذ إن جبل جلس مدة تربو على السنة وهو لا يريد للخلاف أن ينتهي، كان كمن يريد إنهاء الزواج برمَّتِه، ولولا الطفلان اللذان كانا نتيجة لهذا الزواج لما عاد جبل لزوجته. لم يكن ابن طـرَّاق مع عودتها للبيت حين افترقـت زوجـة جبـل عنـه، بـل على العكس قـال لجبل ذات يوم: "العنز

اللي تروح، تجي محلها عنز". لكن جبل لم يكن راغبًا في الزواج مرة أخرى، كان يتوق لحياة الحرية التي لم تتسنَّ له قبل زواجه المبكِّر، أمضى في زواجه قرابة السنوات الأربع، وأنجبت له زوجته طفلها الأول (عبيد) وبعد مضيِّ السنة الثالثة صارت حُبلى بطفل آخر وحين أنجبته رفضت العودة إلى زوجها. قالت زوجة جبل لأبيها إن عودتها مكفولة بأن يُحسِن جبل معاملته لها، واشترطت أن يخصص لها مبلغًا شهريًّا بدلًا من صرفه المقتَّر عليها وعلى أبنائها، لكن جبل لم يقبل في بداية الأمر. كان جبل توَّاقًا لكي تخلو غرفته له، وللخروج من المنزل معظم الوقت.

قبل رحيل زوجة جبل بعدة شهور كان جبل يقضي معظم وقته في ملحقه الخاص، يدخله بعد صلاة العشاء ولا يخرج منه سوى حين ينتصف الليل، نبَّهَهُ ابن طرَّاق لزوجته، لكن جبل لم يستمع لحديث أبيه، وكان يوهم أباه أن زوجته ليس لديها سوى الطلبات التي لا تنتهي، وأنه لا يستطيع تحمُّل كثرة إلحاحها.

ما لا يعلمه ابن طرَّاق أن جبل كان يقضي في الملحق الساعات المسائية للتنصت على المكالمات اللاسلكية من جهاز (السكانر) الذي اشتراه، كان بمثابة الكنز الجديد الذي وقع بين يديه، أدخله إلى عالم المحادثات والعلاقات العاطفية، وفنون الغزل بين الشاب والفتاة، وأحيانًا معرفة بعض الأخبار المحلية التي لم تتسرَّب بعدُ إلى الصحف.

حين يقفل جبل باب الملحق كان يجلس على الركن مستندًا بين زاويتين ركنيتين، كان يمد قدميه ويفتح جهاز (السكانر)، يُدير الموجات ليقضي مع كل مكالمة بضع ثوان، وإن لم يتبيَّن أن المحادثة عاطفية كان يغيِّر القناة حالًا باحثًا عن موجة أخرى. وقع جبل في الإدمان على الاستماع لجهاز (السكانر)، بقي لفترة من الوقت لا يعرف كيف يقضي وقتًا ممتعًا بغير السكانر، حتى إنه حين يصبح في يومه التالي يظل مسكونًا بالمكالمات التي أنصتَ لها الليلة السابقة، ويفكِّر في وضع سيناريو

مُحتَمَل لما سيفعله المتحدثون في الليلة السابقة، وكيف يلتقون حين يتفقون على موعد غرامي. مع مرور الوقت شرع جبل في تخيُّل الفتيات اللائي يهاتفن عشاقهن عبر السكانر، وكان لا يجد صعوبة في ذلك؛ إذ إن معظم الشباب حين يشرعون في تحويل مسار المكالمة الغزلية إلى مكالمة جنسية يسألون الفتيات: "وش لابسة اليوم؟" كانت هذه هي الجملة الأكثر ترديدًا من الشاب إلى الفتاة عبر جهاز السكانر مثل مانشيت يومي، كانت هي المانشيت الأعظم، والتي يبدأ بعدها لعبة شرح لباس الفتاة لخليلها، ويشرع الاثنان في أنين خفيف. كان جبل عاشقًا لهذه الجملة من المكالمة العاطفية مثل مشجِّع ينتظر حركة لاعبه المشهور في كل مباراة، كانت أنثى جبل حاضرةً في عقله على الدوام، لا يحتاج سوى أن يلبسها ما يسمع من فتاة السكانر، فيباعد بين فخذيه، ويبدأ في لعبة القمقم والمارد.

حين غادرت زوجة جبل بعد إنجابها طفله الثاني نقل جبل جهاز السكانر إلى غرفة النوم التي خلت له وحده، أصبح يدخل الغرفة من بعد صلاة العشاء، يتعرَّى من ملابسه، ويتمدد على السرير الخالي إلا من جهاز السكانر وعلبة مناديل وكريم مرطِّب. بعد مضيٍّ سنة من الخلاف عادت زوجة جبل لغرفتها، تَدَخَّلَ ابن طرَّاق في الموضوع وكفل حلًّا للجميع، اقترح على جبل أن يصرف له راتبًا أكثر، ويقتطع مبلغًا شهريًّا لزوجته.

هدأت الأمور بين الزوجين، وعادت المياه لمجاريها آنذاك. والمؤكَّد أن المصائب أصبحت تنزل على رأس جبل منذ وفاة ابن طرَّاق، هكذا يُخَيَّل لجبل. كانت مصيبته الكبرى في ذلك المساء في كيفية حل موضوع ادِّعاء فردوس، وبعد أن برم جبل نظارة منتصف العمر في يده لمدة تربو على النصف ساعة (مثل طاحونة هوائية)، قرَّر أن يواجه الموضوع مثل رجل شجاع، شريطة أن يكون ذلك في المحكمة، لا في المنزل. هاتَفَ جبل الشيخ ابن مسمار وأبلغه أنه مستعد للجلسة للنظر في ادِّعاء فردوس، وطمأنه أن لا شيء يدعو للقلق، وقال إنَّه لا يظن

أن فردوس لديها أي إثبات.

وافقه ابن مسـمار بدوره، لكنه لم يكن متفائلًا منذ رأى جبل في مكتبه.

الراوي:

امتنـع الجميـع عـن الحديـث، وكأنهـم اتفقـوا علينـا: جبـل وفردوس وصملول وطرقي. فعلوها قبل ذلك، وتمكّننا من إقناعهم بالبوح قليلًا، حتى الذين لم نتمكّن من إقناعهم جادلناهم واعتبرنا جدالهم بَوحًا وكتبناه هنا، بل كنًّا - حين لا نجد ما نكتبه - نلجأ لفرج الذي ما جادلَ يومًا، كان دائم الحديث بنفس شـفافة. بعد حادثة الجمعة، والسيارة المعلَّقة فوق الرصيف، والقوارير المَلأى والفارغـة، لـم نتمكـن حتـى مـن زيارتـه أو الوصول لـه. لكننا لم نستسـلم لهذا الصمت، بل نودُّ أن نرسـم رابطًا بين محاولة طرح الأسـئلة مـع الصمـت الجماعي لجبـل وفردوس وصملول والبقية عن البوح والشـهادات. نحن نشـكّ كثيرًا في أن طرحنا المكثَّف للأسـئلة لأبطال هذه الرواية قد أزعجهم، إذ إن كلَّ سـؤال يُنبِتُ سبعة احتمالات على أقل تقدير، تمامًا مثل الحبَّة التي تنبت سبع سنابل وضرب الله بها مثلًا في القرآن الكريم. لا نودُّ أن نستطرد في الحديث مجددًا هنا، نعلم أن هذه المساحة ضيقة قليلًا، لكنَّا نصـرُّ علـى البحـث والتقصِّـي مواصلينَ إبحارَنا في طرح الأسـئلة حتى لو تخلَّى عنَّا أبطال الرواية ومارسوا الصمت المكثَّف.

نحن نحاول أن نجلب لكم البهجة، نثمن كثيرًا صبركم معنا، ونرجـو أن تثقـوا بنـا الآن بعـد مضي الجـزء الأكبر منها، وتأكدوا أننا سوف نفسح المقعدين لوجوه جديدة، سوف نجلس بجانبكم، ونتحلَّق حولهم ليقصُّوا علينا ما يريدون. بعد أمتناع الأبطال عن البوح، يحق لنا أن نصنع أبطالاً آخرين، وجوه جديدة ودماء شابة.

(48)

المحكمة -1

دخلت فردوس المحكمة أولًا وكان بصحبتها ابنها طارق، تبعها بثلاث خطوات أبوها فهيد المنهاجي. بعد مضيٍّ عشر ثوان تقريبًا دخل طرقي، وأمر ابن مسمار الجنديَّ الواقفَ قربَ الباب أن يغلقه ويمنع طرق الباب أو دخول أحد غرفةَ الشيخ. أحنى الشيخ ابن مسمار رأسه على الأوراق التي بين يديه بعد إغلاق الباب، كان جبل يجلس عن يمين الشيخ على طرف الكنبة وقد أحنى رأسه وعقد أصابع يديه (حضر جبل قبل حضور الآخرين بنصف ساعة)، ويليه في ذات الصف طرقي الذي كان مستندًا على الكنبة واضعًا قدمه اليسرى فوق اليمنى. في الصف المقابل كان فهيد المنهاجي مستندًا على الكرسي مادًّا قدميه للأمام، تليه فردوس الجالسة على طرف الكرسي منتصبة الظهر كأنها متأهِّبة للوقوف، وبعد ذلك طارق في الكرسي الثالث والذي بدا متأهبًا للوقوف مثل والدته.

كان الشيخ يقرأ في الأوراق منكبًّا عليها واضعًا نظارة القراءة فوق أرنبة أنفه، رفع رأسه وجال بعينيه وشرع بالنداء:

- فردوس بنت فهيد المنهاجي صاحبة الادعاء موجودة؟
- نعم يا شيخ. (هبَّت من الكرسي ووقفت قبل أن تنطق)
- و جبل بن عبيد ابن طرَّاق المدَّعى عليه موجود؟
- نعم يا شيخ. (رفع يده اليمنى)
- طيب، وورثةِ المرحوم ابن طرَّاق من اللي فيه، أنتِ يا فردوس عن نفسك؟
- نعم يا شيخ. (هبَّت من الكرسي ووقفت مجددًا)

- و طرقي أنت أيضًا عن نفسك وكذلك وكيل لوالدتك؟

- نعم يا شيخ، عن نفسي ووكيل للوالدة. (رفع يده اليمنى وهو ينطق بينما بقيت قدمه اليسرى فوق قدمه اليمنى)

- و طارق ابن عبيد ابن طرَّاق حضر بنفسه؟

- نعم يا شيخ. (رفع يده اليمنى مجددًا)

- و بقية الورثة الموجودة أسماؤهم في حصر الورثة، وكيلهم جبل بن عبيد ابن طرَّاق؟

- نعم يا شيخ. (رفع جبل يده مجددًا)

صمت الجميع فيما ابن مسمار يراجع كل الأسماء ويطابقها ببطاقات الأحوال المدنية الموضوعة أمامه. رفع الشيخ رأسه مرة أخرى وجال بنظره نحو الجميع وتوقَّف عند فهيد المنهاجي قائلًا:

- أخ فهيد، أنت وأنا أخوك وش سبب وجودك اليوم؟

- والله يا شيخ أنا حاضر مع بنتي.

- بصفتك ماذا؟

- كيف يعني يا شيخ الله يجزاك خير؟

- يعني هي لم توكلك، بصفتك ماذا تحضر الجلسة؟

- و الله، يمكن تحتاجني أو شي.

- يا أخ فهيد لو احتجنا لك سوف نستدعيك، انتظر في الخارج جزاك الله خير.

- بس يا شيخ...

- لا تجادل غفر الله لك، انتظر في الخارج.

- سم يا شيخ.

قام فهيد المنهاجي من مكانه ومضى باتجاه الباب للخروج، وقبل أن يهم بفتح الباب، ناداه الشيخ:

- خذ بطاقتك معك يا أخ فهيد، ما نحتاجها.

- إن شاء الله.

خرج فهيد من غرفة الشيخ، وصمت الجميع لبرهة حتى عاد الشيخ ليسأل فردوس:

- يا فردوس بنت فهيد، أنتِ تدعين على جبل بن عبيد ابن طرَّاق في خطابك أن جبل باع (السكراب) الذي كان موجودًا على أرض ابن طرَّاق في جنوب المدينة الصناعية الجديدة، وأن السكراب تعود ملكيته للمُتَوَفَّى عبيد ابن طرَّاق، وأن جبل قبض مبلغ البيعة كما تدّعين والذي تقولين أنه (ثمانية ملايين ريال سعودي) ولم يوزع المبلغ على الورثة، هل تقرِّين بما ذكرتِ في خطاب الادعاء؟

- نعم يا شيخ. (قامت من مكانها وهي تتحدث)، مبلغ بيعة السكراب ثمانية ملايين كاش واستلمها يوم البيعة.

جلست فردوس بعد ذلك فيما جبل يبرم شاربه قاعدًا على كرسيِّه. كان جبل يفكِّر منذ أسبوع عن كيفية وصول هذه المعلومة لفردوس، لم يتحدَّث حول هذا الأمر مع أيٍّ من الثلاثة المشكوك في أمرهم: لا صملول ولا أبا ضاري ولا مرجع بن سالم. كان جبل متأكدًا أن الأمر تسرَّب عن طريق أحدهم، ماذا لو سرب أحدهم الأمر لشخص آخر وهذا الآخر هو الذي أوصل المعلومة لفردوس؟ أقلقه الأمر كثيرًا وأدخله في هُوَّةٍ سحيقة من الشك.

جبل لا يعلم أن الأمر وصل لفردوس عن سبق إصرار وترصُّد، وصل الخبر لها عن طريق بريدها الخاص، وكانت القصة مكتوبة في ورقة، وكُتِبَ فيها كل تفاصيل القضية ما عدا أسماء المشتري والشهود، كان المرسل هو صملول، ولا تعلم فردوس أن صملول هو المرسل، لكنه كتب في ذات الورقة حاثًّا إياها على المطالبة بالمبلغ، وحتى لو تطلَّبَ الأمر رفع قضية على جبل، وأكَّد المرسل أنه سوف يكون قريبًا ومتابعًا للقضية، ولو احتاجت سوف يمدها بأوراق إثباتية تثبت بها المبلغ. حين

أنهت فردوس ادعاءها صمت كل من بالغرفة، وانتظروا الشيخ ابن مسمار ليكمل. التفت الشيخ ابن مسمار إلى جبل وقال:

- جبل بن عبيد ابن طرَّاق، ما قولك في الادعاء الموجَّه لك من قِبَل فردوس بنت فهيد المنهاجي أرملة والدك المتوفي عبيد ابن طرَّاق؟

- يا شيخ كل اللي تدعي فيه غير صحيح، ما فيه سكراب ولا بيعة ولا حصل شي من اللي تقوله.

- و الأرض؟

- الأرض كانت محصورة في لائحة الورث الموجودة نسخة منها عند كل الورثة، بجميع أبعادها وموقعها، وهذي النسخة اللي أرسلتها للجميع بعد أن حصرنا الورث. وأنا يا شيخ بموجب الوكالة اللي عندي بعت الأرض حسب التفاصيل الموجودة في هذي المبايعة (مدَّ جبل نسخة للشيخ)، قبضت الثمن وأفرغنا للمشتري، وأودع المبلغ بحسب سند الإيداع هذا (مدَّ جبل نسخة من سند الإيداع للشيخ) ووزعنا المبلغ النقدي حسب النسب المستحقة للورثة جميعًا، وهذي يا شيخ نسخة من حركة حساب الورثة بعد إيداع المبلغ وتوزيع النقد للورثة. (مدَّ جبل نسخة للشيخ)

تسلَّم الشيخ جميع الأوراق من جبل، وضمَّها إلى بقية الأوراق وانكبَّ يقلِّبها بين يديه. كان الجميع صامتًا في الدقائق الثلاث التي تلت حديث جبل، رفع الشيخ رأسه وخاطب فردوس:

- عندك إثبات على ما تدعين يا أخت فردوس؟

قامت فردوس من مكانها وبدأت تتحدث، كان الشيخ يرفع رأسه بين لحظة وأخرى ناظرًا لفردوس، شغلته حركة يد فردوس اليمنى وهي تتحدث واقفةً، كانت لا تتحدث إلا وترتفع يدها في الهواء، ترتفع سبابتها تارة وتقلِّب كفها تارة، تضم أصابعها حول إبهامها مرةً، وتنحسر العباءة أحيانًا لتكشف ذراعها البيضاء المبرومة. قالت فردوس في إجابتها للشيخ

بعد سؤاله الأخير:

- يا شيخ أنا وصلتني معلومة أكيدة عن الموضوع، وأتذكر الشيخ عبيد ابن طرَّاق الله يرحمه في حياته مرة من المرات يقول لجبل: "يا ولدي هالحديد ماهو جمرة في يدك علشان تتخلص منه".

- بس يا أم طارق... (جبل مقاطعًا)

- اصبر يا جبل، لا تتحدث حتى يأتي دورك. (ابن مسمار يأمر جبل)

- كنت أنا يا شيخ وجبل وأم جبل وأم طرقي في صالة البيت، وكان جبل يتكلم مع أبوه في هالموضوع، وأنا أتذكر كلمته زين يا شيخ.

- طيب عندك أي ورقة تثبت كلامك، أو مجرد شكوك؟

- أنا متأكدة يا شيخ، وعندي خبر.

- يا أم طارق الله يجزاك خير، نحن في محكمة وقضية شرعية، وأنا أبحث عن أوراق ودلائل، هل عندك منها شيء جزاك الله خير؟

- لا يا شيخ، بس تقدر تتأكد من حساباته في البنوك، وتشوف مِن أين له هذا؟

- يا أم طارق الله يهديك، أنا الذي أقرّر وش يصير، إذا ما عندك إثبات ودليل مادي قولي لي.

- ما فيه دليل في يدي الآن.

جلست فردوس بعد أن قالت جملتها الأخيرة وأطبق الصمت مجددًا، عاد الشيخ ابن مسمار لتقليب الأوراق. خلع ابن مسمار نظارته ورماها على الأوراق، التفت إلى جبل وقال له:

- ماذا لديك يا جبل؟ هل لديك تعليق على الموضوع؟

- اللي بقوله يا شيخ أن الوالد رحمة الله عليه كان عنده خشب وحديد وألمنيوم وسكراب وكثير من المواد الإنشائية التالفة، وكثير منها موجود في أرض من جهة الطريق السريع ومدونة في لائحة الورث، كل

شيء مدون يا شيخ، وأرض المدينة الصناعية ما كان عليها ولا شي.

- عليها يا شيخ كل السكراب وأبو جبل كان مجهزه للبيع.

(فردوس تقف وتقاطع جبل)

- يا أخت فردوس اجلسي الله يصلحك ولا تتحدثين في غير ما يطلب منك. (كانت المرة الأولى التي يشير فيها الشيخ بسبابته لأحد منذ بداية الجلسة)، أكمِل يا جبل.

- هذا كل اللي بقوله يا شيخ، ما عندي شيء ثاني، اللائحة عندك، وكشوفات الحسابات عندك، وحركة التحويل من الحساب الرئيسي لحساب الورثة عندك، وكل الأوراق موجودة عندك، ومبايعة الأرض وصكها عندك وفيها إثبات أن ما كان عليها شيء.

- أنت بايع السكراب قبل بيعة الأرض. (نطقت فردوس هذه المرة وهي جالسة على الكرسي)

- انتظري الله يثيبك يا أخت فردوس (قاطعها الشيخ)، عندك قول آخر يا جبل؟

- سلامتك يا شيخ، ما فيه أي إضافة عندي.

- حسنًا.

التفت الشيخ إلى الكاتب الذي بجانبه وأمره أن يكتب:

- تُرفَع الجلسة، ويؤجَّل النظر فيها إلى جلسة قادمة تُحدَّد بعد أسبوع من الآن لغرض مراجعة كافة الأوراق والإثباتات الـمُقَدَّمَة في الجلسة، ويُبلَغ الحضور بموعد الجلسة القادمة.

خرج الجميع بمن فيهم جبل، وتفرقوا إلى السيارات الثلاث التي أتوا فيها. كان جبل في سيارته وحيدًا، طرقي كذلك في سيارته وحيدًا، وطارق بصحبة والدته وجدِّه في سيارة فردوس.

ابن مسمار:

لا فائدة من الحديث حول الموضوع، هذا موضوع قضائي

ولا مجال هنا لحكاية أو رواية. عليَّ فقط الآن أن أسجِّل كل الإفادات، وسوف يأتي الوقت المناسب لكي أفرزها وأمرر ما أراه صائبًا. بالنسبة لفردوس سوف أكون معكم صادقًا: إذ إني أحس بصدقها في ما تقول، ومن واقع خبرتي الطويلة في مجال القضاء أصبحت أحدس بالصادق والكذَّاب، وأحس كثيرًا بأن جبل قد خبأ شيئًا ما لم يخبرني به، ولهذا بدا ضعيفًا وبدت فردوس قوية في حديثها، وأظن أن الجميع لاحظ هذا الشيء.

كانت فردوس في كل إضافاتها صلبة مثل دليل مادي، وحتى إيماءات يديها كانت تشير إلى أن في الأمر شيئًا ما لا أدرك كنهه، وصدِّقوني أني لم أنفعل ولا أتذكر أني انفعلت لحركاتها أو رؤية يديها حين انحسرت العباءة عنها، وأتذكر أني كنت أغض بصري. لكن لا أخفيكم سرًّا أني ذات وقفة من وقفاتها، نظرت لها نظرة رجل لأنثى، ولا أعلم سر هذا الوهج العنيف الصادر منها، إذ إني ما زلت رجلًا أشتهي مثلما يشتهون، لكن تأكدوا أني لا أدعُ هذا الأمر يؤثر على مسار القضية، لقد منَّ الله علينا نحن القضاة بقوة من لدنه لنقضي بين الناس بالعدل، وثقوا بي تمامًا؛ إذ إني لن أدعَ القضية تمر حسب أهواء البعض.

(49)

المحكمة -2

بعد أسبوع من الجلسة جاء الجميع لحضور الجلسة الثانية. كانت الزيارة الثالثة للجميع، فقد سبق الجلسة الأولى موعد سابق وأُجِّلَ قبل الدخول إلى الشيخ بدقائق، ولم يكن السبب معلومًا للجميع، لكن ابن مسمار آثر تأجيل الجلسة دون سبب واضح. استمرت الجلسة الثانية قرابة النصف ساعة، ولم يخرجوا سوى بموعد آخر بعد أسبوع من الجلسة. كان ابن مسمار قد هاتف جبل مجددًا، وحكَّ جلده بأسئلته، كان قد دخل الشك إلى داخله، وأحس أن فردوس لديها معلومة يجهلها الجميع، لكن جبل تشجع وأصر على النفي بقوة، خصوصًا حين علم أنه لا إثبات لدى فردوس، وختم ابن مسمار حديثه مع جبل بوعده بالخير.

دخل الجميع على ابن مسمار واتخذوا ذات الأماكن. في تلك الجلسة أذِنَ ابن مسمار لفهيد المنهاجي والذي جاء بصحبة ابنته أن يبقى في الغرفة، كان ابن مسمار يعتقد أن فهيد ربما يساعده في السيطرة على حركة فردوس ومقاطعاتها المستمرة له كما حصل في الجلسة الماضية.

افتتح الشيخ ابن مسمار الجلسة بالصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، "و بعد، اطَّلعنا على خطاب الادعاء الموجَّه من قِبَل فردوس، والذي يخص بيع (سكراب) في أرض المتوفَّى عبيد ابن طرَّاق رحمه الله، والواقعة جنوب المدينة الصناعية، واطَّلعنا كذلك على كل مسبِّبات الادعاء وأقوال المدَّعي، واطَّلعنا كذلك على أقوال المدَّعى عليه والذي نفى كلام المدَّعي جملةً وتفصيلًا، وقدَّمَ كل المستندات التي تفيد مبايعة الأرض، وصورة من صك الأرض وبيانات وكشوفات المبالغ المقبوضة والمُوَزَّعَة على الورثة حسب النِّسَب الشرعية، وبعد مراجعتها

نفتتح هذه الجلسة بسماع الأطراف جميعًا مرة أخرى وقبل البتِّ".

كان جبل وطرقي وفردوس وطارق وفهيد يستمعون لكلام الشيخ، وبعد أن ختم الشيخ كلامه المكتوب في الورقة التي أمامه خلع نظارة القراءة ورماها فوق الورقة، رفع رأسه وسأل فردوس:

- هل ما زلتِ يا أخت فردوس لا تملكين أي دليل مادي على ادعائك؟

قامت فردوس من مكانها، مدت ذراعها اليُمنى وهي تقول:

- لا يا شيخ ما عندي إثبات، بس أكرر طلبي منك يا شيخ الله يجزاك خير أن تبحثون في البنوك عن مصادر الفلوس اللي يودعها في حساباته كلها.

- اصبري يا أخت أم طارق، جاوبي على سؤالي المحدد فقط، هل ما زلت لا تملكين دليل مادي؟

- لا يا شيخ. (جلست فردوس بعد ذلك)

التفت الشيخ إلى جبل قائلًا:

- و أنت يا جبل، هل لديك أي مستجدات؟

- لا يا شيخ، اللي عندي قلته، وإن كان عندك طلبات أخرى أجيبها.

- جزاك الله خير، وأنت يا طرقي بصفتك وكيل عن والدتك ونفسك، عندك تعليق أو تبي تضيف شي؟

- ما عندي أي تعليق على القضية، ولكن أنا أفضّل يا شيخ الله يجزاك خير أن تتم مراجعة كل الدفاتر اللي عند أخوي جبل في الشهور الست الأولى، على الأقل حتى تصفى النفوس.

فوجئ جبل بكلام طرقي، لوى رقبته باتجاه أخيه وناظره بعينيه، فيما طرقي ما زال واضعًا قدمه اليسرى فوق اليمنى تمامًا مثل الجلسة السابقة، مضت ثوان قليلة من الصمت قبل أن تهبَّ فردوس واقفةً لتقول:

- أنا أؤيد كلامه يا شيخ، لازم...

تدخَّل الشيخ مباشرة ورفع كفه اليسرى باتجاه فردوس قائلًا:

- اصبري يا أم طارق.

كان صوت الشيخ ابن مسمار عاليًا وحازمًا حينما أمر فردوس، والتي امتثلت وعادت للجلوس. عاد ابن مسمار ونظر إلى طرقي قائلًا:

- وش الحاجة لتقليب الدفاتر يا أخ طرقي جزاك الله خير؟

- علشان تصفى النفوس يا شيخ.

- و تعتقد لو قلبناها بتصفى نفوسكم من الشك؟ ما تشوف أن تقليب الدفاتر هذا يؤثر في نفس أخوك؟ هل تشك في شيء محدد؟

- والله يا شيخ ما أخفي عليك، الجهل في كثير من الأمور يجيب الشك، وأنا في حياة الوالد الله يغفر له كنت مطّلع أكثر على كافة الأمور المالية، وبعد وفاته وتوكيلنا أخوي جبل فيه أسئلة كثيرة ما لقينا لها إجابات!

- أنا أوافقه يا شيخ (أردفت فردوس وهي جالسة هذه المرة)، فيه أمور كثيرة ما لقينا عليها إجابات غير (السكراب).

أشار الشيخ بكفيه للجميع ليهدؤوا، تَسَنَّدَ على الكرسي وجال بعينيه بحركة نصف دائرية، صمت لبرهة ثم قال:

- هذا ليس مبرر لطلبك يا أخ طرقي، وأنتِ يا أخت فردوس أرجو أن تنتظرين، ولا تتحدثين حتى يأتي دورك، يا أخ فهيد أرجو أن تخبر ابنتك.

- يا شيخ الله يجزاك خير أنا أشوف أن الطلبات كثرت خارج موضوع الادعاء، طرقي يبي وفردوس تبي، وإن كان نفوسهم بتصفى أنا اللي نفسي بتشيل بعد هالتشكيك. (قال جبل)

- هذا حقّنا يا جبل. (ردت فردوس وهي جالسة)

- بس يا أم طارق، هذي مسئولية أنا عملتها بدون مقابل غير

ثواب رب العالمين، والآن تشكّون فيني.

- يا أبو عبيد الله يسلمك (نطق فهيد المنهاجي) الجماعة ينشدون في الأخير عن حلالهم وهذا من حقهم.

- يا فهيد أنت تعرف أنّا ناس تعطي ما تأخذ، وأنت تعرف أنّا راعين معروف، نمد ما نرد.

تدخلت فردوس هنا، هبَّت واقفة والتفتت إلى جبل مواجهةً له قائلةً:

- لا تجيب سيرة المعروف يا جبل، معروفي في صدرك مثل مهو معروف أبوك في بطن أبوي مثل ما تقول.

كانت جملة فردوس الأخيرة تشبه دفقة ماء باردة على الجميع، وصفعت هذه الدفقة كل وجوه الحاضرين، بدءًا من الشيخ ابن مسمار وصولًا لجبل الذي امتقع لونه. ظل جبل مذهولًا لصلابة رد فردوس، وهي بدورها جلست على الكرسي وراقبت صمت الجميع بمن فيهم الشيخ ابن مسمار. قررت فردوس أن تقطع لحظة الصمت موجِّهَة خطابها للشيخ وهي جالسة إذ قالت بحزم:

- يا شيخ الله يجزاك خير، اقتراح طرقي مهم للجميع، وأنا متأكدة أن نصف الورثة اللي موكلين جبل وهو بعد وصيّ عليهم لو كانوا موجودين كان طالبوا بنفس الشيء.

صمت الشيخ بعد طلب فردوس الأخير، شارك الجميع الصمت الذي عمَّ إثر دفقة الماء البارد. لبس الشيخ نظارته وتفحص الأوراق التي أمامه، وسحب إحداها، تمعَّن فيها قليلًا ورفع رأسه قائلًا:

- اسمعوا بارك الله فيكم جميعًا، أنتم الآن ورثة رجل له مواقف كبيرة مع الجميع، وسُمعتكم من سُمعته، أنا أبنصحكم نصيحة لوجه الله، وأرجو من الجميع أن يقتنع بهذا الرأي، القضية الحالية سوف أؤجل النظر فيها لفترة ثلاثة شهور، وأقترح عليكم خلالها أن تجلسون مع بعضكم البعض، وتراجعون كل الأوراق التي تخص إرث ابن طرَّاق

من بعد وفاته رحمه الله، ويجيبكم جبل على أسئلة الجميع، وتحلّون كل الخلافات اللي بينكم، وأتوقع منكم إذا جاء الموعد بعد ثلاثة شهور أن تأتوني بقرار واحد، إما أنكم تسحبون القضية وتنهونها بالصلح، أو تتركون الأمر لي، وإن تركتوه لي فاعلموا (رفع ابن مسمار سبابته) أن الجميع سوف يخسر، سواء كذبت أو صدقت ادعاءات فردوس، سوف أفوض لجنة لتقضي كل الإرث والأموال الداخلة والخارجة على كل الحسابات، وتخرج لي هذه اللجنة بالحقائق جميعها. فاجلسوا بارك الله فيكم، وحلّوا مشاكلكم في ما بينكم، ولا تجعلون خلق الله يطّلعون على سرائركم. أنا الآن سوف أؤجل الجلسة لمدة ثلاثة شهور، ونشوفكم على قلب واحد بعدها إن شاء الله.

خرج الجميع من مكتب الشيخ ابن مسمار، فُتح الباب، وترددت كلمة: "جزاك الله خير يا شيخ" من أغلب الموجودين قبل خروجهم، مضوا إلى الدرج، نزل جبل أولًا يليه طرقي، كان جبل يخطو على عجل، لم يرغب حتى في الالتفات إلى الوراء، إذ ما زالت كلمة فردوس تضغط على رأسه مثل صداع، ندم على فتح سيرة المعروف، وعلم أن كلمته كانت في غير مكانها. وصل جبل لباب المحكمة الرئيسي، تبعه طرقي، وبعد ذلك فردوس بجانب أبيها وطارق ابنها. كانت السيارات الثلاث التي أقلّتهم في المجيء في مواقف السيارات أمام الباب الرئيسي للمحكمة، صادف خروجهم هذه المرة وقوف سيارة السجون أمام الباب الرئيسي، توقف الجميع لبرهة حين رأوا السيارة والجنديين مع السجين ينزلون استعدادا لدخول المحكمة. كان جبل معتادًا على هذا المشهد في زياراته الكثيرة للمحكمة إما لمطالبة دين أو إفراغ صك عقاري. توقّف جبل لبضع ثوان وأكمل طريقه إلى سيارته وهو يلف شماغه حول وجهه، بيد أن طرقي وقف مدهوشًا، لمعت عيناه قليلًا وخطى بعد ذلك خطوتين للأمام، بدأ يبتسم حين تأكد أن الرجل المقيَّد بالأصفاد واقفًا

بين الجنديين هو فرج. كان فرج نصف ملثم بالشماغ حين اقترب منه طرقي وبادله الابتسامة والتحية، عانق طرقي فرج الذي ظل مقيدًا وسط نوبة بكاء غير مسموعة، بادله التحية، وأفسح طرقي الطريق للجنديين بصحبة فرج ليدخلوا إلى المحكمة. كان ذلك اليوم هو موعد الجلسة الأولى للبتّ في قضية فرج، صعد فرج الدرج بصحبة الجنديين. كانت فردوس واقفة ومتجمدة في مكانها قرب باب المحكمة، تعرفت على فرج بينما طارق وجدّه يمضيان في طريقهما للمواقف.

الفَصْلُ السَّابع

(50)

ليلى سمسماني:

أتمنى أنكم ما زلتم تتذكرون اسمي. نعم، هذا جيد جدًّا، أنا بالفعل من كنتُ زوجة المرحوم ابن طرَّاق، لست أدَّعي ذلك كما تعلمون أو كما يظن جبل. تعلمون أيضًا أني حضرت مبكرًا في أحداث الرواية، وحاولت كثيرًا، وكررت المحاولة مع جبل تحديدًا، ولكن لم تُجدِ كل هذه المحاولات. كنت فقط أبحث عن حقي، حقي الشرعي ونصيبي من الإرث، ولأني أيضًا أدركت أن السكوت على ذلك لم يكن يخصني فقط، بل إن الأمر أكبر من ذلك، إنه يخص ابني الذي كان في بطني آنذاك. الطفل الذي كان في بطني آنذاك ولدته قبل شهرين تقريبًا، وهو بالمناسبة ولد، لهذا السبب تدركون الآن ربما أن نصيبه يعادل تمامًا نصيب جبل، جبل الذي خاطبته في الأمر آنذاك، ولم ينصت لي، ونعتني بأقذع الألفاظ، والأدهى من ذلك أنه حرَّض سرحان بن مسبط عليَّ، وأنتم تعلمون أن سرحان هو الشاهد الذي كنت أعوِّل عليه الكثير، لكنه حذرني من هذه اللعبة، ولا أعلم لِمَ كان يسميها لعبة!

أنا أيها السيدات والسادة إنسانة أطالب بحقِّي، ولَديَّ ابن سوف يكبر وسَيسأل عن حقه في هذه الحياة. بالمناسبة نسيت أن أخبركم أن اسم ابني (عبيد)، أسميته باسم والده المتوفَّى. صحيح أن أوراقه الإثباتية لا تحمل اسم (عبيد بن عبيد ابن طرَّاق)، وتحمل كنية أخرى لأبيه وعائلته، لكنه يحمل دمه وصفاته وفيه القليل من الشبه بأبيه، لا بُد أن أخبركم أن الكنية قد تَكَفَّل بها أحد وجوه الخير، وهو بالمناسبة طلقني بعد ولادة (عبيد) بأسبوع واحد.

حسنًا، خذوا نفسًا عميقًا واهدؤوا قليلًا، أنا أعلم أني فاجأتكم بأخبار كثيرة، ولكن ليس ذنبي أن الرواة لم يكتبوا عني طيلة ستة فصول

مضت، ولست أيضًا مسئولة أنهم شرعوا في سرد تفاصيل وفاة ابن طرَّاق بعد رحيلي عنه في تلك الليلة، ولست كذلك مسئولة أن تلك الليلة كانت كفيلة بخلق (عبيد) في بطني، هذا هو القدر المكتوب على جباهنا مثل وشم لا يزول.

قلت لكم يا سادة ويا سيدات، أنتم يا من تقرؤون والصدمة لم تذهب عن رؤوسكم بعد، قلت لكم إن الأمر لا يخصني فقط؛ إذ ثمة رُوح أخرى الآن شريكة فيما سوف أفعل بعد بضع صفحات. أرجو أن تصدقوني، لا يهمني ما سيقول الناس، ولا يهمني إن كانت نساء المرحوم سوف تصيبهن صدمة عصبية، ولا يهمني كذلك ما سيفعل جبل ولا إخوته. ما يهمني الآن فقط هذا الطفل (عبيد). عبيد الصغير وإن كان يحمل اسمًا آخر، لكن دمه يحمل دم عبيد الكبير، وأنتم تعلمون أكثر مني أن الطب تقدم كثيرًا وبإمكان الفحوصات الطبية للدم إثبات ذلك، وبإمكان الشيخ أن يتأكد من ذلك ويستشير طبيبًا أو عشرة. هذا على اعتبار أن الشيخ سوف يُحيلُ القضية إلى طبيب مختص، بإمكانه فقط أن ينظر في وجه عبيد الصغير وسوف يتعرف حينها على ملامح عبيد الكبير، ومَن لا يعرف عبيد الكبير وإن اختلف اللون قليلًا؟ لا بأس، نحن نفترض الآن أن ورثة ابن طرَّاق سوف يجعلونني أتهور وأرفع قضية عليهم، وأنا لا أظن ذلك. في رأيي المتواضع أنهم سوف يسعون إلى التفاوض، وسوف يحاولون قطعًا أن يتحفَّظوا على الأمر، وربما يحاولون إسكاتي بحفنة من الريالات، وأنا طبعًا لن أسكت، سوف أهدِّد بكل ما استطعت من قوة، ولن أرضخ لسلطة المال، وحين أطرق باب منزلهم هذه المرة لن أكتفي بالحديث مع هذا الجبل، بل سأتحدث مع نسائه كلهن، خصوصًا مع أم جبل ومع أم طارق، وهن ما زلن يسكنَّ منزل المتوفَّى عبيد الكبير، وسوف أتحدث لاحقًا مع أم طرقي. عملت كل التحريات اللازمة، ووضعت خطتي، وهي بالمناسبة ليست خطة لعب

كما سماها سرحان، بل خطة إعادة الكرامة المُهدَرَة لي ولابني، ابن عبيد ابن طرَّاق، عبيد الصغير.

أرجو أن تكونوا قد استوعبتم الأمر، ولو سألني أحدهم لِمَ أخفيت موضوع الحمل طيلة هذه المدة؟ سوف أجيبه ببساطة: لكي أحافظ على حياة ابني عبيد الصغير، ابن عبيد بن طرَّاق، واقعيًّا وليس على الورق كما شرحت لكم. أنا بالمناسبة، وأعوذ بالله من كلمة أنا، أقرُّ أني أتحمَّل كل تبعات ما قد حصل، وحين أقف أمام الشيخ لو افترضنا أن الأمر سوف يصل للشيخ سوف أجيبه قائلة:

"أنا يا شيخ امرأة ضعيفة، وأعلم تمامًا أنكم تُبيحون زواج المسيار، وحين عقد عليَّ المرحوم كان هناك ورقة مكتوبة وشاهدان يا شيخ، ولم يعنِني إن كانت هذه الورقة فيها رمز الحكومة أو ورقة بيضاء عادية، ولم أنتبه إن كانت الورقة سوف تُسجَّل في المحكمة أم لا. ما حصل كان عرضًا وقبولًا وإشهارًا وشهادتين وزواجًا ومهرًا، وأنت حتمًا تعلم أن المرحوم حين يتزوج امرأة فهذه المرأة تكفيها كلمة المرحوم، وكل أعيان البلد يعرفون كلمة المرحوم".

هل تتصورون أن الشيخ سوف يلومني آنذاك؟ والله لو أن الشيخ امرأة وتقدم لها ابن طرَّاق لقبل الشيخ، أقصد لقبلت المرأة بزواجها حتى لو كان ليلة. يا شيخ أنت تعلم أن المرأة بلا رجل هنا مثل النية الصالحة بلا عمل يظهرها، أرجو أن تفهمني يا شيخ، والله...

هل بدأتم تتقبلون الأمر؟ أرجو ذلك، وتذكروا أن عبيد الصغير حين يكبر سوف يسألني، من هو أبي؟ كان يبكي كثيرا طيلة الشهرين الماضيين، وأظن أن ذلك البكاء الأكثر من الحد المعقول عائد لذلك الأمر. حين يكبر سنة واحدة تذكروا أنه سينطق كلمة ماما ولن يتعرف على كلمة بابا. بعد سنتين، وحين تداهمه الحُمَّى سوف يبكي كثيرًا، وحين يمل من حضني سيسألني: "وين بابا؟"، وبعد خمس سنوات سوف

يتكفَّل خاله بتسجيله في الروضة، ومن ثَمَّ المدرسة، ولن يصبح مثل بقية الطلاب، ولن يأتي أبوه في مجلس الآباء. بعد عشر سنوات سيقول له مدير المدرسة بعد مشاجرته الأولى: "لا تحضر غدًا من دون ولي أمرك". سوف يأتيني عبيد الصغير ويصرخ في وجهي: "وين أبوي؟" بعد خمس عشرة سنة، وحين يبدأ في ممارسة التلصص على فتيات الحارة والاحتلام والخروج إلى الشارع حتى وقت متأخر، لن أجد أبًا يردعه ويوقفه عند حدِّه، وبعد.... أووووه، العمر طويل، والمحطات كثيرة، وصدقوني سوف أسمع السؤال كثيرًا منه: "وين أبوي؟".

لا تلوموني الآن، بعد صفحة واحدة فقط، سوف أطرق الباب، وأقسم أني لن أرجع عن هذا القرار، شاء من شاء، وأبى من أبى.

(51)

الطارق

لم يكن طرقًا عاديًّا ذلك الذي جاء من الجهة الجنوبية لمنزل ابن طرَّاق للأسباب التالية:

أولًا: سُمِعَ الطرق في ساعة مبكِّرة من الصباح (التاسعة والنصف).

ثانيًا: ضغطت ليلى سمسماني على الجرس خمس عشرة ثانية متواصلة لم ترفع إصبعها عن الجرس، وكرَّرت ذلك غير مرة.

ثالثاً:لأن جبل غادر المنزل قبل التاسعة بقليل، وتأكدت ليلى أنه ابتعد عن المنزل، مما يجعل ذلك فرصة سانحة للاختلاء بنساء ابن طرَّاق.

جاء صوت الخادمة من السماعة الداخلية تسأل ليلى:مَن تكون؟ وأجابتها ليلى بأنها ترغب في مقابلة أم جبل وأسمت نفسها (أم عبيد)، وحين نقلت الخادمة الأمر لأم جبل والتي كانت فَزِعَةً بعد رنين الجرس المتواصل، أشارت للخادمة أن تدخلها لمجلس النساء.

دخلت ليلى سمسماني مجلس النساء في منزل ابن طرَّاق، كانت تلف عباءة الرأس فوقها هذه المرة، خلعت نقابها وجلست على كرسي في منتصف الصف الذي عن يمين الباب. كان باديًا على ليلى أنها اكتسبت الكثير من الوزن الزائد، خصوصًا في الردفين والفخذين، أما البطن فلم تختلف كثيرًا عن ما كانت عليه إذ كانت تشد على بطنها بمشد نسائي يجعلها تجلس على الكرسي منتصبة الظهر، ويكون شادًّا للحم الزائد الذي اكتسبته بعد الولادة. دخلت أم جبل إلى المجلس، هبَّت ليلى من مكانها، وقفت ومدَّت يدها لتصافح أم جبل التي اقتربت منها بِوَجَلٍ. جلست ليلى بعد مصافحتها وطلبت أم جبل من الخادمة التي قرب الباب أن تأتي بالقهوة (كانت أم جبل تحس بالخوف، ولهذا أوصت

الخادمة أن لا تبرح بعيدًا من الباب وأن تكون بالقرب من المجلس حتى إذا صرخت تأتيها بسرعة).

مضت ثوان قليلة قبل أن تشرع ليلى في مخاطبتها لـ أم جبل قائلة:

- عسى ما أزعجتكم يا أم جبل لو جيتكم في وقت مبكر، بس الموضوع والله ما عاد يتحمل تأجيل أكثر من كذا.

- يا هلا فيك يا بنتي. وش موضوعه، ومن أنتي أصلًا؟

- أنا بقولك كل شيء، بس بغيت أسألك، وين أم طارق؟

- ما أدري عنها. (قالت أم جبل ذلك وزمَّت شفتيها)

- يا أمي الله يخليك، يا ليت تنادينها، لأن الموضوع يخصكم أنتي وأم طارق وأم طرقي بعد.

- يا بنتي، وش قصتك؟ قولي اللي عندك لي وبعدين قوليه لهم، وأصلًا أم طرقي في بيت ثاني بسلامتها.

- طيب يا أمي، بقول لك بس أبغاك تهدي أعصابك.

- وش فيه؟ ولدي فيه شيء؟

- لا يا أمي، ولدك بسلامته ما فيه أي شي، الموضوع يخص ولدي أنا!

- وش فيه ولدك؟

- يا أمي، أنا لازم أقولك أني كنت الزوجة الرابعة وأرملة المرحوم عبيد ابن طرَّاق.

- وجع!

صمتت ليلى بعد كلمة "وجع"، لم تكمل سرد الخبر الثاني، واكتفت بالنظر إلى عيني أم جبل فيما أم جبل تشرع في الحوقلة والاستغفار. حوقلت أم جبل خمس مرات ثم قالت:

- من أنتي أصلًا؟ أستغفر الله، أستغفر الله. وش هالمصايب؟

- يا أمي خليني أكمل.

- أنا ماني أمك يا قليلة الأصل، وش جابك عندنا؟
- أووووه، ترى بهاذي الطريقة ما راح نتفاهم!
- يا سندس... يا سندس. (صرخت أم جبل)

دلفت الخادمة الإندونيسية إلى المجلس مباشرة بعد نداء أم جبل، تبع دخولها وقوف زوجة جبل عند باب المجلس والتي كانت تسترق السمع قرب سندس:

- أيوا ماما. (تحدثت سندس)
- نادي مريم وطلعوا هذي من هنا.

تنبهت أم جبل لوقوف زوجة جبل عند الباب وأمرتها:

- يا أم عبيد روحي فوق الله يرضى عليك.

انتبهت ليلى لزوجة جبل ولم تتعرف عليها وسألت:

- هذي مهي أم طارق؟
- مالك شغل ولا تسألين عن شيء. (أم جبل رافعة صوتها) نادي مريم يا سندس، وطلعوها يالله.
- يا أمي انتظري شوي.(قامت ليلى من مقعدها متوجِّهةً صوب كرسي أم جبل المقابل).
- لا تقربين مني، عويذ الله منك. (صرخت أم جبل فيما هي تشرع بالبكاء ممسكة رأسها، ووقفت سندس حائلةً بين ليلى وأم جبل)
- روحي شوي يا بنت. (قالت ليلى مخاطبة سندس)
- أنتي ليه سوي كيدا؟ يالله روحي برا.
- يا بنت أتركي عباءتي ورروحي بس.

تحدثت مع سندس ومن ثَـمَّ قرفصت ليلى عند أم جبل التي كانت تبكي فوق كرسيها وأكملت:

- يا أم جبل والله ما أبغى أزعجك، بس أنا وش ذنبي، وجبل عارف الكلام هذا.

أبعدت أم جبل يديها من رأسها ورفعت رأسها ونظرت في عيني ليلى وقالت:

- جبل وش يعرف؟

- يا أمي...

- لا تقولين أمي، أنا ماني أم أحد.

- خلاص يا خالتي.

- و لا أنا خالتك.

- طيب يا أم جبل، الله يرضى عليك، أنا مرة ضعيفة والله، ووش ذنبي في اللي صار، خليني أقول لك وأنت تحكمين.

- علميني وش يعرف جبل؟ (بدأ الشك يدخل قلب أم جبل)

- يا بنت روحي جيبي كأس موية (ليلى تخاطب سندس) وبعدها روحي نادي أم طارق.

- لا تنادينها يا سندس.

- خلاص روحي جيبي كأس موية وبس.

مضت سندس نحو المطبخ، استمعت لكل ما دار في المجلس، وفي المطبخ أخبرت كل الخادمات عن وجود امرأة تقول إنها زوجة المرحوم. سمعت ميري (خادمة فردوس الفلبينية) الخبر، ومضت مباشرة بعد ذهاب سندس بكأس الماء إلى غرفة فردوس وطرقت بابها. وصل الخبر إلى فردوس، وبمجرد سماعها أن تلك المرأة موجودة في المجلس هرعت وغسلت وجهها بالماء (للتو أفاقت من نومها) وبدّلت ملابسها، وغسلت أسنانها ونزلت. دخلت فردوس للمجلس، كانت ترتدي (ترينينج سوت) مخملي ذا لون وردي، بادرت قائلة: "السلام عليكم" وجلست مباشرة على الصوفا التي عن يسار الباب. أصبحت ليلى تجلس عن يمينها وأم جبل تجلس عن يسارها. صمتت ليلى من حديثها مع أم جبل وعادت أم جبل للإمساك برأسها وهي تحني ظهرها للأمام. وضعت

فردوس ساقًا فوق ساق وقالت:

- ما تعرفنا على الأخت.

- أكيد أنتي أم طارق.

- إييه. (قالتها بنصف شفتها)

- أنا ليلى سمسماني أرملة المرحوم عبيد ابن طرَّاق.

- بالله!

ابتسمت ليلى من رد فردوس الساخر وتعَجَّبَت أكثر من ردة فعلها البـاردة. كانـت ليلـى قـد توقَّعـت ردة فعـل أم جبل وأصابت في توقعها، كما تخيَّلت مشـهد الصراخ ومحاولة التبرُّء ممَّا حصل مسـبقًا، وفشـلت في توقُّعها لردة فعل فردوس إذ توقَّعت غضبًا وويلًا أكثر ممَّا رأته، لكن يبدو أن حسـابات فردوس مختلفة؛ إذ لم تكن تلك المرأة الكلاسـيكية والتي تود أن تقضي بقية حياتها على ذكرى زوجها المتوفَّـى، بل يبدو أنهـا قـد أغلقـت حيـاة ابـن طـرَّاق معهـا ولا تـودُّ أن تفتـح أبوابًا مغلقة. واصلت ليلى حديثها بعد لحظة صمت قصيرة:

- أنـا مـا جيـت أتبلـى علـى أحد يا مـدام أم طارق، أنا على فكرة كنت عنده ليلة وفاته الله يرحمه، وبالمناسبة ولدت من شهرين بس ولد من المرحوم الله يرحمه، قبل شوي كنت أسولف لأم جبل عن ولدي.

- إيش؟

- أنا أعرف أن الموضوع بيضايق الجميع، بس انتوا حريم وتفهمون الموضوع، أنا مرة ضعيفة وتكلمت مع جبل في الموضوع من قبل.

- تكلمتي مع مين؟

- مع جبل ولد المرحوم، بس جبل الله يسـامحه ما سـمع مني، وقلت أتكلم مع زوجاته وأكيد بيفهمون وضعي.

- و بصفتـك إيـش تتكلميـن مـع جبل؟ وبصفة جبل مين علشـان تفاتحينه بالموضوع؟

- هو أكبر عيال المرحوم، وكنت أقول في نفسي أنه ما راح يرضى على أرملة أبوه تتبهذل بالطريقة هذي.

- طيب، وليش جاية الآن تفاتحينا بالموضوع؟ (أخذت فردوس زمام الحديث فيما أم جبل تتلمس رأسها بيديها وتضغط بشدة)

- يا مدام فردوس أنتي عارفة أنّي لي ولد من صلب المرحوم، وحبيت أوصل الكلام لكم أنّ نصيب ولدي (عبيد) اللي عمره الآن شهرين زي نصيب جبل اللي ما سمع كلامي، ونصيبي زي نصيبكم بعد.

- و بهالوقاحة والجرأة جاية لبيته تقولين هالكلام؟

- يا مدام اسمعيني بس أنا أقدر من بكرة أروح المحكمة، وأثبت كل اللي أبغاه في المحكمة، بفحوصات الدم وبشهادة الشهود اللي شهدوا على زواجي من المرحوم، وجبل عارف كل القصة، وعارف من الشهود بعد؟ لكن أنا ما راح أرضى الفضايح على المرحوم، والشهادة لله المرحوم ما دخل عليّ إلا على سنة الله ورسوله، ولازم تفكرون بالموضوع جديّاً ونحلها بالحسنى أحسن من أبواب المحاكم.

- مدامك قلتي كل اللي عندك تفضلي من غير مطرود.

- طيب يا مدام، أنا راح أعطيكم فرصة، وانتوا فكروا، إما بالحسنى أو بالمحاكم، ومهلتكم شهر واحد. (قامت من مقعدها واتجهت نحو باب الخروج).

تذكَّرت فردوس الأسابيع الأخيرة في حياة ابن طرَّاق قبل سنة من دخول ليلى، جال في بالها قوته الجنسية التي هدأت، وحاولت ربط الأمر بين وجود ليلى زوجته المدعية ذلك ومجيئه على فترات متقطعة. كان ابن طرَّاق يأتي في كل أسبوعين مرة تقريبًا أو ربما تزيد، ويقضي يومين أو ثلاثة ويمضي. في طريقه للمنزل يهاتف جبل ويطلب منه أن يأتي له بعشاء مكوَّن من جمبري وإستاكوزا وعصير كوكتيل الأفوكادو بالعسل. كان ابن طرَّاق شديد الإيمان بأن هذه الوجبة تُقيم صلبه، وتُعينه على

مضاجعة إحدى نسائه (غالبًا تكون فردوس) في زيارته السريعة للمنزل. كرَّر ابن طرَّاق في أسابيعه الأخيرة طلب الوجبة الذهبية من جبل في الغداء والعشاء، وجبل كان يقول له: "يا يبه ترا هذي كلها كلسترول، أنت بتذبح عمرك". لم يكن ابن طرَّاق يستمع لكلام ابنه، كان همه الوحيد أن تعينه الوجبة الذهبية لمرة واحدة فقط، ولم يكن يقبل بأن يفقد جزءًا من سطوته لهذا السبب.

مرت كل تلك التفاصيل في بال فردوس، كانت تشك بالأمر آنذاك، لكنها لم تبحث في تفاصيله، لو تأكدت آنذاك من وجود زوجة أخرى لغابت شمس سطوتها لدى المرحوم. خرجت ليلى من منزل ابن طرَّاق، وتركت باب الاحتمالات مواربًا، لكنها أكدت للجميع أن جبل على علم بذلك. لم تُطِق أم جبل مهاتفة ابنها في ذلك الوقت، فكَّرت أن الأمر لا يعنيها، هاتفت أم طرقي وسردت لها كل ما حدث، بيد أن فردوس على الطرف الآخر بادرت في ذات الوقت إلى مهاتفة جبل، طلبت رقمه الأساسي، ولم يُجِب، طلبت رقمه الآخر وأجاب هذه المرة. قبل أن يرد جبل على الهاتف خمَّن أن ثمة عراكًا هاتفيًا ربما سوف يحدث؛ فمنذ مدة غير قريبة ورقم هاتف فردوس لم يُضِئ شاشة هاتفه، استعاذ من الشيطان وأجاب.

الروائيان (كتابة مشتركة):

نود تقديم اعتذار عن هذا اللبس الذي حدث. أحيانًا تبدو الأمور على غير ما نتوقع، وقد يصادف أحدُكم ذات مرة حدثًا هامشيًّا، لكنه فيما بعد وحين يعود لكي يتأمل المشهد يكتشف أن هذا الحدث الذي كان هامشيًّا أصبح نقطة تحول. الأمر هنا يشبه كثيرًا حال العود الأخير في علبة كبريت مبللة، والذي قطعًا لا يمكنك الرهان عليه.

هكذا بدت ليلى مثل عود الكبريت الأخير في حياة ابن

طرّاق. الأمر غريب جدًّا الآن، ونحن ندرك بعد قطع هذا الشوط الطويل من الرواية أننا لم نختر المشهد المناسب ليكون المشهد الأول في الرواية، ولهذا علينا أن نعيد قصَّ المشهد الذي سبق المشهد رقم (1). من العبث الحديث عن ليلى سمسماني الآن من دون سرد ذلك المشهد منذ لحظة دخولها مع لوزية وحتى لحظة الخروج. نحن نعلم أن ذلك لا يحدث في الحياة، إذ من المهم أن نرتب الأحداث والمشاهد حسب سياقها الزمني، لكن ولأن هذا العالم نحن من اختلقه، ونحن المسئولان عن وجوده، نظن أنه بإمكاننا أن نقصَّ ما نشاء حيثما نشاء، وهل يملك الروائي أثمن من خياله؟

(52)

فياجرا

دخلت لوزية إلى مجلس ابن طرَّاق، كانت كعادتها تُحكِم شد العباءة حول بطنها وردفيها، وتترك (الشيلة) تتداعى على كتفها. تبعت ليلى سمسماني لوزية في الدخول، فعلت تمامًا مثلما فعلت لوزية، أحكمت شد العباءة وكانت الشيلة تتداعى منذ نزلت من السيارة. تقدمت بهدوء إلى ابن طرَّاق الذي كان مُتَّكِئًا فجلس، دنت لوزية منه مصافحة ومعانقة له، وتبعتها ليلى التي دنت مجددًا من ابن طرَّاق وقبَّلته من خدَّيه تاركةً أثر روج خفيف على خده الأيمن لم يكن يعبأ به ابن طرَّاق. كان سرحان بن مسبط موجودًا، وقبل وصول لوزية وليلى أنهى كتابة القرض الذي تسلَّمه من ابن طرَّاق في الورقة. قام من مكانه واقفًا لمعانقة لوزية ومصافحة ليلى.

جلست ليلى عن يسار ابن طرَّاق على الجاعد المخصص لها، على يسارها مركأ يليه مكان لوزية المعتاد. لاحظت لوزية أن ابن طرَّاق كان يلبس "بالطو" ذلك المساء، وخمَّنت أن وجهه كان أكثر احتقانًا، لم تشعر بالراحة وأحسَّت باعتلال في صحته، سألته:

- عسى ما شر يا أبو طارق، أشوفك اليوم طلعت البالطو، لا تكون مزكوم أو تعبان شوي؟

- لا يا لوزية، أنا مثل الحصان ما عليك، اللهم أني حسيت بشوية برد، وأخاف من تغيرات الجو.

- بسيطة إن شاء الله.

شرع ابن مسبط في كتابة عقد الزواج (العقد الذي وجده جبل في بالطو ابن طرَّاق بعد مكالمة ليلى سمسماني الأولى)، كتبه ونادى

ابنُ طرَّاق صبحي ليجلب الشاي المغربي ويشهد على الزواج. أخرج ابن طرَّاق من جيبه ربطة، شرع يعدُّ الأوراق، ناول ليلى عشرة آلاف ريال، وناول لوزية ألفي ريال، وناول سرحان وصبحي خمسمائة ريال سعودي. مزَّق سرحان بن مسبط الورقة من دفتر (أبوسيم) وناولها ابن طرَّاق الذي دسَّها بدوره في جيب البالطو الداخلي. رشف ابن مسبط بيالة الشاي المغربي على عجل وهبَّ من مكانه واقفًا، استأذن وخرج عائدًا لداره يحمل في جيوبه الجانبية خمسمائة ألف ريال، وخمسمائة وحيدة في جيبه الأمامي.

مضت الساعة الأولى وابن طرَّاق يلاطف ليلى ويمازح لوزية، جاء صبحي بصحن الفاكهة وإبريق شاي آخر، واستأذنت لوزية بعد ذلك ومضت كعادتها. كانت ليلى متكئة عن يسار ابن طرَّاق ضامَّة قدميها إلى يمينها مما جعل الجلابية المغربية مشدودة على فخذيها، فيما كان ابن طرَّاق يتأمل الساقين الأبنوسيتين اللامعتين، والصدر النافر المطل من فتحة الجلابية المتخذة لشكل سبعة. سحب ابن طرَّاق نَفَسًا عميقًا وهو ينظر إلى ليلى بعد خروج لوزية، كان يسمح لإثارته أن تتصاعد ببطء وأن تُطبَخَ على نار هادئة، أشار على ليلى إن هي أرادت أن تدلف للغرفة لتغيير لباسها، وقامت من مكانها وهي تبتسم وتمازحه. دلفت ليلى للغرفة الداخلية وسحب ابن طرَّاق حبَّة فياجرا من جيب البالطو الداخلي (كان في جيب البالطو حبَّتا فياجرا)، وابتلعها بعد رشفة من الشاي. في الأسابيع الأخيرة استبدل ابن طرَّاق حبات السنافي، والتي أصبح مفعولها لا ينفع معه، بالفياجرًا. بعد مضي دقائق عادت ليلى تتأرجح في مشيتها وهي تدخل مجلس ابن طرَّاق، كانت تلبس فستانًا كريميَّ اللون إلى منتصف الفخذ. رفع ابن طرَّاق صوت الأغنية من التلفزيون وصفَّق بيديه وكأنه يحثُّ ليلى على الرقص، تحولت مشية ليلى المتأرجحة بالكعب العالي إلى رقصة غجرية كما لو كانت ممسوسة بعد أن صفَّق ابن طرَّاق.

خلعت ليلى الكعب العالي في طريقها، وبدأت تتمايل على أنغام وإيقاع الأغنية. سخنَ جسدُها وهي ترقص وازداد لمعان بشرتها مع الرقص وكأنها شوكولا بدأت في الذوبان، اختلط لون الشوكولا الفاتحة باللون الكريمي، وأحسَّ ابن طرَّاق بقلبه يخفق بشكل أسرع.

بعد أن انتهت الأغنية جلست ليلى في مكانها وأغلق ابن طرَّاق التلفزيون، سحب مسجِّل (أبو كف) من خلفه وبدأت أغنية "عيون القلب". سكبت ليلى في بيالتي الشاي المزيد من الشاي المغربي، ودار حديث هامس حنون بينها وبين ابن طرَّاق. قطَّعت ليلى تفاحة إلى أرباع وشرعت تمد بيدها ربعًا ربعًا إلى فم ابن طرَّاق فيما هو يقضم ببطء ويلاطف ليلى بين القضمة والقضمة. بعد انقضاء ما يقارب الساعة قام ابن طرَّاق من مكانه وتبعته ليلى في الوقوف، وأشار عليها أن يتوجَّها للداخل، لغرفة النوم، مضى ابن طرَّاق وهو قابض بكفِّه اليمنى على يد ليلى اليسرى.

كانت المرة الثانية التي تبيت فيها ليلى مع ابن طرَّاق، لم ينسَ ابن طرَّاق لها تلك الليلة الباهرة قبل بضعة شهور، حيث كان قادرًا في ذلك اليوم على مضاجعتها مرة في المساء، ومرة أخرى في ظهيرة اليوم اللاحق. خرج ابن طرَّاق من هذه الليلة مع ليلى بشعور رائع؛ إذ إنه قبل ليلى لم يكن يستطيع المضاجعة مرتين في أقل من 24 ساعة منذ أن بلغ الخامسة والخمسين. منحته ليلى في ليلتها الأولى رُوحًا شبابية باهرة، وبثَّت فيه ذكرى جميلة يكنها لـليلى حين أتت في المرة الثانية، وكرَّسَت قناعته القديمة أن مضاجعة الجسد الأبنوسي يمنح المرء جسدًا آخر، والحق أن ليلى كانت عليمة بفنون الفراش.

بعد أن تخفَّفَ ابنِ طرَّاق وليلى من ملابسهما كانت ليلى جالسة عند ابن طرَّاق المضطجع على الفراش، شرعت يديها تدلك قدميه فيما ظهرها باتجاه رأسه، تقوم ليلى على الركبتين وتنحني للأمام، تقبض على ساقي

ابن طرَّاق وتصعد وتهبط باليدين فيما ابن طرَّاق يتأمل صورة بانورامية في كمال استدارة جسدها من الخلف. عادت ليلى للجلوس وما زال ظهرها باتجاه وجه ابن طرَّاق. ارتفعت يدها للفخذين، تدلك وترفع السروال القطني الواسع القصير إلى الأعلى. بدأ ابن طرَّاق يستجيب بصورة أكبر للتدليك ومشاهد الاستدارة الكاملة، أحسَّت ليلى بتحرُّك قضيب ابن طرَّاق من خلف السروال، ارتفعت يدها ودلَّكت بطن ابن طرَّاق، دسَّت يديهما بعد ذلك داخل السروال.

سحب ابن طرَّاق نَفَسًا هائلًا وزفر زفرةً مصاحبةً لأنَّةٍ خفيفةٍ، وشرعت ليلى تداعب جروها، كانت تتحسسه وتلاطفه وتشده. أحست ليلى بتوتر القضيب، سحبته وأرخت السروال قليلًا ودنت منه وأدخلته فمها. شرع ابن طرَّاق يرفع رأسه قليلًا عن المخدة، تأمَّل مشهدًا بانوراميًّا آخر من الجزء الأيمن من وجه ليلى وشعرها يسقط على فخذه وبطنه فيدغدغ حواسه، بينما قضيبه يغوص ويختفي. بدت له استدارات الشوكولا في جسد ليلى الأبنوسى كاملة العدد من تلك الزاوية، مضت دقيقتان وهو يئنُّ بصوت خفيض، وليلى تجتهد لتشد من أزر قضيبه الذي ما زال في نصف انتصاب. بعد دقائق خمس أخرى من الأنفاس المُتعبة من ليلى خمَّنت ليلى أنها اللحظة المناسبة، قفزت مثل نمرة هائجة فوق جسد ابن طرَّاق وقعدت فوق حضنه، شرعت في التحرُّك قليلًا جيئةً وذهابًا، نزولًا وصعودًا، ولم تمض أكثر من ثلاثين ثانية حتى شعرت بانسحاب قضيبه التلقائي. نظرت ليلى في وجه ابن طرَّاق، حدقت في عينيه لبرهة، رأت ملامح وجهه تتقصَّف مثل ليمونة معصورة، أحسَّ ابن طرَّاق بيأس وشعر بألم في صدره، وطلب من ليلى أن تكف وأشار لها أن تأتي لتنام إلى جواره، أطاعته وأرخت رأسها فوق صدره فيما يده اليسار تتحسَّس خصرها الأملس.

بعد نصف ساعة من مشهد الحضن الصامت قرَّر ابن طرَّاق أن يقوم من فراشه، قام ودلف إلى الحمام، ارتاح قليلًا وخرج بعد ذلك، مضى إلى البالطو المعلَّق فوق المشجب، لبسه من دون ثوب ومضى نحو غرفة الجلوس وأشار إلى ليلى أن تنتظر.

جلس ابن طرَّاق في غرفة الجلوس كئيبًا يُقَلِّب خيبته، أخرج حبة الفياجرا الثانية من جيب البالطو الداخلي وابتلعها، رشف بعد ذلك من قارورة ماء صغيرة، قبض على الريموت كونترول (للريسيفر) والتلفزيون وشغَّلهما، وضع على قناة "العربية" واضطجع مستندًا على المركأ بظهره رافعًا قدميه فوق المركأ الآخر. غفا ابن طرَّاق قليلًا لا يعلم كم من الوقت مر على غفوته، لكن الساعة كانت تشير على قناة "العربية" إلى الثالثة وتسع دقائق، جلس في مقعده ورشف قليلًا من قارورة الماء وقام متجهًا لغرفة النوم. كانت الغرفة ما تزال مُضاءةً بنور خفيض فيما ليلى كانت منبطحة على بطنها ومتكشفة من لحافها. تنحنح ابن طرَّاق لحظة دخوله للغرفة، كانت ليلى قد استيقظت من غفوتها، تمطَّت مثل قطة سمينة فوق الفراش وهي تبتسم لرؤيتها ابن طرَّاق الذي بادلها الابتسامة. خلع ابن طرَّاق البالطو، علَّقه على المشجب وعاد لسريره، جلس بجانب ليلى وضمَّها من كتفها إلى صدره، سألها:

- وشلونك يا لولوتي؟
- وينك يا حبيبي؟ طوّلت عليّ، واشتقت لك.

بدأت ليلى من جديد في تقبيل صدر ابن طرَّاق الذي ارتخى فوق المخدة، شرعت تنزل في تقبيلها للبطن، لعقته بلسانها وأدخلت يدها اليسرى من فتحة السروال الواسعة مرة أخرى، تحسست جروها الصغير من جديد، أحست ببداية توتره ودنت بين فخذي ابن طرَّاق وسحبت السروال قليلًا للأسفل، أخرجت قضيبه وبدأت تنظر بعينيها في عيني ابن طرَّاق، ابتسمت فيما ابن طرَّاق يسحب أنفاسه ويزفرها مع أنَّات

خفيفة. اجتهدت ليلى هذه المرة أكثر من المرة التي سبقت، حاولت أن تقيم صلب قضيب ابن طرَّاق الذي ما إن يزداد توتره قليلًا حتى يعود للارتخاء. كان ابن طرَّاق يحس بوخز خفيف في صدره من الجهة اليسرى، وليلى بدورها أحسَّت أن ثمة ما يؤلم ابن طرَّاق، بدا لها ذلك من تعابير وجهه الذي يعصره الألم حين يحس بالوخز الذي اشتد مع حماس ليلى. سألته بعد بضع دقائق:

- في شيء متعبك يا أبو طارق؟
- لا لا ما فيه.
- طيب تبغاني أكمل؟
- لا خلاص، وقفي شوي.
- تحس في إيش يا حبيبي؟ (سألته حين لوى ابن طرَّاق شفتيه وكشَّر عن أسنانه إثر وخزة قوية)
- فيه ألم بسيط هنا. (أشار بسبابته نحو كتفه اليسرى)
- بسم الله عليك، عين وصابتك يا حبيبي.
- اذكري الله يا ليلى، ما فيه إلا الخير.

قام ابن طرَّاق من مكانه، كاد أن يترنَّح قبل أن يمضي نحو المشجب، لبس الفانلة وعاد للفراش، التفت نحو ليلى:

- لحفيني شوي، أحس بالبرد؟
- شكلك أخذت برد يا أبو طارق.
- يمكن والله.

سكت لبرهة وسألها:

- سواقك موجود إلى الآن؟
- إيه موجود.
- طيب، أنا من رأيي أنك تروحين ترتاحين في بيتك الآن، وبكرة أكلمك.

لـم تنبـس ليلـى ببنـت شـفة ردًّا علـى اقتراح ابن طرَّاق، مضت إلى الحمام، عادت ولبست ملابسها، دنت من ابن طرَّاق وهو مضطجع على الفراش، تحسَّسـت جبينه، كان متعرِّقًا قليلًا ولم تود أن تسـأله فيما هو مغمض العينين خشية أن يكون نائمًا. قبَّلت جبينه ومضت لغرفة الجلوس، جلسـت هناك قليلًا، وهاتفت سـائقها الذي كان نائما في السـيارة، أمرته أن يتجهَّز، وخرجت بعد ذلك للسيارة عائدة إلى منزلها.

بعد خروج سـيارة ليلى من بوابة المزرعة بعشـر دقائق كان أذان الفجـر قـد ارتفـع. فـي غرفـة النوم اسـتمع ابن طـرَّاق لأذان الفجر من هاتفه الخلوي، قام وتوضأ وصلى الفجر جلوسًا. عاد ابن طرَّاق لسريره وحاول النوم، بدأ الوخز في صدره يشتد قليلًا، قام وجلس من رقدته وأحس بخدر بسيط في ذراعه الأيسر، بدأ الخدر يزداد مع مرور الوقت، قام من مكانه وهبَّ واقفًا، لبس ثوبه بصعوبة، عاد لدرج الكومودينو ومـد يـده للهاتـف، واتصـل بصبحـي وطلب منه الحضور. حين وصل صبحي كان ابن طرَّاق مضطجعًا على السرير، حاول ابن طرَّاق القيام بمفرده ولم يستطع، كان الخدر في ذراعه كلها، أسنده صبحي وناوله شـماغه ليلف به رأسـه ومضوا نحو السـيارة. في الخارج بدأ خروج الضوء وأصبحت السـماء رمادية بزُرقة لكن الشـمس لم تشـرق بعد. وصل ابن طرَّاق للسيارة، أشار لصبحي أن يفتح باب المرتبة الخلفية للسيارة، ركب وتمدد بصعوبة. ركب صبحي في المقدمة وقاد السيارة، أمـره ابـن طـرَّاق بأن يتجه مباشـرةً للمسـتوصف القريـب لعلَّ الدكتور محمـد عبـد الحليـم يكـون موجـودًا، تحرَّكـت السـيارة، دهـش بعض العامليـن فـي المزرعـة والذيـن شـرعوا في الخـروج للعمل من تحرك السيارة في هذا الوقت المبكِّر. حين خرجت السيارة من باب المزرعة صرخ ابن طرَّاق:

- أسرع يا قوَّاد.

الدكتور محمد عبد الحليم:

أهلًا وسهلًا، أنا الدكتور محمد عبد الحليم الطبيب المُعَيَّن في هذا المستوصف الذي لا يظهر مكانه ربما على (جوجل إيرث)! أنا لا أتندَّر هنا أو أحاول إطلاق النكات، لكني أعلم أنه ما من دكتور محترم في العالم يقبل أن يمضي أكثر من عشر سنوات من حياته المهنية في مستوصف صغير مثل هذا؛ إذ ليس ثمة تجهيزات هنا سوى القليل.

أما عن حالة المرحوم الشيخ عبيد ابن طرَّاق والذي يهمكم أمره حسب ما فهمت، فكنت أظن حين وصلني أنه كان يعاني من أزمة ربو جديدة أصابته، هكذا ظننت في البدء. وحينما لم أسمع صوت صفير صدره شككت في الأمر، لاحظت أن يده اليسرى مرتخية جدًّا وخارج نطاق السيطرة، اشتبهت في كون الأمر ذبحة صدرية، خرجت على عجل من الغرفة وأمرت السائق أن يجهِّز سيارة الإسعاف، عدت للغرفة، ورأيت ابن طرَّاق قد نزع كمام الأكسجين عنه، أعدت تثبيته وطلبت منه أن لا ينزعه، عدت للهاتف خلف الستار في نفس الغرفة وحاولت طلب رقم أقرب مستشفى نتعاون معه لتحويل الحالات الطارئة، لم يُجِب أحد على الخط الساخن، حاولت مرتين وأكثر ولا فائدة، لم يقطعني سوى حين سمعت ابن طرَّاق ينطق الشهادتين، رميت سماعة الهاتف وعدت لرؤية ابن طرَّاق ومحاولة إسعافه، حين نظرت في وجهه خرجت شهقة منه، أمسكت ذراعه، حاولت قياس النبض وليس ثمة نبض هناك! فتحت فمه، وضعت أذني عند فمه ولم أسمع صوتًا أو أحس بنَفَس. حينئذ حاولت إنعاش قلبه، وضعت يدي على صدره، وضغطت أكثر من ثلاثين مرة، ونفخت في صدره بعد ذلك، ولا فائدة، كررت المحاولة، ولا فائدة. وتَّرني بكاء

صبحي، أمرته أن يخرج، وعدت بمحاولة إنعاش ابن طرَّاق، حاولت من جديد، ضغطت على صدره ونفخت، ولا فائدة. تعوذت من الشيطان وحوقلت، وتوجَّهت للمكتب خلف الستار وعدت لمحاولة الاتصال من جديد، ولا مُجيب. بعد خمس محاولات بلغت عن الحالة وطلبت سيارة إسعاف وطبيبًا شرعيًّا لكتابة التقرير وتكفَّلوا من هناك ببقية الإجراءات. خرجت من الغرفة ووجدت صبحي مقرفصًا ورأسه بين يديه يبكي مثل طفل، ربتُّ على كتفه وطلبت منه أن يتَّصل بابنه ليأتي، وعُدت لداخل الغرفة.

لفتت نظري جيوب ابن طرَّاق المتهدِّلة من ثقل ما فيها، ولا أخفيكم سرًّا لو قلت لكم إنه ما من أحد لم تلفت نظره تلك الجيوب المتهدِّلة للمرحوم، وأزيدكم كذلك أني كنت أراها دائمًا ولا تبرح عن ناظري في كل مرة كان يزورني المرحوم فيها إثر أزمة ربو أو رشح عابر، ولهذا قررت أن أغتنم الفرصة. كنت متأكدًا أن المرحوم قد تُوفِّيَ، وكنت وحيدًا معه في الغرفة، وفكَّرت في كوني سأفعل ولن أترك أثرًا.

نعم، أنا من أخذ المبلغ، أخذت (الفكة) فقط، أنتم تعلمون أن هذه (فكة) ابن طرَّاق، ولا يهم كم كان المبلغ، المهم أن ذلك كان (الفكة) فقط، أي تقريبًا نصف ما كان في جيبه. فتشوا في جيوبكم ومحافظكم، أجزم أن البعض لا يملك في جيبه أكثر من مائة ريال، وعليكم احتساب النصف منها، هل اقتنعتم؟ أنه مجرد مبلغ زهيد، (فكة) ابن طرَّاق فقط.

(53)

الطريق إلى ما وراء الشمس-2

فوجئ جبل بالخبر الجديد، وذهل حين سألته فردوس بحزم: "من متى وأنت تدري عن السالفة؟" اختلفت نبرة الصوت في حوار جبل وفردوس، كانت فردوس أكثر حزمًا، سؤال وجواب، وجبل كان يظن أنه على شفا قطيعة. حدَّثته فردوس عن ليلى وتهديدها، وأخبرته أن لديها شهودًا، وأن الفحوصات الطبية بإمكانها إثبات ذلك، وخاف جبل. خاف جبل من الفضيحة أولًا، ومن تقاسُم المال ثانيًا، وتذَّكر صبحي وابن مسبط، وخمَّن أن لا سلطة لديه عليهم، وربما يغدرون به في أي وقت، سألته فردوس عن صحة خبر الزواج، وأكد لها جبل ذلك وشرح لها طريقة المرحوم، وبان الامتعاض على حديث فردوس بعد ذلك.

بعد مكالمة فردوس والتي لم تصل بهما إلى نتيجة لم يجد القدرة للذهاب إلى المنزل، لم يكن قادرًا على مواجهة أمه، وخمَّن أنها ترزح تحت انهيار عصبي لولا أن فردوس طمأنته عليها. اتجه جبل بعد عصر ذلك اليوم لصبحي، طلبه في ملحقه الخاص بالمنزل، وجاء صبحي. كان جبل جالسًا على مركأ، وطلب من صبحي الجلوس. تحدث جبل إليه:

- اسمع يا صبحي، لي سنة وأنا أنتظرك ترد المبلغ اللي سرقته من المرحوم، وكنت طول هالوقت أتعامل معك بالحسنى، لكن الظاهر مالك نية تعدل وضعك، هذي فرصتك الأخيرة: المبلغ وينه؟

- يا عم جبل، والله والله مية مرة أن ما دخلش جيبي أي ريال واحد من اللي اِنت بتتهمني بيهم. (كان جبل هادئًا، لم يقاطع صبحي فيما هو يُقسِم)

- أممم. أنت كذاب كبير يا صبحي، ولا عاد أقدر أصدقك بشي.
- يا عم والله ما بكذب.
- اسكت، لا تتكلم حتى أطلب منك. اسمع يا صبحي، أبسألك سؤال ثاني؟
- حاضر يا عم.
- تتذكر البنت اللي جت في آخر ليلة للمرحوم، وأسمها ليلى؟
- فاكرها يا عم.
- وش فاكر فيها؟
- شكلها.
- لا لا، أنا أقصد وش تتذكر؟
- أبدًا والله يا عم، هي جت مع لوزية وكان ابن مسبط موجود، وكتب عليها زي ما بيعمل دايمًا.
- بس أنت تدري أن المرحوم طلَّقها في الفجر؟
- ما اعرفش، كل اللي فاكره إن المرحوم كلمني الفجر، وجيت له وكان تعبان شوية، وطلب مني نروح للمستشفى.
- لا لا، أنا أعرف: الوالد الله يرحمه طلقها.
- برضه مش عارف.
- وشلون منت عارف؟ يعني لو يطلبك القاضي تشهد، وش تقول له؟
- هاقول اللي أعرفه.
- يا صبحي اللي أعرفه وتعرفه أنت زين أن الوالد طلَّق ليلى، فهمت؟

ارتفع صوت جبل قليلًا بجملته الأخيرة، وصمت صبحي كأنه يفكِّر. انفجر الحقد الذي تجمَّع على مدار عام كامل على جبل وكأنه أفاق من نومته، وأحس صبحي أن الفرصة مواتية له ليظهر كل مكنونه، بلع

ريقه وقال لجبل:

- لا مش فاهم، يا عم أنا راجل مسلم، وما بكدبش. القاضي لو سألني هيقول لي أحلِف، ووالله العظيم ثلاثة أقول الحق.

- يعني إيش هالكلام؟

- يعني هاقول اللي أعرفه يا عم.

- عيد مرة ثانية وش اللي تعرفه؟

- اللـي أعرفـه إن المرحـوم اتجـوز ليلى، وأنا شـهدت على كده، ومش عارف إن كان طلقها، ده حق ربنا يا عم جبل.

- اسمع يا صبحي، أنا بهديك فرصة عمرك، والفرص تجي مرة واحدة، أنا مستعد أسامحك عن المبلغ اللي سرقته، وأفكك من السجن وأعتق رقبتك من المصايب، لكن لا يجي منك أي موضوع عن سالفة ليلى لأحد.

أحـسَّ صبحـي بارتيـاح عندمـا سـمع كلام جبل، وأحس كذلك أنه فـي موقـف قـوي، والمعلومـات التي لديـه تجعله في صف أقوى، وهذا ما جعل جبل يشرع في مفاوضته. أطرق صبحي رأسه وقال:

- يا عم جبل انت عاوزني أسكت عن الحق؟

- لا، بس أنت ما تعرف شيء أصلًا.

- يا عم ما أنا عارف كل حاجة.

- افتـرض أنـك مـا تعـرف شـي، وأنا مسـامحك عـن اللي حصل وفوقها اللي تبي. (استمر جبل في تقديم عروضه).

- يا عم ده حق ربنا، وأنا ما بكدبش ولو سألوني هاقول الحق.

- هذا آخر كلام عندك؟

- آه.

- والله أن تندم، فكّر زين، ترى محلك بيصير ورا الشمس (عاد صوت جبل للارتفاع).

- يا عم أنا ما بخافش غير من ربنا.

- أنت خبل أنت (قام جبل من مكانه). أنا آمرك أمر، أقولك ما تجيب لأحد طاري عن الموضوع، فاهم؟

- و أنا هاقول الحق لو على رقبتي يا عم.

- أنت تتحداني يا كلب؟ (اقترب جبل من صبحي وأصبح على بُعد خطوة واحدة)

- أنا مش بتحدَّى حدّ، بس بصراحة ما أعرفش التزوير.

- لعـن اللـه والـــ... (التقـط جبل عقاله من فوق رأسـه وهوى به على فخذ صبحي الأيسر)، تتحداني يا ابن الكلب؟

- يا عم، آآآه.

مضت ثوان قليلة قبل أن يُعيد جبل العقال إلى فوق رأسه، عاد نحو باب الملحق، التفت إلى صبحي الذي قرفص يبكي بحسـرة في طرف الملحق، رفع جبل سـبابته وقال: "لو فكرت تطلع من هنا راح أرسـلك ورا الشمس". خرج جبل وصفق الباب، وأدار المفتاح مرتين. توجَّه جبل صوب مدخل الرجال، وفي المجلس الصغير جلس أمام التلفزيون كما كان يجلس أبوه، هاتف عماد الحضرمي، وأعطاه مفتاح الملحق وأوصاه بأن لا يفتح الملحق طيلة المساء، وأن يرسل أكلًا لصبحي في صبيحة اليـوم التالـي فـي الملحـق ولا يدعـه يخـرج منـه، قـال له قبـل أن يكمل أوامـره: "أنـت المسئول عـن صبحـي، لو طلع من الملحق ترا أبرسـلك ورا الشمس". مضى عماد بعد سماع أوامر جبل.

قلَّـبَ جبـل قنـوات التلفزيـون، فكَّر في مفاجأة ليلى والتي انضمت للائحـة المصائـب الطويلـة، تذكَّـرَ أنه لـم يقابل والدته بعد، وأن صبحي قد أبدى استعداده بِلشـهادة مع ليلى، وأن سـرحان بن مسـبط لا يؤمَن جانبـه، وحتـى لـو أَمِـنَ جانبَه سـيكون الثمن أغلـى من القرض الذي لم يسدده بعد. غَرِقَ جبل في تيار الأفكار التي تأتي من كل صوب. استمر

في تقليب القنوات الفضائية، ظهرت قناة (المجد) الفضائية وتذكَّر أخاه طرقي مباشـرة، خمَّن أن طرقي لا يعلم ما حصل صبيحة اليوم، وربما لا يـدري أي شـيء عـن الموضـوع، ومـن العبـث أن لا يكون لديه علم. قرر جبل أن يخبر أخاه، سحب هاتفه من جيبه، طلب رقم طرقي، ولم يُجِـب، أعـاد محاولـة الاتصـال بالرقـم، أتاه الـرد في المرة الثانية قبل أن ينقطع الهاتف:

- ألـو. (لـم يقـل طرقـي مثلمـا تعود في الشـهرين الأخيرين حين يجيب الهاتف: "السلام عليكم")
- هلا طرقي، جبل معك.
- أدري، عسى ما شر.
- يخوي مبطي عنك، وينك؟
- موجود يا جبل، عسى ما شر وش فيه؟
- فيه موضوع مهم لازم نتكلم فيه.
- وش فيه جديد يا جبل؟ أنا بصراحة ما عندي وقت.
- يا أخي موضوع مهم، مرني وأقول لك، ما يصلح بالتلفون.
- يا جبل خير، إذا عندك شي هاته بالتلفون؟

حـاول جبـل أن يطلـب مـن طرقـي أن يزوره، ورفض طرقي بشـتى الطرق، واضطر جبل أن يخبره عمَّا دار في صبيحة ذلك اليوم من ليلى سمسـماني، ولم يُفاجأ طرقي بأخبار تلك الزيارة، وكأنه كان لديه علم بالموضوع. دهش جبل لردة طرقي الباردة، حتى إنه عاد وسأل طرقي:

- أنت مصدق الكلام اللي أقوله لك؟
- إيه مصدق يا جبل. ممكن تصير.
- طيب وش تقترح نسوي؟
- اسمع يا جبل، أنت تبي تحل الموضوع ولا تبيها فضايح؟
- طبعًا أبي أحل الموضوع.

- طيب اسمع، أنا نازل من السيارة الآن عندي شغل، أكلمك بعد شوي.

أغلق طرقي الهاتف ودلف إلى محل التصوير، تسلَّم صُورَهُ الشخصية التي أخذها ذلك الصباح بعد أن حلق لحيته وشاربه، وضم الصور إلى بقية الأوراق (نموذج شخصي، كشف حساب لستة شهور، تذكرة سفر، حجز مؤكد في فندق، وأوراق أخرى). كان طرقي قد قرر أن يزور السفارة البريطانية لاستكمال إجراءات استخراج الفيزا في صبيحة اليوم التالي.

صبحي:

الآن فقط عدتم تتذكرونني، بعد أن أُهِنتُ وسُجِنتُ. أنا الآن وحيد في الملحق الشخصي لجبل، ممتلئ بالحسرة والقهر والخيبات واللعنات، على اعتبار أني مسجون. أتذكر كلمة عادل أمام حين قال: "بعد اربعتاشر سنة خدمة في ثانوي، بتقولّي أقف!" وأنا كذلك: بعد ثمانٍ وعشرين سنة خدمة للمرحوم ابن طرَّاق يسجنني ابنه بلا تهمةٍ. أنا لا أقول ذلك على سبيل التندُّر، لكنه ضحك كالبكاء... والله. حين أتيت للسعودية كان ابن طرَّاق في عُمر قريب من عُمر ابنه جبل الآن، وكنت أنا أصغر منه، تربيت معه وتعلمت قيمه النبيلة وحب العمل معه، وعشت أجمل سنين حياتي معه، تزوجت وجئت بزوجتي هنا، وخدمت زوجتي في دار ابن طرَّاق عند السيدة أم جبل، ولا أعلم إن كانت قد سقت جبل دواء خافضًا للحرارة يومًا أم لا، لكني أظن أنها ربما فعلت. كان جبل صغيرًا وكبر، والآن بعد سنين الخدمة يمدُّ يده عليَّ ويسجنني، ويتهمني بالسرقة، وأنا لا أعلم سر بقائي معه حتى الآن! غدًا حين يدخل الغرفة سوف أقبِّل يده، وأطلب منه أن يعيدني لأبنائي وزوجتي، ومُقَسِّمُ الأرزاقِ باقٍ، ولم أعُد أُطيقُ

صبـرًا، أصبحـت أضحوكـةً حتـى عند بقية الزملاء، يشـتمني وهو يمشي، ويرميني وأنا آكل، ويضربني وأنا لا ذنب لي. تعبت، ولم أعُـد أطيـق البقـاء. سـوف أنام هنا هـذه الليلة، وفي الصباح يفعل الله ما يريد، وأنا أعلم الآن ما أريد، اشتقت لك يا (منصورة)، لا أريد أن أموت هنا بعيدًا عن أبنائي كما مات ابن طرَّاق، إنَّ ميتة الكلب أكرم من الموت هنا. سـوف أنام هنا هذه الليلة، وسـوف أدعو الله أن يستجيب جبل لي ويعتقني بأسرع وقت لوجه الله، وأظن أن خوفه من شـهادتي الآن سـيجعله يعجِّل برحيلي، حسـنًا سأنام الآن. ها أنا مضطجع على يميني، وممتلئ بالحسرة والقهر والخيبات واللعنات، على اعتبار أني من الممكن أن أنام.

(54)

المفاوضات

فوجـئ جبـل (لا بُـد مـن الإشـارة هنـا إلى أنـه لا يُجيد التوقعات) بزيارة سريعة من طرقي بعد مغرب ذلك اليوم، كان قد أتى للتو من صلاة المغرب وجلس في ذات المكان في المجلس الصغير، هبَّ واقفًا حين أقبل عليه طرقي، وكانت مفاجأته الأخرى والتي أذهلته هي رؤية طرقي حليق اللحية والشارب، حيَّاه حين اقترب طرقي منه:

- هلا ومرحبا.

جلـس طرقـي إلـى جانـب جبل، ومباشـرة أشـار جبل لكندوس أن يناولهـم الفناجيـن والقهـوة وينصـرف. باشـر جبـل القهـوة وناول طرقي فنجانه، وشرع يسرد قصة ليلى منذ مكالمتها الأولى حتى زيارتها لبيتهم صبيحة ذلك اليوم. اقترح طرقي أن ينضم طارق إلى جلستهم هذه لحل المشكلة، وأشار جبل أن يكون كل من فردوس وطارق بصفتهم وكلاء عـن أنفسـهم، وأومـأ لـه طرقـي إيجابًا. هاتـف جبل فردوس وأخبرها أنه وطرقـي موجـودان لمناقشـة قضيـة ليلـى وعليهـا أن تطلب من طارق أن ينضم لهما.

حضرت فردوس وصافحت طرقي وجبل وجلسـت، وصل بعدها بدقيقتين تقريبًا طارق الذي صافح الجميع وقبَّل رأس والدته. شرع جبل فـي شـرح الغـرض مـن الاجتماع السـريع وغير المخطـط له، وأكَّد على الجميع أن ليلى سمسماني من الممكن أن تهدد بيت مالهم جميعًا عوضًا عن الفضيحة التي ربما سـوف تُلحِقها بالجميع، كما شـكك في حديثه فـي صحـة ادعائهـا، وقـال: لو أنها صادقة لرفعت القضية وانتظرت حتى تكسبها. لم تسأل فردوس هذه المرة عن صحة خبر الزواج، وحين سأل

طرقي عن تفاصيل ذلك موجِّهًا السؤال لجبل أغلقت فردوس الموضوع بقولها: "اللي صار صار وخلاص". توحَّد الجميع في هذا الاجتماع المفاجئ إثر المفاجأة المدوية التي تركتها ليلى سمسماني هذا الصباح، توحَّد الجميع للحفاظ على مال ابن طرَّاق وإرثه خوفًا من مقتحم جديد وشريك آخر، توحَّد الجميع بلا سابق اتفاق، وكأن المال الذي فرَّقهم عاد يجمَّعهم، وظهروا جميعًا على قلب واحد.

استمر الاجتماع لفترة تزيد عن الساعة والنصف، لم يتوقف أحد عن الحديث حتى حين أذَّن المؤذن لصلاة العشاء، واتفق الجميع على أن ليلى تلعب لعبة خطرة، وأجمعوا على اقتراح فردوس التي أشارت عليهم بأن ليلى تعلم خوفهم من الفضيحة، وأن كل ما تريده هو بعض المال. اقترحت أن تقوم هي تحديدًا بمفاوضتها وأن النساء للنساء، واستشهدت في سياق كلامها بالمثل القائل: "ما يجيبها إلا نسوانها". ارتاح جبل كثيرًا لهذا الاقتراح؛ إذ إنه لن يغلق باب ليلى فقط، بل إن فردوس سوف تقوم نيابة عن الجميع وتتكفل بعناء المفاوضات التي ستشرع بها مع ليلى. قبل أن ينتهي الاجتماع طلبت فردوس من الجميع أن يتعهدوا بدفع أي مبلغ تتطلبه المفاوضات وأنها لا تريد أن تعود إليهم لتستأذن في صرف مبلغ معين، وقاطعها جبل قائلًا:

- بس وشلون نوافق على مبلغ ما نعرفه؟

- أنت مالك إلا أنهي الموضوع، المهم أن المبلغ يكون مقتطع بالنسب الشرعية من الورثة.

- بس يا فردوس لازم نحط سقف لمبلغ التفاوض، يعني مثلًا مائتين ألف.

- مائتين ألف وش تسوي يا جبل؟ قل مائتين ألف على كل واحد، يمكن...

- لا، لا يا فردوس هذا واجد!

- أنـت تبـي الموضـوع يطـوّل؟ وش يضمنـك أن ابن مسـبط ولا صبحـي مـا يشـهدون معهـا؟ وبعدين عاد تحتـاج تروح تفاوضهم وتدفع لهم كلهم!

- بس يا أم طارق، كم بيكون المبلغ؟

- يكـون اللـي يكـون، مليـون، مليون ونص، اللي هو. بس المهم ينتهـي الموضـوع، ويندفـع مـن الورثـة مثل ما تقسـم الحلال، كل واحد ونسبته.

- أنا موافق، بس المهم تخلصينا من السالفة. (قال طرقي)

- يعني تشوفون كذا؟ (جبل)

- إيه كذا، ومالها حل ثاني. (فردوس)

انتهي الأمر، وانفضَّ الجمع، وأخبرتهم فردوس أنها سوف تطلب من ليلى الحضور للمفاوضات في اليوم التالي، شـريطة أن تجد طريقة تضمن للجميع عدم ابتزازهم مستقبلًا.

كانـت ليلـى مستبشـرةً خيـرًا حيـن أتت فـي صبيحة اليوم التالي إثر مكالمـة فـردوس فـي المسـاء الـذي سـبقه، دخلـت إلى مجلس النسـاء، وتركتها فردوس وحيدة من السـاعة التاسـعة حتى التاسـعة والنصف، لم تُقَدَّم لها قهوة أو ماء. دخلت فردوس بعد التاسـعة والنصف بقليل، لم تتحدَّث، ولم تتقدم باتجاه ليلى التي وقفت للسـلام، جلسـت في ذات المكان الذي كانت تجلس به في الأمس، صمتت وسَحَبَت نَفَسًا وناظرت ليلى عينًا بعين. ارتبكت ليلى وبادرت قائلة:

- كيفك يا أم طارق؟

- الحمد لله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه. (ما زالت تحدِّق بعيني ليلى).

- إن شاء الله خير.

صمتت قليلًا ثم قالت:

- فيه جديد يا أم طارق؟

- بخصوص إيش؟

- بخصوص الموضوع اللي أمس؟

- إييه، ما فيه جديد من ناحيتك، بس الموضوع محسوم.

- كيف يا أم طارق؟ أنا ترا والله معطيتكم شهر، وما توقعت تردون بسرعة !

- لا الموضوع بسيط وما يستاهل أكثر من ساعة، اسمعي يا بنت الناس: حنّا عندنا ملف كامل لك، وكل اللي تقولينه ماله أي شي من الصحة ما غير أن المرحوم اشتراك ليلة واحدة.

- تقصدين تزوجني. (كانت تبستم)

- لا، ما أقصد طبعًا، اسمعي يا بنت الناس: بخصوص الزواج انسي الموضوع، ما عندك أي إثبات، وحتى شهودك ما راح ينفعونك.

- و الطفل يا أم طارق، عبيد الصغير؟

- عبيد الصغير على قولتك ما فيه أحد يضمن صحة كلامك، والمرحوم مش أهبل علشان يورط نفسه معاكي، ما أنتي أول واحدة، ولا فيه أحد طالب بكلامك هذا، المرحوم مش بالسهولة تلعبين عليه.

- بس فحوصات الدم موجودة يا مدام، وممكن تثبت هالشي.

- يعني ممكن تخسرين كل اللي طلبتي فيه، غير أنك راح تدخلين قضية مالها آخر، وشوفي عاد كم راح يسجنونك؟ وغير أننا محنا في أمريكا علشان نعتمد على الدم والطب والكلام الفاضي، فيه شهود وإثباتات وأشياء كثيرة لازم تثبتينها.

- يا مدام، أنا متأكدة من الموضوع زي ما أنتي متأكدة من نسب عيالك كلهم. (قالت هذه الجملة وعادت للخلف ووضعت ساقًا فوق ساق).

- أنت تهددين يعني؟

- يا مدام أم طارق، كوني في مكاني، وش راح تسوين؟

- اسـمعي يا بنت الناس والله يسـتر عليكي: الموضوع مهو في صالحك أبدًا.

- معناها انتهينا، (قامت ليلى من مكانها وبدأت تستعد للخروج) عمومًا أنا بنت ناس، وما راح أرضى أبهذلكم، مهلة الشـهر راح تكون أسبوعين.

- استني، وين رايحة؟ ما خلصنا كلام.

- يا مدام شكله ما عندك كلام ثاني!

- أنا مثل ما قلت لك، أنت مالك أي نصيب في شيء، إذا إحنا بنتعاطف معك فهو علشان الكلام الواجد اللي ماله لزوم والمرحوم في قبره ونداري الفضيحة اللي شكلها ما تهمك. (ناظرت فردوس ليلى من أسفل إلى أعلى بعد أن قالت هذه الجملة).

- أيـوه، يعنـي كيـف بتتعاطفـون معي؟ تعطون ولدي عبيد نصيبه؟ أنا متنازلة عن نصيبي على فكرة.

- لا، هي خمسمائة ألف بس ما في غيرها.

- هاهاي. لا يا قمر، عبيد ما هو رخيص للدرجة هذي، أنا أقل من خمسـة مليون ما راح أقبل (لم تكن ليلى قد جهزت لأي رقم قبل عرض فردوس، لكنها زادت صفرًا واحدًا من دون تفكير مسبق).

- أنت مجنونة، يا بنت الناس الفضيحة أرخص بكثير من كلامك هذا، أصلًا الفضيحة هاتتوزع على الورثة، وبينسوها الناس.

- مدامهـا راح تتـوزع علـى الورثـة كل واحـد يحط شـوية وتصير خمسة مليون.

- هو نص مليون ما فيه غيره.

- يا أم طارق ارفعي، خليكي محضر خير، طيب أقولك: أنا مستعدة أتنازل عن مليون، خليها أربعة مليون.

دامت المفاوضات بين فردوس وليلى ما يزيد عن الساعة، تخللتها وقفات كثيرة من ليلى، وأخرى من فردوس، وتوصلا في آخر الأمر إلى مبلغ: مليونين لعبيد، ونصف مليون لليلى. قبلت فردوس ووافقت ليلى على الهدنة والرقم المالي، لكن فردوس اشترطت حين تستلم الشيك أن توقِّع على أوراق كثيرة حتى تضمن أن لا تعود ليلى لمفاوضتهم على هذا الأمر.

حُسِمَ الأمرُ الذي جمَّع الورثة، واتفق الجميع على موعد التسلُّم والتوقيع بعد يومين. خرجت ليلى من المكان بشعور المنتصر، دعت كثيرًا أن لا يغير ورثة ابن طرَّاق كلامهم. فردوس على الطرف الآخر هاتفت جبل، وطلبت منه أن يجهِّز المبلغ، وأن يكتب صيغَ التعهُّدات والأوراق التي تضمن عدم عودة ليلى للابتزاز مرة أخرى.

فرح جبل كثيرًا بهذا الخبر، حتى وإن آلمته ضخامة المبلغ، تذكَّرَ أن الخطأ كان خطأ والده، وعلم أن إغلاق الموضوع بأسرع وقت فيه من الحكمة الكثير. حين هاتفت فردوس جبل كان يتابع التلفزيون في المجلس منتظرًا ما تسفر عنه المفاوضات. قرر الخروج بعد سماعه الخبر، وفي طريقه إلى سيارته نادى عماد وأعطاه مفتاح الملحق، أمره أن يُبقي صبحي يومين إضافيين في الملحق حتى يغلق موضوع ليلى، وأشار عليه أن يوصل الأكل في الملحق بنفسه لصبحي، وقاد سيارته باتجاه مكتبه. كانت المطربة العراقية ساجدة عبيد تصدح من (السي دي) في سيارته ذلك الصباح.

(55)

الـ. . . طارق

طارق بن عبيد بن طرّاق:

لـم يكـن صباحًـا عاديًّـا ذلـك الصباح، وقبـل أن أبدأ القصَّ عليكم أرجو أن تدركوا باقتناع تام أني كنت مُصِرًّا على ترك بصمتي الخاصة، ولن أقول إن امتناع أبطال الرواية عن الحديث مرة أخرى هو ما جعل الشابين اللطيفين يطلبان منّي قصَّ هذا المشهد، لكني أعتقد أنه ليس ثمة بطل في هذه الرواية باستطاعته قص المشـهد الأخير بمثل جدارتي، أنا ما زلت صغيرًا، وقد أبدو لكم قليل الكلام، لكن لدي قدرة جيدة جدًّا على السرد، وألتقاط التفاصيل، ولديَّ حِسٌّ فكاهيٌّ عالٍ، وأُجيد كذلك لغة الجسد، أقرؤها تمامًا وأفهمها.

نعـود للقصـة: قلـت لكـم إن ذلـك الصباح لـم يكن عاديًّا؛ إذ أفاق الجميـع منـذ السـاعة الثامنـة صباحًا، انتظـارًا للـ(طارق) كما قال الرواة. ليلى عبد الحكيم سمسـماني، أنا طبعًا لا أعرفها ولكني سـمعت اسـمها الثلاثي عن طريق الرواة، وإن قالوا فصدقوهم. ما علينا، لسـت بحاجة لأن أدخـل فـي تفاصيـل المفاوضات الشـاقة لأمـي مع المذكورة، وربما تطعنون في شهادتي المجروحة سلفًا بقدرة أمي على إدارة المفاوضات، لقـد أبدعـت بصـدق. المهـم أن الموضـوع برمتـه قد انتهـى، بلَّغتني أمي مباشرة، وكنت أول من علم بنتيجة المفاوضات قبل جبل، وهذا ما لم يذكـره الـرواة، وبعـد ذلـك هاتفَـت أمي جبل للقيـام بما يلزم، وخلصتُ إلى نتيجة بسيطة، وهي أن أمي هي من يفترض فيها قيادة هذا المنزل،

وليس جبل مع شديد احترامي. جبل يبدو لي أنه رجل مهني جيد، بل وحرفـي أيضًـا، مهارتـه لا تتجـاوز الإنجـاز، لكنه فـي رأيي المتواضع لا يملك من التفكير الحكيم ما يلزم لرسـم الاسـتراتيجيات بعيدة المدى. أعلـم أنكـم تسـمعون كلامـي هـذا وربما تقولون أن شـهادتي مجروحة، لكنه رأيي، ومن المهم حين أكون في هذا المكان أن أقول ما أريد، أن أقوله بكل أريحية وصدق.

خرج جبل من المجلس، وحين كان بصدد إنهاء مكالمته مع والدتي كنت قد وصلت له قادمًا من صالة المنزل، وشاهدت ابتسامته الواسعة وهـو يغلـق هاتفـه. مضـى بسـرعة خـارج المجلس باتجاه سـيارته، نادى على عماد وأعطاه مفتاح الملحق كما قال لكم الرواة. جلستُ في تلك اللحظة بعد خروج جبل أقلِّب القنوات الفضائية من ذات المكان الذي كان يجلـس عليـه والـدي المرحـوم. أتذكر أني توقفت عند قناة رياضية، وشـرعت أتابـع مبـاراة مسـجَّلة حتـى سـمعت صوت عـدوٍ على الرخام الخارجـي، قمـت مـن مكانـي ووقفـت أمـام النافذة أنظـر ماذا يجري في الخارج. رأيت عماد يركض مرة أخرى باتجاه الملحق وأظنه هو من كان يركض في المرة الأولى. بعد ثوان قليلة رأيت زلفي البواب يتبعه ركضًا، دخل الملحق خلف عماد، بقيت ممسكًا بالستار أنتظر عماد وزلفي، ولا أخفـي عليكـم أنـي لـم أكـن أعلم عن قصة سـجن صبحـي في الملحق. بقيت ممسـكًا بالسـتار دقيقة تقريبًا، خرج عماد بعد ذلك من الملحق، ورأيته يبكي وهو يحادث شخصًا ما بالهاتف الجوّال. أقفل عماد هاتفه وجثا على ركبتيه وهو يبكي، تجمَّدت ركبتاي ووقفت هلعًا من الخروج، بقيت ممسكًا بالستار أشاهد ما يحدث بالخارج. خرج زلفي، وقف قرب رأس عماد الذي ما زال يبكي ووضع يده اليسـرى على رأسـه وأخرج هاتفه، تحركت شـفتاه وهو ممسـك بالهاتف، فيما عماد ما زال يبكي. أغلق زلفي هاتفه، وفوجئت بصوت عَدْوٍ على البلاط الخارجي، وصل

كندوس هذه المرة وتبعه بياني. توقَّف كندوس قرب زلفي وشرعوا جميعًا في تحريك أيديهم بعصبية، وقف بياني يتابعهم مشـدوهًا للحظة ودخل بعـد ذلـك إلـى الملحـق. عـاد بيانـي وخـرج بعد مضيٍّ نصـف دقيقة من الملحـق. كان بيانـي يضـع يديـه علـى عينه ويصرخ حتى أن صوت بكائه وصلني في الداخل، إلتفت زلفي إلى بياني الذي بدا شبه منهار وضمَّهُ إلى صدره، وعماد ما زال جاثيا على ركبتيه يبكي. توتَّرت كثيرًا، وبقيت ممسكًا بالستار لا أقوى على التحرك، أظن أن المشهد حتى الآن أستمر مـا يقـارب الدقائـق الخمـس وأنا ممسـك بالسـتارة أنظـر باتجاه الملحق الخارجي، وتحديدًا إلى باب ملحق جبل. فجأةً وصل جبل، رأيته يمشي سريعًا، لم يكن يعدو مثل البقية، وحينئذ فقط تركت الستار ومضيت إلى الخارج، تبعت جبل الذي دخل إلى الملحق، ودخلت خلفه. رأيت جبل واقفًا عند صدر صبحي المضطجع على جانبه الأيمن، كان من الواضح أنـه لا يتنفـس، وطبعًـا أدركـت ذلـك ليس لأن صدره لا يتحرك نزولًا أو صعودًا، ولكن لأن لون وجهه كان شـديد الامتقاع مثل ميت، كان لون وجهه يوحي بأنه قد مات بالفعل منذ ساعات كثيرة. وقفت إلى جانب جبل وتمالكت نفسـي. كان المنظر مريعًا، والوسـاوس والمخاوف التي أكلت رأسي قرب الستار هيَّأتني كثيرًا لمثل هذه الوقفة، بقيت واقفًا فيما جبل يحوقل بصوت مرتفع، التفت إليَّ وقال: "الظاهر أن صبحي عطاك عمره، عماد كلم الإسـعاف وبيجون بعد شـوي". كنت أريد أن أقول له إنه من الواجب أن ننقله حالًا إلى المستشفى ولا ننتظر الإسعاف، ولم أتكلم، بقيت صامتًا مثل أبلهٍ أبكمٍ لمدة دقيقة تقريبًا، وحين خرجت كان الجميع قد توقَّف عن البكاء ما عدا بياني الذي ما زال يبكي مثل طفل. عدت إلى داخل المنزل، وجلست على الأرض قرب مدخل المجلس، انقطعت عن البقية ولم أعد أراقب المشـهد، لا أعلم بعد أيِّ مدة جاء الإسعاف! ولا أدري من الذي قال لي إن الطبيب الشرعي قد كتب في

تقريـره أن صبحـي مـات منـذ سـت سـاعات تقريبًا بعـد أن وجدوه، وإن سـبب موتـه كان طبيعيًّـا ناتجًـا عـن توقـف مفاجئ فـي القلب. لا أتذكر حتى كيف صلينا عليه، ومن الذي نزل معه للقبر، وبعد أي صلاة دفنَّاه، ومن الذي أخبر أبناءه، كل ذلك حدث خلال 24 ساعة.

لكـن مـن المهـم أن أقـول لكـم أنه بالرغم مـن كل تلك الأحداث لم يتناسـى جبل ووالدتي إقفال موضوع ليلى، تمكَّنا من ذلك بالفعل، ووقَّعـت ليلـى علـى إقـرارات وتعهُّـدات كثيرة وقبضت "شـيك" مصدقًا بقيمـة مليونـي ونصـف المليـون ريـال. كان ذلـك في رأيي مـالًا مهدرًا، لكن ماذا أفعل؟ كان هذا أخف الأضرار. بالمناسـبة كنت الوحيد الذي عارض هذا الفعل في يوم الاجتماع الرباعي، لكن ثلاثة أصوات مقابل صوت، لـم تكن كافية. نفَّذ جبل مهمة التسوية التي أعدتها والدتي على أكمل وجه، ودفع طرقي ما عليه وسافر، ولا تسألوني كم ستطول غيبته؛ إذ إنه حتى الآن وهو غائب منذ عشرة أيام، ولا يجرؤ أحد على سؤاله ماذا يفعل في لندن.

أنـا أتحـدث لكـم الآن بعـد مـرور أكثر من سـنة على وفاة والدي، وبعد أن طرأ الكثير من التغيُّرات مذ ذاك. الأمور تبدو شـديدة التعقيد، ومهلـة القاضـي بقـي عليهـا مـا يقارب الشـهرين تقريبًـا، ولا أعلم كيف ستمضي الأمور. هل بإمكان والدتي وجبل وطرقي تجاوز الأمر والصلح فيما بينهم، أم سـيتركون الأمر للشـيخ ابن مسـمار؟ الأمر شـديد التعقيد، ولـم أجرؤ على سؤال والدتي، لكنني سوف أجد الفرصة المناسبة لذلك. في صبيحة هذا اليوم. كدت أسألها وعدلت في اللحظة الأخيرة، وسوف أخبركم لِمَ.

اتصلت والدتي بي وطلبت مني أن آتي لغرفتها، كانت الساعة تشير إلـى الحاديـة عشـرة صباحًـا، دخلت واتجهت صوبهـا، كانت واقفة أمام المرآة، قبَّلت رأسها وهي تحرِّك وجهها يمينًا وشمالًا وكأنها تبحث عن

خالٍ ضائع في وجهها. عدت وجلست على الكرسي الذي خلفها بمسافة ثلاثة أمتار تقريبًا وهي ما زالت واقفة أمام المرآة، لم تتكلم، وبقيت أمام المرآة قليلًا قبل أن تنتقل إلى المرآة الطويلة عن يسار مرآة التسريحة. دارت أمي حول المرآة الطويلة فيما أنا أنتظر ما سوف تقوله لي ولِمَ دعتني. سرت الوساوس مجددًا، كنت أتوقَّع أنها سوف تحادثني عمَّا تنوي فعله قبل الجلسة الختامية. بقيت منتظرًا، كانت أمي تلفُّ إلى جانبها وتنظر إلى (بروفايل) كامل لجسدها على المرآة. لا أخفي عليكم أن بدلة "الترينينج" السماوية كانت ضيقة قليلًا أو هكذا كان يبدو لي، وأظن أن أمي كانت تتأمل جسدها وانحناءاته في المرآة. ما زلت صامتًا حتى قالت: "ما كأني سمنت شوي يا طارق؟ كنت في بيروت أنحف من كذا"، وأجبتها بـ "لا، ما تغيرتي يمه، ما شاء الله عليك محافظة على رشاقتك". لم ترد عليَّ وكأنها لم تسمعني. وَقَفَتْ أمي حينئذ أمام المرآة بشكل مباشر، وضعَتْ يديها خلف عنقها وعدَّلَتْ شعرها قليلًا، أخرجت يديها من خلف شعرها كما يُخرج الساحر أرنبًا من قبعته، حدَّقَتْ قليلًا في المرآة، وضعَتْ أطراف أصابعها فوق خصلات مختلفة من شعرها، وبدأت تحرِّك الخصلات كأنها تندف قطنًا. استدارت أمي مجددًا ولوت عنقها لتنظر في المرآة لشكلها من الخلف، وأنا صامت في الكرسي أنتظر حديثًا آخر، عادت واستدارت مجددًا، تحرَّكَتْ قليلًا صوبَ مرآة التسريحة، أمسَكَتْ بأطراف أصابعها قلم (روج) أحمر وبدأت تخطط شفتيها وتلونهما، توقَّفَتْ بعد ذلك وضمَّتْ شفتيها وأنا أنظر صامتًا. وضعَتْ قلم (الروج) وتأمَّلَتْ نفسَها في المرآة للحظات، ثم التفتَتْ إلَيَّ أخيرًا، تقدَّمَتْ نحوِيْ وجَلَسَتْ على الكرسي الذي بجانبي، وضعَتْ ساقًا فوق ساق وقالت: "اسمع يا طارق يا ولدي، اليوم أبيك تفرغ نفسك بعد صلاة العشاء"، وسألتها: "ليه يمه؟ إن شاء الله خيرا!"، قالت: "انتظر يا ولدي، جايتك في الكلام، فيه اليوم ضيف بيزورنا بعد صلاة العشاء،

أنــت تعـرف صملـول طبعًـا، أبـو خالد" هززت رأسـي بعـد ذلك موافقاً، وواصَلَتْ أمي حديثَها: "أبيك يا ولدي تستقبله مثل رجل لرجل، وترحّب فيه مثل رجل لرجل، وتسمع كلامه كامل مثل رجل لرجل، وتطلب منه مهلة أسـبوع بعد ما يكمّل كلامه". هززت رأسـي محتارًا، وأردفت أمي قائلة: "لا تفشلني يا ولدي يا طارق، رجل لرجل تكفى".

استمعت لحديث والدتي، ولم أُجِب سوى بكلمة "إن شاء الله"، وخرجت بعد ذلك من الغرفة مرتابًا. أنا الآن أحكي لكم ولا أعلم ماذا يريـد هـذا الـذي سـوف يأتـي ويـود محادثتي رجلًا لرجـل، أنتم تعلمون طبعًا أني مرتاب.

أستأذنكم الآن، اقترب أذان العشاء، ولديَّ موعد مع رجل لاحظت أنه كان يلاطفني مثل طفل منذ رأيته في بيروت، وعليه الآن أن يعاملني مثل رجل، وأنا منذ ذلك الحين لدي شكوك، أشعرُ أني مرتابٌ جدًّا.

ديسمبر 2009 – يناير 2011

الظهران

ابن طرّاق

رواية

ketab.me

محمد السماري
بدر السماري

• روائيان من السعودية

لم يكن ابن طرّاق يتخيل أن يخذله جسده الذي يعوِّل عليه كثيرًا، «هذي آخرتها». رددها كثيرًا في نفسه، وكأنه كان يعاتب جسده ويديه اللتين كلما حاول أن يرفع إحداهما هبطت كأنها خرقة قماش بالية. يديه اللتين لطالما فجرتا كنوز الأرض له، يديه اللتين بنتا مَجدَه. أخذ ابن طرّاق ينظر إلى صبحي بعمق وكأنما يعدّ خطوط التجاعيد في وجهه، بينما كان صبحي يبكي ويردد:

– ما تخفش يا عم، بسيطة إن شاء الله.

أخذت الغرفة تضيق في عيني ابن طرّاق. ما زال الطبيب يحاول جاهدًا التواصل مع أقرب مستشفى حكومي من دون جدوى، لا أحد يجيب على الهاتف. بدا لابن طرّاق شريط حياته يمر أمام عينيه بسرعة، وتوقف كثيرًا عند كلام الفاجر الذي قال له ذات يوم: «ستموت ككلب أضاعه أهله في الصحراء». كانت تلك الجملة تطرق أذنيه كجرسٍ صباحًا ومساءً.

استجمع ابن طرّاق ما تبقى من قوته، ونزع كمامة الأكسجين، وبدأ يتشهّد، بيد أن صبحي شرع في أنين خافت يثقب القلب.

صورة الغلاف: مصلح جميل
www.mjameel.net

تصميم الغلاف: سامح خلف

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

أثر
أثر للنشر والتوزيع

ISBN 978-614-01-0297-2
9 786140 102972